الأستاذ الدكتور
محمد حسن عبد العزيز
أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
عضو مجمع اللغة العربية

علم اللغة الحديث

علاقته بالعلوم الاجتماعية - علاقته بالدراسات التطبيقية

علم اللغة الوصفي - التاريخي - المقارن - الجغرافيا اللغوية - الفيلولوجيا

التحليل اللغوي : مستوياته ومناهجه

تاريخ البحث اللغوي : العصور القديمة - العصر الوسيط - العرب - العصر الحديث

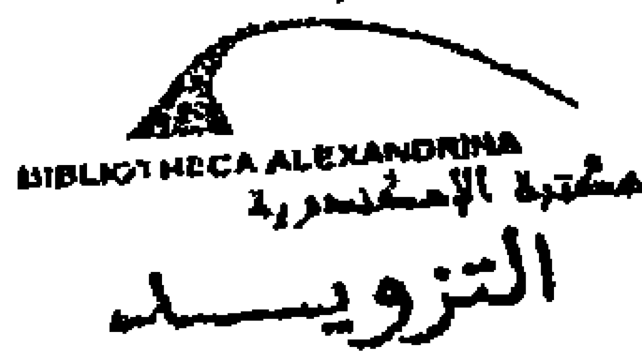
القرن العشرون : دي سوسير - بلومفيلد - فيرث - تشومسكي .

التداولية - علم لغة النص

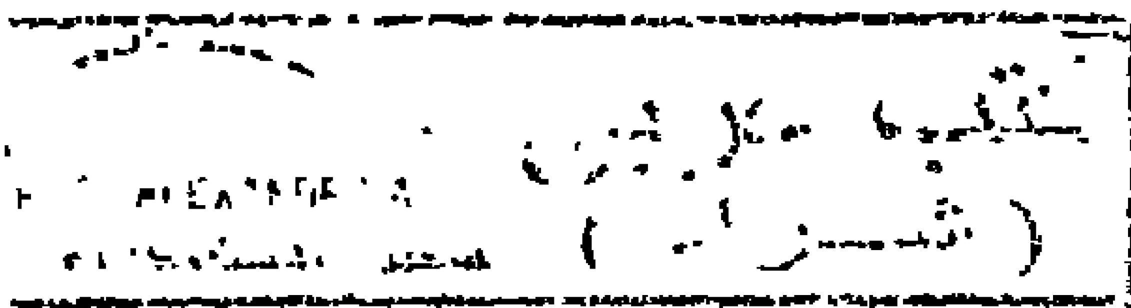
Editions Al-Adab 1923
42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

عِلْمُ اللُّغَةِ الحديث



دكتور
محمد حسن عبد العزيز
أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة
عضو مجمع اللغة العربية



مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة . ☎ : ٢٣٩٠٠٨٦٨
e.mail:adabook@hotmail.com



الناشر

مكتبة الآداب
علي حسن

الطبعة الأولى : ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عبد العزيز ، محمد حسن
علم اللغة الحديث/ محمد حسن عبد العزيز
ط١.- القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠١١.
ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ٢ ٣٨٠ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - اللغة العربية
٢ - اللغة العربية - النحو
أ - العنوان
٤١٠

عنوان الكتاب: علم اللغة الحديث
تأليف: د. محمد حسن عبد العزيز
رقم الإيداع: ١٩٢٦٥ لسنة ٢٠١١م
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978 – 977 – 468 - 380 – 2

مكتبة الآداب
علي حسن
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
هاتف: ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)—
e-mail: adabook@hotmail. com

إهـــداء

إلى الدكتور علي عبد الواحد وافي أول من ألـف كتابًـا في (علـم اللغة) ١٩٣٨م، وإلى الدكتور إبراهيم أنيس أول من مهـد الطريـق لعلم اللغة في دراسة العربية..

إليهما -وهما في جوار الله- أهدي هذا الكتاب وفاء بحقهما عليّ وعلى غيري من اللغويين.

من (المدخل) إلى (علم اللغة الحديث)

كلمة لا بد منها

صدر كتابي (مدخل إلى علم اللغة) منذ أكثر من ربع قرن، وفي هذه الأثناء كنت أعيد نشره مستنسخًا من أصله، وبهذه الطريقة نُشر عشر مرات.

وفي أثناء تدريسه لطلابي طوال هذه الفترة كانت تتوارد على عقلي أفكار وملاحظات عديدة، كنت أقيِّدها على أمل الرجوع إليها، وجاءتني من زملاء درسوه في مصر وفي بعض البلاد العربية ملاحظات أيضا.

وفي كل عام أفكر في إعادة نشره، ولاستكمال ما وعدت به في نشرته الأولى من الكتابة عن المناهج اللغوية الحديثة وبخاصة مدرسة تشومسكي، فتستهلكني المشاغل سنة وراء سنة مع تنامي الإحساس بالتقصير.

ولكني جمعت نفسي هذا العام، وعكفت على مراجعته على ضوء ما سبق تقييده وملاحظته، وبدأت عملًا مضنيًا في هذه المراجعة بل في إعادة كتابته؛ أبقيت على بعض ما فيه، وعدلت بعضًا آخر، وأضفت إليه مباحث لم تكن موجودة، وعُنيت كذلك بتيسير عرض مباحثه فعنونت ما يضمه كل مبحث من أفكار فرعية.

ومما أضفته - وكنت قد وعدت بذلك في نشرته الأولى -: مبحث عن (التحليل اللغوي عند تشومسكي)، وقد ضممت هذا المبحث إلى باب (التحليل اللغوي)، ومبحث ثانٍ عن (المدرسة التوليدية التحويلية) وضممته إلى مباحث الباب الخامس عن (تاريخ علم اللغة).

وقد وجدت من الضروري أن أتوسع في موضوع التحليل اللغوي عند البنيويين، فأضفت مبحثًا عن (المكونات المباشرة) والبحث فيها من الإجراءات المقررة في عملية التحليل، وقد استفاد منها واعتمدها تشومسكي.

كما أضفت مبحثًا عن التطورات الجديدة في الترجمة الآلية، وقدمت لذلك مثالًا لـنص إنجليـزي مترجم إلى العربية، وما حدث في ترجمته من تطورات، وأجريت تقييمًا لهذا الإنجاز وما يتطلبه من تدخل الإنسان في مراجعته.

ثم إنني أضفت مبحثين عن (التداولية) و(علم لغة النص) وأضفتهما إلى باب (تاريخ علم اللغـة) وبذلك أصبح هذا الباب يضم أهم التطورات الحديثة في مجال علم اللغة.

ونظرت في الكتاب بعد ما أجريته من تعديلات وأضفت إليه من مباحث، فإذا بي أكتـشف أنـه لم يعد (مدخلا) بل أصبح في (علم اللغة الحديث).

وأدعو الله أن أكون قد وُفِّقت فيما فعلت، وأن يكون أصلًا للباحثين في علم اللغة، وأن يجدوا فيه ما يبتغون.

د. محمد حسن عبد العزيز

رمضان الكريم ١٤٣٢، أغسطس ٢٠١١

المقدمة

يجتمع علماء اللغة المحدثون - حين يريدون التعريف بعلم اللغة - على أنه الدراسة العلمية للغة، يعنون بذلك استخدام المناهج العلمية في دراستها، وقد كان هدفهم من ذلك أن يجعلوا دراسة اللغة عملا دقيقا منظما على النحو الذي تحقق في دراسة العلوم.

ولكي تكون الدراسة علمية ينبغي أن تتوفر فيها سمات ضرورية هي: الوضوح، والدقة، والنظامية، والموضوعية، والشمول، واليقين.

واللغة ظاهرة على جانب كبير من التعقيد، فالعناصر أو الوحدات التي تؤلف نسيجها تنتظم منها صور أو أشكال لغوية لا حصر لها حتى ليبدو من المستحيل أن نصل إلى أية نتائج صحيحة من فحصها إلا إذا درست بمنهج على درجة عالية من التنظيم.

لا مندوحة إذًا من منهج يساعدنا على اكتشاف النظام الذي يحكم اللغة، وعلى وضع النظرية التي تفسر الطريقة التي يعمل بها هذا النظام، هذا المنهج يعتمد على الأسس الآتية: تحديد موضوع الدراسة تحديدا دقيقًا، وملاحظة الظواهر المدروسة ملاحظة مباشرة، وترتيب الملاحظات بشكل يكشف عن أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها، ووضع الفروض التي تفسر الظواهر المماثلة للظواهر المدروسة واختبارها بإجراء التجارب، ثم وضع القاعدة التي تنطبق على الظواهر المماثلة للظواهر المدروسة.

وكنت قد انتويت الوقوف في معالجة موضوعات هذا الكتاب عند منتصف الستينات من هذا القرن، إذ ظهر بعد هذا التاريخ اتجاه لغوي جديد تمثلت بدايته في كتاب (تشومسكي) Syntactic Structure الذي ظهر عام ١٩٥٧م، بيد أنني اضطررت اضطرارا إلى التعرض لهذا المنهج الذي يعرف بالنحو التوليدي التحويلي عند الحديث عن (السمات الضرورية للدراسة العلمية) فأوجزت القول في النزاع الذي نشب بين أنصار هذا المنهج وأنصار المنهج التجريبي. ذلك أن المنهج التجريبي لاعتماده على الملاحظة المباشرة وإجراء التجارب للتحقق من صحة الفروض لا يعتمد على

الاستنتاجات العقلية التي لا تخضع لها، على حين يعتد المنهج التحويلي بهذه الاستنتاجات، ويصرح (تشومسكي) بأن هدف علم اللغة هو دراسة الملكة أو الفطرة اللغوية، والسبيل إلى هذه الدراسة هو الحدس، والحدس -كما هو معروف- لا يعد وسيلة من وسائل المعرفة عند أصحاب المنهج التجريبي.

وكان من آثار هذا النزاع أن ظهرت محاولات لإزالة التعارض بين المنهجين، واقترحت طرق أو وسائل تصبح بمقتضاها الملاحظة والتجربة ممكنتين.

ويجتمع العلماء كذلك على أن علم اللغة بالمفهوم السابق الذي يميزه عن البحوث اللغوية التقليدية التي كانت سائدة قبل استخدامه علم حديث النشأة جدا، إذ أرسى دعائمه العالم السويسري الشهير (دى سوسير ١٨٥٧-١٩١٣) بيد أن هذا لا يعنى أن البحث في اللغة بدأ فحسب منذ ذلك التاريخ، أو أن الناس قديما لم ينظروا في اللغة ولم يدرسوها، إن تاريخ البحث في اللغة قديم جدا يعود به بعض المؤرخين إلى اكتشاف أول نظام كتابي في الحضارة المصرية والسومرية. ويكشف هذا التاريخ عن العلاقة الوثيقة التي ربطت البحث اللغوي بالاتجاهات الفكرية والاجتماعية السائدة، لقد نشأ البحث في اللغة عند الهنود للمحافظة على (الفيدا) كتابهم المقدس، ونشأ عند الإغريق متأثرا بفلسفتهم، ونشأ عند العرب للمحافظة على القرآن الكريم، وبانبثاق عصر النهضة أسدل الستار على منطق أرسطو الذي كان قد سيطر على البحث اللغوي لفترة طويلة، وظهرت العلوم التجريبية، وتسابق علماء اللغة للاستفادة من هذه العلوم والانتفاع بمناهجها، لقد نبعت أفكار (شلايشر) في أن اللغة جهاز عضوي من نظرية (دارون) وكان النحويون الشبان حريصين أشد الحرص على أن يصلوا الدراسة اللغوية بالعلوم الطبيعية، ويجعلوا للتغيير اللغوي قوانين ثابتة ثبات القوانين الطبيعية، وقد انتفع (دى سوسير) بعلم الاجتماع، واصطنع المنهج الذي حدد (دور كايم) خطوطه لدراسة الظواهر الاجتماعية. وكان (بلومفيد) متأثرًا بالمنهج السلوكي في علم النفس الذي جاء به (واطسن).. إلخ.

ومن الواضح كذلك أن لغويي القرن التاسع عشر وجهوا اهتمامهم إلى البحوث التاريخية والمقارنة، ثم جاء(دى سوسير) في مطلع القرن العشرين فوجه الاهتمام إلى دراسة اللغات الحية، وحدد للباحثين المنهج الذي ينبغي استخدامه في دراستها وهو ما يعرف الآن بالمنهج الوصفي، ويفضل هذا التوجيه

تنوعت البحوث اللغوية وتوجهت وجهات مختلفة من أكثرها انتشارا اليوم البحوث التي تدرس علاقة اللغة بالمجتمع، وتنوع الأنماط اللغوية بتنوع طبقاته، وهو موضوع علم من العلوم اللغوية يعرف بعلم اللغة الاجتماعي، والبحوث التي تدرس علاقة اللغة بموضوع الكلام وهو ما يعرف بعلم الأسلوب، وبتطور وسائل الاتصال ظهر الاهتمام العام باللغة وبدورها في المجتمعات المعاصرة، ومن ثم ظهر ما يعرف بعلم اللغة التطبيقي الذي من أهم مجالاته: تعليم اللغات الأجنبية وعمل المعاجم والترجمة الآلية.

وبعدُ فقد حاولت في هذا الكتاب أن أضع أمام الباحثين القدر الضروري من المعارف اللغوية الذي ينبغي عليهم أن يبدؤوا به إذا ما أرادوا التخصص في علم اللغة. ولهذا عنيت بالحديث عما يسهم في تحقيق هذا الهدف فتكلمت عن السمات الضرورية للدراسة العلمية، وحددت علاقة علم اللغة بالعلوم وبخاصة العلوم الاجتماعية، وبالبحوث التطبيقية وبخاصة ما يتصل بتعليم اللغات الأجنبية، ثم تكلمت عن علوم اللغة كعلم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن وعلم اللهجات، وعن مستويات التحليل اللغوي عارضا بالتفصيل أحد المناهج المقترحة في التحليل والذي يقوم على بيان الوحدات اللغوية وتحديدها وفقا لصفاتها التركيبية والتوزيعية والوظيفية، وفي النهاية أوجزت القول في تاريخ البحث اللغوي، فبدأت بالحديث عن الهنود الذين ظهر عندهم أول تفكير لغوى قائم على أساس الملاحظة، وانتهيت بالحديث عن اللغوي الإنجليزي (فيرث). أما الاتجاهات اللغوية المعاصرة وعلى رأسها ما يعرف بالنحو التوليدي التحويلي فتحتاج إلى كتاب آخر.

هذا وقد رأيت من الضروري أن يبدأ الكتاب بمبحث تمهيدي في خصائص اللغة موضوع البحث في علم اللغة، وقد اعتمدت في ذلك على ما ذكرته في الباب الأول من كتابي (مدخل إلى اللغة) الذي ظهر في العام الماضي ١٩٨٢.

وإني لأحس بأن الباحث العربي المعاصر يتنازع وجدانه أمران: الوفاء للمناهج التقليدية التي ما زالت سائدة حتى اليوم، والحماس للمناهج العلمية الحديثة التي تجد طريقها إلى الناس على استحياء. ولعل هذا ما دفعني دفعا إلى تأليف هذا الكتاب وإلى العناية بالحديث عن المنهج العلمي الذي ينبغي استخدامه في الدارسة والذي يختلف في بعض أصوله عن المنهج التقليدي. ولا نحب أن يفهم الناس من

إيثارنا المنهج الحديث في الدراسة أننا نرفض المنهج التقليدي، ليس هذا صحيحا أبدا، إننا نرفض من هذا المنهج ما يتعارض مع أصول المنهج العلمي ونقبل ما يوافق هذه الأصول.

وبعد فقد أخلصنا النية لما نعتقد أنه صواب، وبذلنا غاية ما نستطيع لكي يضيف هذا الكتاب جديدا إلى ما يعرفه الباحثون في علم اللغة، فان كان ذلك فالله الموفق، وإن لم يكن فحسبي إخلاص النية وبذل غاية الجهد.

د. محمد حسن عبد العزيز

١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م

مبحث تمهيدي في خصائص اللغة

اللغة ظاهرة إنسانية:

قال الفلاسفة قديما الإنسان حيوان ناطق، يعنون بذلك أنه وحده القادر على وضع أفكاره في ألفاظ،ويكاد يجتمع الباحثون على أن التفكير واللغة عند الإنسان لا ينفصلان، إذ لا يستطيع الإنسان تخيل فكرة بمعزل عن الألفاظ التي تصورها، ولن يكون الفكر المجرد عن الألفاظ - إذا أردنا الدقة - فكرا بأي مقياس.

حقا إن الحيوانات - وبخاصة الراقية منها - يتصل بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض بالصياح أو بالإشارات أو بغير ذلك من الوسائل ولكن هذه الوسائل تختلف اختلافا نوعيا عن اللغة الإنسانية، كما أن الإنسان يختلف نوعيا عن الحيوان، فلم يكن الإنسان يوما حيوانا، ولن يُقَدَّر للحيوان - مهما طال الزمن وعاش في بيئة إنسانية - أن يكون إنسانا، فليس الإنسان درجة في سلم تطور الكائنات الحية، وليست لغته درجة في سلم التطور في وسائل الاتصال.

ولقد كان يُعْتَقَد إلى عهد قريب أن اختصاص الإنسان باللغة يرجع إلى درجة ذكائه العالية التي تفوق درجة ذكاء الحيوان وظُنَّ أن ذلك راجع إلى نسبة وزن دماغه إلى وزن جسمه، وإلى كبر المكان المخصص للتلافيف التي يُعتقد أنها مركز الكلام، وقد تقدمت البحوث التي تدور في هذا المجال تقدما باهرا، وتؤكد هذه البحوث أن المنطقة اليسرى من المخ الإنساني تضم مراكز معينة لإنتاج الكلام واستقباله وتفسيره لا نظير لها عند الحيوانات، أضف إلى ذلك أن ما يطلق عليه (أعضاء النطق) عند الإنسان - وإن كانت لها وظائف ضرورية أكثرُ من النطق - مهيَّأةٌ لإنتاج أصوات الكلام، وليس كذلك الحال بالنسبة لنظائرها عند بعض الحيوانات.

وقد عقد الباحثون في ميدان الأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم اللغة مقارنة شاملة بين ما تستخدمه بعض الحيوانات من أشكال للاتصال بأفراد نوعها واللغة الإنسانية، ومن أهم ما انتهوا إليه في ذلك.

- الأشكال التي تستخدمها الحيوانات في الاتصال محدودة للغاية كما أنها محصورة في إطار ضيق من الغرائز والرغبات، أما اللغة الإنسانية فتبلغ أشكالها حدا لا يمكن حصره، وتتسع مضامينها حتى تشمل كل تجارب الإنسان ومعارفه.

- الأصوات أو الإشارات عند الحيوان رد فعل مباشر لما يحسه أو يتعرض له في بيئته، أما الرموز التي يستخدمها الإنسان فليس بينها وبين ما تدل عليه علاقةٌ مباشرة، ولو كانت كذلك لكان للبشر جميعا لغةٌ واحدة، وهذا معناه أن الرمز عند الإنسان ينفصل عن المرموز (أو ما يشير إليه) أما الصوت أو الإشارة عند الحيوان فلا يمكن أن تنفصل أبدا عما تدل عليه.

- أن صيحات الحيوان لا تتضمن وحدات شبيهة بالوحدات التي تتألف منها لغة الإنسان، وتفتقر إلى التأليف أو التركيب الذي توصف به، والذي يجعل الإنسان قادرا على تقسيم أي منطوق إنساني إلى أجزاء أو وحدات.

- لدى الإنسان مقدرة هائلة على الخلق والابتكار، أي خلق جمل جديدة وفقا للمواقف المناسبة، إنه يستطيع مثلا أن يؤلف جملا لم يستخدمها من قبل، وأن يفهم جملا لم يسمعها من قبل، أما الحيوان فعدد الأصوات التي يمكنه إنتاجها محدود، وليس لديه القدرةُ على تنويعها.

- يستخدم الإنسان لغته وفقا لقواعد صوتية وصرفية ونحوية معقدة متعارف عليها بين أفراد جماعته وفقا للمواقف المتعددة، وليس له أن يخرج عليها بحال من الأحوال، وبهذا الشكل ترتبط لغة الفرد بالجماعة وتتنوع تنوعا عظيما بفعل عامل المكان والزمان، أما سلوك الحيوان الاتصالي فيكاد يكون ثابتا، إذ لا يملك القدرة على تطويره.

- لغة الإنسان مكتسبة يتلقاها الأبناء من الآباء، أما سلوك الحيوان الاتصالي فليس محصلة تعليم أو اكتساب بل هو سلوك غرزي يتوارثه أفراد النوع كما يتوارثون أنواع السلوك الأخرى.

- يستطيع الإنسان أن يعمم اللفظ الذي يستخدمه في الإشارة إلى أشياء متشابهة، فكلمة (حقيبة) مثلا تشير إلى كل أنواع الحقائب. فإذا ما أراد التخصيص أضاف إلى هذه الكلمة رموزًا لغوية أخرى تحدد المقصود وتعزله عما سواه مما يشبهه فيقال مثلا (حقيبتي - حقيبة المدرسة) أما الحيوان فلم يتبين من

سلوكه ما يشير إلى هذه المقدرة أو تلك.

- يستخدم الإنسان اللغة للإشارة إلى أشياء أو أحداث بعيدة عن المتكلم زمانا ومكانا، إنه يستطيع مثلا أن يستحضر تجارب حدثت في مكان بعيد ومن زمان بعيد، كما أنه يستطيع أن يتحدث عن تجارب أو أحداث متوقعة لم تحدث بعد، بل إنه ليستطيع أن يحكى تجارب غيره، وهذه كلها قدرات لا يستطيعها الحيوان.

- وهكذا يبدو لنا من كل ما سبق أن الإنسان مُهَيَّأ بيولوجيا وعقليا للكلام، كما أن لغته تختلف اختلافا نوعيا عن أدوات الاتصال عند الحيوان.

اللغة مكتسبة:

لقد كان يُعتقد حتى عهد قريب جدا أن الطفل يكتسب لغته بتقليد الكبار، وأنه يخضع لتدريب متواصل، وأنه يستخدم اللغة بتأثير التشجيع الذي يلقاه ممن يحيطون به. وهذه عوامل لها تأثيرها ولا شك، ولكنها لا تكفي لتفسير اكتساب نظام لغوى كامل على درجة عالية من التعقيد والتشابك.

لقد أكدت البحوث الحديثة أن الإنسان يولد مزودا بملكة تعينه على اكتساب اللغة كاملة في مرحلة وجيزة لا تتجاوز الخامسة من عمره إلا في حال مرض أو عزلة عن البشر، هذه الملكة تهيئه لتلقي لغة معينة في المجتمع الذي يُقَدَّر له أن يعيش فيه، فإن عاش في مجتمع عربي تكلم العربية، وإن عاش في مجتمع إنجليزي تكلم الإنجليزية.. وهكذا فالملكة إذًا ليست خاصة بلغة بعينها.

إن الطفل - كما تؤكد هذه البحوث - عامل إيجابي في الاكتساب، إنه يستخرج مما يسمع أبسطَ القواعد وأكثرها عموما، قواعد تناسب المرحلة اللغوية التي يمر بها، ومن ثم فلا أحد يعلمه هذه القواعد.

وليس اكتساب اللغة إلا تطورا طبيعيا يمر به كل طفل، ولا علاقة له بالذكاء، فالطفل الذكي والغبي على سواء في اكتساب نظام لغوى كامل، ولا يكتسب الطفل قواعد لغته فحسب، بل يتلقى كذلك قواعد السلوك الاجتماعي المصاحبة لهذا النشاط اللغوي، واكتساب اللغة عملية نمو تدوم ما دامت الحياة في البيت أو في المدرسة أو في الجامعة أو في العمل. ويكتسب الطفل لغة مجتمعة على مراحل

متدرجة، ولا علاقة لهذا التدرج بجنس معين أو بلغة معينة، فأطفال العالم جميعا يمرون بنفس المراحل تقريبا.

اللغة أصوات:

اللغة منطوقة أساسا، أما الكتابة فثانوية، لقد تعلمنا جميعا الكلام قبل الكتابة، وإذا استعرضنا تاريخ الجنس البشري وجدنا ما يؤكد هذا، لقد وجدت مجتمعات بدائية لها لغات لا تكتب، ولكننا لا نعرف حتى الآن مجتمعا له لغة مكتوبة لا تنطق.

والأصوات، وهي مادة اللغة الإنسانية، لها جوانب ثلاثة: جانب إصدار هذه الأصوات، ويتمثل فيما تقوم به أعضاء النطق من حركات لإنتاجها. وجانب انتقال هذه الأصوات، ويتمثل في الموجات الصوتية التي تنتشر في الهواء نتيجة لما تقوم به أعضاء النطق من حركات، وجانب استقبال الأصوات، ويمتد هذا الجانب من اللحظة التي تستقبل فيها طبلة الأذن الذبذبات الصوتية التي تحدثها في أجزاء الأذن المختلفة إلى أن تنتقل عن طريق الأعصاب إلى المخ.

وأصوات الكلام تنقسم إلى قسمين رئيسيين: الصوامت والحركات وينبني هذا التقسيم على مجموعة من الأسس أهمها: أوضاع الوترين الصوتيين، وطريق مرور الهواء من خلال أعضاء النطق ثم بحسب مواضع النطق أو مخارجه.

والصامت باعتبار وضع الوترين إما مجهور يتذبذب الوتران معه، أو مهموس لا يتذبذب الوتران معه. وباعتبار حالة مجرى الهواء إما انفجاري أو احتكاكي أو متوسط أو مركب، وباعتبار مخرج الصوت إما شفوي أو شفوي أسناني أو أسناني لثوي.. الخ.

ولكي يكون الصوت وحدة من وحدات اللغة لابد أن يختلف عن أي صوت آخر في صفة –على الأقل– من الصفات التي تحددها الاعتبارات السابقة، وفي العربية ثنائيات تتشابه في ثلاث من الصفات وفقا لهذه الاعتبارات كالتاء والطاء، والدال والضاد.. إلخ. ولكنها تتمايز بصفة أخرى باعتبار التفخيم أو الترقيق. أما الحركات فكلها مجهورة وتتحدد صفاتها الأخرى بوضع اللسان والشفتين.

اللغة نظام:

في كل لغة من لغات البشر نظام صوتي ونظام صرفي ونظام نحوي وقائمة من المفردات تـضم مـا تستخدمه الجماعة اللغوية من كلمات.

وكل نظام من هذه الأنظمة له وحداته الخاصة وله قواعده في تأليفها، يمكننـا التعـرف عـلى هـذه الوحدات وملاحظة الصور المسموح بها وغير المسموح بها من التراكيب على كل المستويات الـسابقة، ولهذا قيل إن اللغة هي نظام من الأنظمة، فكل نظام من أنظمتها يعمل مع غيره في نفس الوقت، ولكننا نستطيع – مع ذلك – أن نميز من أجل التحليل فحسب وحدات كل نظـام منهـا، وقواعـد التركيـب المعروفة عنه.

أما النظام الصوتي فوحداته هي (الفونيمات) أو الحروف، وهي أصغر وحـدات اللغـة، وعـددها محدود في اللغات المعروفة لنا، تتراوح بين الثلاثين والستين، على الرغم من أن جهـاز النطـق يمكنـه أن ينطق عددا أكبر من الأصوات، وأن الوحدة الصوتية الواحدة قد تنطق بصورة مختلفة في سياقات مختلفة أو في لهجات اللغة الواحدة المختلفة، فالنون مثلا من وحدات النظام الصوتي للعربية يختلف نطقها وفقا لما يسبقها من أصوات، ولتجرب معي نطق هذه الكلمات لتتحقق من ذلك: أنياب، أنفال، أنباء،... الخ، والجيم كذلك من وحدات العربية ينطقها المصريون بطريقة والسوريون بطريقة أخرى.

والوحدة الصوتية أو الفونيم لا معنى لها، وإن كان لها دور في المعنى، فالباء من (باب) مثلا لا معنى لها، ولكن الكلمة السابقة لا تعنى شيئا إذا حذفت منها، والدور الذي تقوم به هو التمييز والتفريـق بـين الكلمات، ونتبين هذا الدور بوضوح حين نحذف وحدة من الكلمات أو نضيف وحدة إليهـا، إذ ينبنـي على ذلك إما تغير في المعنى أو فقدانها له.

والوحدات الصوتية أو الفونيمات هي المادة التي تتألف منها وحـدات النظـام الـصرفي، ووحـدة النظام الصرفي هي (المورفيمات) التي قد تكون من وحدة صوتية واحدة كتاء التأنيـث في العربيـة، وقـد تكون من أكثر من وحدة صوتية كالكلمة (كتاب)، وللمورفيم معنى على خلاف الفونيم، ولهذا قيل في تعريفه: أصغر وحدة ذات معنى في بناء اللغة، وقد يكون المورفيم مقيدا إذا لم يصح وقوعه منفـردا كتـاء

التأنيث في (قامتْ)، إذ لا تأتي وحدها في الكلام العربي، وقد يكون حرا كالفعل (قام) إذ تـأتى وحـدها فيقال (قام محمد). والمورفيم الحر هو ما يطلق عليه الكلمة، وتختلف اللغات فيما بينها في الطرق التي تَبنى بها مورفيماتها حرةً أو مقيدةً، فمنها اللغات الاشتقاقية التي تستخدم التغيرات الداخلية في بنيـة الكلمـة، ومنها اللغات اللصقية التي تستخدم السوابق واللواحق، وثمة طرق أخرى للبناء.

وتستخدم وحدات النظام الصرفي من المورفيمات لتأليف النظام النحوي الـذي قوامـه العبـارات والجمل، والدراسة النحوية قائمة على أساس الوحدات التي تتألف منها العبارة أو الجملـة، كـأن يقـال مثلا إن الجملة (قام محمد) تتألف من فعل + اسم، وعلى أساس العلاقات المتبادلة بين هذه الوحدات.

هذه العلاقات قد تكون أفقية أي علاقة الوحدة بما يجاورها في السياق كـأن يقـال مـثلا إن (قـام) مسند و(محمد) مسند إليه، ويتفرع عن هذه العلاقة بعض العلاقات كالتضام والمطابقة والإعراب، وقد تكون العلاقة رأسية وتقوم على أساس أن أشكالا لغوية محددة تشترك في خواص معينة يصح أن تشغل موقعا معينا، فيصح أن يقال مثلا: رجل أو الرجل أو هذا الرجل في الموقع التي تشغله الكلمة (محمد) في الجملة السابقة.

ولكل لغة من لغات البشر عدد من المفردات يشكل معجمها الخاص، وهـو صـورة تمثـل ثقافـة الشعب الذي يتكلم بهذه اللغة، وكل اللغات لديها من المفردات ما يكفيها في التعبير عـن حاجاتهـا وفي التفاهم والتعاون المشتركين بين أفرادها.

اللغة رموز:

لقد قلنا إن الأصوات هي مادة اللغة، هذه الأصوات رموز أي بدائل تستخدم في الإشارة إلى أشياء ليست هي الأصوات ذاتها، وليس ثمة علاقة ضرورية بين الأصوات وما تشير إليه، فليس ثمة علاقـة مباشرة بين المنطوق (قلم) والشيء المشار إليه به وهو القلم ذاته، والرموز التي يستخدمها الإنسان كثيرة (فالألوان رموز والحركات رموز والأعلام رموز.. الخ) غير أن الرموز اللغوية منطوقةً أو مرسومة هي أغنى الأنظمة الرمزية وأكثرها إيجازا.

وللرمز اللغوي صفات هي:

- يتطلب الرمز وجود مرسل يهدف إلى الإخبار بشيء ومستقبل يتلقى الرسالة.
- العلاقة بين الرمز والمرموز علاقة اعتباطية (غير مباشرة).
- يتطلب الرمز قصدًا من المرسل، ووعيًا باستخدام الرمز وسيلة لتحقيق مراده.
- لا يمثل الرمزُ الشيءَ الذي يشير إليه، بل يعنى شيئا غير ذاته، ولهذا يحتاج إلى تفسير.
- والربط بين الرمز والمشار إليه يتحقق عن طريق الخبرة المتكررة في الطفولة عند اكتساب اللغة أو في مراحل النمو اللغوي فيما بعد.

اللغة عرفية:

العلاقة بين اللفظ وما يشير إليه علاقة عرفية لا ضرورية، لقد حدث في وقت ما أن اختير لفظ معين في جماعة معينة ليشير إلى شيء أو فكرة، وقد كان من الممكن أن تختار الجماعة لفظا آخر لنفس الشيء أو الفكرة، وليست اللغة كلمات فحسب، فكل وحدة من وحداتها لها علاقة واضحة بغيرها من الوحدات، وتستخدم هذه الوحدات وفقا لنظام متفق عليه بين المتحدثين بهذه اللغة، إن اللغة بناء على هذا ونتيجة لهذا الاتفاق عرفيةٌ.

إن هذا الاتفاق ليس عملا صريحا أو واضحا فلم يجتمع الناس مثلا في مؤتمر ليتفقوا على استخدام كلمة أو جملة، إنه فحسب اتفاق في السلوك والعمل. إن المتكلمين في جماعة معينة يستخدمون نفس الكلمات للإشارة إلى نفس الأشياء، ويستخدمون أنواعا من التراكيب للتعامل بها في مواقف متشابهة، إنه العرف الضمني الذي يكوِّن ويقر الأنظمة اللغوية، وكل منا يكتسب لغته من مجتمعه المعين، ويتلقى في أحضانه كل القواعد التي تنتظم لغته، واستخدام اللغة وفقا للعرف ضرورة لتحقيق التفاهم بين أفراد الجماعة اللغوية، ولهذا تقف الجماعة في وجه من يخالف عرفها اللغوي في أي مستوى من مستوياته.

اللغات متشابهة:

يقال إن عدد لغات العالم اليوم يكاد يصل إلى خمسة آلاف لغة - ولو أنعمنا النظر في هذه اللغات وتعمقنا في درسها لتبين لنا أن بينها قدرا من التشابه يجعلها جميعا داخلة في إطار ما يسمى (اللغة) دون

تقييد أي باعتبارها ظاهرة إنسانية، وبينها أيضا قدرا من الاختلاف يكفي لتميزها، ويدخلها في إطار ما يسمى (اللغة) مقيدة بوصف، أي اللغة العربية أو الإنجليزية.. الخ.

ومن وجوه الشبه بين لغات البشر:

- كل أطفال العالم قادرون على اكتساب أية لغة إنسانية من لغات البشر بيسر وسهولة بالغين.

- لغات البشر متشابهة، لأن الذين يتحدثون بها متشابهون في إدراكهم لما يحيط بهم، إنهم يجربون العالم الخارجي بطرق متشابهة في جوهرها، ومما يؤكد ذلك أنه من الممكن ترجمة أي نص من لغة إلى لغة أخرى.

- ليس في العالم لغات بدائية، فكل اللغات متساوية في تعقدها وفي قدرتها على التعبير عن أي مفهوم في العالم.

- كل اللغات تتألف من أصوات تستخدم لنقل المعاني، والعلاقة بين الأصوات والمعاني في معظمها عرفية.

- معظم لغات العالم يستخدم عددا محدودا من الوحدات الصوتية (الفونيمات) يتألف منها عناصر لغوية ذوات (مورفيمات) ومن هذه العناصر تتألف عبارات اللغة وجملها.

- تتضمن معظم لغات العالم قواعد صوتية وصرفية ونحوية متشابهة في خصائصها.

- في كل لغات العالم مفاهيم معنوية عالمية كالزمن والنفي والاستفهام.. إلخ.

ثمة إذًا ما يسوغ القول بتشابه اللغات أو بما يسمى العناصر المشتركة أو العامة، وفي ظل التشابه يستطيع الإنسان أن يتعلم لغة ثانية غير لغته القومية، وفي أثناء تعلمه هذه اللغة سوف يتبين بوضوح العناصر المشتركة بين اللغتين بغض النظر عن العلاقات الثقافية أو التاريخية بينهما.

بيد أن وجوه الشبه التي تحدثنا عن بعضها لا تكفي للتفاهم بين البشر، لأن كل لغة تتضمن صفاتٍ أو خصائصَ أخرى تميزها عن أية لغة أخرى، والخلاف بين اللغات يقع في مستويات اللغة المختلفة (الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية)، ففي المستوى الأول مثلا تختلف وحدات كل لغة عن وحدات أية لغة أخرى كمًّا ونوعًا، كما تختلف عنها في القواعد التي تحكم اتصال بعضها ببعض، ولكل

لغة من لغات البشر طريقتها الخاصة في بناء مورفيماتها، كما أن لها قواعد نحوية خاصة تحكم العلاقات السياقية بين هذه المورفيمات. وتختلف اللغات كذلك في الكلمات التي يضمها معجمها في التعبير عن المفاهيم العامة أو الخاصة.

اللغة متغيرة:

اللغة ظاهرة اجتماعية والظواهر الاجتماعية ليست ثابتة بل تتعرض للتغير باستمرار، والتغير تحكمه في الغالب قوانين تكاد تكون ثابتة.

والتغير اللغوي هو انتقال ظاهرة لغوية من حالة إلى أخرى، أو حلول ظاهرة لغوية محل ظاهرة لغوية أخرى في مرحلة من مراحل تاريخ اللغة المعينة.

والتغير يصيب أنظمة اللغة المختلفة، وإن كان تأثيره في المجال الدلالي أكبر، ويكفي للتمثيل على ذلك أن نعقد مقابلة بين العربية الفصحى وإحدى اللهجات المحلية المعاصرة التي تعد تطورا لها. ففي المستوى الصوتي مثلا تخلصت اللهجة القاهرية من الأصوات الأسنانية الثاء والذال والظاء وحلت محلها فونيمات أخرى. كما أنها تخلصت كذلك في المستوى النحوي من الإعراب وأحلت محله نظاما محددا للمفردات يحدد العلاقات المعنوية بين عناصر الجملة.

أما معاني المفردات فقد أصابها كثير من التغير توسيعا أو تضييقا أو ابتداعا، وهو تغير واضح وملموس يغنينا عن التمثيل في هذا المقام.

وقد بذل الباحثون جهودا كبيرة في دراسة أسباب التغير واقترحوا في ذلك آراء، ولكن لم يقدم أي منهم رأيا متكاملا أو نظرية تفسر كل التغيرات المعروفة في لغات العالم. قال بعضهم إن التغير يرجع إلى الظروف الجغرافية أو المناخية، وقال آخرون بل يرجع إلى الصفات البيولوجية والجنسية، وقال آخرون يرجع إلى السهولة والاقتصاد في الجهد.. إلخ. وهي عوامل قد يكون لها تأثير ولكن عاملا واحدا منها لا يكفي، ونعتقد أن من أهم هذه العوامل تأثير لغة في لغة أو ثقافة في ثقافة بفعل الاحتكاك بينهما.

اللغة معنى:

هذا هو الجانب الثاني الضروري من جانبي اللغة، أما الجانب الأول فهو الصوت والصوت

الإنساني أثر سمعي ناتج عما تقوم به أعضاء النطق من حركات، ويظهر هذا في صورة ذبذبات تلائم هذه الحركات، ولا يكون الصوت لغويا إلا إذا كان له دور في حمل المعنى.

والمشكلة الرئيسية في علم اللغة هي تحديد العلاقة بين جانبي اللغة: جانب الصوت أو المنطوق وجانب المعنى أو المفهوم.

بعض الباحثين من القدماء يرى أن الكلمة (المنطوق) جزء من اللغة، أما المعنى فجزء من العالم الخارجي؛ لأن الكلمة تشير إلى شيء أو تعبر عن شيء، أو بعبارة أخرى الكلمة: اسم للشيء، والشيء هو المعنى.

وبعضٌ يأتي بوسيط بين الاسم والشيء هو الصورة الذهنية أو الفكرة، ويقول في تعريف المعنى إنه علاقة متبادلة بين اللفظ والفكرة، علاقة تمكن كل واحد منهما من استدعاء الآخر.

ويرى آخرون أن التعرف على المعنى لا يتم إلا ببيان الموقف الذي يقال فيه الكلام بكل ما فيه ومن فيه، ودراسة المعنى عند هؤلاء دراسة لتوزيع الكلمة في السياقات المختلفة.

وقد كان المعتقد قديما أن اللغة أداة للتفكير، وهذا صحيح بيد أن هذه الوظيفة ليست وظيفتها الوحيدة، فاللغة وسيلة لخلق العلاقات الإنسانية وتوثيقها وتحقيق التفاهم والتعاون بين بني البشر.

وبعد فلعل هذه الصفحات السابقة قد أسهمت في بيان الخصائص أو العناصر التي يمكن أن يتألف منها تعريف مقبول للغة يساعد في توضيح المقصود بعلم اللغة في هذه الدراسة هذا التعريف هو:

اللغة: نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم.

الباب الأول

التعريف بعلم اللغة

يمر علم اللغة الحديث Modern Linguistics هذه الأيام بمرحلة نشطة من حياته القصيرة نسبيا بعد أن وضع أسسه العالم السويسري (دي سوسير) في مستهل هذا القرن، يمر هذا العلم بمرحلة يصعب فيها على الدارس المتخصص أن يتابع ما تنشر في مجالاته من كتب وبحوث، وأن تتوفر لديه الفرصة للتعرف على مناهجها في معالجة موضوعاتها.

ومع هذا السيل الذي لا ينقطع من البحوث لم يصل علماء اللغة إلى حدود متفق عليها، حدود فاصلة لموضوعه أو إلى تعريفات قاطعة لمصطلحاته، وهذا أمر طبيعي - حين يكون متصلا بعلم حديث النشأة كعلم اللغة - في عصر اتسعت فيه المعارف الإنسانية اتساعا عظيما، وتطورت فيه وسائل المعرفة تطورًا باهرًا كالعصر الحديث.

وقد كان تنوع المدارس اللغوية واختلاف مناهجها على حساب الاستقرار الذي كان مطلوبا حتى يمكن أن تقيم فيه النتائج تقييما دقيقا. لقد كان علم اللغة الوصفي مثلا أثرا من آثار الثورة على الاتجاهات التقليدية في دراسة اللغة، وكان منهجه علميا يعتمد على وصف اللغة على ما هي عليه في مكان محدد وزمان محدد، ولم تدم سيادته طويلا، فسرعان ما ثار (تشومسكي) عليه، ووضع أسسا جديدة للدراسة اتضحت معالمها الأولى في كتابة Syntactic Structure الذي ظهر عام ١٩٥٧.

ولو قدر لنا أن نعود إلى الوراء قليلا قبل ظهور هذا الاتجاه الجديد، وحاولنا أن نحدد خصائص الدراسة اللغوية عند اللغويين المحدثين لوجدنا ذلك يسيرا، قد يقال لنا إن علم اللغة هو الدراسة العلمية للغة، ويقال لنا في تعليل ذلك، لأن المناهج العلمية قد استخدمت على قدر الإمكان لتجعل من دراسة اللغة عملا دقيقا منظما على النحو الذي تحقق في دراسة العلوم.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أمرين:

الأول: من المفيد أن نعرض هنا أسس الدراسة التي اعتمد عليها المنهج الأقدم أي المنهج الوصفي

البنيوي وهو منهج ما زال منتشرا حتى يومنا هذا، نفعل هذا مع تقديرنا للخلاف القائم بين المنهجين.

الثاني: لقد وجد الباحثون نقطة مشتركة يمكن أن يلتقي عندها المنهجان هي أن علم اللغة ينبغي أن يعرف على أساس منهجي علمي ربما يختلف قليلا على المنهج السائد في العلوم.

وسوف يختلف الأمر حين نعود أدراجنا إلى أيامنا هذه، سيقول لنا علماء اللغة (المعاصرون) إن مفهوم الدراسة العلمية يختلف - من نواح عدة - عن المفهوم الذي تبناه اللغويون (التقليديون) و(أصحاب المنهج الوصفي)[1].

(1) Crystal , Linguistics , p. 77

المبحث الأول

السمات الضرورية للدراسة العلمية

لكي تكون الدراسة - أيا كان موضوعها - علمية ينبغي أن تتوفر فيها بعض السمات الضرورية. قد يختلف العلماء واللغويون - إلى حد ما - في طبيعة عملهم وفي مجاله، ولكن ثمة اتفاق عام فيما يتصل بحاجة علم اللغة إلى منهج علمي، وأن المنهج الذي سارت عليه العلوم قد يكون منهجا ناجحا، يقال هذا بغض النظر عما يثار من خلاف في تبعية علم اللغة للعلوم الطبيعية أو للعلوم الاجتماعية، وبغض النظر عما يدور بين اللغويين أنفسهم من جدل في تحديد المقصود "بالعلمية" في هذا المجال.

وقبل أن نأخذ في الحديث عن هذه السمات ينبغي أن يوضع في الاعتبار أن ما قد يعده بعض الباحثين أصلا قد يجعله آخرون فرعا، وأن المصطلحات التي يستخدمها الباحثون قد تختلف من باحث إلى آخر، ومع ذلك نطمئن إلى أن محصول البحث الذي نستخلصه من هؤلاء وهؤلاء سوف يؤلف في النهاية المنهج الملائم للدراسة اللغوية.

هذه السمات هي: الوضوح والدقة والنظامية، والموضوعية، والشمول واليقين.

أولا: الوضوح والدقة

الوضوح:

الوضوح شرط ضروري في كل مراحل البحث اللغوي جمعا وتصنيفا وتقعيدا، وهو ضروري أيضا حين يختار الباحث النظرية التي على هداها يقوم بالعمل فينبغي أن تكون أسس هذه النظرية واضحة، وينبغي أن يكون واعيا بالاعتبارات التي استند إليها عند اختياره لها. وسوف نختار للمناقشة هنا موضوعين نتبين منهما الحاجة الماسة إلى الوضوح في البحث اللغوي

هذان الموضوعان هما:

(أ) اختيار مصطلحات البحث:

(ب) اختيار الرواة وصياغة الاستبيانات.

الموضوع الأول: اختيار مصطلحات البحث[1]:

لا مندوحة لنا عن استخدام المصطلحات الفنية، وإذا كان الناس في حياتهم العامة يستخدمون المفردات للإشارة إلى أشياء أو أحداث أو وقائع أو صفات.. إلخ فالعلماء - أيا كان مجال عملهم - يستخدمون مصطلحات خاصة يرون أنها تحقق أغراضهم. وما يميز هذه المصطلحات أنها تدل على أقسام أو أصناف[2].

فاللغوي مثلا لا يدرس مفردات اللغة كلها، إذ لا سبيل إلى حصرها، إنه لا يدرس مفردات مثل: محمد وشجرة ورجل وجبل.. إلخ بل يدرس قسما بعينه يفترض أنه يضم هذه المفردات وغيرها هو (الاسم)، إنه لا يدرس مفردات مثل: قام ويجلس ويلعب.. إلخ بل يدرس قسما بعينه يفترض أنه يضم هذه المفردات هو (الفعل)، وقد يتطلب البحث منه أن يجعل من كل قسم أقساما، فقد يفترض أن قسم (الاسم) مثلا يضم أقسامًا فرعية هي: العلم الضمير واسم الإشارة.. إلخ وقد يفترض أن قسم (الفعل)

(١) انظر في تفاصيل هذا الموضوع للمؤلف: المصطلحات اللغوية، مجلة كلية دار العلوم العدد ٢٩، والمصطلح العلمي عند العرب، دار الفكر العربي.

(2) Halliday , Macintosh and Sterens' , The Linguistics Science and Language Teaching. p. 7.

مثلا يضم أقساما فرعية هي: الماضي والمضارع.. إلخ. وفي التعامل مع الأقسام لا المفردات اقتصاد في الجهد لا يقوم العمل العلمي إلا به.

وليست هذه الأقسام التي يفترضها الباحث منفصلة عن الواقع اللغوي الذي يعالجه، بل إنها مفترضة أصلا للتعامل مع الواقع أي لكي نفهم الواقع فهما حسنا ولكي نوصل فهمنا للآخرين.

ومن الطريف الدال أن نشير هنا إلى قصة ذلك النحوي الذي سأل أعرابيا قائلاً: أتجر فلسطين؟ فرد عليه قائلا: إني إذًا لقوى. فالجر عند النحوي مصطلح خاص يستخدم للدلالة على حالة من حالات الإعراب تميز طبقة من طبقات الكلام هي المُعْرَبات، وليس هذا هو الجر في عرف الأعرابي حين يشير به إلى حدث يتصل به حين يشد شيئا أو يسوق حيوانا.

معايير الاصطلاح:

وليس الاصطلاح مجرد اتفاق بين أهل الصنعة على مدلول خاص فحسب، بل إنه اتفاق قائم على معايير. إن أي محاولة لتصنيف المفردات في أقسام ينبغي أن تقوم على أساس أوجه شبه تتحقق في كل ما يدخل في القسم المفترض من أفراد وتميزه عما عداه، ولهذا اشترط في تعريفه أن يكون جامعا مانعا.

وربما يكون مفيدا هنا أن نشير إلى صنيع النحاة في تعريف الاسم والفعل، لقد عَرَّف بعضهم الاسم فقال: إنه ما يدل على مسمًّى من ذات أو معنى، وعرف الفعل بأنه: ما يدل على حدث وزمنه. واعترض على هؤلاء بنحو (صَهْ، و مَهْ، وهيهات) وغيرها مما يطلق عليه أسماء الأفعال، لأنها تدل على حدث في زمن وإن عوملت معاملة الأسماء. ومن الواضح أنهم اعتمدوا في تعريفهما على معيار هو المعنى الذي يدل عليه كل منهما(١).

وأدرك نحاه آخرون ما في التعريفين السابقين من قصور، فوضعوا لكل قسم من أقسام الكلام علامات تميزه عن غيره من الأقسام، وكانوا في ذلك على طريقة مستقيمة، وعلى سبيل التمثيل يقول ابن مالك في تعريف الاسم:

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

---

(١) أيوب (د. عبد الرحمن) دراسات نقدية في النحو العربي ص٨، ٩.

فالاسم يجيء مجرورًا مثل: في البيت ومنونا، قابلت رجلاً، ويجيء منادًى مثل يا رجلُ، ويقترن بأل كالرجل ثم إنه يتميز وظيفيا بوقوعه مسندًا إليه مثل: أنا مؤمن.

ويقول في تعريف الفعل:

بتـا فعلـت وأتـت ويـا افعـلي ونـون أقـبلن فعـل يـنجلي

ويتميز الفعل - باتصاله بتاء التأنيث وتاء الفاعل وياء المخاطبة ونون التوكيد.

ولا ينبغي أن يصرفنا التراث القديم من المصطلحات عن محاولة وضع مصطلحات أخرى ربما تكون أكثر فائدة في دراسة خصائص الكلام العربي، وفي هذا المجال نشير إلى صنيع الدكتور تمام حسان الذي جعل أقسام الكلام في العربية سبعة بدلا من ثلاثة هي: الاسم والصفة والفعل والضمير والخالفة والظرف والأداة معتمدا في ذلك على معايير ترجع إلى المعنى والمبنى كليهما فتجنب ما اعترض به على النحاة الذين اعتمدوا على المعنى وحده أو المبنى وحده [1].

ويجب التنبه - كما يقول (كريستال) إلى تأثير مصطلح جديد أو إعادة تعريف مصطلح قديم، إلى تأثير هذا على التعريفات الأخرى التي يستخدمها الباحث. إن المصطلحات التي نستخدمها في وصف اللغة يعتمد بعضها على بعض إلى حد كبير، فمصطلح ما يحدد مصطلحا آخر، وهذا المصطلح بدوره يحدد المصطلح السالف، ومن ثم فإن تغيير معنى مصطلح واحد قد يضطرنا إلى تغيير معنى بعض المصطلحات المتصلة به.

ولنأخذ مثالا لذلك: إذا أُعطيتَ عددا من الأشياء المختلفة الحجم وطُلب إليك أن تصنفها صنفين (كبير) و(صغير)، تستطيع أن تفعل ذلك - وإن لم تتمكن تماما من أن تضع خطًا فاصلا بينهما. والآن إذا ما أعطيت الأشياء السابقة نفسها، وطلب إليك أن تصنفها إلى ثلاثة أصناف: (كبير) و(متوسط) و (صغير) تستطيع أن تفعل ذلك أيضا، ولكن لنلاحظ ما حدث. بعض من أصغر الأشياء التي وضعت في الصنف (كبير)، وبعض من أكبر الأشياء التي وضعت في الصنف (صغير) قد وضعا معا ليؤلفا هذا الصنف الجديد، والنتيجة ليست صنفا جديدا بل ثلاثة أصناف جديدة، لأن الصنفين (كبير) و(صغير)

---

(١) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها ص٨٦-٩٠.

قد أعيد تصنيفهما في العملية السابقة[1].

وكثيرا ما يتعرض الباحثون لمشكلات من هذا النوع فالباحث الذي يتبنى تقسيم الدكتور تمام عليه أن يدرك أن مفهوم (الاسم) عنده مثلا قد تغير عما كان عليه عند النحاة القدامى بعد أن أخرج منه الصفة والضمير والظرف وجعلها أقساما مناظرة له، وعليه فينبغي ألا يخلط بين التقسيمين، كما ينبغي التنبه إلى ما ينبني على إعادة التصنيف من نتائج.

فالدكتور تمام حين جعل الصفة قسما بذاته افترض نمطا ثالثا للجملة العربية هو الجملة الوصفية (التي قد تكون أصلية نحو أقائم المؤمنون للصلاة؟ وقد تكون فرعية نحو: رأيت إماما قائما تابعوه للصلاة[2].

هذا النمط الجديد نظير للنمطين السابقين: الجملة الاسمية والجملة الفعلية، وهكذا يكون لدينا ثلاثة أنماط جديدة للجملة لا نمطين.

كما ينبغي التنبه أيضا إلى ما ينبني على ذلك من تغيير في تعريف الأبواب النحوية، فينبغي عند تحديد صيغة الكلمة الواقعة مفعولا فيه أن يقال إنها ظروف، وينبغي عند تحديد صيغة الكلمة الواقعة حالا أن يقال إنها صفة...وهكذا في الأبواب الأخرى.

إن اختيار المصطلحات أو إعادة تعريفها ينبغي أن تتم - إذا ما وجدت فائدة في ذلك - بدرجة عالية من الحذر، إنه بناء متماسك يفقد هيكله حين نضيف إليه أو نحذف منه أو نغير فيه.

ويشترط الباحثون في المصطلح أن يستخدم للإشارة إلى مدلول واحد، وألا يشار إلى المدلول الواحد بغير مصطلح واحد، ولا شك أن هذا أدعى إلى الدقة وأدنى إلى الوضوح وأقرب إلى القصد في التعبير، غير أن ما نراه في مجال البحث اللغوي قديما وحديثا يخالف هذا الشرط. خذ مثلا مصطلح (المفرد) في النحو العربي يستخدم في باب من أبوابه للإشارة إلى الواحد أي ما يقابل المثنى والجمع، وفي باب آخر للإشارة إلى ما ليس جملة أو شبه جملة، وفي باب ثالث إلى ما ليس مضافا ولا شبيها بالمضاف،

---

(1) Crystal, Liuguistics,p.p.91,92.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ص١٠٣.

وخذ أيضا مصطلح (الحرف) يستخدم أحيانا ليدل على الكلمة، وأحيانا ليدل على قسم بعينه من أقسام الكلام، ويستخدم كذلك للإشارة إلى وحدة من وحدات النظام الصوتي أو الإملائي في العربية كالهمزة والباء والتاء.. وغيرها مما يعرف بحروف المعجم.

وقد أحس النحاة بخطورة هذا المسلك فاضطروا إلى أن يقولوا: المفرد في باب كذا هو كذا وفي باب كذا هو كذا، واضطروا إلى أن يخصصوا المصطلح بوصف أو إضافة، ولكن هذا أو ذاك كان على حساب الاقتصاد في العبارة، وهو من شروط الاصطلاح حتى يسهل استخدامه ويتيسر تداوله. ومع ذلك فقد بقيت المشكلة قائمة حين يستخدم المصطلح مجردا عن تحديد مجال استعماله بعلم بعينه أو في باب خاص أو عند قوم بأنفسهم، أو حين يستخدم عاريا عن وصف أو إضافة.

من مشكلات المصطلح اللغوي العربي:

ولم يكن اللغويون بأكثر التزاما بالشرط الثاني منهم بالأول. فما أكثر المصطلحات المترادفة للمدلول الواحد. خذ مثلا لذلك ما فعله اللغويون عند وصف بعض الأصوات التي يحدث عند إنتاجها انغلاق مجرى الهواء ثم انفتاحه مرة واحدة، فالدكتور إبراهيم أنيس يطلق على هذه العملية مصطلح (الشدة) ويطلق على الصوت الناتج عنها مصطلح (شديد)، وقد راعى في ذلك المصطلح القديم عند سيبويه، والدكتور عبد الرحمن أيوب يطلق على الجزء الأول منها مصطلح (انحباس) وعلى الجزء الثاني (انفجار) ثم يطلق على الصوت الناتج عن العملية برمتها مصطلح (انفجاري) توسعا[1]. وكذلك يفعل الدكتور كمال بشر ويقول: هذه الأصوات يمكن تسميتها (وقفات Stops) ولكنها باعتبار الانفجار تسمى الأصوات (الانفجارية Plosive) والأول هو ما جرى عليه الأمريكان وأما الثاني فهو وجهة نظر الإنجليز، ولكنه عند الوصف يفضل المصطلح (انفجاري)[2].

وشيء كهذا كان عند وصف الأصوات التي يحدث عند إنتاجها تضييق في مجرى الهواء، إذ يفضل

---

(١) محاضرات في اللغة ص٩٤.

(٢) علم اللغة العام (الأصوات) ص١٠٠.

الدكتور أنيس المصطلح القديم (رخو)[1] على حين يفضل أغلب المحدثين المصطلح (احتكاكي).

بيد أن إيثار المصطلحات القديمة وبخاصة في مجال الأصوات - وإن كان يجد هوًى في نفوسنا - له مخاطره، فكثير من تعريفاتها غامض لا سبيل إلى فهمه، وتعريف سيبويه للصوت المجهور مثل واضح لذلك، إذ يذهب الباحثون في تفسيره مذاهب وبخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن النحاة الخالفين لم نجد في كتبهم ما يعين على فهمه، وقنعوا بترداد ألفاظه دون شرح واضح أو تعليق ذي قيمة[2]. كما أن كثيرا مما قالوه عن مواضع النطق ما يزال إلى يومنا هذا موضع خلاف مثل: ذلق اللسان وأسلة اللسان وطرف اللسان ومستدق طرف اللسان.. الخ.

ولم يسلم اللغويون المحدثون مما وقع فيه القدامى، فلو فتحت كتابا يدرس الأصوات العربية وأحببت أن تصل إلى وصف دقيق لمخارجها لأخذك الإعياء أخذا شديدا مما تجده بينها من اضطراب، وإليك مثالا لهذا يبينه الجدول الآتي:

الصوت	د. أنيس	د. أيوب	د. تمام	د. بشر	د. مختار
ق	لهوي	لهوي	لهوي	لهوي	لهوي
ك	أقصى الحنك	سقف الحنك الرخو	طبقي	حنكي قصي	طبقي
خ حلقي	أدنى الحلق إلى الفم	لهوي	لهوي	أقصى الحنك	طبقي
غ حلقي		لهوي	لهوي	أقصى الحنك	طبقي

ويرجع الخلاف الواضح في الجدول إلى ما يأتي:

(أ) اختلاف الباحثين في تسمية الموضع الذي يلتقي عنده عضوا النطق، وانظر إلى الرسم الآتي:

(١) الأصوات اللغوية ص٢٣، ٢٤.

(٢) الأصوات اللغوية ص١٢٣.



فالموضع ×× عند الدكتور أنيس هو أقصى الحنك، وعند الدكتور أيوب سقف الحنك الرخو، وعند الدكتور تمام والدكتور مختار الطبق، وعند الدكتور بشر الحنك اللين (أقصى الحنك).

والموضع × هو اللهاة عندهم جميعا.

(ب) اختلافهم في نسبة كل صوت إلى مخرج بعينه، فالموضع الأول هو مخرج الخاء والغين عند الدكتور بشر والدكتور مختار، والموضع الثاني هو مخرجها عند الدكتور تمام والدكتور أيوب، أما الدكتور أنيس فوضع الخاء والغين مع الأصوات الحلقية، وقال إن مخرجها أدنى الحلق إلى الفم. ولست أدرى المقصود بهذه العبارة: اللهاة أم الحنك اللين؟ (١).

وثمة مشكلة أخرى عرضت حديثا بعدما اتصل علماء العربية بعلم اللغة الحديث الذي ظهر في أوربا وأمريكا، واعتمد أساسا على اللغات الأوربية، هذه المشكلة تتمثل في تعريب المصطلحات التي يستخدمها اللغويون المحدثون، وإذا وضعنا في الاعتبار أن الباحثين الغربيين أنفسهم يشكون من كثرة هذه المصطلحات كثرة مفرطة ومن غموض مدلولاتها ومن اختلاف الباحثين حولها فلا شك أن مشكلتنا في تعريبها وتقديمها للقارئ العربي سوف تكون أعقد وبخاصة إذا اتصل الأمر بمفاهيم أو ظواهر لا تعرفها العربية.

والجدول الآتي يوضح الخلاف بين الباحثين في تعريب بعض هذه المصطلحات:

---

(١) الأصوات اللغوية ص٨٧، ٨٨ وانظر مختار عمر (د. أحمد) دراسة الصوت اللغوي ص٢٧١، ٢٧٢.

المصطلح الإنجليزي	د. تمام	د. أيوب	د. بشر	د. مختار	د. القاسمي
Phoneme	حرف	صوتيم	فونيم	فونيم (وحدة صوتية)	فونيم
allophone	صوت	صوت	صوت جزئي صوت واقعي	صوت موقعي	ألوفون

ونستخلص مما سلكه هؤلاء الباحثون في تعريف هذين المصطلحين ما يأتي:

(أ) أن الدكتور تمام فضل المصطلح العربي (حرف) ليقابل أل phoneme والمصطلح (صوت) ليقابل allophone معتمدا على أن علماء العربية قد فرقوا بينهما تفريقا شبيها بالتفريق الذي بين المصطلحين الأجنبيين، فقد نقل عن "مقالات الإسلاميين" قولهم" الكلام حروف والقراءة صوت، والصوت عندهم غير الحرف[1].

(ب) أن الدكتور أيوب صاغ مصطلح (صوتيم) بطريقة مبتكرة، إذ أضاف إلى الكلمة العربية ما يشبهه أن تكون لاحقة (صوت+يم) وهذا ما فعله أيضا بالنسبة لـ (morpheme صرفيم) و (sememe دلاليم) و(lexeme قاموسيم)، ولعل هذه الصياغة التي لا تعرفها العربية صرفت كثيرا من الباحثين عن استخدامها[2].

(ج) فضل الباحثون الآخرون تعريب المصلح (Phoneme فونيم) [3].

(د) اختلف الباحثون في شأن المصطلح allophone على النحو الموجود في الجدول.

هذا ومشكلات المصطلح اللغوي كثيرة، وليس من همنا هنا أن نعرض لها تفصيلا، ونكتفي بعد هذا باستخلاص أهم الأفكار والنتائج التي دار النقاش حولها في الصفحات السابقة.

---

(١) حسان (د. تمام) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٧٣.

(٢) أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ١٠٤، ١٠٠، ١١٤.

(٣) القاسمي (د.على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ٣٣، ٣٤، ٩٦، بشر (د. كمال) علم اللغة العام (الأصوات) ص ١٥٧، ١٥٨، مختار عمر (د.أحمد) دراسة الصوت اللغوي ص ١٥٥، ١٥٦.

- على الباحث أن يكون مدققا في اختيار المصطلحات وفي تحديد معانيها بوضوح، وينبغي أن يحتفظ بمدلول المصطلح ثابتا في كل مراحل البحث، وأن يحتفظ كذلك بالعلاقات التي بينه وبين المصطلحات الأخرى التي تتصل به ثابتة، أو بعبارة موجزة: الثبات والتناسق.

- ليس من العيب أن تتوجه عناية الباحث أساسا إلى المصطلحات التي تتصل ببحثه مباشرة، فليس من الضروري أن يقف باحث في الأصوات من مصطلحات النحو التي قد تعترضه في بحثه موقف النحوي منها بل يكفي في ذلك أن يتبنى مفاهيم متفقا عليها بين عدد كبير من الباحثين في هذا المجال أو يعتمد على المفاهيم التي لم يوجه إليها اعتراضات ذات بال.

- إن اختيار مصطلح معروف أو ابتكار مصطلح ينبغي أن يعتمد على معايير قائمة مثلا على أساس التشابه في الشكل أو الوظيفة أو هما معا. وينبغي على الباحث أن يكون لديه تصور لما يمكن أن يحدث لو استخدم معيارًا آخر.

- أن يبذل الباحث أقصى جهده على أن يكون للمصطلح الواحد مدلول واحد، وألا يكون للمدلول الواحد غير مصطلح واحد، وهذا أدعى للدقة وأدنى للوضوح، فإن وقع المحظور - وهو يقع كثيرا - فالأفضل أن يتبنى أكثرها انتشارا بين الباحثين وأقلها عرضة للنقد.

- على من يتصدى لخلق مصطلحات جديدة أن يراعي أن يكون لفظ المصطلح مختصرا، وأن يتلاءم شكله مع طرق البناء الصرفي والنحوي في اللغة المعينة حتى يسهل تداوله ويعم الانتفاع به، وأن يتجنب الألفاظ ذات المدلولات الشائعة في الحياة العامة حتى يضمن لمصطلحه أن يعرى من الدلالات غير المرغوب فيها.

الموضوع الثاني: اختيار الرواة وصياغة الاستبيانات[1]:

اللغة عرفية، وهذا مؤداه أن ثمة اتفاقا بين المتكلمين باللغة (اتفاق في السلوك اللغوي) على استخدام كل أشكال اللغة بطريقة تكاد تكون متماثلة، ولعل هذا ما جعل اللغويين يطمئنون إلى أن لغة

---

(١) انظر في هذا الموضوع وفي إجراءات البحث اللغوي للمؤلف (طرق البحث العلمي في دراسة اللغة) مجلة كلية دار العلوم العدد (٣٦).

أحد أفراد الجماعة اللغوية يمكن أن تمثل العادات اللغوية للمتكلمين الآخرين في الجماعة نفسها.

والقول بعرفية اللغة لا يحول دون الاعتراف بما بين أفراد الجماعة اللغوية من فروق لا يحدها الحصر، بل يقرر علماء اللغة أنه لا يكاد يوجد شخصان في جماعة لغوية واحدة ينطقان نطقا متماثلا، وفي هذا المجال يقرر (كريستال) أن الرواة الذين نختارهم ليسوا متجانسين كحبات من التفاح في سلة، فليس ثمة تجانس محقق بين التجارب اللغوية لشخصين، إن مقدار التنوع الذي يجعل العادات اللغوية لشخص واحد مختلفة عن أي شخص آخر مقدار كبير، ولا يمكن دراسته نسبيا، ولكن متى درسنا اللغة فمن المهم أن ننتبه إلى العامل الذي يؤثر في تحليلنا للمشكلة، ونخلق الظروف التي توجه انتباهنا إلى الوضوح لكي نجعل الدراسة المقارنة ممكنة، وبالدراسة المقارنة الفاحصة وحدها يمكن في النهاية أن نرسم صورة أكمل للغة ككل، ومن ثم نقترب من التفسير العام الذي هو الهدف الذي يسعى إليه علم اللغة(١).

ولذلك لا سبيل إلى دراسة اللغة إذا وضعنا في اعتبارنا كل أفراد الجماعة اللغوية التي ندرس لغتها أو لهجتها، والسبيل الوحيد لهذه الدراسة أن نختار راويا أو أكثر ونعده ممثلا لهذه اللغة أو اللهجة.

كيف نختار الراوي؟ informant

لقد كان يُعتقد حتى وقت قريب أن من الضروري أن يكون الرواى أميا حتى لا تؤثر العوامل الثقافية في تمثيله للهجته، وألا يكون قد خرج من المنطقة التي تتكلم فيها هذه اللهجة، لأن كثرة الأسفار والتعرض للاحتكاك باللهجات الأخرى يجعل لغته عرضة للتغير (٢).

ولقد تبين فيما بعد أن هذه الشروط غير ضرورية، وأن هدف اللغوي أن يدرس اللغة كما ينطقها أفراد الجماعة اللغوية، كما يدرس أيضا العوامل المؤثرة في تنوع سلوكهم اللغوي، ويحاول ما استطاع أن يرد هذه الفروق إلى عواملها الصحيحة، ومن هذا المنطق يصبح من الضروري أن يكون الراوي ممثلا للجماعة بكل خصائصها اللغوية والاجتماعية.

وعلى الباحث حين يختار الرواة أن يراعي ما يأتي:

---

(1) Crystal, Linguistics,p.87.

(٢) حسان (د. تمام) اللغة بين المعيارية والوصفية ص١٥٧.

- ينبغي أن يكون الرواة جميعا من المنتمين إلى اللغة أو اللهجة المدروسة.

- الباحث بالخيار بين أن يختار الرواة من مجال بيئي متجانس، أو من بيئات ثقافية متنوعة وفقا لهدف الدراسة الذي يتطلع إلى تحقيقه.

- ينبغي ألا يكون لدى الرواة تصور سابق - بقدر الإمكان - عن علم اللغة.

- أما عدد الرواة فيختلف باختلاف الهدف من الدراسة (دراسة لهجة عامة أو لهجة خاصة) ويتوقف أيضا على الاعتبارات العملية المناسبة للوقت والناس[(١)].

- لا ينبغي على الباحث أن يحدد المقصود مباشرة وأن يسأل الراوي مثلا - كما فعل بعض القدماء - كيف تجمع (دكانا)؟ أو كيف تصغر (شَيِّرة)؟[(٢)] لأن معنى هذا أنه يعده لغويا، وهو ليس كذلك، وعلى أية حال الراوي قد تكون لديه مفاهيم خاطئة أو غامضة عن هذه المصطلحات (الجمع والتصغير.. الخ) بل ربما لا يفهم المقصود منها ألبتة، وهذا يذكرنا بقصة الأعرابي الذي سئل هل يهمز (إسرائيل)؟ فقال: إني إذًا لرجل سوء، لأنه لا يعرف من الهمز إلا الضغط والعصر[(٣)].

- ولا ينبغي أن أسأله مباشرة عن جملة محددة تضم مثالا لمشكلتي، لأن هذا سوف يوجه انتباهه إلى الظاهرة موضوع الدراسة، وربما أدى إلى أن تكون النتائج متحيزة، فلا يقال مثلا: أتقول ضربت أخوك؟ ينبغي على الباحث أن يخفي المشكلة بطريقة ما، كأن يضع العبارة المطلوبة مثلا في سياق لغوى طويل، ونطلب إليه أن يحدد موقفه من قبول المنطوق ككل.

- وينبغي أن أكون واثقا من أن تعليماتي إلى الرواة واضحة، وأنهم قد فهموا حقا ما ينتظر منهم أن يفعلوه.

- وينبغي أيضا أن أختبر دقة حدسهم، ورهافة حسهم اللغوي بما هو مقبول وما هو غير مقبول بأن أقدم إليهم جملا واضحة جدا ليحددوا موقفهم منها. ومن المفيد أيضا أن تُقحم الجملة المقصودة غير

---

(1) Crystal, Linguistics,p.87.

(٢) ابن جنى: الخصائص ١/ ٢٤٢ والسيوطى: المزهر ١/ ١٤٦.

(٣) ابن فارس: الصاحبي ص ١١.

مرة في جلسة المناقشة للاطمئنان إلى موقف الراوي منها.

- وينبغي أن يعنى بتقديم الموضوع بطريقة لا توحي بإجابة معينة. ويقدر الإمكان يحسن بالباحث أن يضع المقصود في إطار سياقات متنوعة جدا، فقد يختلف موقف الراوي من نطق كلمة ما منعزلة عن السياق عن نطقها في سياق محدد(1).

الدقة:

لقد قلنا في بداية الحديث عن السمات الضرورية للدراسة العلمية إن الوضوح شرط ضروري في كل مراحل البحث اللغوي جمعا وتصنيفا وتقعيدا، وقد تبينا ذلك من مناقشتنا لموضوع اختيار المصطلحات واختيار الرواة، بل قلنا عند الحديث في الموضوع الأول إن اللغوي لا يدرس مفردات اللغة كلها بل يدرس أقساما بعينها يفترض أنها تضم هذه المفردات، والآن نجد أن الحديث عن الوضوح يقتضينا الحديث عن اللغة التي نستخدمها في الدراسة، ومن المفارقات الشديدة أننا ندرس اللغة باللغة فكأنها هي موضوع البحث ولسانه في الوقت ذاته.

وليس من المقبول ألبتة في العلم أن تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق أو تستخدم قضية يشوبها الغموض أو الالتباس، فالدقة ضرورية ولا معدل عنها.. ووسيلة العلماء إليها استخدام لغة الرياضيات لغة الكم، وهذه اللغة تساعد على التعبير عن حقائق العلم بمزيد من الدقة، إن الفرق هائل من حيث الدقة بين قولنا إن الحديد ساخن - كما كان يقول القدماء وحتى أوائل العصر الحديث - وقولنا إن درجة الحديد ٣٥٠ درجة مئوية (2).

وقد أفاد علم اللغة من هذا المسلك العلمي في بعض مجالات الدراسة فيه، فلم يعد مقبولا في علم الأصوات أن يتحدث عن علو الصوت أو درجته دون استخدام لغة الكم فنحدد مثلا الطاقة التي تنتج الصوت، والطاقة الأكبر تنتج سعة ذبذبة أكبر وصوتا أعلى. وتكون درجة الصوت أعلى كلما كانت الذبذبات أسرع وعددها في الثانية أكثر.. ويحدد العلماء كل ذلك بدقة بالغة، وليس هنا مجال الحديث

---

(1) Crystal , Linguistics , p 86.

(٢) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمي ص ٥٤، ٥٥.

المفصل عنها[1].

بيد أن في اللغة جوانب أخرى من الصعب أن توصف كميا ومنها جانب المعنى، ومازال علماء اللغة حتى اليوم مختلفين في اعتباره موضوعا صالحا للدراسة العلمية، ونكتفي هنا بهذه الإشارة وسوف نعود إليه عند الحديث عن مستويات البحث في اللغة.

وثمة أمر آخر له ارتباط بلغة العلم وهو التجريد، والرياضة بطبيعتها علم مجرد أي أنه لا يتحدث عن أشياء ملموسة فحين نقول إن ٣+٢=٥ لا يكون المقصود من هذا ثلاثة أشياء محددة، وإنما المقصود هو العلاقة المجردة بين حدود معينة بغض النظر تماما عما إذا كانت هذه الأرقام تعبر عن بشر أو فاكهة أو كتب.. ومن هنا كان التجريد صفة ملازمة للعلم سواء تم عن طريق الرياضة (وهو الأغلب) أم عن طريق أي نوع آخر من الرموز أو الأشكال[2].

والنحو العربي مثل واضح للتجريد، فالإعراب مثلا نظام مجرد يعتمد على بيان الموقع والحالة والعلامة.

خذ الجملة الآتية مثلا لذلك: الشمس ساطعة، ولنبدأ في إعرابها.

الشمس: مبتدأ (موقع) مرفوع (حالة) بالضمة (علامة).

ساطعة: خبر (موقع) مرفوع (حالة) بالضمة (علامة).

إن استخدام المصطلحات (موقع وحالة وعلامة) عمل تجريدي بحت، فليست خاصة بكلمة الشمس فحسب أو بكلمة ساطعة فقط، وإنما هي صفة تستحقها أية كلمة يمكن أن تشغل هذا الموقع أو ذاك. بل إن الحالات الإعرابية (الرفع والنصب والجر والجزم) على درجة عالية من التجريد، إذ إنها موضوع للتمييز بين المواقع الممكنة في اللغة العربية، فالفاعل يميزه عن المفعول به أنه مرفوع، والمفعول به يميزه عن الفاعل أنه منصوب، والرفع والنصب لا وجود لهما إلا في أذهان النحاة الذين يدرسون المواقع النحوية، إن النحاة في الحقيقة لا يتعاملون مع مفردات وإنما يتعاملون مع أقسام وهم في النهاية يحددون علاقات مجردة.

---

(١) مختار عمر (د. أحمد) دراسة الصوت اللغوي ص ١٢، ١٣.

(٢) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمي ص ٥٣.

ثانيًا: النظامية

من أهم سمات التفكير العلمي التنظيم أي أننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة، وإنما نرتبها بطريقة محددة وننظمها عن وعي، ونبذل جهدًا مقصودًا من أجل تحقيق أفضل تخطيط ممكن للطريقة التي نفكر بها (١).

ومن هذا المنطلق يحذرنا علماء اللغة المحدثون من كثير من مزالق الدراسة غير العلمية، فدراسة بنية اللغة كيفما اتفق، أو دراستها دراسة جزئية غير شاملة دون قصد ووعي، أو تفسير ظواهرها تفسيرا انطباعيا، أو تحليلها تحليلا مضطربا، أو استخدام المصطلحات استخداما متقلبا، أو الفشل في فهم الأعمال السابقة، هذه السمات كلها ينبغي أن يتجنبها الباحث الذي يريد أن تكون دراسته للغة دراسة علمية(٢).

واللغة ظاهرة على جانب كبير من التعقيد والتنوع، فالجمل أو التراكيب أو الأبنية التي تؤلف نسيجها لا حصر لها، وتتنوع تنوعا حتى ليبدو من المستحيل أن نصل إلى أية نتائج عامة من فحصها إلا إذا درست بطريقة على درجة عالية من التنظيم.

لا مندوحة لنا إذا ما أردنا أن ندرس اللغة دراسة علمية -عن تبنى منهج منظم يساعدنا في اكتشاف النظام الذي يحكم اللغة وفي وضع النظرية التي تفسر الطريقة التي يعمل بها. والمنهج العلمي ما هو إلا شكل منتظم بطريقة خاصة للتفكير والبحث.

والآن ما الخطوط التي تمثل هذا المنهج العلمي؟ وكيف يمكن أن يستفيد منه اللغويون ليجعلوا دراستهم للغة علمية؟

خطوط المنهج العلمي:

(أ) أن يختص أي علم من العلوم بمجموعة من الظواهر يمكن تحديدها بوضوح وتمييزها عن

---

(١) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمي ص ٢٧.

(2) Crystal , Linguistics , p 86.

غيرها من الظواهر التي يختص بها علم آخر، هذه الظواهر هي ميدان هذا العلم أو موضوع بحثه. وعلم اللغة ميدانه أو موضوع بحثه اللغة، وقد سبق القول بأنها نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم (ونعني باللغة هنا المنطوقة وهي العنصر الأساسي والمكتوبة وهي العنصر الثانوي، ونعني بها كذلك اللغات الحية التي ما تزال تستخدم حتى اليوم واللغات الميتة التي كانت تستخدم في وقت من الأوقات). ولهذا يكاد اللغويون يتفقون على أن دراسة العمليات العقلية السابقة لعملية إنتاج الكلام أو التالية لاستقباله خارج نطاق البحث اللغوي.

(ب) أن تقوم الدراسة على الملاحظة المباشرة.

وفي هذه المرحلة يقرر الدكتور فؤاد زكريا أن المنهج العلمي يبدأ بملاحظة منظمة للظواهر المراد بحثها، وأن هذا العمل يفترض عملية اختيار وانتقاء وعزل للوقائع التي تهم الباحث في ميدان عمله من بين ألوف الوقائع الأخرى التي تتشابك مع هذه الظواهر(1).

وفي مجال الدراسة اللغوية نتبين أن تعقد الظواهر اللغوية البالغ الذي يواجهنا عندما نبدأ في البحث يجعل من الضروري أن نختار من جوانب اللغة المتنوعة ما يمكن أن نبدأ به بحثنا. ولكن من أين نبدأ وليس في الكلام ذاته ما يهدينا إلى نقطة البداية؟

بعض الباحثين يفضل أن يبدأ بدراسة النظام الصوتي للغة (علم الأصوات والفونولوجي) محددا طبيعة السواكن والحركات مبينا الطرق التي بها تندمج هذه الوحدات لتؤلف مقاطع أو أية امتدادات أخرى، وبعد ذلك ينتقل إلى دراسة أبنية الكلمات (الصرف) وبعد هذا ينتقل إلى دراسة الطرق التي تنتظم فيها الكلمات، لتؤلف جملا أو عبارات (النحو)، وقد يحاول فيما بعد دراسة المعاني المختلفة التي تنقلها هذه الكلمات أو الجمل (المعنى).

لقد كان هذا منهجا شائعا في علم اللغة حتى عهد قريب، ولكن - كما يقول كريستال -: لا شيء طبيعيا في هذا المنهج، ولغويون كثيرون يفضلون غالبا المنهج المقابل له، هذا المنهج يبدأ بدراسة العلاقات الدلالية التي بين الكلمات أو بين المجموعات الكلامية المتعاقبة، ثم يحدد بعد ذلك النماذج النحوية أو

---

(1) التفكير العلمي ص ٣١.

الصرفية التي تعبر عن هذه المعاني، وبعد ذلك فقط ربما ينتقل إلى دراسة الوسيلة التي تنطق بها هذه النماذج. وليس هذا أيضا هو الاختيار الوحيد فثمة بدائل أخرى(١).

ويتحدث الدكتور تمام حسان عن الظواهر اللغوية التي يمكن أن تخضع للملاحظة قائلا: "وسيل الملاحظة الاستقراء، ويتطلب الاستقراء عددا هائلا من المفردات التي يتناولها، وقد تكون هذه المفردات أصواتا عند دراسة الأصوات أو حروفا أو مقاطع أو ظواهر موقعية عند دراسة التشكيل الصوتي (الفونولوجي) أو صيغا عند دراسة الصرف أو أبوابا عند دراسة النحو أو غير ذلك. وتتطلب كل مجموعة من هذه المجموعات أن يتم استقراء مفرداتها، وقد وُضع كل منها تحت ظروف مختلفة، فإذا أردنا استقراء سلوك صوت معين مثلا اخترنا من حالات النطق ما يكون هذا الصوت مجاورا فيها لكل صوت آخر من أصوات اللغة إما سابقا وإما لاحقا له، ثم وضعناه في أول الكلمة أو بين صوتي علة أو مشددا أو ساكنا في الوسط.. إلخ ثم لاحظنا ما يعتوره في كل حالة من هذه الحالات من خصائص صوتية، ثم يجيء التقسيم وتسمية الأقسام بعد الملاحظة، وعملية التقسيم تقوم على إيجاد أوجه الاتفاق بين المفردات، فما توافق منها ائتلف وما تنافر منها اختلف، وإنما تكون أوجه الاتفاق بين ما ائتلف منها متعددة الجوانب كالشركة في الشكل أو في الوظيفة أو فيهما معا"(٢).

أما الطرق التي يستخدمها اللغوي عند ملاحظة الظواهر المدروسة فكثيرة منها: السماع أو التدوين الصوتي، وقد يستخدم الأجهزة في تسجيل المادة أو في تحليلها وفي التعرف على خصائصها مثل: راسم الذبذبات Oscilograph أو جهاز رسم الأطياف Spectrograph أو الكيموجراف Kymograph(٣).

وقد يعمد الباحث إلى الإحصاء أو إلى استخدام الرموز والمعادلات، على أن استخدام هذه الطرق كلها - كما يقول (كريستال): ليست إلا وسائل لغاية محددة، وليست غاية في حد ذاتها. ومن الفهم القاصر والضلال البين أن ننظر إلى علم اللغة على ضوء هذه الوسائل، وربما كان أكثر من ذلك أهمية

---

(1) Crystal ,Linguistics,P89.

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٥٨، ١٥٩.

(٣) انظر: مختار عمر (د. أحمد) دراسة الصوت اللغوي من ص ٣٣-٤٤ للتعريف بهذه الأجهزة.

الطريقة التي تستند إليها الإجراءات أو المخططات العلمية في الدراسة أو بعبارة أفضل أن ننعم النظر في المنهج العلمي الذي يعتمد عليه البحث(١).

(ج) ويعد أن يستوفي الباحث ملاحظاته، وينتهي من ترتيبها ترتيبا يكشف عن العلاقات الداخلية التي تربط بين الظواهر المدروسة، ويستخلص أوجه الاتفاق أو الاختلاف بينها- يضع الفروض التي تفسر هذه الظواهر.

والفرض Hypothesis قضية تفترض أو تتنبأ بعلاقة بين متغيرين أو أكثر كأن يقال إذا وقع (أ) وقع (ب) ومن الفروض الأولية في اللغة: تفخم الحركات العربية حين تسبق بصوت مفخم، ينصب الفعل المضارع إذا سبق بأداة نصب.. إلخ ومن الفروض الأكثر تعقيدا: التغيرات الصوتية مطردة، اللغة ظاهرة إنسانية، العربية الفصحى كانت لهجة قريش.. الخ.

والفرض الواحد قد يقوم على أساس عدد من الفروض التي يمكن اختيارها قبل وضعه بطرق إحصائية. فالفرض القائل بنصب الفعل المضارع حين يسبق بناصب قد سُبق بعدد من الفروض التي حددت إحصائيا النواصب التي يجيء بعدها الفعل المضارع.

(د) ويعد أن يضع الباحث الفروض المناسبة لتفسير الظواهر المدروسة ينبغي عليه أن يتحقق من صحتها، لأن الفرض- من حيث المبدأ- يقرر علاقة يمكن أن يُبرهن عليها أو يتبين خطؤها. وذلك بوضع الظواهر المدروسة في ظروف محكومة مع تنويع الظروف كلما أمكن، وينبغي أن تكون الظروف التي تتم فيها التجربة واضحة بحيث يمكن للآخرين أن يكرروا التجربة ويؤكدوا صحة النتائج(٢).

بيد أن الظواهر اللغوية التي يمكن أن تختبر بالطريقة السابقة المتبعة في الأشياء المادية قليلة (كدراسة الجوانب الفسيولوجية والسمعية للأصوات اللغوية). وليست هذه الطريقة وحدها السبيل إلى الاستيثاق من الفرض، فاللغوي مثلا يمكنه أن يقوم بفحص أكبر عدد من المتغيرات في موقف تجريبي خاص، فعلى سبيل المثال يمكنه أن يتحقق عن طريق مادة لغوية جديدة من تأثير متغير ما على المتغيرات

---

(1) Crystal, Linguistics, P.48.

(٢) زكريا (د.فؤاد) التفكير العلمي ص ٣٣.

الأخرى في الموقف (مثل وجود لن وغيرها من النواصب قبل الفعل المضارع) كما يقوم أيضا بفحص العوامل الأخرى التي يمكن أن يكون لها دور في التغير المذكور كأن يفحص مثلا تأثير موقع الناصب من الفعل المنصوب، أو الفصل بينه وبين الفعل بفاصل ما (حرفا أو كلمة أو جملة).. إلخ وعليه عندئذ أن يستبعد العوامل غير المؤثرة أو غير الصالحة لتفسير النتيجة.

وقد يكون العامل المؤثر في الحالة اللغوية هو فقدان السبب الموجب لتأثير معين، وهذا هو ما فسر به النحاة حالة الرفع في الفعل المضارع حين قالوا: يرفع الفعل المضارع حين لا يسبقه ناصب أو جازم.

وينبغي الحذر عند وضع الفروض من تأثرنا بالفروض التقليدية في المجال المدروس، ولذلك ينبغي أن توضع هذه الفروض موضع الاختبار الدقيق. ومثال ذلك أن النحاة القدامى قالوا: إن الفعل المضارع يأتي منصوبا بأنْ مضمرة وجوبا بعد حتى ولام التعليل، والسر في ذلك كما يقول سيبويه: فإنما انتصب هذا بأن، وأن هنا مضمرة، ولو لم تضمرها لكان الكلام محالا، لأن اللام وحتى إنما يعملان في الأسماء فيجران وليستا من الحروف التي تضاف إلى الأفعال[1].

فليس ثمة ما يمنع من وضع فرض جديد لتفسير النصب في الفعل المضارع بعد اللام وحتى، وهو أن اللام وحتى قد يجران إذا سبقا اسما وقد ينصبان إذا سبقا فعلا مضارعا.

ومن الضروري أن يكون واضحا أن الفرض الذي يقترحه الباحث لتفسير الظاهرة موضوع البحث ينبغي العدول عنه إذا لم يتبين صحته والبحث عن فرض آخر.. وهكذا حتى نصل إلى الفرض الصحيح، وهذا يتطلب العودة إلى مادة البحث أو جمع مادة أخري كلما احتاج الأمر إلى ذلك.

(هـ) بعد أن ينتهي الباحث من اختيار الفروض والبرهنة على واحد منها يأتي إلى المرحلة الأخيرة حيث تصبح الفروض المختبرة قوانين أو قواعد أو سلوكا يمكن التنبؤ به.

وفقا لهذا الأساس يمكن أن نجعل الفرض الآتي قاعدة فنقول: فقدت لهجة القاهرة فونيم (الثاء والذال) وحل محلهما على التعاقب فونيم (التاء والدال).

هذه القاعدة يتوقع أن يجيء الكلام وفقا لها فكلما وجدت (ثاء) في الفصحى مثل: ثوب وثوم

(١) سيبويه: الكتاب ٣/ ٥، ٦.

وثلاثة.. إلخ توقعت أن تحل محلها (التاء) فيقال: توب وتوم وتلاتة.. إلخ وكلما وجدت (ذالا) توقعت أن يحل محلها (الدال) فيقال في: ذئب وذراع وذيل - ديب ودراع وديل.

وليس المقصود بوضع القواعد في العلوم اللغوية بخاصة أن تكون كلية تشمل كل الأفراد، بل الهدف هو الوصول إلى قواعد عامة تنتظم أغلب الأفراد، وينبغي ألا ينظر إلى القاعدة في العلوم اللغوية كما ينظر إلى القانون في العلوم الطبيعية مثلا.

فإذا ما وجد الباحث شيئا يختلف عن القاعدة فلا يتسرع باتهامها أو بتخطئة الظاهرة أو المثال المخالف لها، بل عليه أن يبحث عن تفسير لذلك، وعلى سبيل المثال ماذا نقول إذا تبين من المادة المجموعة أن (السين) تحل أحيانا محل (الثاء) وأن (الزاي) تحل أحيانا محل (الذال) في اللهجة القاهرية وهو ما يبدو متعارضا مع القاعدة السابقة؟

وتفسير ذلك أن بعض الكلمات التي تحل فيها (السين) محل (الثاء) مثل: سورة وحديس.. إلخ أو تحل فيها (الزاي) محل (الذال) مثل: زكي وزكر يغلب أن تكون على ألسنة أفراد من طبقة اجتماعية أرقى تعلما من الطبقة التي تجعلها (تاء) أو (دالا). ويفسر بعضها الآخر أن استخدام (السين) أو (الزاي) يغلب حين يكون الموقف مرتبطا بالعلم أو الدين أو الأدب فيقال مثلا: الأدب الحديس والزكر الحكيم.. الخ.

ويلخص الدكتور تمام الأسس التي ينبغي مراعاتها عند وضع القواعد فيما يأتي:

- القاعدة وصف لسلوك عملي في تركيب اللغة، ويلاحظ أن يكون هذا السلوك مطردا حتى يعبر عنه بالقاعدة.

- القاعدة لهذا السبب جزء من المنهج لا جزء من اللغة.

- لا بد أن تتصف القاعدة بالعموم وليس من الضروري أن تتصف بالشمول.

- أن تكون القاعدة مختصرة قدر الطاقة.

- من الضروري إيراد بعض الشواهد والأمثلة التي جرى عليها الاستقراء لتكون سندا للقواعد وإيضاحا لها[1].

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٦٣، ١٦٤.

ثالثاً: الموضوعية

الموضوعية سمة أساسية للتفكير العلمي، والمقصود بها أن القضايا التي تُثار أو النتائج التي يُوصل إليها أو الأدلة التي يعتمد عليها ينبغي أن تكون قابلة - بعامة - للملاحظة والتجربة، والكلمة التي تلخص هذه المعاني هي أن يكون العمل تجريبيا empirical. والعمل التجريبي هو اختبار يتم فيه فحص ظاهرة في ظروف تجريبية محكومة، وتكون النتائج فيه قابلة للملاحظة المباشرة والحكم المباشر، فإذا ما أعيد الفحص وصل الباحث إلى النتيجة ذاتها والحكم ذاته، ولنقل بعبارة أخرى: النتائج يمكن البرهنة عليها(١).

وثمة طريق آخر للنظر إلى الموضوعية هو أن ننظر إليها على ضوء نقيضها الذاتية، وحينئذ يكون المقصود بها: أن يكون التفكير مرتبطا بسلوك الظواهر الخاضعة للملاحظة بحيث تصبح طبيعة موضوع الدراسة هي الفيصل في الحكم على الظواهر دون اعتماد على ميول الذات الباحثة ولا عواطفها وآرائها الشخصية ومعتقداتها(٢).

إن الدراسة الموضوعية ينبغي أن تفهم على أنها مناقضة للنظرة الذاتية، إن العالم الذي يريد أن يعرف درجة حرارة طفل مثلا لا يعتمد على شعوره الذاتي أو موقفه العاطفي نحو هذا الطفل بل يخضعه للملاحظة الموضوعية، وقد يستعين في ذلك (بالترمومتر) المعياري ليكون القياس دقيقا، ولن يتطلب التحقق مما وصل إليه من نتيجة إلا وجود ملاحظ آخر يتبين مطابقة الشيء المراد قياس درجة حرارته للمقياس المعياري (أي قراءة الترمومتر).

أما المعالجة الذاتية فهي قائمة على أساس يختلف باختلاف الأشخاص الذين يقومون بالمعالجة، فلو كان الملاحظ مثلا والد الطفل وقام بنفسه بالتعرف على درجة الحرارة معتمدا على شعوره الذاتي نحو ولده - ما توقعنا حكما يمكن التحقق منه، وهكذا سيكون الأمر حين يطلب إلى شخص آخر أن يقوم

---

(1) Crystal , Linguistics k, P.P 99,100

(٢) حسان (د. تمام) الأصول ص ١٤.

بالملاحظة بالطريقة ذاتها، ولهذا قيل: إن المعالجة الموضوعية علمية، لأن الملاحظين الذين يراقبون الموضوع المدروس لن يختلفوا في ملاحظاتهم أو في أحكامهم، أما المعالجة الذاتية فغير علمية، لأنها تحتاج إلى ملاحظين يتخذون نفس الموقف الشعوري نحو الموضوع المدروس وهذا لا سبيل إليه.

وثمة معان إضافية للمصطلح "الموضوعية" على درجة كبيرة من الأهمية، إنها تعنى أن يتخذ الباحث مسلكا نقديا مبدئيا حين يتشكك في أي فرض من الفروض إلى أن يتأكد من صحته بدليل تجريبي، إنها تعنى الحذر من المفاهيم السابقة التي ربما تدعم فرضا من الفروض المقترحة، وعلى الباحث من أجل ذلك أن يبذل جهدا في التفكير بعيدا عن القضية المطروحة فيدرسها من زاوية جديدة، أو يعرض فروضه على رفقائه من الباحثين لقراءتها بدقة ونقدها، إنها تعنى أيضا استخدام مخططات دراسية موحدة procedures مخططات تحظى بالقبول عند معظم أو كل اللغويين، لأنها صالحة للبحث ولا تحتاج إلى تعديلات خاصة في كل مرة تستخدم فيها..الخ (١).

لقد تكلمنا عن الذاتية في مضمونها المرفوض علميا حيث يعتمد الباحث في الملاحظة وفي وضع الفروض على شعوره أو معتقده أو حدسه تجاه الموضوع المدروس، بيد أن لها جانبا آخر قد يضيف بعدا ثمينا ونوعيا للدراسة، وقد يزودنا بفرض مفيد وبخاصة في مراحل البحث الأولى، ولكن ينبغي أن نضع في اعتبارنا إن مثل هذه الفروض غير علمية إلا إذا تم اختبارها والبرهنة عليها(٢).

وعلى هذا فليست الملاحظة الذاتية معيبة في كل الأوقات أو مخطئة في كل الظروف، فهناك دراسات في الأدب والنقد مثلا تستند في بعض أحكامها على الملاحظة الذاتية، وليس هذا معيبا بحال من الأحوال ولا ينبغي أن يكون مدعاة إلى اتهام هذه العلوم بعدم الدقة، والذي يعنينا هنا أن الدراسة اللغوية - لكي تكون علمية - ينبغي أن تكون موضوعية.

وقد كان البحث اللغوي - وبخاصة فيما يتصل بنشأة اللغات - مجالا لكثير من الفروض والنتائج غير العلمية. لقد قيل مثلًا: (اللغة العبرية أقدم اللغات) وهو فرض لا سبيل للبرهنة عليه علميا (أي

---

(1) See: Crystal, Linguistics, P.p. 66-102.
(2) See: Crystal, Linguistics, P.p. 66-102.

باستخدام المنهج العلمي الذي حددنا خطوطه العامة في الصفحات السابقة) وثمة مزاعم أخرى تدفع هذا الفرض فثمة من يقول: (اللغة العربية أقدم اللغات) ومن يقول (اللغة الألمانية أقدم اللغات).. إلخ.

ومن ذلك أيضا ما يتصل بالحديث عن أفضل اللغات أو أكمل اللغات أو أغنى اللغات أو ما شاء أصحاب هذا الحديث من صفات التفضيل، فهذا ابن فارس يقرر أن اللغة العربية خُصت بالبيان وأن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه، ولو احتجت إلى التعبير بها عن شيء مثلا لو جدت عشرات من الألفاظ تدل عليه، ولو أردت ذلك بغيرها لما أمكنك ذلك..[1] وشيء من هذا يقوله (جالينوس) عن اليونانية، إذ هي أفضل اللغات، لأن سائر اللغات إنما تشبه نباح الكلاب أو نقيق الضفادع[2].

من طرق البحث الموضوعية:

لقد تحدثنا عن الموضوعية على أنها سمة أساسية للتفكير العلمي وسلوك ينبغي على الباحث أن يسلكه نحو موضوعه،هذا جانب له أهميته، وثمة جانب آخر لا يقل عنه أهمية هو أن نقترح طرقا أو (تكنيكات) معينة تتحقق فيها النظرة الموضوعية الخالصة.

(أ) استخدام مخطط موحد:

يرى (كريستال) أن من معاني الموضوعية أن يستخدم الباحث مخططات موحدة (procedures) بقدر الإمكان، مخططات يقبلها معظم اللغويين أو كلهم، ويرون أنها صالحة للدراسة وليست في حاجة إلى تبريرات أو تعديلات في كل مرة تستخدم فيها.

وهذا الموضوع يحتاج إلى توضيح وبخاصة ما يتصل بالكلمة (موحدة) التي تعني هنا أمرين:

الأول: تشير إلى طرق أو (تكنيكات) يجزم علماء اللغة بأنها صالحة للدراسة أو على الأقل يقرر الباحثون صلاحيتها على الأسس غير المقررة في علم اللغة، كاستخدام التفسير الإحصائي أو غيره من التفسيرات الرياضية أو استخدام المنهج الشكلي [3].

---

(١) الصاحبي ص ١٦ – ٢٥.

(٢) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ١/ ٣٩.

(٣) ستتكلم في نهاية هذا الفصل عن استخدام الصيغ الرياضية في البحث اللغوي.

الثاني: تشير إلى طرق أو (تكنيكات) ينتشر استعمالها في علم اللغة ويعرف اللغويون قيمتها. وما هو أكثر من ذلك أنهم يفهمون حدودها فهما جيدا، مثال ذلك ما يعرف باختبار الثنائيات الصغرى (Minimal pairs) في علم الأصوات التشكيلي أو (Phonology)،وهذا المنهج استخدمه معظم اللغويين عندما كانوا يدرسون لغة لأول مرة، ويريدون اكتشاف نظامها الصوتي(1).

وإليك صورة موجزة لهذا الاختبار.

من بين الأصوات التي يمكن للإنسان أن ينتجها أصوات يستخدمها بالفعل في لغته لغرض الاتصال وأصوات أخرى لا تستخدم لهذا الغرض، ففي العربية الفصحى مثلا يمكنك أن تنطق الفتحة الطويلة في الفعل (طغى) أو ما يشبهه فتحة طويلة ممالة إلى الكسرة، لأنه لا ينبني على ذلك أي فرق في المعنى، ولكنك لو وضعت الطاء مثلا موضع التاء من الكلمة (تين) لكان الأمر مختلفا، إذ ينبني على ذلك خلاف في المعنى، وتخيل معي ما يكون حين يقال: أكلت طينا وعنبا. بدلا من تينا وعنبا. واختبار الثنائيات الصغرى - باختصار - وسيلة يقرر بها اللغوي الذي يدرس لغة معينة - الأصوات التي تفرق في المعنى والأصوات التي لا تفرق في المعنى، إنه يعمل على النحو الآتي:

خذ كلمة مستقلة بذاتها لتبدأ بها، ثم غير صوتا واحدا من أصواتها، فإذا ما نتج عن ذلك كلمة جديدة مختلفة (أي إذا أخبرك الراوي بأن الكلمتين ليستا متماثلتين) فلديك إذًا صورة للثنائيات الصغرى، ومن هنا يعتبر الباحث الصوتين اللذين أحدث تغييرهما هاتين الكلمتين - صوتين أساسين، أي أنهما عنصران من النظام الصوتي، ويطلق اللغويون على كل صوت منهما مصطلح (فونيم) انظر مثلا إلى: قال وكال وبال ومال. إلخ فالقاف والكاف والباء والسين والميم فونيمات في اللغة العربية الفصحى تشكل وحدات من نظامها الصوتي، لأنها تقوم بالتفريق في المعاني كما هو واضح عند المقابلة بين الكلمات السابقة.

(ب) فحص عينة محدودة:

لقد ذكرنا من قبل أن موضوع علم اللغة هو اللغة منطوقة أو مكتوبة في المواقف الفعلية. والهدف

---

(1) Crystal, Linguistics, P.-00

من دراسة هذه المادة عند أصحاب المنهج التجريبي هو أن نسلكها في أنماط ونماذج، نماذج صوتية أو صرفية أو نحوية. وعلى أساس مادة محدودة نضع فروضا تتصل ببنية هذه المادة تنطبق على أية مادة أخرى تضاف إلى المادة المختبرة، هذا القدر من المادة الذي نستخدمه للبرهنة على فروضنا يطلق عليه مصطلح العينة أو المدونة (Corpus)(١).

والعينة - كما يعرفها (هارتمان) و(ستورك): قدر غير منتظم من المادة اللغوية المجموعة في مجال لغوى محدد (منطوقة أو مكتوبة). هذه المادة يحللها اللغوي لكي يضع فروضا أو مقولات تتصل بالخصائص الصوتية أو الإملائية أو الصرفية أو النحوية أو المعجمية للغة(٢).

وقد كان هذا المسلك الذي يعتمد في الدراسة على تحليل قدر محدود من اللغة منتشرا في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن، وقد عرف بأسماء عديدة، ربما كان أكثرها شهرة المنهج البنيوى (Structural Approach)(٣).

وقد نهج علماء العربية الأوائل حين جمعوا مفرداتها ووضعوا نظامها الصوتي والصرفي والنحوي هذا المنهج، فاكتفوا بالقليل عن الكثير، وقاسوا ما لم يسمع على ما سمع، وفي ذلك يقول المازني: ألا ترى أنك إذا سمعت "قام زيد" أجزت أنت (ظرف خالد) و(حمق بشر) وكان ما قسته عربيا كالذي قست عليه، لأنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ومفعول، وإنما سمعت بعضا فجعلته أصلا، وقست عليه ما لم تسمع، فهذا أثبت وأقيس(٤).

البحث اللغوي بين أنصار المنهج التجريبي وأنصار النحو التوليدي:

النظرية التحويلية التوليدية

لم يستمر المنهج التجريبي مسيطرا على البحث اللغوي طويلا، وإن كان مازال يستخدم حتى اليوم، فقد ظهر منهج جديد في أواخر الخمسينات عرف بالنحو التوليدي والتحويلي. ويرتبط هذا المنهج أساسا

(1) Crystal, Linguistics, P.-02
(2) Dictionary of Language and Linguistics.
(3) Crystal, Linguistics, P. -103

(٤) المنصف ج١ ص١٨٠.

باسم (ناعوم تشومسكي) هذا المنهج معارض للمنهج التجريبي: ذلك المنهج الذي يعتمد على الملاحظة الموضوعية واختبار الفروض بالتجربة المباشرة، ولا يعتمد ألبتَّة على الفروض والاستنتاجات العقلية التي لا تخضع لهما.

وقد قرر (تشومسكي) أن علم اللغة يُعنى بما هو أكثر من مجموعة النماذج الموجودة في أية عينة، ونحن معه في ذلك، لان العينات - كما يقول (كريستال) لا يمكن أن تمثل اللغة كلها بل تعكس فحسب صورة جزئية مختارة. أضف إلى ذلك أن تسجيل الكلام في المواقف الطبيعية يكشف عن بدايات زائفة جدا، انحرافات عن القواعد، تغيرات في مجرى الحديث حين يدرك المتكلم أن السامع لم يفهم ما يقول، أو أنه هو لم يعبر عما يريد تعبيرا مقبولا.. هذه الأخطاء أو العثرات قد تكون راجعة إلى عدد من العوامل مثل: الذاكرة الضعيفة، أو انشغال السامع عن المتكلم.. إلخ والمهم أن لدينا قدرة على التعرف على ماهية هذه العوامل وكيف نتجنبها. نحن لا نأخذ هذه العوامل في الحسبان حين ننصت إلى ما يقوله شخص ما، وهذا يفترض - كما يقول (تشومسكي) - أننا تعلمنا طريقة لتمييز المنطوق الخاطىء من الصائب عند التفريق بين الجمل. ولهذا نفترض أن البشر قد تمكنوا من نظام من القواعد، هذا النظام ليس كامنا في العينات بل إنه قابع خارجها، من المحتمل أن يكون في عقول المتكلمين باللغة[1].

إن وجود هذا النظام من القواعد يفترضه ما نلاحظه في الاستعمال اللغوي من مظاهر الخلق والابتكار، ومن البدهي في هذه الأيام أن يقال: إن كل واحد منا لديه قدرة على إنتاج وفهم عدد هائل من الجمل الجديدة، جمل لم يؤلفها ولم يسمعها من قبل، أو على الأقل لا يذكر ذلك.

خذ مثلا لذلك الجملة الآتية التي أتوقع انك لم تؤلفها ولم تسمعها من قبل ومع ذلك تفهمها جيدا. (كتاب البنت الصغيرة دعاء الكثيرة صفحاته البارزة حروفه، الزاهية ألوانه الجميلة صوره - مشوقة حكاياته، أحداثها مثيرة، ومضمونها أخلاقي).

والهدف الرئيسي للنظرية اللغوية هو أن تُجيب عن السؤال الآتي: كيف فهمنا هذه الجملة؟ ربما نكون قد تمكنا من وسيلة تجعلنا قادرين على تقسيم كل جملة إلى أجزاء أو وحدات مألوفة (مبتدأ + خبر)

(1) Crystal, Linguistics, P-03.

كما في: (السيارة مسرعة) مثلا، ونصل إلى تأليف أيه جملة جديدة بالرجوع إلى هذه الأجزاء أو الوحدات[1].

وفي كل لغة عدد لا حصر له من الجمل، ولدى كل فرد من المتكلمين بها قدرة على علاج أجزائها من الكلمات والعبارات وأشباه الجمل بهذه الطريقة. اللغة - كما يقول التوليديون - ما هي إلا استخدام غير محدود لوسائل محدودة، وهذا يتطلب أو يفترض وجود نظام من القواعد يتمثل في كل شخص يتعلم لغة معينة. بهذا النظام يفهم هذا الشخص وينتج جملا جديدة أو قديمة مقبولة أو مرفوضة - ولا شيء غير هذا.

ويمضي (تشومسكي) في المناقشة ليوضح أن دراسة هذا النظام من القواعد يكون - في النهاية - أكثر أهمية من دراسة الجمل الفعلية ذاتها، لأن هذا النظام ما هو إلا مخطط أو مشروع عمل يحدد كل الاحتمالات في اللغة، على حين أن أية مجموعة من الجمل (كما في العينة) مهما كانت كبيرة تقدم فحسب صورة لما يمكن أن نفعله. ولهذا وضع فرقا أساسيا بين معرفة المتكلم بلغته أي نظام القواعد المتمكن منه، واستخدامه الفعلي للغة في مواقف الحياة الواقعية، وقد أطلق على الأول مصطلح (ملكة Competence) وعلى الثاني (فعل، تنفيذ Performance).

ومن أعظم مهام علم اللغة - كما يقول (تشومسكي) أن يدرس هذه الملكة. إن مشكلة اللغوي (ومثلها مشكلة الطفل الذي يتعلم لغته) هي أن يميز (أو يستخرج) من مادة الفعل (data of performance) نظام القواعد الكامن (underlying system) الذي يتمكن منه المتكلم والسامع كلاهما، والذي يلجأ إليه في التنفيذ الفعلي[2].

وجوه التعارض بين المنهجين:

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى موضوعنا الخاص بالتعارض بين المنهج التجريبي الذي يلاحظ المادة المجموعة ويخضعها للتجربة، والتوليدي الذي ينظر إلى النظام اللغوي نظرة عقلانية.

---

(1) Crystal, Linguistics, P-04
(2) Crystal, Linguistics, P. 104

يقول (كريستال) إن الملكة - كما أوضحها (تشومسكي) في النصوص السابقة - نظام عقلي تحتي، إنه يكمن وراء السلوك الفعلي، ولـذلك لا يـصلح للدراسـة التجريبيـة المباشرة، وإذا لم يكـن صـالحا للملاحظة المباشرة فإن الطريق الرئيسي الذي يمكننا من اكتشافه هو الاستبطان (introspection) أي بسؤال أنفسنا كيف نستجيب (أو نفسر أو نحلل) لجملة معينة؟ إن صاحب اللغة (أو اللغوي الذي قـد يكون من أصحاب اللغة المدروسة) مدينان للحدس اللغوي الذي يتيح لهما أن يحللا اللغة وفقا لحاجتهم (إزالة اللبس، تجاهل الأخطاء، فهم الجمل الجديدة.. الخ). والذي نستخلصه من ذلك أنه إذا كان هدف علم اللغة هو وصف الملكة (Competence)، وإذا كان المدخل الوحيـد المبـاشر إليهـا هـو الحـدس (intuition) فإن الحدس يصبح دليلا من الأدلة التي نستشهد بها على ماهية هذه الملكـة، ولنقـل هـذا بعبارة أخرى: إذا كانت الملكة أو القدرة هي الموضوع الفعلي لعلم اللغة فان حدسنا يكون جزءا من المادة الذي عليه تستند نظرية الملكة[1].

والحدس من حيث هو طريقة للمعرفة يتميز بأنه معرفة مباشرة لا تحتـاج إلى وسـائط، ولا تـسير بالتدريج من خطوة إلى خطوة، وهو ينقلنا مباشرة إلى لب الموضوع المدروس بدلا مـن وصـفه وصـفا خارجيا، أو مقارنته بغيره، وهو في جوهره معرفة فردية أي أنه يتاح لشخص بعينه لا لأي شخص آخر، وهو يتطلب تجربة من نوع خاص يصعب نقلها إلى الغير أو تعليمها لهـم، ويـستحيل أن نعممهـا عـلى الجميع[2].

ولعل ما سبق من تعريف الحدس هو السبب في أنه لا يعد جزءا من موضوع البحث أو أداة لـه في العلوم، فليس من المحتمل مثلا أن يسمح عالم في وظائف الأعضاء لشعوره الذاتي بما يحـدث في ذراعـه مثلا عندما يحركها أن يكون مادة تقف جنبا إلى جنب مع بحوثه التشريحية والإشعاعية، وسـوف يـتهم هذا العالم بالذاتية وباعتماده على نتائج مسبقة.. وغير ذلك من الانتقادات. إن المعرفة التـي تعتمـد عـلى الحدس مادةً للبحث أو أداة له نمط من المعرفة يختلف عن المعرفة الناتجة عن الملاحظة المباشرة والتجربة

---

(1) Crystal, Linguistics, P. 105

(٢) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمي ص٩٥.

الموضوعية، والعلماء لا يعترفون بغير هذه المعرفة ولا يرضون بغيرها بديلا عنها.

أما (تشومسكي) فيرى أن علم اللغة علم عقلاني في جوهره.. ويري أن المقارنة بين موقف عالم الطبيعة وعالم العلوم الاجتماعية خارجة عن الموضوع، علم اللغة فصل من دراسة العقل، ومن المقرر أن يقال إنه فرع من فروع علم النفس الإدراكي، وعلم اللغة بهذا الاعتبار ليس على خطأ حين يعد الحدس جزءا من مادته(١).

ولا ينبغي أن نبالغ في تصوير التعارض الملحوظ بين المنهجين أو نستخف بما يمكن أن يكون نقطة اتصال يلتقيان عندها.

نقاط التلاقي بين المنهجين:

إن النظرية التوليدية لا يستبعد أصحابها على الإطلاق البرهان التجريبي من مجالات البحث، والعكس هو الصحيح، لقد أكد (تشومسكي) غير مرة على الحاجة إلى الفروض في اللغة، الفروض التي يمكن اختبارها تجريبيًا. وينقد أولئك الذين يعارضون ذلك، ولا أحد من العقلانيين ينكر العلاقة التي بين هذه الطرق وموضوع البحث من حيث اكتشاف نظام من القواعد خاص بالملكة، ومن حيث اكتشاف أن هذه القواعد كانت تنتج الجمل الموجودة في أية عينة، بل ربما يقرر – هذا الباحث العقلاني – في النهاية أن شيئا ما في مكان ما كان خطأ، وأن عليه أن يعيد دراسة موقفه، وهكذا تتبين التلازم الضروري بين المنهج العقلاني والمادة اللغوية التي يمكن أن تخضع للتجربة.

وفي الجانب الآخر لا أحد ممن يعارض المنهج العقلاني يحصر نفسه في النماذج التي يكتشفها في العينة، إن هذا العالم – كما يقول (كريستال): ليس ثمة لغوى يعتقد أن قواعده التي يستخرجها من المادة المجموعة لا تتجاوز هذه المادة.. إن هذا اللغوي في الحقيقة يقبل تماما الهدف المقرر لعلم اللغة وهو: بناء نظام تجريدي من القواعد لتفسير الظواهر اللغوية(٢).

ومع ذلك فعدد كبير من اللغويين يعتقد بوجود تعارض مبدئي بين وجهة النظر العقلانية في التحليل اللغوي وما يعرف بوجهة النظر التجريبية، وربما كان من الأسباب الرئيسية للمشكلة، مشكلة

---

(1) Crystal , Linguistics , p. 106.
(2) Crystal , Linguistics , p. 106.

التعارض بين المنهجين، المعنى الذي تشير إليه كلمة (حدس). فثمة ادعاء بأن المعنى المقصود للأحداس في النظرية التوليدية لا يتعارض مع المناهج التجريبية، فما يشار إليه بالحدس ليس إلا رد الفعل المباشر الذي يظهره راوٍ لغوى (informant) إزاء ما يقبله من لغته معنًى ومبنًى. (أي ما موقفه من صيغة معينة؟ أيقبلها أم يرفضها؟ ما موقفه من تركيب معين؟ أيقبله أم يرفضه؟ ما الذي يعينه بكلمة معينة أو بجملة معينة؟.. الخ)، وثمة ادعاء آخر بأن ما يُشار إليه بالحدس يتضمن أكثر مما سبق، وأن أحداس المتكلم ذاتها فيما يتصل ببناء لغته هي بحكم حقها الطبيعي جزء من موضوع البحث في التحليل اللغوي، وإذا كان الأمر كذلك فهذا الزعم يختلف ولا شك عن وجهة النظر التجريبية المثالية، كما أن الرأي المضاد له (القائل بعدم التعارض بين المنهجين) ربما يكون مضللا.

ربما تكون المشكلة ناتجة عن ممارسات خاطئة وقع فيها بعض اللغويين، قد ترجع إلى: فشل في الاستخدام المنظم للطرق التجريبية في اختبار عمومية أحداس المتكلم صاحب اللغة، أو موقفه بأحداس المتكلمين أو مواقفهم، أو غير ذلك من الأخطاء[1].

إن المشكلة في الحقيقة ترجع إلى الادعاء بأن المعلومات التي يحصل عليها عالم اللغة التوليدي ينبغي أن تحظى بمكانة مساوية للمعلومات المبرهن عليها تجريبيا. إن هذا الادعاء يحمل مضامين مشوشة بخصوص أي تعريف لعلم اللغة بأنه الدراسة العلمية للغة، فإذا ما رغب شخص في أن يستخدم مصطلح علم اللغة بهذا المفهوم، وفي الوقت يؤكد ثقته بالنظرية التوليدية فقد يكون من الضروري له أن يعيد تعريف كلمة (علم Science) لكي يدعم تركيزه على الحدس الذي يرفضه الموقف الثابت للعلم، ربما يكون عليه أن يقول: إن علم اللغة ليس (هذا النوع من العلم) الذي يكون فيه البرهان التجريبي هو البرهان الوحيد، أي أن علم اللغة ليس علما بالمعنى العادي للعلم، بيد أن محاولة كهذه هي من غير شك محل مناقشة.

---

(1) Crystal , Linguistics , p. 108.

وفي هذه المحاولة يقرر (كريستال) أن علم اللغة الجديد عليه أن يحذر من هذه المحاولة لسببين أساسيين:

الأول: أن أي تعريف جديد للعلم ملائم لمجال بحثي محدد سوف يلقى معارضة من فروع العلم الأخرى وبخاصة من فلاسفة العلوم.

الثاني: أن ذلك سوف يجعل من الصعوبة بمكان - إن لم يكن من المستحيل - على المعارف اللغوية أن تندمج في إطار الشكل العام للمعرفة العلمية، ومن حيث المبدأ فالمعرفة في علم من العلوم تتواصل مع المعرفة في علم آخر، لأن أوليات الدراسة نفسها مشتركة، فإذا ما طور اللغويون أساسا عقلانيا خاصا بهم فسوف يعزلون أنفسهم عن التيار العام للبحث العلمي، وسوف يكون علم اللغة بذلك علما شاذًا، على الأقل حتى يجيء الوقت الذي تكون فيه العلوم كلها عقلانية(1).

السبيل إلى إزالة التعارض:

والآن هل من سبيل لإزالة هذا التعارض بين المنهج العقلاني والتجريبي؟ لقد بُذلت في هذه السبيل محاولات قامت على أساس ابتكار وسائل تجريبية معقدة لوصف وتصنيف استجابات الراوي الحدسية للغة، وقد احتل علم النفس اللغوي الذي يبحث في موضوع (القبول acceptability) مكانا ظاهرا استطاع منه أن يضع جسرا بين المنهجين المتعارضين.

ويشير (كريستال) حين يتكلم عن هذه المحاولات إلى أنه ينبغي علينا أن نميز بوضوح بين حدس المتكلم وحدس اللغوي أو الباحث.

فالحدسان يعملان بطرق مختلفة - فالمتكلم يمكن الرجوع إليه فحسب ليزودنا بمعلومات عما يشعر به إزاء الاستعمال اللغوي السليم، أو المعنى أو الخطأ اللغوي. وليس من المأمون أن يطلب إليه أن يزودنا بآراء فيما يتصل بكيفية تحليل المادة.. أما أحداس اللغوي أو الباحث فهي نتيجة تدريب واحتراف. وفي هذا المجال لا يفترق (اللغوي عن عالم الطبيعة مثلا، والفرق بينهما أن اللغوي قد يكون متكلما باللغة المدروسة (native speaker) وهذا معناه أن له حدسين (حدس اللغوي وحدس المتكلم)، وهنا

---

(1) Crystal , Linguistics , p. 110.

مكمن الخطورة المتصلة بالذاتية، بيد أن لهذه المشكلة حلاً، فإذا ما استطاع اللغوي أن يبعد أحداسه عن أحداس المتكلم فعندئذ يكون من المحتمل جدا الحصول على تفسير معدل تجريبيا لما يقصد باستخدام الحدس.

إن استخدام حدس أي شخص آخر قد قبل في الواقع كوسيلة معيارية في علم اللغة (وبخاصة في الفرع المعروف بعلم اللغة الأنثروبولوجي) فعند تحليل لغة أجنبية نختار أحد المتكلمين بها (الراوي)، ويسؤاله بعض الأسئلة نستخرج منه مقولات أو بيانات تتصل بلغته مثل: معاني الكلمات أو الجمل.. إلخ. إن اختبار الثنائيات الصغرى الذي تحدثنا عنه منذ قليل يعتمد على أساس حدسي بالغ الأهمية، لأن الراوي هو الذي يقرر ما إذا كانت الكلمتان تعنيان نفس الشيء أو لا تعنيانه.

وثمة طريق آخر تصبح بمقتضاه طرق الملاحظة والتجربة ممكنة، فإذا ما صِيغت الأسئلة ووجهت توجيها محكما، ووصفت الاستجابات المجموعة وصفا دقيقا بعد تصنيفها وتحديدها بإحكام فعندئذ يتوفر لدينا احتمال قوى راجح في الحصول على تفسير يمكن إثباته موضوعيا لبعض جوانب من أحداس المتكلمين. مثلا: ربما نحصل على موقف ما يتصل بمقدرة الشخص اللغوية إذا ما عرضنا عليه عددا من التراكيب، وطلبنا إليه أن يخبرنا أي هذه التراكيب مقبولة في لغته. وإذا ما استطعنا ابتكار طريقة للسؤال لا تكيف إجابته، وإذا تمكنا من السيطرة على المتغيرات غير اللغوية في الموقف فعندئذ يمكن اعتبار إجابته دليلا مباشرا على حدسه فيما يتصل بهذه التراكيب، ومن المحتمل جدا أن نعيد التجربة فنحاول مرة أخرى مع أفراد آخرين تحت ظروف مختلفة، ومن ثم نبنى – وبالتدريج – صورة للملكة الكامنة على ضوء المبادئ التي تقنع العالم السلوكي. إن الدراسات التي جعلت اهتمامها دراسة موضوع (القبول) تتقدم بالفعل[١].

ونظرا لأهمية موضوع (القبول) نعرض هنا تعريفه الذي قدمه (هارتمان) و(ستورك): القبول: معلومات لها أهمية متميزة في علم اللغة وبخاصة في النحو التوليدي الذي يقصد بقواعده تمييز الجمل جيدة التركيب من غيرها – هذه المعلومات يستند إليها أصحاب اللغة في الحكم على منطوق معين بأنه

---

(1) Crystal , Linguistics , p. 110.

صحيح أو مناسب. ويصمم اللغويون أحيانا اختباراتٍ مختارة تبين ما إذا كان منطوق معين مقبولا عند الراوي أو غير مقبول عنده. وغالبا ما يميز بين القبول في القواعد: أي إذا ما كان المنطوق مطابقا للعرف التركيبي والقبول في (السيانتيك) المعنى: أي إذا ما كان لمنطوق معنى في سياق محدد. ويشار إلى الأمثلة المستشهد بها بأنها غير مقبولة لسبب أو لآخر بالعلامة * ويطلق عليها الأشكال النجمية[1].

---

(1) Crystal , Linguistics , p. 110.

رابعا: الشمول واليقين

الشمول:

المعرفة العلمية معرفة شاملة بمعنى أنها تسرى على جميع أمثلة الظاهرة التي يبحثها العلم، ولا شأن لها بالظواهر في صورها الفردية، وحتى لو كانت المعرفة تبدأ من التجربة اليومية المألوفة مثل سقوط جسم ثقيل على الأرض فإنها لا تكتفي بتقرير هذه الواقعة على النحو الذي نشاهدها عليه، وإنما تعرضها من خلال مفاهيم ذات طابع أعم مثل فكرة الجاذبية والكتلة والسرعة والزمن.. إلخ بحيث لا تعود القضية العلمية تتحدث عن سقوط هذا الجسم بالذات أو حتى عن مجموعة الأجسام المماثلة له بل عن سقوط الجسم عموما، وبذلك تتحول التجربة الفردية الخاصة على يد العلم إلى قضية عامة أو قانون شامل. على أن شمولية العلم لا تسرى على الظواهر التي يبحثها فحسب بل على العقول التي تتلقي العلم أيضا، فالحقيقة تفرض نفسها على الجميع بمجرد ظهورها ولا يعود فيها مجال للخلاف بين فرد وآخر[١].

وهذا هو ما يقرره علماء اللغة في مجال البحث اللغوي يقول (كريستال): إذا ما زودنا الوصف بقواعد تفسر كل المادة المتيسرة فإن هذا الوصف من المحتمل أن يكون أفضل من الوصف التي يفسر لنا ثلاثة أرباع المادة.. أو بعبارة أخرى إذا ما كان الوصف يفسر كل المادة بطريقة أكثر اقتصادا – الاقتصاد هنا محدد في ضوء عدد الرموز أو القواعد الضرورية للقيام بالتفسير – فإن هذا من المحتمل أن يكون أفضل وصف[٢].

وقد تحدثنا من قبل عن القاعدة في العلوم اللغوية وأنها قاعدة عامة تنتظم أغلب الأفراد لا كلهم، وبينا كيف نعالج بقية الأفراد في إطار قاعدة أخرى أو تفسير آخر.

وعالم اللغة لا يتعامل مع الصور الفردية للكلام أو ما أطلق عليه (دي سوسير) مصطلح (الكلام La parol) وإنما يتعامل مع الظواهر العامة المشتركة أو اللغة La Langue) وما ذلك إلا لأن الصور الفردية أبعد ما تكون عن الوحدة والتجانس فلا تصلح للدراسة، ولكي ندرس شيئا ما دراسة علمية

---

(١) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمي ص ٤٦.

(2) Crystal , Linguistics , p. 118.

ينبغي أن يكون لدينا موضوع محدد حتى نستطيع إجراء إحصاء بأجزائه وإجراء تحليل له، وصور الكلام الفردية – أو النشاط الكلامي الذي يقوم به الأفراد – غير محدودة، ولا يمكن والأمر كذلك وصفها إلا إذا كان هذا الوصف أيضا بلا حدود وهذا مالا سبيل إليه(١).

اليقين:

واليقين في العلم مرتبط ارتباطا وثيقا بطابع الشمول الذي قلنا إن القضايا العلمية تتسم بـه، إذ إن كل عقل لابد أن يكون (على يقين) من تلك الحقيقة التي تفرض نفسها عليه بأدلـة وبـراهين لا يمكـن تفنيدها.. واليقين هنا هو اليقين الموضوعي، وإنما يكون اليقين موضوعيا حين يركز عـلى أدلـة منطقيـة مقنعة لأي عقل، ولا بد للوصول إلى هذا اليقين الموضوعي من هدم كل أنواع اليقين الذاتي، فلا بـد أن يزعزع العالم – كخطوة أولى في بحثه – ما رسخ في عقول الناس من أوهام وتحذيرات عملت على تثبيتها عوامل غير موضوعية.. وإذا كان اليقين العلمي يعتمد على براهين وأدلة منطقية فان هذا لا يعنـى عـلى الإطلاق أنه يقين ثابت أو نهائي.. بل إن المقصود من ذلك أن البرهان العلمي يقنع كل من يستطيع فهم هذا البرهان في ضوء حالة العلم في عصر معين – أما أن تتحول القضية العلمية إلى حقيقة تفرض نفسها على الناس في كل العصور فهي شيء يتنافي مع طبيعة العلم ذاتها (٢).

ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى بعض العقبات التي تعترض الباحث في اللغة العربية، والتي تحول دون انطلاقه في البحث.

عقبة كأداء تلك التي وقف عندها البحث في اللغة العربية، إنها التمسك برأي القدماء الذي أجمعوا – كما يقول السيوطي – على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية (٣).

ولو أن أصحاب المعاجم تجاوزوا هذا الرأي، وتجاوزوا الفترة التي حددها القـدماء للاستـشهاد، وجعلوا معاجمهم صورة تمثل اللغة كما انتهت إليهم في عصرهم، لو أن هـذا قـد حـدث لتغير تـاريخ

---

(1) Dinneen ,An introduction to general Linguistics , p. 198.

(٢) زكريا (د. فؤاد) التفكير العلمي ص ٤٧، ٤٩، ٥٠.

(٣) السيوطي: الاقتراح ص ٧٠.

العربية. فالمعجم القديم منذ ظهر كتاب" العين" إلى أن ظهرت المعاجم الحديثة ليس إلا صورة للبيئة العربية وللإنسان العربي في وقت محدد، وليس صورة لأسلافنا بعد هذا الوقت، ولا يمكن الزعم أنه يصور حياتنا المعاصرة.

عقبة أخرى لا تقل عن سابقتها يضعها بعض المشايعين للقدماء أمام الداعين إلى الفكر اللغوي الحديث ذلكم هو كتاب سيبويه، بل قل إذا أردت الحق إنها ألفية ابن مالك وشروحها وحواشيها، فإذا ما رأي باحث رأيا جديدا يختلف عما ذكره سيبويه أو أورده ابن مالك وشراحه -عَمِي هؤلاء المشايعون للقديم عن هذا الرأي وصَمّوا، كأن سيبويه سلطة لا تناقش وكأن ابن مالك وشراحه حجة لا ترد. لا ينبغي أن يكون رأي القدماء صوابا لأنهم القدماء الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب، ولا ينبغي أن يكون رأي المحدثين خطأ لأنهم المحدثون الذين لم يؤتوا الحكمة ولا فصل الخطاب. لننشد الحقيقة أينما وجدت، وعلى لسان من قيلت، ففي القديم كثير صالح وكثير فاسد، وليس كل الجديد فاسدا فكثير منه صالح.

المبحث الثاني

علم اللغة بين النظرية والطراز

اللغة شكل من أشكال النشاط الإنساني، شكل يتميز بميزتين ظاهرتين، أنه يحدث في مجتمع، وأنه يتمثل في نماذج. وعلم اللغة - كما قررنا آنفا - هو الدراسة العلمية للغة، أو هو - كما يقول (هاليداى) ورفيقاه: دراسة كيف تعمل اللغة، وهذا معناه: دراسة النماذج ودراسة المفردات أو الوحدات التي تدخل فيها، كيف يستخدمون هذه المفردات أو الوحدات، كيف يستمرون في استخدامها، أو كيف يكفون عن استخدامها ويستبدلون بها غيرها في أوقات مختلفة أو في أماكن مختلفة وبين جماعات مختلفة من الناس. كل هذه الموضوعات يمكن اعتبارها المجال الخاص لعلم اللغة.

ودراسة اللغة أو دراسة الموضوعات السابقة دراسة علمية تعنى في النهاية: إنشاء نظرية متناسقة، نظرية تبين لنا كيف تعمل اللغة، نظرية نستخرج منها مناهج دقيقة محددة لوصف اللغات.

إن النظرية ليست - كما يقول (هاليداى): روحا سابحة في الهواء، إن النظرية لها عناصرها التي تتمثل في ملاحظات لا حصر لها تتصل بالأحداث اللغوية. ولأن النظرية تتبنى علاقاتها على أساس الملاحظات، الملاحظات التي يشار إليها على أنها تجريدات (ينبغي أن تفهم على أنها علاقة لا عملية) فإنها - أي النظرية - يمكن أن تأخذ أشكالا مختلفة، بعبارة أخرى: النظرية ثمرة بيانات مضبوطة في داخل إطار العملية(١).

الهدف إذًا هو بناء نظريات لا جمع وقائع عن اللغة، بيد أن كثيرا من الناس قد يسيئون فهم المقصود من النظرية، النظرية عند هؤلاء تشير إلى مستوى من التعقيد والتفكير المجرد، مستوى من الانفصال عن الواقع.. وهذا مفهوم خاطئ، لأن النظرية - إذا كانت جيدة لا تنفصل عن الواقع أبدا بل العكس هو

(1) Halliday Linguistic sciences and Language teaching p.p.56.

الصحيح. الغرض الأعظم من بناء النظرية هو تفسير الواقع أو المادة، والواقع الذي نريد فهمه وتفسيره هنا هو اللغة، إننا نريد أن نكتشف كيف تعمل اللغة، والنظرية وحدها هي التي تقدر على أن تفعل ذلك[١].

ويشير (هاليداى) إلى تأثير البحوث التطبيقية في انتشار علم اللغة مقررا أن الدراسة اللغوية النظرية الخالصة لم يقدر لها الانتشار إلا بعد أن اتضح للباحثين كيفية الاستفادة منها، ومن هنا فحسب حظيت بالاحترام وتوفر المال اللازم لتعليمها ودراستها[٢].

وسوف نتكلم عن هذا الموضوع بالتفصيل عند الحديث عن علم اللغة التطبيقي.

ولعله من المفيد أن نقدم هنا تعريفا للنظرية مع أن هذا العمل معقد جدا ومحاط بالمخاطر.

النظرية (theory): تفسير لظاهرة أو مادة يعرض علينا جانبا من الواقع نرغب في فهمه، ونبنى منه نظاما محددا أو ما يشبه ذلك. وفي مجال علم اللغة المادة المباشرة المراد تفسيرها هي الجمل المنطوقة والمكتوبة التي يستخدمها فرد من أفراد المجتمع اللغوي المدروس، وإذا ما أردنا أن نوسع هذا المفهوم ليشمل رأي أصحاب المنهج التوليدي فسنقول المادة المباشرة هي قائمة من الأحداس اللغوية تؤلفها ملكة هذا الشخص اللغوية .. إن النظرية - ببساطة - ليست تلخيصا للمادة ولا هي تفسير لمادة مختارة خاصة فحسب. إن النظرية التي توضع لتفسر أنماطا موجودة في جزء خاص من المادة ربما تكون نظرية بمعنى ضيق جدا.. الهدف الكلى للنظرية أن تكون تفسيرا عاما: التفسير الذي تفترضه النظرية سوف يعالج كل المادة التي درست أولا، ولكنه سيعالج كذلك مادة أخرى بجانبها.. إن الحديث عن نظرية يعنى - وهذا أمر مألوف - تجاوز المادة التي وضعت في الاعتبار أصلا. ولنقل ذلك بعبارة أخرى: النظرية تقدم ادعاءات حول النمط أو النظام الذي يكمن في المادة، وتتنبأ بأن هذا النظام سوف يفسر جيدا وعلى سواء عينات مستقلة من المادة، وما يمكن إثباته من هذه التنبؤات هو المعيار الدقيق لصلاحية النظرية[٣].

---

(1) Crystal , Linguistics , p. 112.
(2) Linguistic Sciences and Language teaching, p.6.
(3) Crystal , Linguistics, p.p. 112. 113.

كيف يفسر اللغوي المادة المدروسة؟

والآن بعد أن عرفنا النظرية وحددنا الهدف منها نسأل كيف يقوم اللغوي بتفسير المادة التي يدرسها؟

يفسر اللغوي مادته بتقرير علاقات بين المتغيرات في هذه المادة من خلال الاستخدام المنظم للفروض، فإذا ما اتبعنا معياري الوضوح والنظامية اللذين تحدثنا عنهما من قبل فسوف ننتهي بعدئذ إلى هيكل عام يمثل نظرة منظمة للمادة.

لقد رأينا من قبل أن التنوع غير المحدود في مادة اللغة يمكن أن يفسر بالرجوع إلى قائمة محدودة من القواعد البنائية (فالفاعل مرفوع قاعدة تفسر كل فاعل في اللغة العربية الفصحى المستعملة بالفعل) وبالرجوع إلى عدد محدود من الأقسام (فالمصطلح فعل مثلا يشير إلى قسم معين من أقسام الكلام، قسم يضم عددا يصعب حصره من المفردات). وإذا ما أردنا أن نضع الفكرة السابقة بطريقة تلائم النظرية التوليدية قلنا: نحن نحدد قائمة مرتبة من القواعد سوف تعد تحليلا لكل الجمل الصحيحة الممكنة في اللغة، وتصف بوضوح بناءها المنتظم معنى ومبنى(١).

وثمة توضيح ضروري عند الحديث عن النظرية، هو أن النظرية قد تكون عامة هدفها - كما قلنا سابقا - بناء قائمة من القواعد والأنماط تفسر الخصائص البارزة في اللغة ككل، وقد تكون خاصة هدفها بناء قائمة أضيق من القائمة السابقة. قد نرغب مثلا في وضع نظرية تفسر لغة معينة أو جانبا معينا منها. وهنا علينا أن نقيد مفهوم النظرية بهذا القيد فنقول مثلا: نظرية في اللغة العربية، أو نظرية الحرف في اللغة العربية. وقد تتوجه جهودنا إلى تفسير أساس عملية انتقال الكلام عبر الموجات الصوتية فنقول: (نظرية سمعية) أو نظرية صرفية أو نظرية نحوية .. إلخ.

ومع هذا كله ينبغي أن نلاحظ أن أيه تفريعات من هذا النوع تفترض سلفا وجود نظرية لغوية أكثر عمومية تزودنا - في المقام الأول - بأساس للقيام بهذه التفريعات. على أي أساس نعتمد في التمييز بين النحو والصرف أو بين الظاهرة الصوتية والفونولوجية؟ ثمة أساس لذلك بلا شك. ومهمة النظرية

---

(1) Crystal , Linguistics, 117.

الأولى هي تقديم مبررات لكي يكون هذا التفريع واضحا. وفي النهاية فالأمل كبير في أن التحليلات المتنوعة لجوانب مختلفة من اللغة يمكن أن تتكامل وتندمج في هيكل لغوى واحد(١).

الطراز model

غير أن بعض اللغويين يرى أن الوصول إلى بناء نظرية عامة لتفسير كل جوانب اللغة ربما كان عملا غير واقعي. بل إنهم يعدون الفكرة العامة للنظرية فكرة غامضة جدا ومجردة جدا، ولا يمكن تطبيقها مباشرة على المادة، ولهذا يفضلون العمل بشيء أكثر واقعية ووضوحا وهو الطراز (model) وفي هذا يقول (كريستال): الطراز هو طريقة أخرى للإجابة عن السؤال الذي طرحناه آنفا وهو: كيف تفسر النظريةُ المادةَ؟ ربما يكون ذلك بتقديم طرز مفسرة. وهذا المصطلح له معان كثيرة في علم اللغة وفي غيره، ولكن معناه المركزي واضح. الطراز هو: قياس مفصل ذو نظام يُبنى لكي يساعد في تصور جانب محدد من بنية اللغة أو وظيفتها، جانب غير قابل للملاحظة مباشرة، وربما تكون أهميته – من ناحية أخرى – غير مدركة. بعبارة أخرى: إنه وسيط بين المفهوم العام " للنظرية" والمفهوم الخاص جدا "للفرض".

وعلم اللغة يستخدم طرزا كثيرة بهذه الطريقة: الطرز الرياضية التي تستخدم المفاهيم الإحصائية أو الجبرية والمعادلات، والطرز الفيزيائية التي تجعلنا قادرين على إنتاج مقياس ثابت وفعال (Working analogy) لتفسير الظواهر كما هو الحال غالبا في علم الأصوات).

وقيمة الطراز تكمن في وضوح وتركيز العلاقات التي يفترضها، فعلى ضوء طراز خاص نحصل على نظرة ما في اللغة لم نحصل عليها من قبل، فإذا ما كف الطراز عن توفير نظرات جديدة، أو فشل في تقديم نظرة أية نظرة فعلينا أن ننبذه ونبحث عن طراز جديد. ومن هنا نرى أن الطرز أمور وقتية – إنه يقال أحيانا إن العلم يتقدم من خلال البحث عن طرز جديدة تقترح نظرات جديدة.

والطرز أعمال انتقائية، جوانب معينة يلقي الضوء عليها، وأخرى تهمل تماما، واختيارنا طرازا محددا يوجه بحثنا ينبغي أن يكون دقيقا، وينبغي أن نستخدمه بروح ناقدة، فإذا ما اخترنا طرازا يبدو أنه يفسر

---

(1) Crystal , Linguistics, 117.

خصائص لغوية معينة ينبغي أن نتذكر أنه ربما يعمينا عن وجود خصائص أخرى، وينبغي أن نكون متنبهين إلى أننا لا نزعم أن كل جوانب الطراز مناسبة على سواء لدراسة اللغة[1].

وربما يكون القياس خادعا من بعض الوجوه. وعلينا لهذا السبب أن نراجعه باستمرار ولنأخذ مثالا حديثا لذلك، إنه الرأي الذي يقترح أن ننظر إلى اللغة على ضوء طراز يميز بين مستويات أو طبقات متنوعة من البناء (أي بين علم الأصوات، والفونولوجي، والصرف، والنحو .. إلخ) ولكن هذا الرأي خادع إذا ما استخدمنا الطراز حرفيا، وزعمنا أن هذه المستويات تعمل مستقلة بعضها عن بعض، والحق أنها لا تعمل كذلك. إن المعلومات النحوية تتداخل في تعريف الأبنية الصرفية، والمعلومات الفونولوجية توجه تحليلنا للمادة الصوتية .. وهكذا.

ومن أمثلة التداخل بين المعارف اللغوية التي تقدمها هذه المستويات أنه يشترط في الكلمات التي تشغل موقعا نحويا معينا أن تكون من صيغة صرفية خاصة. فالحال في العربية يكون وصفا والمفعول المطلق والمفعول لأجله يكونان مصدرين .. وهكذا.

وفي مجال تقييم الطراز يقول كريستال): من السهل أن نرى لماذا يفضل الناس الحديث عن الطرز لا عن النظريات، فالطريقة التي بها يوجه الانتباه إلى جانب خاص من اللغة، ويفترض في قياسه تفسيرا متماسكا مختبرا، هذه الطريقة تجعله بوضوح مفهوما جذابا جدا، بيد أن مفهوم الطراز لا يجعل الحديث عن مفهوم النظرية فُضولا. إن قيمة الطراز تكمن في الغالب في مقدرته الخاصة على تفسير جانب خاص من اللغة، أو بعبارة أخرى: إنه يفتقر إلى الشمول والعمومية التي تدعى النظرية أنها تقدمها إلينا[2].

ومن الطرز التي استخدمها اللغويون في وصف أو تفسير الظواهر اللغوية أو في المجال التطبيقي (تعليم لغة أجنبية أو قومية):

- ما يعرف في علم اللغة التاريخي بشجرة العائلة (family tree) وهو طراز يفسر ما بين اللغات

(1) Crystal , Linguistics, p. 115.
(2) Crystal , Linguistics, p. 115.

من علاقات تظهر في شكل انتساب فرع إلى أصل كانتساب الفرنسية مثلا إلى اللاتينية.

- مفهوم التنوع اللغوي الذي يتمثل في مستويات لهجية أو أسلوبية(١).

- دراسة اللغة في مستويات محدودة وفقا لوحدات لغوية محددة (٢).

- استخدام الإحصاء أو الصيغ الرياضية في وضع قوائم بأكثر الكلمات انتشارا أو أكثر الأبنية والتراكيب استعمالا - وما ينبني على ذلك من نتائج في تعليم اللغات الأجنبية أو القومية. ونظرا لأهمية هذا الطراز في الأعمال اللغوية المعاصرة نعرف هنا ببعض مجالات استخدامه.

عمل المعاجم التكرارية:

إن إتقان لغة أجنبية يتضمن عددا من القدرات أو المهارات. إنه يعنى مثلا التمكن من قواعدها والإلمام بمفرداتها، ولا شك أن المفردات تشكل أهمية كبيرة في تعلم أية لغة أجنبية، ولهذا توجهت عناية اللغويين إلى وضع المعاجم الثنائية التي تقدم للمتعلم الأجنبي مفردات اللغة التي يريد أن يتعلمها، وبانتشار معاهد تعليم اللغات وبتطور طرق تعليمها ظهر أن المعجم الذي يناسب صاحب اللغة - وفي الغالب يكون معجما ضخما - لا يناسب الأجنبي الذي يتعلم هذه اللغة، وأن المهمة الأساسية في تدريس أية لغة أجنبية هي تعليم الدارس أهم مفردات اللغة التي يتعلمها أي أقل عدد من الكلمات يحقق هذا الغرض، وقد تبين فيما بعد أن أهم مفردات اللغة هو أكثرها استعمالا.

ولكن ما المعيار الموضوعي لقياس عدد الكلمات الضرورية التي ينبغي أن يتضمنها المعجم؟ وما هي الكلمات التي يمكن أن يقال إنها أكثر الكلمات تكرارا؟ ومن ثم ينبغي أن يتضمنها أقل المعاجم عددا ونستبعد ما عداها.

قبل أي شيء ينبغي أن نبين المقصود من (أكثر الكلمات تكرارا) نقصد بذلك أن كلمة بعينها تتكرر كثيرا في الكلام وفي الكتابة، وكلما كثر استخدامها زاد معدلها التكراري.

---

(١) يعد كتاب الدكتور السعيد بدوى (مستويات العربية المعاصرة في مصر) نموذجا لهذا الطراز. وانظر كتابي (علم اللغة الاجتماعي) مكتبة الآداب.

(٢) يعد كتاب الدكتور تمام حسام (اللغة العربية معناها ومبناها) نموذجا لهذا الطراز.

ويدهي أن الأمر يتوقف كثيرا على طبيعة النص الذي يتناوله الإحصاء فالمتوقع مثلا - لو تناول الإحصاء كتابا في (سلوك الحيوان) أن تتكرر فيه الألفاظ التي تشير إلى الحيوانات، وهي ألفاظ يندر استخدامها مثلا في كتاب في (التاريخ) كما أن لكل كاتب معجمه الخاص الذي يعد سِمَة مميزة له فقد تتكرر عنده كلمات ربما لا يستخدمها كاتب آخر، ولهذا وجد أن أفضل طريقة لاختيار العينات التي يجرى عليها الإحصاء أن تكون متنوعة (١).

وقد تم عمل عدد كبير من المعاجم التكرارية في عدد من اللغات، ومنها (معجم اللغة الإنجليزية) الذي وضعه (ثورنديك) ويعطينا بيانات عن استعمالات ٣٠.٠٠٠ كلمة مختلفة تتكرر أربع مرات أو أكثر في سياق نصوص مختلفة جملة كلماتها ١٨.٠٠٠.٠٠٠.

ويعد معجم كولينز كوبيلد Collins Cobuild English language Dictionary أهم وأكمل محاولة لوضع معجم لغوي إنجليزي قائم على مدونة مجموعة ومعالجة آليًا، ومحدد فيها بدقة المعدل التكراري لكل كلمة.

نجح كوبيلد - بعد تجربته المعجمية الأولى ١٩٨٧م - في صنع مدونة جديدة (٢٠٠٠م) قائمة على مجموعة من النصوص الإنجليزية التي يمكن أن يُطلق عليها (مدونة) أو (بنك) اللغة الإنجليزية. وأدخلت نصوص هذه المدونة على الحاسوب بطريقة تتيح الرجوع إليها والاستفادة منها. وكانت النصوص ممثلة حقًا للغة الإنجليزية منطوقة ومكتوبة، دارجة ورسمية، بريطانية وأمريكية.

وبلغت كلمات هذه المدونة ما يزيد على مائتي مليون كلمة، وكان جمع المادة المنطوقة يمثل أكبر العقبات، والسبب في ذلك أن المحادثات المسجلة والتي تعبر عن واقع الحياة اليومية كانت تبدو في كثير من الأحوال عفوية وغير منضبطة. ومع ذلك فإن عقبات الجمع قد تم تجاوزها، وأصبحت مادة اللغة الإنجليزية أو مدونتها متوافرة تحت سيطرة صانعي المعجم لتظهر المشكلة الكبرى في طبيعة المهام التحليلية التي يحاول كوبيلد القيام بها من خلال اختيارات سليمة ومتوازنة.

---

(١) اكندراتوف: الأصوات والإشارات ٨٣، ٨٤.

وقد نجح (كوبيلد) في تحليل مادة المدونة ومعالجتها وفقًا لمتطلبات الصناعة المعجمية وأغراض مستعملي المعجم [1].

وتأخذ القواميس التكرارية عادة شكل قوائم للكلمات مرتبة ترتيبا تنازليا حسب المعدل التكراري للكلمة، فأول الكلمات هي أكثرها تكرارا.. وهكذا حتى نصل إلى آخر الكلمات وهي أقلها تكرارا.

ولكن ما عدد الكلمات التي نحتاج إليها في أصغر معجم للمفردات؟

قلنا إن معجم (ثورنديك) يضم ٣٠.٠٠٠ كلمة من أكثر الكلمات انتشارا في الانجليزية، فهل من الضروري أن يكون هذا المعجم هو أصغر المعاجم التي تقدم مفردات الانجليزية للأجانب؟

ليس ذلك ضروريا، فبهذا العدد لن نصل إلى المعجم المثالي الذي ينبغي أن يضم أقل عدد ممكن من المفردات، لقد تبين للباحثين أن عددا كبيرا جدا من المفردات النادرة الاستعمال لا يشكل إلا جانبا ضئيلا من أي نص فالغالب في أي نص أن يتألف أساسا من عدد صغير من الكلمات ذات المعدل التكراري العالي، لقد تبين مثلا أن ٧٣٦ كلمة انجليزية من الكلمات ذات المعدل التكراري العالي تؤلف ٧٥٪ من أي نص، ومعنى ذلك أن ثلاثة أرباع كلمات النص ستكون كلمات مألوفة لنا إذا ما بدأنا بهذا العدد، وكذلك فإن ١٠٠٠ كلمة من أكثر الكلمات شيوعا تغطي ٨٠.٥٪ من أي نص مكتوب بالانجليزية، وأن ٢٠٠٠ كلمة تغطي ٨٦٪ و ٣٠٠٠ كلمة تغطي ما يقرب من ٩٠٪ و ٥٠٠٠ كلمة تغطي ٩٣.٥٪، ويدل هذا على أننا إذا عرفنا ٥٠٠٠ كلمة من أكثر الكلمات شيوعا فإننا سنعرف ٢٨١ كلمة من كلمات النص وسنفشل في معرفة ١٩ كلمة فقط. وعلى هذا فان الأجنبي الذي يدرس الانجليزية سيكون قادرا على قراءة أي نص إنجليزي بطلاقة لا بأس بها إذا عرف هذا القدر. وقد تبين كذلك أنه ليس من الحكمة أن نوسع من قائمة المفردات لتغطي النسبة الباقية ٦.٥٪، لأننا لو ضاعفنا قائمة المفردات وتعلمنا ١٠.٠٠٠ كلمة فإننا سنعرف فحسب ٩٦٪ من كلمات النص، وإذا ضاعفنا عدد المفردات مرة أخرى فلن يزيد علمنا إلا بنسبة ٢.٩٪ فقط، وهي نسبة لا تبرر الجهد المتوقع بذله لتعلم هذا العدد الضخم من

---

(١) راجع مقدمة سنكلير للمعجم من XXX – Viii.

المفردات [1] ولكن ما الفائدة التي يمكن أن تتحقق من هذه الإحصاءات؟

ينبغي على خبراء التعليم وواضعي المناهج أن يضعوا الحقائق السابقة في الاعتبار ويحددوا أكثر الكلمات شيوعا والتي ينبغي أن يتضمنها أي كتاب مدرسي في مراحل التعليم المختلفة، وأن يحددوا على ضوئها أكثر النصوص ملاءمة للمرحلة الأولية للقراءة أو للمراحل الأخرى.

الأبنية والتراكيب الشائعة:

لم يقف دور الإحصاء على مفردات اللغات الأكثر تكرارا بل تجاوزه إلى أبنية اللغة وتراكيبها وأنماط جملها، ومن أحدث الدراسات التي تمت في هذا المجال في إطار اللغة العربية الدراسة التي قدمها الدكتور محمد علي الخولي بعنوان (التراكيب الشائعة في اللغة العربية) وقد اعتمد في هذه الدراسة على مادة لغوية حددها بالصفات الآتية: مكتوبة، حديثة، نثرية، فصحى، أصيلة (لا مترجمة). ومن البدهي أن نتائج الدراسة سوف تختلف حين تختلف المادة اللغوية فتصبح منطوقة أو قديمة أو شعرية أو عامية أو مترجمة. وتبلغ العينات التي تناولها الإحصاء ٨٨ عينة، كل عينة منها من خمسين كلمة، وهذا يعنى أن العينات تتألف من ٤٤٠٠ كلمة، وتبدأ العينة من بداية الفقرة وتنتهي بالكلمة الخمسين. وتتنوع العينات من حيث المضمون تنوعا مناسبا فقد اختيرت من مجالات الأدب والاجتماع والدين والفيزياء... إلخ [2].

أما الطريقة التي تم بها عرض البيانات الإحصائية فتحتاج منا إلى صفحات لعرضها وهذا لا يتسع له المقام.

ومن أهداف هذه الدراسة: معرفة الوظائف النحوية والصيغ الصرفية وأنماط الجمل الشائعة والنادرة ومن الممكن استخدام هذه المعارف الناتجة عن البيانات الإحصائية في المقارنة بين اللغة المكتوبة والمسموعة ومقارنة الفصحى بالعامية، ولغة النثر بلغة الشعر واللغة الحديثة بالقديمة وهي مقارنات تثري علم اللغة.

---

(١) أ. كندراتوف: الأصوات والإشارات ص ٨٥، ٨٦.

(٢) الخولي (د. محمد علي) التراكيب الشائعة في اللغة العربية ص٢٦-٣١.

ولهذه النتائج فائدة كبيرة في تخطيط وتدريس قواعد اللغة العربية لطلاب المدارس، إذ تقدم المتغيرات الشائعة في المراحل الأولى وتؤجل المتغيرات النادرة. ولهذه النتائج فائدة كبيرة في تخطيط وتدريج قواعد اللغة العربية لطلاب المدارس، إذ تقدم المتغيرات الشائعة في المراحل الأولى وتؤجل المتغيرات النادرة إلى المراحل العليا أو إلى مراحل التخصص في اللغة العربية، وتفيد كذلك في تخطيط وتدريج المواد القرائية في المراحل الدراسية المختلفة[1].

وهذه بعض البيانات الإحصائية الخاصة بالأسماء المرفوعة والمنصوبة والمجرورة:

الأسماء المرفوعة: ويقصد بها الأسماء المرفوعة أو التي في محل رفع، تكرارها الكلي في جميع العينات ٤٧٠ (سبق القول بأن عدد العينات ٨٨ عينة وتتألف من ٤٤٠٠ كلمة) بمتوسط ٥.٣٤٪ في العينة الواحدة ونسبتها إلى جميع المفردات ١٠.٦٨ وإلى الأسماء ١٨.٣٤ ...الخ.

الأسماء المنصوبة: ويقصد بها الأسماء المنصوبة أو التي في محل نصب، تكرارها الكلى ٤٩٨ بمتوسط ٥٠٦٦ في العينة الواحدة، وكانت نسبتها إلى جميع المفردات ١١.٣٢٪ وإلى الأسماء ١٩.٦٣٪...الخ.

الأسماء المجرورة: ويقصد بها الأسماء المجرورة والتي في محل جر، تكراراها الكلي في جميع العينات ١٥٦٩ بمتوسط ١٧.٨٣ في العينة الواحدة، نسبتها إلى جميع المفردات ٣٥.٦٦وإلى الأسماء ٦١.٨٤...إلخ.

ومما سبق نتبين أن المجرورات أكثر شيوعا من المنصوبات أو المرفوعات، وتكاد المنصوبات والمرفوعات تتساويان من حيث الشيوع. وتشكل المجرورات ثلاثة أخماس الأسماء تقريبا وتشكل المرفوعات خمسها والمنصوبات خمسها تقريبا، تشكل المجرورات ثلث جميع المفردات التي نستخدمها تقريبا، وتشكل المرفوعات عشرها تقريبا وكذلك المنصوبات...الخ.

---

(١) الخولى (د. محمد على) التراكيب الشائعة في اللغة العربية ص٣٧.

ويفسر شيوع المجرورات: أنها تشمل الاسم المجرور بالحرف أو الإضافة أو التبعية، ويفسر شيوع حروف الجر أنها تمثل دورا كبيرا في تكوين العلاقة بين الفعل ومشتقاته والاسم...[1].

ألا يمكن بعد ذكر هذه البيانات أن يُوصَى المعلمون بالاهتمام بالمجرورات التي تمثل نسبة كبيرة من المفردات التي نستخدمها في الكتابة؟!

(١) الخولي (د. محمد على) التراكيب الشائعة في اللغة العربية ص٨٤- ٨٩.

الباب الثاني

علم اللغة بين العلوم الاجتماعية والدراسات التطبيقية

اللغة نشاط اجتماعي:

اللغة نشاط أو سلوك اجتماعي تقوم به جماعة من الناس بهدف الاتصال والتعاون، وهي بهذا المعنى تتدخل في أشكال النشاط الاجتماعي السائدة في المجتمع، وكل فرد من أفراد المجتمع يباشر نشاطا من هذه الأنشطة يستخدم اللغة بشكل أو بآخر في تحقيق نشاطه.

فالطبيب الذي يستفسر من مريضه عن أعراض مرضه أو يستشير زميله في أمر من الأمور، والمحامي الذي يعد مذكراته أو يلقي دفاعه، والتاجر الذي يعقد صفقة، والمشتري الذي يساومه، والضابط الذي يوجه جنوده لاحتلال موقع، والمدير الذي يلقي تعليماته إلى مرؤوسيه لإنجاز أعمالهم، والصحفي الذي يكتب مقالا، والشاعر الذي ينشيء قصيدة، والخطيب الذي يلقى خطبة، والعالم الذي يؤلف كتابا، والفنان الذي يمثل شخصية على خشبة المسرح، كل هؤلاء وغيرهم كثير، يستخدمون اللغة في تحقيق أغراضهم.

ونحن جميعا نستخدم اللغة في كثير من مواقف الحياة بعيدا عن العمل الذي نعمله أو الهواية التي نمارسها، نستخدمها حين نشكر شخصا على عمل أو نعتذر عن عمل، حين نستقبل شخصا أو نودعه، حين نجلس لتناول الطعام أو لمناقشة موضوع... أو غير هذا أو ذاك من المواقف التي تستدعى الكلام، بل كثيرا ما نتجاذب أطراف الأحاديث من أجل المتعة التي نجدها فيها فحسب.

اللغة في هذه المواقف وأمثالها، وعلى ألسنة هؤلاء الناس وأمثالهم مصاحب لهذه المواقف والأعمال، وأداة للاتصال وتحقيق التفاهم والوصول إلى الأغراض.

ومن الواضح أن الأشكال اللغوية المصاحبة للأنشطة السابقة وغيرها وللمواقف المشار إليها وغيرها مادة صالحة للدراسة اللغوية بالمعنى الدقيق - لقد قلنا سابقا إن اللغة هي موضوع الدراسة في علم اللغة - ويكاد يتفق اللغويون على أنها إذا درست في ذاتها، ولأجل ذاتها دخلت في المجال الذي يعمل فيه علم اللغة بالمعنى الدقيق.

ولكن قد يدرس بعض العلماء اللغة أو جانبا منها، لأن اللغة أو هذا الجانب يدخلان في إطار العلم الذي يدرسونه، فعالم النفس قد يدرس اللغة، لأن لها علاقة بالتفكير أو بغيره من موضوعات علم النفس، وعالم الاجتماع قد يدرس اللغة، لأنها شكل من أشكال السلوك، وهي بهذا الاعتبار داخلة في إطار علم الاجتماع، والأنثربولوجي قد يدرس اللغة لأن لها علاقة بثقافة المجتمع، وهي لهذه العلاقة داخلة في إطار علم الأنثروبولوجيا، وعالم الطبيعية قد يدرس الجانب الفيزيائي من الكلام الإنساني، وهذا داخل في إطار علم الطبيعة.. وهكذا الحال فيما يتصل بعالم وظائف الأعضاء أو بالمنطقي أو الناقد الأدبي أو بغيرهم ممن له اتصال باللغة.

وقد تدرس اللغة لغرض عملي لا نظري، كأن يدرسها مثلا بعض الباحثين من اللغويين أو غيرهم لعمل المعاجم أو لمعالجة أمراض الكلام أو لتعليم اللغة للأجانب.. أو لغير هذا وذاك من الأغراض العملية، هذه الدراسات داخلة في إطار ما يسمى علم اللغة التطبيقي.

وهكذا يتبين لنا أن علم اللغة ليس وحده الذي يدرس اللغة، بل يشركه في دراستها علوم أخرى، وليس لدينا من سبيل على هذه العلوم فنعين لها ما تدرسه وما لا تدرسه، والذي في مقدورنا هو أن نقرر أين نضع حدود علم اللغة التي تُبين موضوعه بدقة بحيث تفصله عن حدود العلوم الأخرى، غير أن وضع حد بين علم وآخر ليس عملا يسيرا (وبخاصة في العصر الحديث الذي تراكمت فيه المعارف العلمية تراكما يؤذن بانفجار معرفي - كما يقول المؤرخين)، وربما يكون ذلك راجعا إلى أن موضوع الدراسة هو أقرب ما يكون إلى المنطقة التي بين لونين من ألوان الطيف.

وسبيلنا إلى حل هذه المشكلة - كما يقول الدكتور السعيد بدوى -: أحد أمرين: إما أن نعين الخط الفاصل بطريقة اعتباطية كما هو الحال في الحدود السياسية بين الدول، وإما أن نخصص نوعا من ميادين الدراسة يأخذ من كلا الجانبين بنصيب ويغطى منطقة الحدود بينهما. وفي هذه الحالة تكشف أسماء هذه العلوم عن طبيعتها مثل: الكيمياء العضوية، والجغرافيا الاقتصادية... إلخ [1].

وفي مجال علم اللغة حدث شيء كهذا، وفيه يقول (كريستال): إن الطريقة التي تتداخل بها

---

(١) محاضرات في علم اللغة ص ١٥ (مخطوط).

موضوعات علم اللغة بالدراسات الأكاديمية الأخرى أصبحت تلقى تقديرا بين الباحثين في السنوات القليلة الماضية، وفي العقد الماضي رأينا تطورا الدراسات مميزة مثل علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics وعلم اللغة النفسي Psycholinguistics وعلم اللغة الفلسفي philosophical Linguistics وعلم اللغة الرياضي Mathematical Linguistics وهذه الدراسات - كما يبدو من عناوينها - تشير إلى جوانب أو ملامح لغوية لها اتصال وثيق بالعلوم الأخرى، كما أنها صالحة للدراسة من منطلقين: علم الاجتماع وعلم اللغة، علم النفس وعلم اللغة.. إلخ وتتطلب كذلك إدراكا وتطورا لمفاهيم وتكنيكات مستنبطة منهما معا (1).

وبعد فإن الغرض من هذا الجزء من المبحث أن ندرس علاقة علم اللغة بالعلوم الأخرى لنستبين بوضوح الحدود التي ينبغي له أن يعمل في إطارها، أو بعبارة أخرى لنحدد ما هو من علم اللغة وما ليس منه، ونستبين الحدود المشتركة بينها وبينه، والفائدة التي تحققت أو يمكن أن تتحقق لعلم اللغة ولهذه العلوم من عملها في ميدان البحث اللغوي.

لدينا إذا:

أولا: علم اللغة أو علم اللغة النظري أو العام، وهو يدرس اللغة في ذاتها، ولذاتها، وقد عرفنا به في الفصل السابق، وسنتكلم عن فروعه ومستويات البحث فيه في البابين القادمين.

ثانيا: دراسات تبحث في اللغة أو في جانب منها لا لذاتها، وإنما لغرض يتصل بعلوم أخرى غير لغوية، مثل علم اللغة النفسي أو علم اللغة الاجتماعي... إلخ وهي دراسات صالحة للبحث من منطلقين: علم النفس وعلم اللغة، وعلم الاجتماع وعلم اللغة... إلخ.

ثالثا: علم اللغة التطبيقي: وهو يبحث في الاستخدامات المتنوعة للعلوم اللغوية المرتبطة بالمجالات العملية.

وسوف نبدأ هنا بالحديث عن علاقات علم اللغة بالعلوم وبالدراسات الأكاديمية التي تبحث في اللغة أو في جانب من جوانبها، ثم نتكلم عن علم اللغة التطبيقي بمجالاته المختلفة.

---

(1) Crystal, Linguistics, p.p.251 252.

المبحث الأول

علم اللغة والعلوم الاجتماعية

أولا: علم النفس

إن علاقة علم اللغة بعلم النفس كانت مصدرا لجدل عنيف ثار مؤخرا، ويرجع هذا أصلا إلى عناية (تشومسكي) الخاصة بهذه القضية. ونظريته في علم اللغة تنتهي إلى أن أعظم عمل يمكن الإسهام به في علم اللغة هو أن ندرس العقل الإنساني، وأن علم اللغة سيكون أكثر دقة ووضوحا إذا ما عُدَّ فرعا من علم النفس الإدراكي(١).

ومع أن معظم اللغويين اليوم لا يشاركونه هذا الرأي فلا أحد منهم ينكر الروابط المشتركة القوية بين علم النفس وعلم اللغة.

وقد نشأ علم بيني يدرس العلاقة بين العلمين هو علم اللغة النفسي (Psycholinguistics):

ومن القضايا التي يدرسها هذا العلم:

١. اكتساب اللغة:

موضوع اكتساب اللغة من أكثر مجالات الدراسة المشتركة بين علم اللغة وعلم النفس أهمية، وبخاصة في هذه الأيام. وإلى عهد قريب جداً - كما يقول (كريستال) - لم يكن شيءٌ يعرف عن الحقائق الفعلية لاكتساب اللغة عند الأطفال وبخاصة ما يتصل بالنظام المكتسب الذي يتمثل في الأبنية النحوية، ولم يكن لدى أحد إجابة عن أسئلة أولية مثل: متى وكيف يطور الطفل مقدرته على صوغ الأسئلة صياغة مقبولة؟ ومتى يتعلم الأنظمة الصرفية للغته؟ إن جهودًا كبيرة قد بذلت حديثا من أجل دراسة

---

(1) Crystal, Linguistics, P.P.254,255.

هذه المشكلات وصفيا ومنهجيا، ومن أجل الحصول على معلومات بهذا الشأن وتحليلها(١).

وقد كان المعتقد قبل ظهور النظرية التوليدية أن الشرط الأساسي لاكتساب اللغة هو التعاون بين الطفل والراشد، فاللغة هي الأداة المثلى التي تم بواسطتها التماس والاحتكاك بينهما، إلا أنها لا تكتسب بصورة تلقائية.. فلابد من التدرب على النطق والتعلم لفترة طويلة حتى يستخدم لغته بطريقة مرضية (٢).

كان اهتمام أصحاب النظرية التوليدية موجها إلى القضية الآتية: كيف نفسر ظاهرة التطور اللغوي عند الأطفال ؟ إن الأطفال العاديين يتمكنون من لغتهم في سن الخامسة تقريبا، وقد كان من المستحيل -كما يقول التوليديون- أن يُفسر هذا التطور اللغوي تفسيرا مقنعا على ضوء التقليد أو التعزيز الذي يقول بهما "السلوكيون"، وهم يؤكدون أيضا أن سرعة التطور اللغوي لدى الطفل وتعقده لا يمكن أبدا تفسيرهما على ضوء أنه يقلد الكبار المحيطين به. إن التقليد عامل هام في تطور لغة الطفل، ولكنه ليس العامل الرئيسي، ومن ثم لا يصلح ليكون أساسا لنظرية في اكتساب اللغة، وذلك يرجع إلى أن قدرا كبيرا من المضامين الأساسية في اللغة لا تخضع للملاحظة المباشرة، ومن ثم لا يمكن تقليدها-كالعلاقات الدلالية المتنوعة بين الجمل أو بين أجزاء الجمل، ولنأخذ مثلا أكثر عموما، وهو معرفة الطفل المجردة بالقواعد النحوية للغته (هذه القواعد التي لدى أي راشد) والتي تعد جزءا من ملكته اللغوية. إن كل طفل عادي يطور مثل هذه القواعد لنفسه. ويحاول أصحاب المنهج التوليدي أن يثبتوا أن هذه العملية (عملية تطور لغة الطفل على النحو السابق) يمكن فحسب أن نتبينها بوضوح إذا افترضنا سلفا أن صفات معينة لهذه الملكة تتمثل في عقل الطفل منذ البداية، أو بعبارة أخرى: إنهم يزعمون أن عقل الطفل يتصف بسمات فطرية معينة تعده سلفا لتعلم اللغة، والشرط الضروري لكي نجعل هذه الخصائص الفطرية متطورة في اتجاه ملكة الراشد هو أن يتلقى الطفل لغة إنسانية. ينبغي أن يُثار حتى يستجيب(٣).

(1) Crystal, Linguistics, P. 254.

(٢) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوي ص ١٤٢.

(3) Crystal, Linguistics, p. 256

ولا يعني ما سبق أن الطفل مهيّأ لاكتساب لغة بعينها، ليس هذا صحيحا ألبتة، بل إنه مهيّأ لاكتساب أيه لغة من لغات البشر التي يقدر له أن يعيش بين أصحابها، ولهذا يقول أصحاب النظرية التوليدية: إن الخصائص الفطرية المزود بها الطفل ينبغي أن تكون عامة، إنها عميقة (deep) بحيث تجعله قادرا على امتلاك البنية التحتية لأيه لغة إنسانية بيسر وعلى حد سواء. وفي هذا المجال ينبغي أن تكون الاهتمامات المشتركة بين نظرية في علم اللغة ونظرية في علم النفس - ينبغي أن تكون واضحة.

وثمة اعتراضات على نظرية (تشومسكي) في اكتساب اللغة، بيد أن هذا لا يقلل من أهميتها، لأن مفاهيم هذه النظرية - كما يقول (كريستال): لم تنتشر إلا حديثا جدا. وهذا المجال من الدراسة اللغوية هو من أكثر مجالات الدراسة إثارة هذه الأيام، وسوف يظل من غير شك في طليعة اهتمامات علم اللغة في السنوات القليلة القادمة[1].

٢. التفكير:

لسنا نريد أن نتورط في مشكلة التعريفات المختلفة للتفكير وبخاصة أن علماء النفس أنفسهم يقررون أن التفكير من المفاهيم الغامضة التي (نفهمها) ولكن نعجز عن (شرحها).. إنه يعوزه التحديد في لغة علم النفس وفي لغة الحياة اليومية كذلك[2].

ولحل هذه المشكلة أو بعيدا عنها سوف نأخذ أحد التعريفات المشهورة ونجعله نقطة بداية للسير في بحثنا هذا، يعرف (همفرى) التفكير بأنه: ما يحدث في خبرة الكائن العضوي سواء أكان إنسانا أم حيوانا حين يواجه مشكلة أو يتعرف عليها أو يسعي إلى حلها.

والمشكلة تنشأ بالطبع حين لا يمكن للكائن العضوي أن يصل إلى هدفه بالطرق المباشرة المتاحة، وعلى ذلك فإن حل المشكلة قد يكون دلالة على التفكير حين يبدو لنا أن الحل يتضمن معالجة داخلية لعناصر الموقف أو حين يقوم الكائن العضوي بتجهيز المثيرات والدلالات (من داخله)، حين لا تتوافر في الموقف الإدراكي الراهن. ولا يمكن أن يكون من أمارات التفكير وعلاماته أن يقوم الكائن العضوي

(1) Crystal, Linguistics, p. 257

(٢) عثمان (د. سيد) وأبو حطب (د. فؤاد) التفكير دراسات نفسية ص ١٩٦، ١٩٧.

باستخدام طريقة المحاولة والخطأ، أو بتكرار استجابة تعلمها أو استرجاعها بصورتها الأصلية (دون تعميم أو تمييز مثلا). والموقف المشكل الذي يستثير (التفكير) قد ينشأ عن نقص المعلومات أو الأدلة أو الوسائل أو العادات[1].

ولنفسر ما سبق بالمثال الآتي:نفرض أن (أ) كان يجلس تحت شجرة تفاح، وأراد أن يقطف ثمرة منها، فلو كانت في متناول يده ما وجدت مشكلة، ولكن لو كانت التفاحة بعيدة عن متناوله لظهرت المشكلة، ولو حاول الحصول عليها بعصا أو بسلم يتسلقه.. لوجد الحل. فما يحدث في عقله حين واجه هذه المشكلة أو حين سعى إلى حلها هو ما يطلق عليه (التفكير).

وقد ثار جدل شديد بين علماء النفس في طبيعة العلاقة بين اللغة والتفكير وفي إمكانية الفصل بينهما حتى انتهي أحدهم وهو(فيجوتسكى) إلى أن النظريات التي وضعت لتفسير طبيعة هذه العلاقة كانت تنتهي دائما إلى دائرة مفرغة لم يعثر لها على حل حتى الآن[2].

ومع ذلك فلدينا أراء أكثر شيوعا وأهمية، لقد ظهر للباحثين أن بعض الحيوانات وبخاصة الراقية منها قد يظهر في سلوكها نشاط عقلي يتمثل في استخدام بعض الأدوات وفي حل بعض المشكلات غير أن هذا النشاط يتم في غيبة اللغة، لأن هذه الحيوانات غير قادرة على وضع نشاطها الفعلي في رموز لغوية، أما الإنسان فالطابع الجوهري لنشاطه العقلي هو استعمال الرموز.

وثمة رأي شائع بين الدارسين من علماء النفس واللغة يذهب إلى تطابق التفكير واللغة، فنحن حين نفكر نتكلم ولكن دون ألفاظ، وحين نتكلم نعبر عن أفكار، ولعله من هنا أمكن أن يقال: إن التفكير يصوغ اللغة وإن اللغة توجه التفكير.

أما أن التفكير يصوغ اللغة فمعناه أن اللغة عند الإنسان مقيدة ومحددة بعدة عوامل أو محددات منها ما هو بيولوجي ومنها ما هو عقلي ومنها ما هو اجتماعي، فإذا ما استطعنا أن نتعرف على هذه العوامل والمحددات التي تؤثر في اللغة وكيف تؤثر فيها عرفنا كيف يحدد التفكير اللغة ويطورها. كما أن اللغة في

---

(١) عثمان (د. سيد) وأبو حطب (د.فؤاد) التفكير دراسات نفسية ص٢٠٠، ٢٠١.

(٢) (فيجوتسكى) التفكير واللغة ترجمة د. طلعت منصور ص٧٣.

ذاتها ويعد صياغتها توجه التفكير وتؤثر في العمليات المعرفية وفي التعاملات والتواصلات الاجتماعية ولو استطعنا أن نحدد أنواع هذا التأثير ونفسر كيف يحدث عرفنا كيف تحدد اللغة التفكير وتصوغه (١).

واللغة ظاهرة إنسانية، لأن الإنسان وحده- كما قلنا آنفا- هو الذي يضع نشاطه العقلي في رموز لغوية، وبين لغات البشر على اختلافها عناصر متشابهة أو عموميات، لأن البشر الذين يتحدثون بهذه اللغات متشابهون في إدراكهم لما يحيط بهم أي أنهم يجربون العالم المادي بطرق متشابهة في جوهرها، وهذا يعنى أن لدى البشر عموميات فكرية.

ومن زاوية أخرى نلاحظ أن لكل مجتمع نظرة خاصة في الكون وسلوكه في حياته وعلاقته بالبيئة، وهذه العناصر كلها تتمثل في اللغة المعينة التي يتلقاها الفرد في المجتمع الذي يُقَدَّر له أن يعيش فيه، ومن هنا صح إن يقال: إن اللغة الموجودة سلفا تشكل نظرة الإنسان وتصوغ سلوكه وتحدده.

ومن أوضح الأمثلة التي تبين هذين الجانبين (تأثير التفكير في اللغة وتأثير اللغة في التفكير) الظاهرة الطبيعية المعروفة بألوان الطيف، فاللغة الإنجليزية تقسمها مثلا إلى ستة أقسام على حين تقسمها لغة (السونا) إلى ثلاثة أقسام، ولغة (الباسا) إلى قسمين، والسونا والباسا لغات أفريقية في جنوب القارة، وربما كانت هناك تقسيمات فرعية، ولكن ما يراد إبرازه هنا هو أن تقسيم ألوان الطيف إلى ثلاثة أقسام لا ستة لا يشير إلى فرق في القدرة على إدراك الألوان، ولكنه يشير فحسب إلى فرق في الطريقة التي تصنف بها كل لغة(٢).

وهكذا نجد أن وجود مفردات تعبر عن ألوان الطيف ظاهرة عامة في كل اللغات، لأن الظاهرة الطبيعية واحدة، ولأن إدراكها لا يختلف من شخص إلى شخص، بيد أننا نجد أن كل لغة تعالج تصنيف هذه المفردات بطريقتها الخاصة أي أن التصنيف يختلف من لغة إلى لغة أي أن اللغة تفرض على أصحابها هذا التصنيف وتصوغ تفكيرهم في قالبه.

---

(١) عثمان (د. سيد) وأبو حطب (د. فؤاد) التفكير ص٢٧٨، ٢٧٩.

(2) Cleayon, An Introduction to descriptive Linguistics p.105.

٣. التحليل النفسي:

والتحليل النفسي من أوضح الأمثلة لتبيان العلاقة الوطيدة بين اللغة وعلم النفس، لأن المحلل النفسي إذا أراد أن يدرس الأحلام لدى شخص من الأشخاص للكشف عن بعض العقد أو الأمراض أو المواقف المتأزمة فإنه سيطلب من ذلك الشخص أن يحول أحلامه إلى سلوك لغوى أي سيطلب إليه أن يتكلم، وحينئذ لا يسعنا إلا أن نلاحظ بأن المحلل النفسي إنما يدرس ألفاظ ذلك الشخص وتعابيره لا أحلامه في حد ذاتها[(١)].

وهكذا يبدو لنا حاجة النفساني الذي يقوم بالتحليل إلى قدر مناسب من المعارف اللغوية يعينه على تحليل اللغة التي يدرسها والتعرف على خصائصها.

٤. المعنى عند السلوكيين:

المعنى من المباحث المشتركة في علم اللغة والنفس، بل إن نظرية لها شأنها في علم اللغة وهي نظرية (بلومفيلد) قامت أساسا على التفسير الذي قدمه السلوكيون للمعنى. لقد كان (بلومفيلد) يعرف المعنى على أنه المقام الذي يُنطق فيه الكلام والاستجابة يستدعيها عند السامع[(٢)].

يقول الدكتور حنفي بن عيسى في بيان موقف السلوكيين من الدلالة: وإذا طبقنا النظرية السلوكية في اللغة فمعنى هذا أن الظروف والملابسات التي تدفع بالإنسان إلى التكلم هي التي تكسب كلامه دلالة معينة.. والسلوكيون كذلك ينظرون إلى اللغة في ضوء موقفهم من كثير من أنماط السلوك الإنساني، إن السلوك اللغوي نمط من السلوك الاجتماعي، فالمواقف الاجتماعية التي يعمل ضمنها الإنسان هي بمثابة منبهات تدفعه إلى سلوك معين، وما يصدر عنه من كلام هو الاستجابة لتلك المنبهات[(٣)].

وقد كان تصنيف الاستجابات اللفظية من الموضوعات التي عُنى بها علماء النفس، ولعله من توضيح الواضح أن نقرر هنا علاقة هذا الموضوع بعلم اللغة، ولهذا سوف نلخص هنا أهم الأفكار التي

---

(١) بن عيسى (د. حنفي) محاضرات في علم النفس اللغوي ص١٣٨.

(٢) انظر كتابي: مدخل إلى اللغة ص ١٤٧، ١٤٨.

(٣) بن عيسى (د.حنفي) محاضرات في علم النفس اللغوي ص ١٧٠ - ١٧٣.

انتهي إليها علماء النفس من دراسته.

يظل الإنسان ساكتا حتى يخرجه عن سكوته سبب من الأسباب، وهذه الأسباب عند علماء السلوكية محركات أو مثيرات، وما يعنينا من هذا أن هذه المحركات أو الأسباب قد يؤدى أحيانا إلى استجابة لفظية هذه الاستجابة قد تكون:

(أ) استجابة لدوافع ملحة كأن أقول أعطني خبزا استجابة لحالة الجوع من ناحية ووجود إنسان أتوقع منه أن يحقق لي هذه الحاجة، والسلوك اللفظي هنا قد يتمثل في صيغ لغوية محددة كالأمر والنهي والترجي.. إلخ وهذه الصيغ تختلف بحسب الموقف وبحسب علاقة المتكلم بالمخاطب ومنزلته منه، ومهما كانت الصيغة التي نستعملها فهي على كال حال تعبر عن حاجتنا الملحة.

(ب) الاستجابة للمنبهات الخارجية كأن أصوغ جملة خبرية لكي أفيد السامع بمضمونها، وليست الفائدة هنا تعود على السامع فقط، فالمتكلم هو الآخر قد يستفيد مما يلقاه من السامعين من شكر أو استحسان أو موافقة.. مما قد يدفعه إلى مزيد من الكلام.

(جـ) الاستجابة للأصوات اللغوية. وهو ما يحدث ردا على كلام ملفوظ أو مكتوب، فالكلمات التي ينطقها المتكلم تثير السامع وتحثه على الكلام، ومن ثم يستمر الكلام بينهما حتى ينقطع لسبب من الأسباب. وشبيه بهذا الاستجابة الصوتية للمثيرات البصرية فلقد اعتاد كثيرون منا أن يقرؤوا جهرة ما يرونه مكتوبا.

(د) الاستجابة للعادات اللفظية، إن كلامنا أكثره استجابة للعادات الراسخة في أنفسنا، فلقد حشونا أدمغتنا بالقصائد والأمثال وحفظنا العديد من الأقوال... فتكونت لدينا من ذلك عادات لفظية تسهل علينا عملية التعامل اليومي، وتجعل الكلمات تنساق إلينا متى احتجنا إليها، وهي تخطر على أذهاننا بعفوية ويسر(١).

(١) بن عيسى (د. حنفي) محاضرات في علم النفس اللغوي ص١٧٦ - ١٨٠.

٥. العادات اللفظية وآثارها في الأداء اللغوي:

لقد تبين لنا أن العادات اللفظية تيسر لنا عملية التعامل اليومي، بيد أن لها أثرا آخر لا يقل عن ذلك أهمية، وهي أنها أحيانا تضع للفكر قوالب وصيغا جاهزة، فلقد تخطر ببالنا فكرة، وعندما نعبر عنها ونهيىء الكلمات المناسبة لها نجد أنفسنا قد اضطررنا إلى استخدام كلمة معينة، لأنها غالبا ما تجيء في صحبة الكلمة المقصودة مع أن الفكرة لا تتطلبها بحال من الأحوال. وعلى سبيل المثال تأتي الكلمات في العبارات الآتية متلازمة في أغلب الأحوال: البلد الشقيق، الوطن الحبيب، العدو اللدود، أدهي وأمر.. إلخ ومعنى هذا أن العادات اللفظية سلاح ذو حدين فهي من ناحية تسهل عملية الكلام ومن ناحية أخرى تقيد الفكر وتورط المتكلم فيما لا يقصد(١).

إن دراسة العادات اللفظية يجعلنا قادرين على أن نتنبأ - على وجه الاحتمال - بما عسى أن يصدر عن شخص ما في مناسبة معينة، لقد تبين لنا آنفا أن الكلام الإنساني غالبا ما يأتي في سلاسل من ألفاظ يستدعي بعضها بعضا، وأن دراسة هذه السلاسل ربما تكشف عن نتائج هامة في سلوك المتكلمين. ومن النتائج التي توصل إليها الباحثون من دراسة هذه العادات أنه يمكن الاستفادة منها في المجالات الآتية:

١ . إعداد التراجمة إعدادًا جيدًا بتدريبهم على معرفة العادات اللفظية للمتكلمين.

٢ . اختيار أشخاص لمهن لغوية كالترجمة أو أشخاص يتقنون مصطلحات علم النفس أو مجال معين، وتعتمد الاختبارات على الدقة في اختيار الكلمة المناسبة والسرعة في ذكرها.

٣. قياس الذكاء إذا أخذنا برأي من يقول إن الذكاء هو القدرة على إنشاء ترابطات، ولا شك أن الحصيلة اللغوية من أحسن القرائن على ذلك.

٤ . دراسة نماذج الشخصية.

٥ . العلاج النفسي عن طريق الكشف عن بعض الميول الكامنة أو النزعات المكبوتة أو المشاغل الذهنية المتأزمة.

---

(١) بن عيسى (د. حنفي) محاضرات في علم النفس اللغوي ص١٧٩.

٦. العادات اللغوية لها دور كبير في تسهيل عملية القراءة وبخاصة إذا كانت اللغة تركيبية كاللغة العربية [١].

وثمة مجالات أخرى للعمل المشترك بين اللغويين وعلماء النفس كدارسة الفروق الفردية في استخدام اللغة وموضوع الأسلوب وعلاقته بالشخصية وموضوع التفكير وعلاقته بالذاكرة والاستدعاء والانتباه وعلاقة هذه العمليات باللغة.

---

(١) بن عيسى (د. حنفي) محاضرات في علم النفس اللغوي ص١٩١ – ٢٢٠.

ثانيا: علم الاجتماع

اللغة في المجتمعات الحديثة وثيقة الصلة بكل أشكال السلوك الاجتماعي، ويتمثل هذا على السواء عند استحضار تاريخ هذا المجتمع أو تجاربه الماضية أو عند الاتصال المباشر بالأحداث أو بالتجارب اليومية أو عند مباشرة العمل وتوجيه القائمين به (١).

وهذا الدور الكبير الذي تقوم به اللغة في المجتمع يُلقي عبئا ثقيلا على علماء اللغة والاجتماع للكشف عن أبعاده، وتفسير اتجاهاته، وابتكار وسائل لتحديد وجوه التأثير المتبادل بين علم اللغة والمجتمع، وهذا هو ما يعلل ظهور علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics (٢).

ويشير هذا المصطلح إلى تطبيقات خاصة بوسائل بحث مستخدمة في علم اللغة والعلوم الاجتماعية، وبنتائج مستخلصة منها جميعا لدراسة اللغة في مجتمع معين.

ويسوِّغ هذه الدراسة أن المشكلات اللغوية والاجتماعية مترابطة ترابطا وثيقا، حتى إن علم اللغة ذاته قد اعتبر أحيانا من العلوم الاجتماعية. فكل متحدث بلغة معينة هو في الوقت نفسه أحد أفراد المجتمع الذي يستخدم هذه اللغة، ولهجته الفردية (idiolect) أو الطبقية (Social dialect) سوف يتحددان في الوسط الذي يعيش فيه، وهذا الوسط بدوره يصبح ذا أثر فعال في كلامه (٣).

ومن مجالات الدراسة التي يشير إليها أصحاب التعريف السابق:

- دراسة اللغة التي قد يكتسبها أحد المتحدثين بلهجة محلية في المدرسة أو من خلال وسائل الاتصال كأجهزة الإعلام، ويعدها لغة ثانية أو مساعدة، كما يحدث للعربي مثلا حين يتعلم الفصحى في المدرسة. وهو ما يطلق عليه اللغة الرسمية. ثم إنه يتكلم اللهجة المحلية لوطنه مصرية أو سورية... إلخ.

- دراسة لغة أو لهجة تستخدم كوسيلة اتصال بين أفراد من جماعات لغوية مختلفة، وليست هذه

---

(١) لويس: اللغة والمجتمع ص ١٢٧.

(٢) انظر كتابي (علم اللغة الاجتماعي) مكتبة الآداب.

• (3) Hartman, and Stork, Dictionary of Language and Linguistics.

اللغة أو اللهجة لغتهم أو لهجتهم القومية، كاللغة السواحلية التي قد يستخدمها في شرق أفريقيا جماعات ليست من البانتو أصحاب هذه اللغة.

- ظاهرة الثنائية حيث يكون في المجتمع الواحد مستويان لغويان أحدهما عال والآخر هابط، وهي ظاهرة شائعة في كثير من الدول، ففي مصر وغيرها من الدول العربية مستويان: اللغة الفصحى، وهي المستوى العالي، واللهجة المحلية وهي المستوى الهابط.

- النظم الرمزية التي تطورها الفئات المتصارعة للتفاهم فيما بينها في الدول ذوات اللغات المتعددة كالهند والولايات المتحدة.

- ويحدد (كريستال) مجال هذا العلم بقوله: يدرس علم اللغة الاجتماعي الطرق التي تتفاعل بها اللغة مع المجتمع، إنه يدرس الطريقة التي بها تتغير البنية اللغوية استجابة لوظائفها الاجتماعية المختلفة والتعريف بماهية هذه الوظائف.

- ويستخدم (كريستال) كلمة المجتمع في التعريف بأوسع معانيها لتشمل طائفة من الظواهر لها علاقة بالجنس والقومية، ولها علاقة أكبر بجماعة متميزة - إقليميا أو اجتماعيا أو سياسيا - ولها علاقة بتفاعل الأفراد في الجماعات[1].

---

(١) بيلز هوبجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ص٢١.

ثالثا: علم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)

علـم دراسـة الإنـسان طبيعيـا واجتماعيـا وثقافيـا. ويتكـون المـصطلح مـن كلمتـين يونـانيتين Anthropos (إنسان)، و Logos (علم)، وتعنيان معا: علم الإنسان.

وتتألف الأنثروبولوجيا المعاصرة من: الأنثروبولوجيا الطبيعيـة أو البيولوجيـة، والأنثروبولوجيـا الاجتماعية التي من فروعها الأنثروبولوجيا الثقافية.. إلخ.

الأنثروبولوجيا الطبيعيـة أو البيولوجيـة: تختـص بدراسـة تطـور الإنـسان وسـلوكه، وبدراسـة الخصائص البيولوجية التي يتباين فيها البشر القدماء والمحدثون.

الأنثروبولوجيـا الاجتماعية والثقافية: تختص بدراسة المجتمعات والثقافات المتنوعة التي تعيش في عالمنا المعاصر. ويُعنى علماءُ الأنثروبولوجيا -باختصار- بأساليب الحياة في المجتمعات المعاصرة.

الإثنولوجيا: فرع من فروع الأنثروبولوجيا يعـده الأمريكيـون فرعًـا مـن فـروع الأنثروبولوجيـا الثقافية، وهو دراسة أوجه الاختلاف والاتفاق بين الثقافات لاستنباط تعميمات حول أصولها وتطورها وتنوعها[1].

وللعلاقة الوثيقة بين علم اللغة وعلم الأنثروبولوجيا (الاجتماعية والثقافية) نـشأت علـوم بيـنهما تأخذ منهما معًا، وتعالج قضايا مشتركة ومن هذه العلوم:

١. علم اللغة الأنثروبولوجي Anthropological Linguistics

هذا العلـم له علاقة بعلـم اللغة الاجتماعي تنبني أساسا على طبيعة العلاقة بين علم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وبعض الباحثين يرى أن العلم الأول يـدرس الثقافـات البدائيـة، وأن الثـاني يـدرس وحدات سياسية أكثر تقدما، والمدارس الأمريكية والإنجليزية تختلف فيما بينها في هذا المجـال اختلافـا كبيرا.

---

(١) انظر في هذه التعريفات: قاموس علم الاجتماع للدكتور عـاطف غيـث، وقـاموس الأنثروبولوجيـا للـدكتور شاكر مصطفى.

ويحدد (بيلز) و (هويجر) وهما أمريكيان موضوع الأنثروبولوجيا بأنه دراسة المجتمعات والثقافات الإنسانية،وتاريخها وتتابع نموها وتطورها، ودراسة الثقافات البشرية وأدائها لوظائفها في كل مكان وزمان، الأنثروبولوجيا الثقافية مثلا تهتم بالثقافة في ذاتها: ثقافة أسلافنا أبناء العصر الحجري أو ثقافة المجتمعات المعاصرة في أوربا وأمريكا، وجميع الثقافات تستأثر باهتمام دارس الأنثروبولوجيا، لأنها تسهم جميعا في الكشف عن استجابات الناس - المتمثلة في الأشكال الثقافية - للمشكلات العامة التي تطرحها البيئة المادية (الطبيعية) وعن محاولات الناس الحياة والعمل معا، وتفاعلات المجتمعات الإنسانية بعضها مع بعض[1].

ويحدد الباحثان السابقان مهمة عالم اللغة الأنثربولوجي بقولهما: لا يقصر اهتمامه بالمشكلات اللغوية البحتة فحسب، إذ أنه يهتم أيضا بالعلاقات العديدة القائمة بين لغة شعب من الشعوب وبقية جوانب ثقافته، وهكذا يمكن أن يدرس على سبيل المثال الكيفية التي ترتبط بها لغة جماعة معينة بمكانة تلك الجماعة أو وضعها الاجتماعي، والرموز اللغوية المستخدمة في الشعائر والاحتفالات الدينية، وكيف تختلف هذه الرموز عن الكلام اليومي العادي، وكيف يعكس تغيرُ الحصيلة اللغوية في إحدى اللغات الثقافةَ المتغيرة للشعب الذي يتكلمها، وكذلك العمليات التي تنتقل بواسطتها اللغة من جيل إلى جيل، وكيف تساعد تلك العمليات على نقل المعتقدات والمثل العليا والتقاليد إلى الأجيال التالية، فدارس اللغويات - باختصار يحاول أن يفهم دور اللغة في المجتمعات البشرية، والمهمة التي اضطلعت بها في رسم الصورة العامة للحضارات الإنسانية المتطورة[2].

ولنأخذ الموضوع الآتي لبيان العلاقة الوثيقة بين علم اللغة والأنثربولوجيا.

اللغة والثقافة :

إن علاقة اللغة بالثقافة من أهم النقاط التي يلتقي عندها علم اللغة بالأنثروبولوجيا، ويُعد الالتقاء بينهما التقاءً عظيم الخطر جليل الفائدة للعلمين كليهما، إذ إن اللغة تعكس ثقافة المجتمع من ناحية وهي

---

(١) بيلز هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ص٢١.

(٢) بيلز هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ص ٢٧.

التي تُمْلي عليه ثقافته من ناحية أخرى.

والثقافة – ودون أن نتورط في مشكلات تعريفها – ببساطة هي أسلوب شعب ما أو جماعة معينة في الحياة، ونظرة هذا الشعب أو تلك الجماعة إلى حياتهم، إنها تتمثل في أعراف وتقاليد وآداب وفنون وأنماط من السلوك.. إلخ وكلها عناصر يتلقاها الفرد من مجتمعه، إنها – بإيجاز – كيف يتصرف الفرد في موقف معين؟ ولماذا يتصرف على هذا النحو؟

اللغة تعكس ثقافة المجتمع:

ومن المعروف أن اللغة تعكس ثقافة المجتمع الذي يستخدمها وتعبر عن حاجاته وتكشف عن مظاهر الحياة فيه، ولهذا تَغْنَى اللغة في مجال معين وتفتقر في مجال آخر.

فالعربية مثلا تفيض بالمفردات التي تشير إلى الحياة البدوية وما يتصل بها من مظاهر الطبيعة وحيوان الصحراء ومظاهر السلوك التي تناسب هذه الحياة، فلا عجب إذًا أن نجد مئات الألفاظ بل آلافها تتحدث عن الإبل، فإذا نظرت في معجم عربي قديم وجدته مليئا بكل ما يتصل بها: حملها ووضعها ونتاجها وأعمارها وأمراضها و أوبارها وسيرها وأحمالها.. إلخ بل وضعوا للشيء الواحد من هذه الأشياء غير لفظ واحد.

فإذا ما انتقلت إلى بيئة أخرى كالإسكيمو وجدت ثقافة أخرى لا تعرف الصحراء ولا حيوانه، ولا تعرف الحياة البدوية ولا أنماطها، وجدت لغة لا تمثل هذه الثقافة ولا تعكس هذه الحياة، وجدت لغة تتحدث عن الثلج وأنواعه، وتفرق بين أحواله، وأوقات نزوله، وكيفياتها وآثاره على الحيوان والشجر، لغة تتحدث عن (الرِّنة والفقمة) وأنواع لا حصر لها من حيوان الماء وطيره.

وهكذا يبدو لنا أن اللغة صورة لثقافة الأمة ومرآة تعكس حياتها، بيد أن هذا جانب من القصة، وللقصة جانب أخر، حيث تقوم بتشكيل ثقافة الأمة وصنع فكرها.

اللغة تشكل ثقافة المجتمع:

إن نشأة الثقافة وتطورها يتوقفان على خلق نظام من الرموز واستخدامها، وهذا ما يؤكده علماء الأنثروبولوجيا، وفي هذا الإطار يقول (ليزلى هوايت): إن السلوك البشرى بكافة أنواعه ينشأ باستخدام

الرموز.. وقد نشأت كل الحضارات واستمرت باستخدام الرموز.. فالرمز هو الذي يحول الطفل إلى كائن بشري مكتمل.. إن أنواع السلوك البشرى كافة تتكون من استخدام الرموز أو تعتمد على أنواع من الرموز، فالسلوك البشرى سلوك رمزي والسلوك الرمزي سلوك بشري(١).

إن القدرة على استخدام اللغة أو غيرها من الرموز مكنت الإنسان من الاحتفاظ بخبراته ومعارفه ونقلها إلى غيره من بني جلدته، كما أنها يسرت له أن يعبر الفجوة بين الخبرات المادية المنفصلة مما يضفي طابع الاستمرار على عملية اكتساب الخبرات الإنسانية.

إن البشر لا يتعلمون عن طريق الخبرة المباشرة والملاحظة والتقليد فقط. وإنما يتعلمون كذلك من خلال الخبرة التي تتراكم في صورة رمزية لغوية غالبا، فما إن ينجح إنسان ما في حل مشكلة معينة حتى يصبح في وسعه تلخيص هذه الخبرة في كلمات، وبهذه الطريقة تصبح جميع خبرات وملاحظات أي فرد في متناول بقية أفراد المجتمع الحاضر، ليس هذا فحسب بل إنها تمكن البشر من تلخيص أساليب السلوك التي تعلموها ونقلها إلى كل جيل جديد(٢).

ومن ثم فليس غريبا أن يقال إن الثقافة في جوهرها هي تراكمٌ لأنماط السلوك المتعلم التي نشأت وتطورت بفضل الرموز التي ظهرت إلى الوجود عندما تعلم الإنسان كيف يرمز للأشياء.

بيد أن وظيفة اللغة لها أهمية أكبر من كونها وسيلة للتعبير عن الخبرة أو نقلها، إن اللغة تُملي على الفرد أسلوب حياته ونظرته إليها وفي هذا يقول (سابير): البشر لا يعيشون في العالم المادي فحسب، ولا في عالم النشاط الاجتماعي بالمفهوم العادي، ولكنهم واقعون تحت رحمة تلك اللغة المعينة التي اتخذوها وسيلة للتفاهم في مجتمعهم، إنه لوهم كبير أن نتخيل أن فردا ما يتكيف مع الواقع دون استخدام اللغة، وحقيقة الأمر أن العالم الحقيقي مبنى إلى حد كبير على العادات اللغوية لمجتمع معين، كما أنه ليس في العالم لغتان تتشابهان تشابها كبيرا إلى درجة اعتبارهما تمثلان نفس الواقع الاجتماعي، إن العوالم إلى تعيش فيها

(١) بيلز هويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ص ١٦٦.

(٢) مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ص ١٦٧.

المجتمعات المختلفة عوالم مختلفة لا عالم واحد نسميه بأسماء مختلفة (١).

اللغة إذًا هي التي تجعل مجتمعا معينا يتصرف ويفكر بطريقة خاصة، ومن هنا يقرر (ورف): أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار بل إنها هي نفسها التي تشكل هذه الأفكار.. نحن نحلل العالم من خلال جمل حددتها قبلا لغاتنا القومية.. نحلل العالم ونصنفه في أفكار ونعطي لذلك أسماء، نفعل هذا لأننا أفراد متفقون على أن ننظمه بهذه الطريقة، إنه اتفاق ينعقد خلال المجتمع اللغوي ويقعد له في أنماط لغتنا(٢).

وهذا يبرز لنا الدور الكبير الذي تقوم به اللغة في نشأة الثقافة وفي استمرارها وفي تطورها وفي تشكيلها لأفكارنا وأنماط سلوكنا ونظرتنا إلى العالم. وهذا ما جعل الأنثروبولوجيين يعدون دراسة اللغة فرعا من أكثر فروع الدراسة الإثنولوجية أهمية؛ لأنهم يرون أن تحقيق إدراك تام بالإثنولوجيا لا يتم بغير معرفة باللغة، ولأن المفاهيم التي تكشف عنها اللغات الإنسانية لا تختلف في النوع عن الظواهر الإثنولوجية، وأكثر من هذا لأن خصائص اللغات تنعكس بوضوح في آراء وتقاليد شعوب العالم(٣).

٢. علم الأجناس اللغوي Ethno Linguistics

يجعله بعض الباحثين فرعا من علم اللغة الأنثروبولوجي، وينظر إليه أحيانا على أنه علم يتميز عن بقية العلوم الاجتماعية، وهو يشير إلى العلاقات اللغوية التي يمثلها في مستوى واقعي النتائجُ اللغوية للهجرة، ويشير أيضا إلى مشكلات الجماعات العِرْقية، وثمة جانب لغوى في العلاقات العرقية يدركه تماما العاملون في هذا المجال(٤).

ومن الموضوعات التي درسها الباحثون في هذا الفرع الخواص اللغوية المميزة لإنجليزية الزنوج والهنود الحمر واليهود وغيرهم من الجماعات العرقية في الولايات المتحدة، وقد انتهى اللغويون إلى أن هذه الخواص لا ترجع إلى الجنس أو العرق بل تخضع لعوامل اجتماعية في المقام الأول، فهي تظهر مثلا

---

(1) Corder, Introducing Applied Linguistics. P. 75

(٢) انظر: اكندراتوف: الأصوات والإشارات ص ٦١، ٦٧.

(٣) بيلز وهويجر: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة جـ ٢ ص ٦٦٤.

(4) Crystal, Linguistics, p.252

في لغة المهاجرين الأوائل الذين تمكنت فيهم لغاتهم الأصلية، أما أبناؤهم الذين خضعوا لظروف طبيعية في مواطنهم الجديدة فإنهم يكتسبون الإنجليزية كأبناء المجتمع الأصليين.

وقد احتفظ الزنوج بلهجة إنجليزية خاصة يطلق عليها في أمريكا (Black English) لأسباب اجتماعية وتعليمية واقتصادية، إن التعصب العنصري عبر التاريخ ضد الأمريكيين السود لم يسمح لهم أن يكونوا مواطنين عاديين، لقد كانوا يعيشون في مناطق منعزلة عن مناطق البيض، وكانوا يتعلمون في مدارس خاصة بهم، وحيثما يكوّن الانعزال تزيد الفروق اللهجية وتتكثف.

وقد كان كثير من الأمريكيين يعتقدون إن المتحدثين بإنجليزية الزنوج عقلياتهم متخلفة وثقافتهم فقيرة، بل ويقررون أنها غير نافعة وغير منطقية وغير كاملة.

والحق كما يقول بعض اللغويين الأمريكيين: إن هذه النعوت لا تصح أن تطلق على أي لغة إنسانية، إن الثقافة الفقيرة ما هي إلا خرافة كخرافة اللغة الفقيرة تماما، إن الشخص قد يكون فقيرا في مجال ثقافي، ولكنه يكون غنيا في مجال ثقافي آخر. إن الأمريكي الأسود الذي يقول: Mary Hat ليس فقيرا في فكره ولا في لغته بالقياس إلى من يقول: Mary's Hat[1].

وعلى كل فقد كان للبحوث اللغوية التي تمت في هذا المجال فضل كبير في أن تبين الصواب في موضوع الثقافات البدائية واللغات البدائية.

---

(1) Fromkin And Rodman, Introduction To Language, P.261

رابعًا: علم الأسلوب Stylistics

كانت الدراسة التقليدية للأسلوب تُعنى أساسا بتحليل الأسلوب الأدبي أو السمات اللغوية المتنوعة للكاتب، ولذلك وضعت معايير متعددة لمعالجة الأساليب الفردية أو الجماعية عند اتصالها بالسيرة الذاتية أو بالسمات السيكولوجية والاجتماعية التي تعكس شخصية منشئها.

وقد ظهر حديثا جدا اهتمام كبير بدراسة الأسلوب ولكن بمفهوم يختلف عن المفهوم التقليدي السالف يقول (كريستال): يهدف علم دراسة الأسلوب بشكل عام إلى تطبيق الطرق الفنية لعلم اللغة في دراسة أنواع خاصة وشائعة من الاستخدامات اللغوية من حيث صلتها بمجتمع لغوى معين (speech community) له طبيعة خاصة، مثل دراسة لغة العلم أو القانون أو الدين أو السياسة أو لغات الطبقات الاجتماعية الخاصة.

ثم يقول في موضع آخر "إن علم الأسلوب يحدد لنا أنواع الكلام أو الكتابة التي تتناسب مع المواقف المختلفة، كما يحاول تطوير معرفتنا وتحكمنا في هذه الخلافات التي تعلمنا بعضا منها في سن مبكرة"(١).

ونحن نعرف كثيرا من هذه الأساليب التي تلقيناها في البيت أو في المدرسة من نوع (قل ولا تقل) وقد يكون الأمر أو النهي بالحديث مع شخص معين أو في موضوع معين.

ومن الواضح أن (كريستال) يربط الأسلوب أحيانا بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المتكلم، وهو ما يعرف عند باحثين آخرين باللهجة الاجتماعية.

وفي مجال تحديد العلاقة بين اللهجة والأسلوب يقول (هدسون) إن اللهجة محلية أو اجتماعية تحددها شخصية المتكلم: المنطقة التي يسكنها أو الطبقة التي يشغلها في المجتمع: إن اللهجة أو اللهجات التي يكتسبها الفرد أو يستخدمها دليل على هويته في المجتمع. وثمة تنوعات في اللغة مستقلة عن هوية الفرد في المجتمع وإنما تحددها أمور أخرى: الموضوع الذي يتحدث فيه أو الشخص الذي يتحدث إليه أو

---

(١) كريستال: التعريف بعلم اللغة ترجمة د. حلمى خليل ص ١٨٥، ١٨٦.

الوسيلة اللغوية التي يستخدمها في الاتصال، إن هذه التنوعات هي ما يطلق عليها: الأسلوب، وإذا كنا قد انتهينا إلى أن اللهجة تتحدد بصفات لها علاقة بالمتكلم فقد يجوز لنا هنا أن نقول: إن الأسلوب يتحدد بصفات لها علاقة باستخدام اللغة، ونحن في حاجة ماسة إلى هذا التفريق بين التنوعات اللهجية والأسلوبية، لأن الشخص الواحد قد يستخدم أشكالا لغوية مختلفة جدا ليعبر عن نفس المعنى في مناسبات أو ظروف مختلفة(١).

وقد حدد بعض الباحثين الأساليب التي يمكن للفرد أن يستعملها بأنها الأسلوب الجامد والأسلوب الرسمي والأسلوب الاستشاري والأسلوب العادي وأسلوب الألفة الشديد. ولباحثين آخرين رأي آخر في هذا الوصف(٢).

الدراسة الإحصائية للأسلوب:

ويستخدم بعض الباحثين منجزات علم اللغة الرياضي وطرقه الفنية في تحليل أسلوب كاتب معين أو نص معين، وذلك لأغراض متنوعة، فعالم النفس مثلا يعده أفضل الوسائل للكشف عن سريرة الإنسان وشخصيته، والناقد الأدبي يعده من الطرق التي تساعده على التعرف على خصائص الكاتب الفنية أو تعينه على الكشف عن خصائص فن أدبي معين.. إلخ.

ومن المعروف أن أفراد الجماعة الواحدة لا يتكلمون على وتيرة واحدة، بل نجد بينهم فروقا في الأصوات أو في اختيار الكلمات أو في بناء الجمل..إلخ. وهذا الاختلاف هو الذي يسوغ الحديث عن الأسلوب اللغوي الفردي باعتباره سمة من سمات الشخصية وعلامة فارقة بين الناس.

ولكل فرد من أفراد الجماعة اللغوية عدد خاص من المفردات يستخدمها في الكلام أو في الكتابة أو يتعرف عليها عند القراءة، وهو ما يعرف بالحصيلة اللغوية. ويختلف كل فرد في الطريقة التي يستخدم فيها هذه المفردات، فبعضهم يوجز، وبعضهم يطيل، وبعضهم يكرر، وبعضهم لا يكرر وهذا ما يعرف بتنوع المفردات، وقد ابتكرت طرق إحصائية لدراسة هذين الجانبين، ودرست العلاقة بينها وبين الذكاء.

---

(1) Hudson Sosio Linguistics e 48.

(٢) انظر في تفصيل ذلك كتابي مدخل إلى اللغة ص ٢٦٨ - ٢٧٥.

وقد درست أيضا الطرق التي تؤلف بها الجملة، فمن الناس من يصوغها طويلة معقدة، وبعضهم يصوغها قصيرة بسيطة، ولقد درست أسباب ذلك وعلاقتها بالكاتب أو بالموضوع.

ولا تنحصر الفروق الفردية في السلوك اللغوي فيما ذكر من الحصيلة اللغوية أو تنوع المفردات..الخ بل يختلفون كذلك في استعمالهم لمختلف أقسام الكلام من أسماء وأفعال وحروف ونعوت أي من حيث نسبة كل منها إلى الآخر.

ولكن ما قيمة الدراسة الإحصائية للأسلوب ؟

يجيب الدكتور حنفي بن عيسي عن هذا السؤال قائلا:- إن الأسلوب الذي ينكشف لنا بعد التحليل الإحصائي تنقصه عناصر كثيرة إذا ما قورنت بالأسلوب الذي يدركه عن طريق الحدث والشعور المباشر، ويبدو أن الطرق الإحصائية مهما كانت دقيقة، ومهما استعانت بالأرقام فإنها تغفل جانبا من جوانب الأسلوب، وأن العقل البشري أكثر قدرة على الإحساس بتلك العناصر وعلى تسجيلها في صورة مباشرة..، ومع ذلك فإن الطريقة الإحصائية - إن كانت لا تطلعنا على تلوينات الأسلوب فإنها تقدم لنا معلومات مفيدة عن الفروق الفردية في أساليب التعبير، ولا شك أن الطريقة الإحصائية من أحسن الروافد لفهم بعض أسرار السلوك اللغوي [1].

---

(١) انظر: محاضرات في علم النفس اللغوي ص ٢٤٥- ٢٥٩ وبخاصة الصفحة الأخيرة. وانظر أيضا، مصلوح (د.سعد) الأسلوب، دار البحوث العلمية.

المبحث الثاني

علم اللغة والدراسات التطبيقية

(علم اللغة التطبيقي)

عند الحديث عن تعريف علم اللغة تبين لنا أنه يهدف إلى وضع نظرية في اللغة، نظرية تفسر لنا كيف تعمل اللغة. ونظرا للطبيعة النظرية لهذا العلم أطلق عليه بعض الباحثين (علم اللغة النظري Theoretical Linguistics).

ويوصف علم اللغة بالتطبيقي Applied Linguistics ليشير إلى بعض الجوانب العملية لهذا العلم، ومن البدهي أن العلماء - في أي فرع من فروع العلم - ليسوا مطالبين بأن تكون لهم أهداف عملية، فربما كانت ملاحظة الظواهر وتفسير العلاقات بينها والوصول إلى النظام الذي يحكمها - ربما كانت هذه الأمور هدفهم الوحيد الذي تخلص له النوايا وتتوجه إليه الأعمال. وقد تكون هناك أهداف عملية لهذه الأعمال ربما عمل العلماء أنفسهم على تحقيقها، وربما استفاد منها علماء آخرون، وهؤلاء هم العلماء التطبيقيون، ويطلق على العلوم التي تُعنى بهذه الاستخدامات العملية: العلوم التطبيقية (ومن بينها مثلا الهندسة والجراحة والفلاحة.. الخ) ومن بينها أيضا علم اللغة التطبيقي، ولا شك أن العلوم التطبيقية تعتمد على العلوم النظرية، وتستخدم ما تنتهي إليه من نتائج في تطوير استخداماتها.

ويعرف (كريستال) علم اللغة التطبيقي بأنه: « تطبيق نتائج المنهج اللغوي وأساليبه الفنية في التحليل والبحث في ميدان غير لغوى» ثم يعلق على التعريف قائلا: وعلم اللغة بهذا المعنى ما هو إلا وسيلة لغاية معينة أكثر منه غاية في ذاته[1].

وبعض اللغويين يستخدم هذا المصطلح للإشارة فحسب إلى النواحي التعليمية (تعليم لغة أجنبية أو قومية)، غير أن لغويين آخرين توسعوا في مجالات استعماله فشمل استخدامات أخري غير تعليمية.

ومن أهم مجالات علم اللغة التطبيقي:

---

(١) كريستال: التعريف بعلم اللغة ترجمة د. حلمي خليل ص ١٧٤.

أولا: عمل المعاجم:

عمل المعاجم من أهم مجالات علم اللغة التطبيقي، لأنه من أقربها إلى جمهور الناس من غير المتخصصين، وصناعة المعجم - كما يقرر أهلها- ليست علما بل هي فن لا يمكن أن يتقيد بالطرائق الموضوعية التي يتبعها علم اللغة الحديث، وعلى حد تعبير المعجمي (كوف): «لم تصبح الصناعة المعجمية علما بعدُ، وربما لن تصبح علما أبدا، فهي فن معقد دقيق وبالغ الصعوبة أحيانا يتطلب تحليلا ذاتيا وقرارات اعتباطية واستنتاجات حدسية» [(1)].

ومن الضروري أن نشير هنا إلى الفرق بين علم المفردات أو المعجم الذي هو فرع من علم اللغة النظري وصناعة المعجم. « يهتم علم المفردات من حيث الأساس باشتقاق الكلمات وأبنيتها ودلالاتها المعنوية والإعرابية والتعابير الاصطلاحية والمترادفات وتعدد المعاني، أما الصناعة المعجمية فتشمل خطوات أساسية خمس هي: جمع المعلومات والحقائق، واختيار المداخل، وترتيبها طبقا لنظام معين، وكتابة المواد، ثم نشر النتاج النهائي، وهذا النتاج هو المعجم أو القاموس»[(2)].

وهكذا نتبين الطبيعة النظرية لعلم المفردات أو المعجم من حيث البحث في الاشتقاق والصيغ والدلالات..الخ والطبيعة العملية لصناعة المعجم، والتي تستفيد من نتائج العلم السابق بالإضافة إلى معارف ووسائل خاصة لإنجاز معجم يستخدم بالفعل.

ويمكن تعريف (المعجم) بأنه كتاب يحتوى على كلمات منتقاة ترتب عادة ترتيبا هجائيا، مع شرح لمعانيها، ومعلومات أخرى ذات علاقة بها، سواء أعطيت تلك الشروح والمعلومات باللغة ذاتها أو بلغة أخرى»[(3)].

وتتنوع المعاجم تنوعا كبيرا وفقا للأهداف التي تسعي إلى تحقيقيها، ولكن يمكن على سبيل التبسيط أن يقال إنها تنقسم إلى نوعين:

---

(1) القاسمي (د.على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ١٢.

(2) القاسمي (د.على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ٩.

(3) القاسمي (د.على) علم اللغة وصناعة المعجم ص ٩.

معاجم عامة: لا ترتبط بموضوع خاص مثل (المعجم الوسيط) الذي أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

معاجم متخصصة: تقتصر على مجال معين منها، المعجم الجغرافي والمعجم الفلسفي ومعجم ألفاظ الحضارة. وهي أيضا من أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

والمعاجم قد تكون أحادية اللغة كالمعاجم الآنفة الذكر أو ثنائية اللغة، كالمعاجم الإنجليزية - العربية أو الفرنسية العربية.. إلخ.

وتُعنى المعاجم العامة أحادية اللغة ببيان معلومات متنوعة - غير بيان المعنى - تتصل بالمفردات التي تعالجها، ومنها على سبيل المثال:

١. طريقة هجاء الكلمة.

٢. كيفية نطقها.

٣. نوع الكلمة (اسم، فعل، حرف..الخ).

٤. صيغها الاشتقاقية (اسم الفاعل، اسم المفعول، اسم الزمان..الخ).

٥. ما يتصل بها من سوابق أو لواحق أو أحشاء، أو ما يحدث فيها من تغيير للتعبير عن معان صرفية كالإفراد والتثنية والجمع. والتأنيث والتذكير والتعريف والتنكير..الخ.

٦. قد تُعنى بعض المعاجم ببيان المعنى الأصلي للكلمة ثم تتناول التغيرات التي حدثت عبر مراحل زمنية محددة (المعاجم التاريخية) [1].

٧. قد تشير بعض المعاجم إلى المعاني المعاصرة (المعجم الوسيط). و(معجم اللغة العربية المعاصرة) للدكتور أحمد مختار.

٨. قد تشير بعض المعاجم إلي الألفاظ المقترضة من لغات أخرى.

٩. قد تشير بعض المعاجم إلى استعمال اللفظ في مكان معين (لهجة محلية) أو عند طبقة معينة (لهجة اجتماعية) أو في موضوع معين في موقف معين (أسلوب).

---

(١) انظر للمؤلف (المعجم التاريخي للغة العربية: وثائق ونماذج) دار السلام ٢٠٠٨.

ولعله قد اتضح الآن أن بيان هذه المعلومات يعتمد اعتمادا كبيرا على علوم اللغة المختلفة (علم الأصوات، وعلم الصرف وعلم النحو وعلم المعجم أو المفردات).

وللمعاجم ثنائية اللغة منهج خاص في شكلها ومضمونها، ونحيل القارئ إلى كتاب الدكتور القاسمي ففيه غناء وبخاصة ما يتصل بالمعايير إلى ينبغي مراعاتها عند تصنيف أو تقييم هذا النوع من المعاجم[1].

(١) القاسمي (د.علي) علم اللغة وصناعة المعجم ص ٢٠٧-٢١٢.

ثانيا: أمراض الكلام وعلاجها:

هذا المجال من المجالات المشتركة التي يعمل فيها الطبيب والنفساني وعالم اللغة، والعمل في هذا المجال يدور في إطارين: يعرف أولهما: بـ (Speech Pathology) أي دراسة العيوب أو الاضطرابات التي تحوق فعالية الاتصالات التي يقوم بها المتكلم، وهذه الدراسة تهدف إلى اكتشاف أسبابها عضويةً أو نفسية أو بيئية. ويعرف ثانيها بـ(Speech Therapy) أي: علاج يهدف إلى التخلص من الاضطرابات الكلامية أو اللغوية أو التخفيف من آثارهما[1].

اضطرابات الكلام (عيوب النطق):

وقد جرت عادة الباحثين على أن يقسموا اضطرابات الكلام وعيوب النطق إلى قسمين:

١. عيوب ترجع العلة فيها إلى أسباب أو عوامل عضوية.

٢. عيوب ترجع فيها إلى أسباب وظيفية.

وترجع عيوب القسم الأول إلى أحد العوامل الآتية: عيب في الجهاز الكلامي أو السمعي كالتلف و التشوه أو سوء التركيب، أو النقص في القدرة الفطرية العامة (الذكاء) يؤدى إلى خلل في تأدية هذا العضو أو تلك القدرة فيحدث لذلك عيب في النطق أو احتباس في الكلام أو نقص في القدرة التعبيرية.

أما المصاب بعلة من علل القسم الثاني فلا يشكو من أي نقص عضوي في الجهاز الكلامي أو السمعي، وكل ما هنالك أن قدرة الفرد على التعبير متأثرة بعوامل غير عضوية تسبب له اضطرابات عدة تختلف من حيث نوعها وشدتها وفقا لمدى قوة العوامل وتأثيرها في الفرد[٢].

ومن ملاحظات العاملين في الحقل الأول أن بعض أعضاء النطق أو السمع قد تصاب بتلف يعطلها عن أداء وظيفتها في إنتاج الكلام أو في استقباله أو يجعل أداءها مضطربا، فقد يولد بعض الأطفال صُمًّا بُكمًا، وقد يولد بعضهم بعيوب خِلْقية أخري تتصل بأعضاء النطق أو السمع (كالحلق المشقوق- قصر اللسان- انسداد في الأذن الداخلية أو الوسطى.. الخ) وقد يتعرضون لإصابات في

---

(1) Hartman, and stork, Dictionary of Language and Linguistics.

(٢) فهمي (د. مصطفى) أمراض الكلام ص ٣٣.

حياتهم.. مثل هؤلاء يحتاجون إلى علاج خاص يمكنهم من أن يكونوا أعضاء نافعين، وأن تكون لديهم وسيلة أو أكثر تساعدهم على ذلك. وقد بذلت محاولات عديدة ناجحة لتعليم الصم والبكم قراءة الشفاة مثلا لفهم ما يقال لهم، أو استخدام الجسم أو اليدين بأشكال خاصة، كما تم التوصل إلى طرق خاصة لتعليمهم القراءة والكتابة.

وفي هذا المجال نكتفي بالإشارة إلى ما اقترحه الدكتور مصطفي فهمي من توصيات بكيفية العناية بضعاف السمع، والقواعد التي ينبغي مراعاتها عند تعليم الطفل قراءة الشفاه، وقد وضع لذلك منهجا تعليميا، كما أنه أشار إلى وسائل أخرى عَرَّف بها وبين كيفية استخدامها كالقراءة باليد واستخدام الأجهزة(١).

أنواع الحُبْسة ونتائج البحوث فيها:

أثبتت البحوث الحديثة أن الدماغ هو مركز اللغة، وأن المنطقة اليسرى منه هي المسئولة عنه، ومن أهم البحوث التي تجري في هذا المجال، ويقوم بها أطباء الأعصاب والدماغ مع علماء اللغة البحوث التي تحاول التعرف على طبيعة اللغة وأنظمتها من ناحية، وتحاول التعرف على أدق مناطق الدماغ التي يمكن أن تكون مسئولة عن مهارات لغوية محددة.

ومن نتائج هذه البحوث أن (الحُبْسة aphasia) هي نتيجة تلف معين في منطقة محددة من مركز الكلام في المخ، ويصنف العلماء الحبسة إلى ثلاثة أنواع:

١ . حبسات الاستقبال وتتعلق باستقبال الكلام، ومن أشكالها الصمم اللفظي، وهو تعذر فهم الكلام المسموع، والعمى اللفظي وهو تعذر فهم الكلام المكتوب.

٢ . حبسات التعبير، وتتعلق بالقدرة على نقل الأفكار وتوصيلها إلى الغير، ومن أشكالها الخرس عن التعبير نطقا دون شلل في اللسان أو الأعضاء المصوِّتة مع بقاء القدرة على الفهم، ومنها حبسة الكتابة وهي العجز عن التعبير كتابة بدون شلل في عضلات اليد والذراع.

---

(١) فهمي (د. مصطفى) أمراض الكلام ص ١١٧-١٤٥.

٣. الحبسات الناتجة عن فقدان الذاكرة حيث ينسى المريض أسماء الأشياء والأمور البسيطة التي يتعامل بها الناس في الحياة اليومية دون أن يفقد القدرة على الفهم والتعبير[1].

وقد أوجز الدكتور نايف خرما نتائج البحوث التي أجريت على مرضى الحبسة فيما يأتي:

١. أن إصابة بعض ألياف الدماغ أو إتلافها لا تسبب في خسارة أجزاء مختارة من اللغة (كأن تختفي مثلا بعض المفردات أو بعض القواعد).

٢. أن الإصابة لا يمكن أن تلغى القدرة اللغوية إلغاء تاما بينما يبقى المصاب في نفس الوقت طبيعيا من جميع الوجوه الأخرى.

٣. أن ما يميز جميع إصابات الحبسة أنها لا تقضي على اللغة قضاء تاما بل تسبب خللا في وظيفتها الطبيعية، وفي استعمالها مما ينتج عنه اضطراب في التنسيق الداخلي واختلال في الأداء اللغوي[2].

لذلك يتجه الأطباء في علاج المصابين بالحبسة إلى اكتشاف المهارات اللغوية التي ما زال المصاب يحتفظ بها وتنميتها بشكل مناسب.

عيوب خِلقية ونفسية:

وهناك دراسات أخرى تناولت عيوب النطق الناتجة عن عيوب خلقية صغيرة، أو ناتجة عن عدم توفر البيئة المناسبة لاكتساب اللغة أو عن عوامل نفسية، ومن أهم هذه الدراسات ما يتصل بأنواع (اللثغة) كالفأفأة والتأتأة ونطق الراء لاما أو ياء أو غينا..الخ.

وهناك دراسات أخري تتصل بعيوب الكلام الناتجة عن عوامل نفسية لا جسمية، ومن هذه الدراسات ما عنى بالكشف عن العلاقة بين اللغة والمصابين بالجنون أو بالفصام، فقد تبين مثلا أن المجنون يتميز عن المصاب بالتخلف العقلي بأنه لا يزال لديه بقايا مما حصله لغويا فيحتفظ بجملة من المفردات والذكريات والمهارات اللغوية، ولا شك أن دراسة هذه البقايا وتحليلها مهم جدا من أجل تشخيص المرض. أما المصاب بالفِصام فقد لوحظ أنه يحاول أن ينشئ لغة جديدة تقوم على الحذف

---

(١) بن عيسى (د. حنفي) محاضرات في علم النفس اللغوي ص ٣٠٢.

(٢) خرما (د. نايف) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٢٥، ٢٦.

أحيانا وعلى الابتداع أحيانا، أما قواعد النحو فيضرب بها عرض الحائط، ويستعمل الأسلوب المختصر المجحف بالمعنى، ويرصف الكلمات رصفا دون رابط، ولا يراعي رتبة الكلمة من حيث التقديم أو التأخير، وتراه أحيانا يورد النعوت من غير مبرر.. إلى غير ذلك من صور العبث باللغة(١).

دور اللغوي في علاج اضطرابات الكلام:

ويمكن للعلوم اللغوية أن تساعد في علاج أمراض الكلام بتقديم مخططات نظرية أو طرق تحليلية أو مادة وصفية عن اللغة بشكل عام، كما يمكنها أن تقدم معارف عن العلاقة بين النطق والكتابة والتنوع اللغوي، وتصنيف أصوات الكلام، والعلاقات النحوية والدلالية.. وغير ذلك مما يوضح كيف تعمل اللغة. ولا شك أن هذه المعارف ضرورية في التشخيص والعلاج، وفي ذلك يقول (كريستال): "هناك أنواع كثيرة من الأمراض تتصل بالطريقة التي نتكلم بها أو التي نستقبل بها الكلام أو نفهمه، وعلى ذلك لابد أن يكون لدينا تصور واضح عن حقيقة العجز اللغوي بالضبط قبل أن نبدأ أي نوع من العلاج، كما نعرف إلى أي مدّى قد يؤثر هذا على السلوك الطبيعي في الكلام، وهل هذا العجز أو هذا الاضطراب يتصل بالأصوات أو بالفونولوجي أو النحو أو له طبيعة دلالية أو هو مزيج من هذه الأشياء جميعا، لأنه إذا كان يتصل بالناحية النحوية فلابد أن نعرف حينئذ أي جوانب النحو هي التي تأثرت إلى أي مدى؟ ولكي نجيب عن هذه الأسئلة يجب علينا أن نقوم بأمرين:

أولهما: أن نصنف عادات الكلام

ثانيهما: أن نقيم علاقة بين ذلك ومستوى السلوك العادي في الكلام، وهو أمر من السهل الحديث عنه لكن من الصعب القيام به، لأنه لا توجد في الحقيقية أي مقاييس لغوية للسلوك العادي في متناول أيدينا، ومن ثم فان المتخصصين يعتمدون على تجاربهم في هذا الشأن، وهي تختلف بطبيعة الحال، بمعنى أن المعالجين يتجهون في علاجهم إلى أكثر الانحرافات ظهورا في كلام الفرد، وهم في خطر داهم من تجاهل انحرافات أخري أساسية، ولكنها أقل ظهورا(٢).

---

(١) بن عيسى (د. حنفى) محاضرات في علم النفس اللغوي ص ٢٩٥.

(٢) كريستال: التعريف بعلم اللغة ترجمة (د. حلمى خليل) ص ١٨٣.

ثالثا: تعليم اللغات الأجنبية:

لقد عظمت العناية بتعليم اللغات الأجنبية منذ مطالع هذا القرن بفعل التطور الكبير في أدوات الاتصال بين الدول والشعوب، وبفعل ظروف سياسية واقتصادية أتاحت لكل دول العالم كبيرها وصغيرها أن يكون لها دور في مستقبله وتأثير في حركته، بل يشير (كريستال) إلى عامل جديد له أهمية هو أن تعليم اللغات الأجنبية أصبح هذه الأيام صناعة أساسية في معظم الأقطار، لأن عددا كبيرا جدا من الناس يتزايد باستمرار يسافر إلى خارج بلده للعمل أو للمتعة، وهؤلاء في حاجة ماسة إلى تعلم لغات هذه البلاد، ولهذا أُنشئت معاهد، ووضعت برامج وتطورت آلات ومعامل تسعى كلها لتيسير تعليم هذه اللغات وتحقيق الهدف من تعليمها في أقصر وقت(1).

ثمة ملاحظات ضرورية ينبغي إبداؤها قبل الخوض في تحديد هذه العلاقة:

أولا: علم اللغة له أهداف مختلفة عن أهداف تعليم اللغة، علم اللغة يدرس - بطرق مختلفة - ملكة الفرد اللغوية، ويعمل على تطوير نظريات تفسر السلوك اللغوي، وعلى إعداد أفضل الوسائل لوصف اللغات، ويجعل الوصف اللغوي الأدق والأشمل عملا ميسورا. ولا شيء من هذه الأعمال يتوجه إلى البحث في أكفء المخططات أو أفضل الوسائل لتعليم اللغات.

ثانيا: تعليم اللغة عمل تربوي له اتصال بعلوم كثيرة تساعده في أداء مهمته، وليس علم اللغة هو المصدر الوحيد الذي يزوده بالمادة أو البراهين أو بالطرق، وما يبدو جيدا في علم اللغة قد يكون رديئا في علم النفس.. الخ، ولهذا كان الرأي الحاسم عند اتخاذ قرارات تتصل بتعليم اللغة هو رأي المعلم الذي عليه أن يضع كل البراهين في الاعتبار، وثمة طرق أو وسائل تعليمية هامة (مثل ما هو معروف بتكنيك الفصل الدراسي) ليس للاعتبارات اللغوية وزن كبير فيها.

ثالثا: لا ينبغي أن يؤخذ القول بوجود تأثير لعلم اللغة في تعليم اللغات على أنه يعنى أن هذا هو ما ينبغي أن يكون، إذ من المحتمل أن نتبين أن استخدام، بعض النظريات أو المخططات اللغوية في تعليم اللغات قد أساء إلى علم اللغة. إن الفرق الحاد الذي وضعته بعض المدارس اللغوية بين الشكل والمعنى

---

(1) Crystal, Linguistics,P.P.19,20.

وبخاصة فيما بعد بلومفيلد - قد أدى إلى إهمال جانب المعنى في التعليم، وقد ظهرت منذ سنوات ردود فعل حادة في علم اللغة ذاته لهذا الاتجاه، فقد أعلن أنصار القواعد التوليدية ضرورة هذا الجانب في تعليم اللغات، ومن ثم ينبغي - كما يقول (ويلكنز): أن يعاد النظر في موضوع العلاقة بين علم اللغة وتعليم اللغة[1].

رابعا: من الواضح أن عالم اللغة التطبيقي يستخدم نظرية في اللغة أو يعتمد على وصف معين لها، فإذا ما استخدم نظرية مثلا فسوف يتوقف تقدمه في عمله على نوع النظرية المستخدمة، فإذا ما كانت النظرية معتمدة على وحدات دلالية مثلا فإن النتائج سوف تكون مختلفة عما يكون عليه الحال إذا كانت النظرية تهمل أو تتجاهل مثل هذا الوحدات.

ويشير (ماكى) إلى وجود عدد كبير من الطرق على أساسها تختلف نظرية عن نظرية أخرى، وإلى وجود عدد كبير من النظريات اللغوية المختلفة، بل إن عددا منها يمكن أن يعد نظريات متعارضة، بعض هذه النظريات أعلنته مدارس لغوية مثل مدرسة سوسير، أو مدرسة براغ أو مدرسة بلومفيلد أو مدرسة فيرث.. إلخ. وعندما ندرس هذا العدد الكبير من النظريات التي صاغتها المدارس المختلفة أو الأفراد نلاحظ أن قليلا منها استخدم بالفعل في المجال التطبيقي، كما أن النظريات التي جرى استخدامها بالفعل ليست بالضرورة أكثرها قابلية للتطبيق، ومن جانب آخر نقرر أن أية نظرية لغوية لم يجر تطبيقها حتى الآن في مجال تعليم اللغة لا يعنى أنها لا يمكن أن تستخدم.

والأعمال الوصفية هي الأخرى تختلف في غرضها ومداها وفي طريقة عرضها، بعض هذه الأعمال يهدف إلى أن يكون مُرَكَّزًا، وبعضها يهدف إلى أن يكون شاملا، بعضها يدرس اللغة بتحليلها، وبعضها يدرسها بتركيبها، بعضها موضوع وكأن اللغة الموصوفة غير معروفة للغوي، وبعضها موضوع على اعتبار أنها معروفة بالفعل للقارئ، بعضها يقدم في مستويين (النحو والفونولوجي) وبعضها يقدم في مستويات أكثر بلغت أربعة عشر مستوًى، وإن كان العمل الوصفي المعتمد على مستويات ثلاثة أصبح أكثر انتشارا، بعض الأعمال يعتمد على اللغة المنطوقة، بعضها يغطى كل المناطق التي تستخدم فيها اللغة،

---

(1) Wilkins, Linguistics in Language Teaching P.p. 216,217.

وبعضها مقصور على مدينة واحدة أو منطقة واحدة، بعضها مؤلف على أساس كلام شخص واحد عبر فترة زمنية قصيرة جدا، وبعضها مؤلف على أساس كتابات عدد كبير من المؤلفين عبر عدة قرون.

وهكذا نتبين - كما يقرر (ماكى): أن مشكلة معلم اللغة ليست في أن يستخدم علم اللغة أو لا يستخدمه بل هي ماذا يستخدم من نظرياته أو من أعماله الوصفية[1].

دور علم اللغة:

نعود بعد هذه الملاحظاتَ الأساسية إلى موضوع علاقة علم اللغة بتعليم اللغة.

يقول (كريستال) في تحديد هذه العلاقة: صلة علم اللغة بهذا الميدان أوضح من أن ندل عليها، إذ يجب أن يكون من البدهيات أن الإنسان لا يستطيع أن يعلم أية لغة دون أن يعرف شيئا ما عنها. ثم يمضى في بيان ما ينبغي معرفته قائلا: إن التدريب المناسب في هذا المقام يعنى أن يكون الإنسان على معرفه بالحقائق الأساسية حول لغة ما من خلال اتصال بعضها ببعض وفي إطار نظرية لغوية معينة. وهذا معناه أن يكون على صلة بالأبحاث المعاصرة التي تتصل بواحدة من هذه الحقائق، ويعنى كذلك أن يكون قادرا على اختيار هذه الحقائق طبقا لبرنامج محدد، كما يعنى ذلك أيضا أن يكون قادرا على جذب انتباه الدارس للفروق التي يعرفها فعلا، واللغة التي يحاول أن يتعلمها"[2].

وليس الأمر مقصورا على الجانب المعرفي، بل إن علم اللغة يقدم لنا مادة وصفية يمكن استخدامها في التعليم، يقول الدكتور محمد على الخولي: يقدم لنا علم الأصوات النطقي وصفا جيدا لمخارج أصوات اللغة المنشودة أي اللغة التي نريد تعليمها كلغة أجنبية، كما يقدم لنا هذا العلم وصفا لمخارج أصوات اللغة الأم، وبذلك يمكن معرفة مواضع التشابه والاختلاف بين النظام الصوتي للغة المنشودة ونظيره في اللغة الأم..[3]. وكذلك الحال بالنسبة لعلم الصرف والنحو.

---

(1) See' Macey ,Applied Linguistics,P.248.

(٢) كريستال: التعريف بعلم اللغة ص ١٧٤، ١٧٥.

(٣) أساليب تدريس اللغة العربية ص ١٨، ١٩.

بيد أن (ماكي) يرى رأيا آخر في أمر هذه العلاقة حين يقرر أن عمل اللغوي يقتصر على وضع مناهج للتحليل اللغوي، أما إذا ادعى أن هذا المنهج أو ذاك هو أفضل طريق إلى تعلم اللغة فإنه يتجاوز بهذا مجال عمله، لأن عمله ليس التعليم بل اللغة التي هي موضوع علم اللغة... وعلى الرغم من أن الأعمال الوصفية التي يقدمها اللغويون في لغة من اللغات ليست متطابقة فإنه من المسلم به أن اللغوي هو الشخص القادر على تأليف قواعد هذه اللغة أو وضع معجم لها، وهذا يؤهله - عند بعض الناس - لأن يضع سياسة تعليم اللغة ويُحَضِّر نصوصها، وبدخول علم اللغة التطبيقي في ميدان تعليم اللغات افترض أنه إذا ما استطاع شخص أن يصف لغة ما وصفا دقيقا فإنه وحده الذي يكون قادرا على تعليم هذه اللغة.

ويرى (ماكي) أن هذه المزاعم قائمة على غير أساس سليم، فثمة معلمون بارزون ليس لديهم معرفة بعلم اللغة، وقد يكون من الواضح أن مناهج عالم اللغة كمعلم ليست بالضرورة أكثر كفاءة، والموقف الحالي لعلم اللغة التطبيقي في ميدان تعليم اللغة - وهو موقف ليس طيبا - راجع إلى أن بعض اللغويين معنيون بإيجاد مجالات جديدة للتطبيق أكثر من عنايتهم بحل مشكلات تتصل بتعليم اللغة، وبعض النتائج السيئة راجعة إلى رغبة اللغويين في تطبيق منهج شكلي وصفي محدد في تعليم اللغة دون التحقق من أنه صالح للتطبيق حتى في ميدان التحليل اللغوي(1).

لقد تبين لنا من الصفحات السابقة أن الباحثين مختلفون في طبيعة العلاقة بين علم اللغة وتعليمها، ويبدو لنا من المفيد أن نتجاوز هذه النقطة الآن ونبحث عن ميادين أو مجالات تكشف عما يمكن أن يقدمه علم اللغة من خدمات.

١. التحليل التقابلي:

لا شك في أن الذين يقومون بتعليم اللغات لديهم معرفة ما ببعض أوجه الشبه أو الخلاف بين لغة المتعلمين الأم واللغة الأجنبية التي يعلمونهم إياها، ولديهم إدراك بالتأثير الواسع الذي تباشره اللغة الأولى على الثانية، ولديهم أيضا وسائل للانتفاع من هذا التأثير سلبا وإيجابا، بيد أن هذه الأمور كلها تختلف من معلم إلى معلم. والجديد في الموضوع أن يدرس دراسة علمية، وأن تبذل الجهود لاستخدام

---

(1) Mackey ,Applied Linguistics,P.250

هـذه الوقـائع اسـتخداما مـنظما، وفي العـادة يـشار إلى هـذا العمـل بـ (التحليـل التقـابلي) (Contrastive Analysis).

التحليل التقابلي عند لادو

هذا العمل العلمي المنظم تمثل في كتـاب Linguistic across culture الـذي كتبـه (روبـرت لادو) عام ١٩٥٧، وقد عرض المؤلف فيه أمثلة كثيرة جدا من الأخطاء اللغوية الناتجـة عـن تـأثير لغـة المتعلم الأولى في اللغة الثانية، وتبدو أهمية التحليل التقابلي في أن الأخطاء أو الصعوبات التـي تعترضـنا عند تعلمنا أو استخدامنا لغة أجنبية ناتجة عن لغتنا الأولى، وحيثما يختلف بناء اللغة الأجنبية عن بناء اللغة الأم تنشأ صعوبة في التعلم وأخطاء في الاستعمال. إن تعلم لغة أجنبية هو بالضرورة أن نتغلب على هذه الصعوبات، وحيثما تتماثل الأبنية في اللغتين لا نتوقع أن تنشأ صعوبة كبيرة، ومن ثم لن يكـون التعلـيم ضروريا. ولكي نستفيد من هذه الوقائع علينا أن نوجه التعليم إلى عناصر الخلاف في بناء اللغتين، وعلى الجملة كلما عظمت الفروق بين اللغتين عظمت الصعوبات، وينبني على هذا أن المصاعب التي يواجهها متعلمو اللغة الإنجليزية مثلا سوف تختلف وفقا للغاتهم الأولى التي يستخدمونها، ومـن ثـم ينبغـي أن يختلف التعليم ذاته باختلاف اللغات التي يستخدمها هؤلاء المتعلمون. وإذا ما تم التحليل التقابلي بـين اللغة الأولى والثانية فسوف نكتشف الفروق بين اللغتين، ويصبح من المحتمل أن نتنبأ بالصعوبات التي تعترض المتعلمين، وهذا بدوره يحدد ما ينبغي على المتعلم أن يتعلمه، وما على المعلم أن يعلمه إياه، وهكذا يبدو أن نتائج التحليل التقابلي هي التي تؤسس عناصر تعليم اللغة ومفرداتها واختباراتها وطرق البحث فيها، ولهذا ينبغي أن تعد كتب مختلفة لكل جماعة تتعلم اللغة، وبإيجاز: وظيفة التحليل التقابلي هي التنبؤ بالأخطاء المحتملة لجماعة معينة تتعلم لغة معينة، ولهذا يزوِّد المقـرر التعليمـي بالمادة اللغويـة التعليميـة المطلوبة(١).

وعملية النقل أو تأثر المتعلم ببناء لغته الأصلية عند تعلمه لغة أجنبية لها أساس عند علماء النفس في تفسيرهم للطريقة التي يتأثر بها تعليم حاضر بتعليم سابق، فعندما يُواجَه الكائن الحـي بمهمـة تعليميـة

---

(1) Wilkins, Linguistics in Language Teaching P.P. 197,198.

جديدة يستخدم المعارف أو الخبرات التي امتلكها قبلا في تيسير عملية التعلم، فعندما نتعلم لغة أجنبية نحاول أن ننقل من لغتنا الأولى ما ييسر عملية التعليم، وربما يكون للنقل ما يسوغه حين تكون بنية اللغتين متشابهة - وفي هذه الحالة نحصل على (نقل إيجابي) أو (سهولة)، وربما لا يكون له ما يسوغه حين تكون بنية اللغتين مختلفة - وفي هذه الحالة نحصل على (نقل سلبي) أو (عقبة) أو (تداخل)[1].

نقدات اللغويين للتحليل التقابلي عند لادو:

غير أن التحليل التقابلي بالمفهوم الذي حدده (لادو) آنفا قد تعرض للنقد والتعديل، ونلخص هنا بعض الملاحظات التي أبداها اللغويون حوله:

أولا: يقرر بعض اللغويين أن الأخطاء التي يتوقعها اللغوي ربما لا ترجع كلها إلى تدخل لغة الأم، فالروسى الذي يتعلم الإنجليزية يخطئ في استخدام أداة التعريف أو التنكير مع أن لغته لا تتضمن أداة مماثلة لهما، والخطأ المتوقع إذًا هو أن يحذف الأداة، ومع ذلك فإن مشاكله لن تحل بعدم استخدامها، لأن عليه أن يتمكن من استخدام هذه الأداة وفق قواعد الإنجليزية، وسوف يقع في أخطاء ترجع في الحقيقة إلى أنه لم يتمكن من هذه القواعد.

ويرى (ماكى) أن الزعم بأن كل أخطاء متعلم اللغة راجعة إلى بنية لغته قول زائف، ويقدم بعض الأسباب التي تفسر بعض هذه الأخطاء، ومن ذلك مثلا أن المتعلم قد يوسع من دائرة النموذج اللغوي فيشمل حالات لا ينطبق عليها فيقول مثلا: I Said him so قياسا على I told him so[2].

ثانيا: يعترض (ويلكنز) على مفهوم التنبؤ في التحليل التقابلي، ويرى أنه من التبسيط المخل أن يقال: إن المتخالفات تسبب الخطأ بينما المتشابهات لا تسببه، ومن سوء الحظ أن هذا يعنى أن التنبؤات الدقيقة عسيرة جدا، إذ ليس لدينا وسيلة مؤكدة تبين كيف يكون رد فعل المتعلم لهذه العوامل المختلفة، والتنبؤ هنا معناه توقع من خلال مقابلة بين بنية لغتين دون الرجوع إلى شواهد في السلوك الفعلي للمتعلمين، ولا شك أن التنبؤ بهذا المعنى يشكل عقبة كبيرة أمام البحث الدقيق، ومن الأمثلة التي توضح ذلك أن الفرنسي الذي يتعلم الإنجليزية يجد صعوبة في نطق الصوتين الإنجليزيين /đ/ و /θ/

(1) Wilkins, Linguistics in Language Teaching. P.199.
(2) Mackey ,Applied Linguistics,P.250

إذ لا وجود لهما في نظام الفرنسية الصوتي، ومع ذلك لا يمكن التنبؤ بما سيقوم به المتعلم إلا إذا لاحظنا سلوكه اللغوي بالفعل، فقد تتحول /đ/ إلى /d أو /t/ وقد تتحول/ θ/ إلى / s/ أو / z/[1].

ولهذا ينبغي علينا أن نقوم بفحص الأخطاء اللغوية التي تقع فيها جماعات مختلفة من المتعلمين بشكل مطرد، لنقرر بعده أترجع هذه الأخطاء إلى تدخل اللغة الأم أم ترجع إلى بنية اللغة الأجنبية المتعلمة؟

ثالثا: ويلاحظ (ماكى) أن معظم الأعمال الوصفية المتيسرة حتى الآن مضللة أكثر منها شكلية وناقصة، لأنها تعتمد- في أفضل حالاتها على المقابلة بين اللغتين وحدة بوحدة وتركيبا بتركيب... وأنها ما تزال تعالج فقط شكل اللغات غير مصحوبة بالاختلافات المتنوعة في الاستعمال المقامى، مع أنه من المعروف أن على المتعلم أن يقول شيئا ما في موقف معين في لغته الأم، ولكنه يقول شيئا آخر مختلفا تماما في اللغة التي يتعلمها... ولأننا ليس لدينا أعمال وصفية تقابلية بهذا الشكل فمن المحتمل أن يحصل على أفضل النتائج لو جمعنا وصنفنا الأخطاء التي يقع فيها المتكلمون بالفعل، وهذا أولى من محاولة التنبؤ بالأخطاء التي نتوقع أن يقع فيها[2].

وهذا هو أيضا ما ينتهي إليه (ويلكنز) الذي يقترح أن يقوم التحليل على شواهد وأمثلة فعلية يسهل جمعها في أثناء عملية التعلم، إن التحليل التقابلي ينبغي أن يتم ليزود اللغوي بتفسير لأخطاء معروفة بالفعل لا على أنه عمل شامل[3].

ومما يوضح أهمية التحليل التقابلي في ضوء المواقف المتشابهة في اللغتين لا على أساس التقابل الحرفي- كما لاحظ (ماكى)- كلمة بكلمة وتركيبا بتركيب،أنه من المألوف أن يكتب إنجليزي خطابا إلى صديقه يقول موجها التحية إلى زوجة صديقه With my kisses to فماذا يكون حالنا لو أردنا أن نقدم للعرب الذين يتعلمون الإنجليزية ما يرادف هذه العبارة، لو كنا حرفيين لقلنا: قبلاتي إلى... وهذه العبارة يرفضها الذوق العربي رفضا قاطعا، فليس من المألوف أن يوجه عربي التحية إلى زوجة صديقه فضلا عن

---

(1) Wilkins, Linguistics in Language Teaching ,P.201.
(2) Mackey ,Applied Linguistics,P.251
(3) Linguistics in Language Teaching,P.223.

القبلات، ولو حدث - وهو يحدث أحيانا - تحفظ في كلامه وراعي الدقة في اختيار ألفاظه والكناية في عبارته، ربما قال مثلا تحياتي إلى حرمكم أو إلى أهل بيتكم: أو شيئا كهذا.

رابعًا: لعله من المفيد هنا أن نقارن ما يقدمه علم اللغة الحديث بما يقدمه النحو التقليدي في ميدان تعليم اللغات، وفي ذلك يقول (ولكنز).. عندما ينظر المعلم في مضمون التعليم المحصل من خلال الأوصاف اللغوية يجد أنها تحمل سمات متشابه بارزة في المضمون التعليمي الذي أخذ سلفا من القواعد التقليدية، ثم يقرر أن علم اللغة قد كان له تأثير على مضمون تعليم اللغة أقل من تأثير اللغويين على مناهج التعليم [1].

ولا يختلف (ماكى) عن الموقف السابق كثيرا، إذ يرى أن معظم القواعد الجديدة المفضلة لغويا، والتي استخدمت في تعليم اللغة، من الصعب جدا الاستفادة منها، وهي أقل كمالا من الأعمال الأقدم منها، ولهذا يوجب على معلم اللغة - الذي يُواجَه هذه الأيام بمناهج متعددة في التحليل اللغوي وباتجاهات مختلفة كعلم اللغة الوصفي - أن يُعْنَى بالنتائج. والوصفات المجربة غالبا ما تكون أفضل من الوصفات غير المجربة، وإلى أن تتيسر تحليلات لغوية كاملة ومحددة فإن تعليم اللغة سوف يعتمد - عند وصف لغة معينة - على تلك القواعد النافعة الغزيرة التي تنتمي إلى الماضي. وكمال القواعد - عند معلم اللغة - أكثر أهمية من اتساقها العلمي، والوضوح أكثر أهمية من الإيجاز، والأمثلة أكثر فائدة من التعاريف، ولو انتظر معلم اللغة حتى تظهر قواعد أكثر علمية لوضع نفسه في موضع دباغ الجلود الذي يتوقف عن العمل حتى يجد الكيميائيون وصفة تقرر له ما ينبغي له أن يفعله. وإن الوصفة - إذا ما اكتشفت - ربما تحسن بالفعل عملية الدباغة، ولكن إلى أن تؤلف وتختبر وتحسن لتكون أكثر فعالية فالذي ينبغي عمله - وهو المعقول - أن يستمر في عمله بالطريقة التي تحقق له أفضل النتائج [2].

وبعدُ فقد تبين لنا من الملاحظات السابقة أن الأعمال الوصفية الحديثة التي قدمها علماء اللغة الوصفيون لم تقدم لنا الكثير، أو ما يتوقع منها، وبخاصة فيما يتصل بمضمون عملية التعليم بالمقارنة بما

---

(1) Wilkins, Linguistics in Language Teaching ,

(2) Mackey, Applied Linguistics. P. 252.

قدمته الأعمال الوصفية التقليدية، كما أن التحليل التقابلي بالمفهوم الذي حدده (لادو) وعلى ضوء التنقيحات التي اقترحها (ولكنز) له أهمية كبيرة في ميدان تعليم اللغة على أن يعالج مادة لغوية موجودة بالفعل، ومن الأفضل أن يقوم به من لديهم خبرات في حقل التعليم. وينبغي أن يوضع في الاعتبار أن تدخل اللغة الأصلية ليس العقبة الوحيدة في التعليم فثمة عوامل أخرى ينبغي الاهتمام بها قد يرجع بعضها إلى بنية اللغة ذاتها، ولا يغيبن عن البال أن دراسة الأخطاء اللغوية ينبغي أن تتوجه إلى الأخطاء التي تقع فيها جماعات من الناس بشكل مطرد، وإلا أصبحت الدراسة عقيمة الجدوى إذا ما تعرضت للأخطاء التي يقع فيها أفراد من الناس أو تقع بشكل غير مطرد.

٢. طرق تدريس اللغات الأجنبية:

لقد رأينا أن (ماكى) يقرر أن عمل اللغوي ينبغي أن يقتصر على وضع مناهج للتحليل اللغوي، وأنه لا ينبغي أن يتدخل في اقتراح طريقة معينة من طرائق التدريس. بيد أن الباحثين في ميدان العلوم التربوية قد يستعينون بالحقائق التي تنتهي إليها علوم اللغة في اقتراح طرق للتدريس أو في تنقيح طرق معروفة أو ترجيح طريقة على طريقة. وهذا ما نتبينه مما يأتي:

يقول الدكتور محمد على الخولى: هناك طرق متنوعة لتدريس اللغات الأجنبية، ولقد جرى حول كل منها جدال طويل، كما انتصر لكل طريقة بعض المختصين فأبرزوا مزايا طريقة منها وعيوب الطرق الأخرى، ومن أهم هذه الطرق أربع وهي: طريقة القواعد والترجمة، والطريقة المباشرة، والطريقة السمعية الشفوية، والطريقة الانتقائية [1].

وسوف نقتصر هنا على عقد موازنة بين الطريقة الأولى: طريقة القواعد والترجمة، والطريقة الثانية: الطريقة المباشرة لنبين الأسس اللغوية التي استخلصها أصحاب الطريقة الثانية.

"من أهم ملامح طريقة القواعد والترجمة أو الطريقة التقليدية أنها تهتم بمهارات القراءة والكتابة والترجمة، ولا تعطى الاهتمام اللازم لمهارة الكلام، وأنها تستخدم لغة المتعلم كوسيلة رئيسية لتعليم اللغة المنشودة، وبعبارة أخرى تستخدم هذه الطريقة الترجمة كأسلوب رئيسي في التدريس، وأنها تهتم

---

(١) الخولي (د. محمد على) أساليب تدريس اللغة العربية ص ٢١، ٢٢.

بالأحكام النحوية أي التعميمات كوسيلة لتعليم اللغة الأجنبية وضبط صحتها، وكثيرا ما يلجأ المعلم الذي يستخدم هذه الطريقة إلى التحليل النحوي لجمل اللغة المنشودة، ويطلب القيام بهذا التحليل.

أما الطريقة المباشرة فتعطى الأولوية لمهارة الكلام على أساس أن اللغة هي الكلام المباشر بشكل مباشر، وتتجنب استخدام الترجمة في تعليم اللغة الأجنبية بل إن الاقتران المباشر بين الكلمة ومدلولها وبين الجملة والموقف الذي تستخدم فيه، تعدها شديد الضرر، ومن ثم فلا مكان للغة الأم في التعليم، وتستخدم هذه الطريقة الاقتران المباشر والموقف الذي تستخدم فيه ولهذا، سُميت الطريقة المباشرة، ولا تستخدم الأحكام النحوية، لأنها لا تفيد في اكتساب المهارة اللغوية المطلوبة[1].

وتأثير المدرسة الوصفية البنيوية واضح في بعض الملامح التي تميز الطريقة المباشرة عن طريقة القواعد والترجمة، وبخاصة ما يتصل بإعطاء الأولوية لمهارة الكلام والربط بين الجمل والمواقف، ومن المعروف أن اللغة المنطوقة هي الأساس في الدراسة الوصفية، وأن الكتابة بالقياس إليها ثانوية، وقد انبنى على اقتناع القائمين بتعليم اللغات بهذا المبدأ أن توجهوا إلى اختيار نصوص دراسية من لغة الحديث، كما عُنوا بالأمور الآتية:

١. تدريب المتعلمين على إظهار الفروق بين الأصوات المفردة المختلفة.

٢. العناية بالظواهر الصوتية التي لا يمكن للغة المكتوبة أن ترمز إليها كالنبر والتنغيم، وهي عناصر لها دور كبير في تغيير معاني الكلمات والجمل.

٣. الاهتمام باختيار التراكيب الأكثر شيوعا في لغة الحديث منها في لغة الكتابة، وهي في الغالب التراكيب الأقل تعقيدا، والاهتمام كذلك بالمفردات التي لها علاقة بالحياة اليومية.

وفي ذلك يقول (ولكنز) إن المحاولات التي بذلت لوصف التنغيم ووضع قواعد له ستكون معلومات جديدة للمعلم الذي درب تدريبا تقليديا، كما أن دراسة اللغة في علاقاتها الاجتماعية تطور جديد إلى حد ما يبشر بتوسيع معارفنا الوصفية[2].

---

(١) الخولى (د. محمد على) أساليب تدريس اللغة العربية ص ٢١، ٢٢.

(2) Language in Linguistics Teaching, p.252.

دور علم اللغة الاجتماعي والأنثروبولوجي في تعليم اللغات:

وفي النهاية نضع أمام القارئ أهم النتائج التي استخلصها القائمون بتعليم اللغات من علوم اللغة: علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة الأنثروبولوجي. يوصي القائمون بأن يتعلم التلاميذ اللغة الأجنبية في نمطها النموذجي أو ما يطلق عليه اللغة المعيارية، وهي تلك اللغة التي يستخدمها المثقفون الذين ينتمون إلى الإقليم المعتمد، ليحظوا باحترام أبناء اللغة حين يتحدثون إليهم، ولا شك أن علم اللغة الاجتماعي أو علم اللهجات يمكنه أن يقدمَ الكثير في هذا المجال.

كما ينبه هؤلاء أيضا إلى أهمية التحليل التقابلي للثقافات فينبغي التأكيد على الخصائص المتشابهة بين حضارة الطلاب والحضارة التي تنتمي إليها اللغة الأجنبية التي يدرسونها. والفروق الحضارية يمكن أن تفسر في ضوء الظروف الجغرافية والتاريخية التي أوجدتها.. وبهذا أصبح من الضروري أن يكون مدرس اللغة الأجنبية ملما بحضارة الطلاب وحضارة الجماعة التي يدرس لغتها ليستطيع التنبؤ بالأوجه الحضارية الأجنبية التي تسبب لدى الطلاب ردود فعل عنيفة ليتفاداها أو يخفف منها... ولا شك أن علم اللغة الأنثروبولوجي يمكن أن يقدم الكثير في هذا المجال [1].

٣. مؤهلات معلم اللغة:

يقول (ماكى) إن عمل معلم اللغة أن يعرف اللغة الأجنبية التي يعلمها، وأن يعرف كيف يعلمها، وأن يعرف شيئا عنها، وفيما يتصل بالجانب الأخير يتوقع أن يكون لعلم اللغة دور مفيد [2].

وقد وضعت جمعية اللغة الحديثة في أمريكا، وهي أكبر جمعية معنية متخصصة في تعليم اللغات الأجنبية قائمة بالمهارات اللغوية التي يجب أن تتوفر لدى معلم اللغة ليتمكن من أداء مهمته، وهي تتناول القدرات الآتية:

الاستيعاب الشفوي والتكلم والقراءة والكتابة والتحليل اللغوي والحضارة والإعداد المهني.

ويعنينا هنا القدرات الخاصة بالتحليل اللغوي:

---

(١) انظر: القاسمي(د. علي)اتجاهات حديثة في تعليم اللغة العربية للناطقين باللغات الأخرى ص٨٦- ٨٨.

(2) Mackey, Applied Linguistics. P. 251.

الحد الأدنى: معرفة التكوين الصوتي والنحوي للغة الأجنبية مع معرفة الفروق الأساسية بينهما وبين لغة الطلاب.

جيد: معرفة أساسية للتطور التاريخي للغة الأجنبية وخصائصها الحالية، وإدراك الفروق الموجودة بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة.

ممتاز: القدرة على تطبيق معرفته في علم اللغة الوصفي والمقارن والتاريخي وفي مواقف تعليم اللغة الأجنبية [1].

وفي مجال التحليل اللغوي يقرر (ماكى) أن القدرة على تحليل لغة معينة ليست عملا على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى معلم اللغة، ومع ذلك فإن بعض التدريب العملي قد يجعله قادرا على أن يحدد - بدقة أعظم - عناصر التماثل والتخالف في اللغات التي يعالجها، إنه يساعده على فهم وتقييم وربما استخدام بعض الأعمال الوصفية التي يعلمها، وإذا لم يكن التدريب متميزا أو نظريا فربما يحول بينه وأن يكون منتميا إلى مدرسة فكرية واحدة، ويشجعه على أن يتجاوز العوائق الاصطلاحية الكبيرة التي تعوق أي تفاهم مشترك في علم اللغة[2].

ولعله اتضح الآن أن القائمين بتعليم اللغات وعلماء اللغة متفقون على أهمية علم اللغة بفروعه المختلفة في إعداد معلم اللغة وفي رفع مستوى أدائه، وإن كان (ماكى) يركز على الجانب العملي في الإعداد، لأن الجانب النظري ربما لا يعنيه أو لا يفيده كثيرا، لأنه من شأن اللغوي ومن عمله، وقد سبق الاستشهاد بما قاله (كريستال) عن التدريب المناسب لمعلم اللغة في بداية هذا الحديث.

---

(١) القاسمي (د. علي) اتجاهات حديثة.. ص٩٣.

(2) Mackey, Applied Linguistics. P. 251.

رابعا: تعليم اللغة القومية:

علم اللغة - كما يقول (كريستال) لم يخط بعد خطوات واسعة في هذا المجال، ويبدو أن هذا يرجع إلى أن قيام علم اللغة بدور فعال في تعليم اللغة القومية موضع جدل بين علماء اللغة والقائمين بالتعليم لم يستقر بعد إلى قرار... ومع ذلك يقترح طريقتين متكاملتين لتقديم علم اللغة في المدارس إحداهما: أن يقدم على أنه عنصر إضافي في منهج الدراسة، والهدف من ذلك توجيه الاهتمام بتركيب اللغة وأهميتها، ثانيهما: أن يقدم على أنه أساس يقوم عليه برنامج متصل بدراسة لغة معينة وهو برنامج تثقيفي في طبيعة اللغة وقد يكون له دور جانبي في تحسين الأداء اللغوي [١].

وعلم اللغة ما زال حتى اليوم يتعثر في طريقة إلى الجامعات العربية بله أن يكون مقررا في المدارس الثانوية أو في دورات تدريب إعداد المعلمين، فليس مقررا بعدُ في بعض الكليات، وهو في بعضها الآخر يساء فهمه، ويختلط ميدانه بما يطلق عليه فقه اللغة.

وثمة مجالات متنوعة يمكن لعلم اللغة أن يسهم فيها بدور فعال، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعضها، مع العلم بأن العمل فيها - كما يقول (كريستال) - في بدايته ويسير ببطء شديد[٢].

- تحسين الأداء اللغوي للأفراد العاديين فيما يتصل بالأنماط اللغوية الخاصة بمجال محدد مثل الأشكال اللغوية الخاصة بالقانون، فكثير من هذه الأشكال غير معروف لدى هؤلاء، أو لديهم أفكار غامضة عنه، ونشير إلى بعض المفردات والعبارات التي توضح ذلك مثل: دعوى قضائية - تأجيل - استئناف - نقض - رد القاضي - بطلان الإجراءات - الحبس - السجن... إلخ.

- إعداد المتخرجين حديثا إعدادا لغويا يساعدهم في أداء عملهم كأعمال السكرتارية مثلا.

- اقتراح طرق أو وسائل لتحسين القراءة أو الكتابة السريعة أو تلخيص التقارير أو الاختزال.. إلخ.

---

(١) كريستال: التعريف بعلم اللغة ترجمة د. حلمي خليل ص ١٧٨، ١٧٩.

(٢) حدثت تطورات بعيدة المدى في هذا المجال فيما يعرف الآن بالتخطيط اللغوي، وانظر في ذلك كتابي (علم اللغة الاجتماعي) مكتبة الآداب.

- إعداد العاملين في مجالات لها اتصال باللغة وبخاصة في مجال الإعلام والخطابة والسياسة وغيرها.

- إعداد العاملين في مجال البحث العلمي وتدريبهم على الكتابة بالأسلوب العلمي.

- دراسة الأساليب المختلفة وابتداع طرق لتحديدها والانتفاع بها (١).

العالم العربي ووحدته اللغوية:

وفي اللغة العربية مجالات واسعة يمكن لعلم اللغة أن يسهم فيها بدور كبير وبخاصة فيما يتصل بالتقريب بين اللهجات المحلية المنتشرة في العالم العربي واللغة الفصحى المشتركة.

وقد اجتمعت الأمة العربية على توحيد كلمتها في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأن تربط بين شعوبها بروابط متينة لتحقيق الآمال المشتركة.

وليست تتم الوحدة السياسية وتستقيم النظم الاجتماعية في شعب من الشعوب إلا على أساس الوحدة اللغوية التي تصبح للشعب بمثابة رباط سحري يجذب أفراده بعضهم إلى بعض، ويوثق الصلة بينهم فيفكرون بعقل واحد، ويشتركون في مشاعر وأحاسيس موحدة، ويتعاونون على ما فيه خيرهم جميعا، وما يكفل لهم الأمن والاستقرار. ولا تكون الوحدة اللغوية إلا في لغة مشتركة نطقا وأداء، كما هو الشأن في بعض الشعوب الحديثة الناهضة التي لكل منها لغة مشتركة تسود فيها جنبا إلى جنب مع ما قد يكون لها من لهجات، ولكنها تسمو على تلك اللهجات فلا تشوبها صبغة منها بل هي التي إذا تكلم بها المرء لا يكاد السامع يستشف من كلامه شيئا عن بيئته المحلية (٢).

وهذه الدعوة إلى اللغة المشتركة لها ما يدعمها من عوامل الوحدة كالثقافة المشتركة والتاريخ المشترك... الخ، ولهذا ينبغي أن نبذل الجهود من أجل توحيد اللغة المشتركة ذاتها، والعمل على التقليل من تأثير اللهجات المحلية عليها، وتمهيد السبيل إلى تقريبها من الناس وتمكينها من ألسنتهم وأقلامهم.

وهذه الغاية نبيلة - ولا شك - ولكن ما السبيل إليها ؟

---

(1) Crystal, Linguistics, p. d. 26- 31.

(٢) أنيس (د. إبراهيم) اللغة بين القومية والعالمية ص٧.

إنها تعتمد على جهود عظيمة يقوم بها رجال التعليم ورجال الإعلام والتوجيه، بل قل إنها تعتمد على كل أجهزة الدولة التي تعمل في مجال الاتصالات(١).

والآن ما الدور الذي يمكن لعلم اللغة أن يسهم به في هذا المجال؟

إن علم اللغة ينظر إلى اللهجات نظرة لا تختلف عن نظرته إلى اللغة المشتركة، فكل منهما نظام من الرموز يؤدى وظيفته في مجال محدد، واللهجات أشكال لغوية موجودة بالفعل، ولا سبيل إلى إنكارها، ولا ينبغي التقليل من أهميتها، على أن علم اللغة التطبيقي يؤدى دورا كبيرا في توجيه المعلمين الذين يقومون بتدريس اللغة المشتركة توجيها صحيحا، لأن الدراسات التي عنيت باللهجات المحلية تكشف خصائصها اللغوية التي تجعلها واضحة عند مقارنتها بخواص اللغة المشتركة، وعندئذ يولى معلم اللغة نقاط الخلاف الأساسية عناية خاصة، ويحاول - ما استطاع - تخليص تلامذته من الصفات المحلية المميزة، ويحاول أن يعودهم على استخدام الأشكال اللغوية المشتركة.

ولا شك في أن اطلاع معلم اللغة القومية وفهمه لعلم اللغة يجعل معرفته باللغة أدق وإدراكه لأنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية أعمق مما يظهر أثره في عمله حين يقوم بالتدريس أو حين يضع منهجا دراسيا.

---

(١) انظر في هذا البحث الذي ألقيته في مؤتمر مجمع اللغة ٢٠١١م بعنوان (التخطيط اللغوي بين مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدني).

خامسا: الترجمة والترجمة الآلية:

إن العصر الذي نعيش فيه اليوم هو بحق عصر المعلومات التي تتنوع بشكل كبير وتتطور بشكل سريع، وحاجة الأمم - وبخاصة النامية منها - إلى هذه المعارف شديدة، فهي عماد التقدم الذي نسعى إليه وأساس الرخاء الذي تنشده، وهذا يقتضي أن يقوم المترجمون بنقل هذه المعارف إلى لغاتهم القومية. بيد أن قيام المترجمين بهذا لم يعد كافيا، فعدد الكتب والدوريات التي تظهر في اللغات الأوربية مثلا لا يكاد يُحصى، كما أن المترجمين الأكفاء قليلون، وإعداد المترجم الجيد مكلف ويحتاج إلى وقت طويل، ولهذا اتجهت جهود العلماء إلى استخدام الآلة لتنهض بهذا العبء.

ولكي نتبين الدور الذي يمكن لعلم اللغة أن يقوم به في مجال الترجمة الآلية علينا أولا أن نحدد ما يمكن أن تقوم به الآلة للنهوض بهذا العمل، وما المشكلات التي تعترض قيامها به؟

مفهوم الترجمة:

الترجمة في معناها العام استبدال لغة بلغة أخرى للتعبير عن نفس المعاني، وهذا يتطلب إلمام المترجم بمفردات اللغة التي يترجم منها وقواعدها، ولا شك أن هذا أمر على جانب كبير من الصعوبة، ومع ذلك فبعضنا يتعلم لغات أجنبية ويجيدها إجادة تامة، والسبب في ذلك أنه تعلم قواعدها وتدرب عليها شيئا فشيئا حتى وصل إلى درجة من الإتقان تقارب إتقانه لغته القومية، وهذا معناه أن هذا الشخص قد استوعب تماما قواعد هذه اللغة حتى تأصلت وترسخت في المخ بحيث يتكلم بطلاقة دون أن يفكر فيها. وهنا برز سؤال ألا يمكن أن تقوم الآلة بهذا العمل إذا ما تم ابتكار وسيلة تجعل من الممكن تغذيتها بالمفردات - مهما اختلفت معانيها وبالقواعد الصرفية والنحوية مهما بلغت في دقتها[(1)].

الترجمة الآلية ومشكلاتها:

قال العلماء: أجل نستطيع أن نجعل الآلة تفعل ذلك على الرغم مما قد يعترضنا من مشكلات وكانت القضية الرئيسية في هذا المجال هي أن المترجم يعرف لغته القومية، أما الآلة فليس لها لغة قومية، والمترجم حين يقوم بعمله ينتقي من حصيلته اللغوية أقرب الألفاظ والعبارات إلى المعنى، أما الآلة فإنها

---

(1) ا. كندراتوف: الأصوات والإشارات ص١٥٨، ١٩٥.

لا تستطيع أن تفعل ذلك، بل إن المعاجم المتخصصة للغاية في مجال بذاته من مجالات المعرفة تحمل خمس مفرداتها أكثر من معنى واحد، ونحن حين ننتقي المعنى الملائم للكلمة نحاول أن نستخرجه من المعنى العام للكلمات المجاورة في السياق، ولكن الآلة لا تفهم شيئا من ذلك، ومن ثم لا تستطيع أن تنجز عملها على ضوء المعنى العام للسياق على نحو ما يفعل الإنسان [1].

وكان علماء الرياضة والهندسة أول من أجرى أبحاثا في مجال الترجمة الآلية فخلال الحرب العالمية الثانية تم بنجاح الاستفادة من الآلات الحاسبة الإلكترونية في حل الشفرات السرية لجيوش الأعداء، وفكر العلماء على ضوء التراسل الشفري في إمكانية تطبيق هذا التكنيك ذاته للترجمة الآلية، ولكن البحوث التي أجريت فيما بعد أثبتت فشل هذا التكنيك، وتبين لنا أننا حين نصوغ الشفرة وحين نحلها لا نمس اللغة من حيث هي لغة، وإنما نغير فقط الشكل الظاهري للكلمات بتسجيلها في شكل شفرة من نوع خاص، وطبيعي تماما أن هذه المشكلة إنما تخضع خضوعا كاملا للمناهج الصورية، أما حين نترجم فإننا نغير اللغة أي نغير نسق التعبير الذي يتسم بالتعقد الشديد والدقة والرهافة، وهو نسق تعبيري صاغه وأحكمه شعب بأكمله، ويرتبط ارتباطا وثيقا بفكر هذا الشعب وتاريخه وعاداته وأسلوب حياته... إلخ.

ولذلك استخدم علماء الرياضة والهندسة تكنيكا آخر يمكن الآلة من اختيار الكلمة المناسبة للمعنى إذا ما جاء في سياق محدد ولكن هذه الطريقة كانت مفيدة في مجال محدود وسرعان ما تتوقف الآلة حين تواجه هذه الطريقة مشكلاتٌ أكثر تعقيدا، ولعل هذا هو السبب الذي جعل من الاستعانة بعلماء اللغة أمرا ضروريا.

وفي ذلك يقول (كندراتوف): إن عالم اللغة هو وحده القادر على أن يحدد مواضع الاتفاق والاختلاف بين نسقين لغويين، ويكشف بدقة عن القسمات المشتركة بين لغات العالم [2].

---

(١) ا. كندراتوف: الأصوات والإشارات ص١٦٢ ثم انظر من ص ١٦٣ - ١٧٣.

(٢) ا. كندراتوف: الأصوات والإشارات ص١٦٣ ثم انظر من ص ١٦٣ - ١٧٣.

ولم يقف البحث عند الترجمة من لغة إلى لغة أخرى بل تجاوزه إلى ابتكار لغة وسيطة أو مشتركة تقوم الآلة الحاسبة بالترجمة إليها عن بعض اللغات الأخرى، ثم تتم الترجمة عن هذه اللغة الوسيطة إلى لغة أخرى نريدها. مثال ذلك أن نضغط على زرار (الوارد) الخاص باللغة العربية ونضغط على زرار (الصادر) الخاص باللغة الروسية فتترجم الآلة النص من العربية إلى الروسية، وهذا معناه أن اللغة المشتركة ستمثل القاعدة أو النقطة التي يبدأ منها الترجمة، ولم ينقطع الحوار منذ ظهرت هذه الفكرة بشأن هذه اللغة الوسيطة وهل تكون لغة حية كالإنجليزية مثلا ثم نستنبط القواعد الخاصة بالترجمة لكل لغات العالم إلى هذه اللغة؟ أم تكون لغة صناعية كالاسبرانتو نظرا لبساطة قواعدها واطرادها ؟

وقد ظهرت مشكلات معقدة جعلت أغلب الباحثين يعتقد أنها ينبغي أن تختلف عن كل اللغات الطبيعية والصناعية المعروفة لنا، وشُغل الباحثون بالسمات والشروط التي ينبغي أن تتوفر في هذه اللغة، ثم افترضت طرق للوصول إليها ويدأ العمل في تنفيذها، ونحيل القارئ في هذا الشأن إلى كتاب (كندراتوف) المشار إليه في الهامش.

ويبدو أن الباحثين في مجال الترجمة الآلية يميلون إلى أن الآلة لن تعمل بنجاح في كل ميادين الترجمة، وأنه سيكون لدينا لغتان: إحداهما تتسم بالدقة والإحكام والوضوح يستخدمها الإنسان والآلة، ويقتصر استخدامها في المجالات العلمية، ولغة ثانية متعذرة على الآلة وهي اللغة الأدبية التي تستخدم للتعبير عن العواطف والوجدانات.

ولكن لماذا لم تنجح الآلة في ترجمة النصوص الأدبية نجاحها في ترجمة النصوص العلمية ؟.

مشكلات ترجمة النصوص الأدبية :

لقد ووجه العلماء بمشكلات معقدة ذكرنا شيئا منها في الصفحات السابقة ونوجزها هنا أهمها:

أولا: ما يتصل بالمفردات:

- تعدد معنى اللفظ الواحد، وتنوع الظلال الدقيقة التي ترتبط بالألفاظ، ولا سبيل إلى تحديد المعنى المقصود أو تعيين ظلاله إلا من خلال السياق الذي تظهر فيه الكلمة، وهذا أمر يتطلب العقل الإنساني وتكاد تتعذر برمجته في حاسب آلي.

- تعدد الألفاظ التي تعبر عن المعنى الواحد، فقد يكون للمعنى الواحد غير لفظ واحد (أسد، ليث، سبع.. الخ) ومع هذا قد يكون في كل لفظ منها شيء من المعنى ليس في صاحبه، ولا سبيل حتى الآن للآلة على أن تختار من بينها أقربها للسياق.

- ارتباط مفردات اللغة بحضارة الأمة التي تستخدم هذه اللغة، فكل لغة تعبر عن البيئة التي يعيش فيها أصحابها، وتعبر عن ثقافتهم المتميزة وشخصيتهم الخاصة.

- صعوبة تحديد المعاني الدقيقة للكلمات التي تدل على المجردات أو العواطف أو المشاعر أو المعتقدات (الحب، والصداقة، والحرية، والاشتراكية... الخ).

ثانيا: ما يتصل بقواعد اللغة:

والمشكلة فيما يتصل بقواعد اللغة في بناء كلماتها وجملها أعقد فلكل لغة أنظمتها الخاصة، وهذه الأنظمة على جانب كبير من التعقيد والتشابك، ولم يهتد العلماء حتى الآن إلى نظرية يمكنها أن تفسر هذه الأنظمة تفسيرا كاملا حتى يمكن تغذية الآلة بها، فإذا ما انتهينا إلى البنية الخاصة بالتعبير الأدبي وما يمكن أن يحدث فيها من تقديم أو تأخير ومن ذكر أو حذف ومن فصل أو وصل.. إلخ وما ينبني على ذلك من دلالات فسوف تكون المشكلة أجسم.

وفي ذلك يقول: (كندراتوف): إن ترجمة الأعمال الفنية عن طريق الآلة عمل مستحيل، ذلك لأن الإنسان حين يترجم أدبا خياليا لا يقتصر على ترجمة النص من حيث معناه فحسب، وإنما يبدع عملا فنيا جديدا عن طريق إعادة كتابة النص بحيث ينقل النماذج الخيالية والشعرية دون الاقتصار على المعنى الحرفي[1].

تطورات هامة في التَّرجمة الآليَّة Machine Translation

- تطورت نظم الترجمة الآلية - بشكل ملحوظ - خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وصارت أكثر هذه النظم قادرة على ترجمة قدر هائلٍ من النصوص المتصلة والمركبة بعدما كانت تقتصر على ترجمة الجمل البسيطة.

---

(١) أ. كندراتوف: الأصوات والإشارات ص ١٧٣.

- تتفاعل المترجمات الآلية بصورة كبيرة مع المعطيات الصرفية والتركيبية، إلا أنها لا تبدو كذلك عند التعامل مع المعطيات الدلالية والبرجماتية، وإن أمكن فك اللبس الدلالي في بعض النظم باستخدام المدونات اللغوية وطرق التحليل الإحصائي.

- تزداد درجة الدقة في المترجمات الآلية عند الترجمة بين لغات مشتركة في الفصيلة اللغوية الواحدة (كالإنجليزية والألمانية والهولندية، من الفصيلة الجرمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية من الفصيلة اللاتينية) نظرًا لانبثاق لغات الفصيلة اللغوية الواحدة عن نظام نحوي واحد، بالإضافة إلى تشابه مفرداتها في الأصول المعجمية؛ وتتجاوز نسبة الدقة حينئذ - في بعض النظم - ٩٥٪.

- تقل درجة الدقة في المترجمات الآلية عند الترجمة بين لغات من فصائل لغوية مختلفة (كالإنجليزية والعربية، والفرنسية والعربية) نظرًا لاختلاف الأنظمة النحوية لهذه اللغات وتنوع أنماط الجمل، بالإضافة إلى تنوع دلالات المفردات؛ وتتفاوت نسبة الدقة حينئذ تبعا لحجم النص المدخل والنظام المستخدم ومعطيات اللغة المترجم عنها واللغة المترجم إليها.

- تزود نظم الترجمة الآلية بقواعد معطيات (صرفية وتركيبية) ومعجمات للمفردات والتعبيرات الاصطلاحية وأسماء الأعلام والعبارات المشهورة (كالحكم والأمثال)، ويغلب على هذه النظم ترجمة النصوص من لغة إلى لغة أخرى بصورة مباشرة دون الحاجة إلى لغة وسيطة.

- تزداد درجة الدقة في المترجمات الآلية عند ترجمة النصوص العامة (نصوص لغة الصحافة والأدب الروائي والمسرحي) وتقل ترجمة النصوص المتخصصة (نصوص العلوم المتخصصة - الطب والهندسة وعلوم اللغة) إلا أن بعض النظم - كنظام TRADOS - تكون قادرة على ترجمة النصوص المتخصصة، نظرًا لثراء مادتها المعجمية المتخصصة.

- هناك العديد من نظم الترجمة الآلية عالية الدقة، منها: نظام الترجمة الأشهر TRADOS ونظام Déjà vu، ونظام OmegT، ونظام WordFast؛ وجميعها نظم تجارية مغلقة المصدر، وهناك بعض المواقع الإلكترونية التي تتيح خدمة الترجمة الآلية المجانية، منها: موقع Tarjem، وموقع Translator Google، وموقع شركة صخر.

نموذج للترجمة الآلية من خلال موقع

Google Translator http://translation.google.com/

وهو نص باللغة الإنجليزية:

Obama: sudan's violence stymies U.S. relations

The U.S. cannot improve relations with sudan's government in Khartoum unless the north and the south end violence in an oil - rich region they both claim، President Obama said Wednesday.

Violence in southern Sudan's oil - rich Abeyei region and in northern Sudan's state of Southern Kordofan has threatened to undermine stability in the country ahead of the independence of the south on July 9. Mr. Obama said a cease fire in southern Kordofan and agreement to deploy peacekeepers in Abyei could put the north - south peace process back on track. "But without these actions، the roadmap for better relations with only deepen Sudan's isolation in the international community،" he said. Southern Sudanese officials claim the north's army has engaged in ethnic cleansing in southern Kordofan. But a western official who spoke to The Washington Times on the condition of anonymity said there was ample evidence that both sides had engaged in "retribution."

"The situation in Southern Kordofan is dire، with deeply disturbing reports of attacks based on ethnicity،" Mr. Obama said. Mr. Obama، reference to "political grievances" in Southern Kordofan irked northern officials. A senior Soudanese official، who spoke on background citing the sensitive nature of the developments، told The Times that Southern Kordofan has never been claimed by the south.He accused southern supporters in southern Kordofan of provoking the Violence.Southern Sudan people's Liberation Army (SPLA) armed militia groups operating in the region have pot peace in jeopardy' he said. " Per the terms of the Comprehensive Peace Agreement' these remnants like other armed entities were supposed to have joined either the Southern or the northern armies' "the official said. The southern troops are part of have joined either the southern or the northern armies، "the official said The southern troops are part of joint north-south forces in the country. Earlier this week، the Sudanese government and the Sudan people's Liberation Movement (SPLM) signed an agreement in Addis Ababa، Ethiopia، to reduce tensions in Abyei and allow Ethiopian peacekeepers into the disputed region. Mr. Obama singled out the northern Sudanese Armed Forces over

its aerial bombardment of civilians in Southern Kordofan and intimidation of U.N peacekeepers.

وهذه هي ترجمته:

أوباما.. السودان العنف يعيق علاقات الولايات المتحدة

لا تستطيع الولايات المتحدة تحسين علاقاتها مع الحكومة السودانية في الخرطوم ما لم يكن في الشمال والجنوب في إنهاء العنف في المنطقة الغنية بالنفط التي قال الإدعاء على حد سواء، فإن الرئيس أوباما يوم الأربعاء. وهددت أعمال العنف في جنوب السودان الغنية بالنفط ومنطقة Apeyei في ولاية الشمال كردفان في السودان من الجنوب إلى تقويض الاستقرار في البلاد قبل الاستقلال في الجنوب في ٩ يوليو. وقال السيد أوباما وفقا لإطلاق النار في جنوب كردفان واتفاق لنشر قوات حفظ السلام في أبيي قد يضع عملية السلام بين الشمال والجنوب إلى مسارها. وأضاف " لكن من دون هذه الإجراءات، وخريطة الطريق لعلاقات أفضل مع الخرطوم لا يمكن أن يكون مرحلا، والتي لن تؤدى إلا إلى عزلة السودان في المجتمع الدولي "، قال: مسئولين من جنوب السودان مطالبة الجيش في الشمال وشارك في عمليات تطهير عرقي في جنوب كردفان. لكنه قال مسئول غربي الذين تحدثوا إلى صحيفة واشنطن تايمز بشرط عدم الكشف عنه هويته هناك أدلة وافرة على أن كلا الجانبين قد تشارك في " القصاص". إن الوضع في جنوب كردفان وخيمة، مع تقارير مقلقة للغاية من الهجمات على أساس العرق "، قال السيد أوباما. أغضب إشارة أوباما إلى " مظالم سياسية في جنوب كردفان المسئولين الشمالية. وقال مسئول كبير السودانية الرسمية، الذين تحدثوا على خلفية بسبب الطبيعة الحساسة تطورات، الصحيفة أن ولاية جنوب كردفان لم يكن يطالب بها الجنوب. اتهم أنصار الجنوبية في جنوب كردفان إثارة العنف وقال إن جنوب الشعبية لتحرير السودان مليشيا جيش المسلحة (الجيش الشعبي) المجموعات العاملة في المنطقة قد تعرض السلام للخطر " لكل بنود اتفاق السلام الشامل، كان من المفترض أن مثل هذه البقايا الكيانات المسلحة الأخرى التي انضمت إما الجنوب أو الجيوش الشمالية، وقال هذا المسؤول. القوات الجنوبية هي جزء من القوات المشتركة بين الشمال والجنوب في البلاد.

في وقت سابق من هذا الأسبوع، وقعت الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان (الحركة الشعبية) اتفاقا في أديس أبابا، إثيوبيا، لتخفيف حدة التوتر في أبيي والسماح للقوات الإثيوبية في المنطقة المتنازع عليها. وخص السيد أوباما خارج القوات المسلحة السودانية الشمالية على القصف الجوى للمدنيين في جنوب كردفان والتخويف من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة.

وهذه هي الترجمة بعد أن روجعت وصِيغت صياغة عربية سليمة ومبينة عن معناه بدقة:

أوباما: العُنف في السُّودان يُعيق العلاقات مع الولايات المُتَّحدة.

قالَ الرَّئيس الأمريكي في حديثه يوم الأربعاء إن الولايات المتحدة لا تستطيع تحسين علاقاتها مع الحكومة السودانية في الخرطوم ما لم يعمل الشمال والجنوب معًا على إنهاء العُنف في المنطقة الغنية بالنفط. وأدَّت أعمال العنف التي شهدتها منطقة جنوب السُّودان الغنيَّة بالنِّفط ومنطقة أبيي في شمال كردفان إلى زعزعة الاستقرار في البلاد قبل استقلال الجنوب في ٩ يوليو القادم. وقال اوباما إنَّ العمل على وقف أطلاق النَّار في جنوب كردفان والمُوافقة على نشر قوَّات حفظ السَّلام في أبيي سيؤدِّيان إلى وضع عمليَّة السَّلام بين الشمال والجنوب في مسارها الصَّحيح. وأضاف أوباما: أنَّ عدم المُضيّ جدِّيًا في هذه الخُطوات سيؤثِّر سلبًا على رسم خريطة الطَّريق لعلاقاتٍ أفضل مع جنوب السُّودان، ولن يؤدِّي إلاَّ إلى عُزلة السُّودان عن المُجتمع الدَّولي. وكان عددٌ من النُّشَطاء قد أشاروا إلى تورُّط الجيش السُّودانيّ في عمليَّات تطهيرٍ عرقيٍّ في جنوب كردفان. ومن ناحيةٍ أخرى.. كشفَ مسؤولٌ عربيٌّ اشترطَ عدمَ الكشف عن هُويَّته – لصحيفة واشنطن تايمز عن وجود أدِلَّةٍ قويَّةٍ على تورط جانبي الشَّمال والجنوب في عمليَّات القتال. وقال أوباما إنَّ الوضعَ في جنوب كردفان ليس مُطَمئِنًا مع وُجود تقارير مُقلِقة للغاية عن هجماتٍ قائمة على أساسٍ عرقيّ. وكانت لإشارة اوباما إلى "المظالم السِّياسيَّة" في جنوب كردفان قد أغضبت المسؤولين في حكومة الشَّمال. وعلى خلفيَّة الطَّبيعة الحسَّاسة للأحداث وتطوُّراتها قال مسؤول كبير بالحكومة السُّودانيَّة لصحيفة التَّايمز: إنَّ الجنوب السُّودانيَّ لم يُطالب بولاية جنوب كردفان، واتَّهمَ المسؤولُ أنصارَ الجنوب في ولاية جنوب كردفان بإثارة العُنف. وقال المسؤول إنَّ الحركة الشَّعبيَّة لتحرير السُّودان في الجنوب تقوم بتسليح المليشيات التي تعمل في المنطقة بِمَّا قد يُعرِّض عمليَّة السَّلام لخطر

حقيقيّ. وأضافَ: إنَّ تحقيق بنود السَّلام الشَّامل يتطلَّب أن تنضَمَّ الكيانات المُسلَّحة إلى الجيش الرَّسميّ في الجنوب أو الشَّمال حيثُ تُمثِّل القُوَّات الجنوبيَّة جزءًا من القُوَّات المشتركة بين الشَّمال والجنوب في عُموم السُّودان. وفي وقتٍ سابقٍ كانت الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان قد وقَّعتا اتفاقا بالعاصمة الإثيوبية أديس أبابا لخفض التوترات في منطقة أبيى المتنازع عليها والسماح لقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في أثيوبيا بدخول المنطقة. وندَّدَ أوباما بالقصف الجويّ من قبل القوات المسلحة السودانية للمدنيين، كما ندَّدَ بمضايقة جنود حفظ السلام التَّابعين للأمم المتحدة وترهيبهم.

سادسا: الاتصال:

ومجال الحديث عن الاتصال في عالمنا المعاصر واسع ممتد، خذ مثلا ميدان الاتصالات السلكية واللاسلكية، وما يمكن أن يحدث فيه من تعاون مشترك بين العاملين فيه وعلماء اللغة، وفي جانب من هذه الجوانب يقول (كريستال): إن إرسال الأصوات عبر الأسلاك يكلف الكثير من المال، فإذا ما استطاع الإنسان أن يزيل الزوائد والفواصل بعيدا عن كمية الأصوات المراد توصيلها فمن الواضح أننا سنوفر قدرا كبيرا من المال، وستكون المشكلة اللغوية حينئذ في تحديد أي ملامح الكلام هي الأساسية من ناحية الوضوح والقبول، وأيها ليست كذلك حتى يمكن الاستغناء عن الملامح غير الأساسية طالما أن فحوى الرسالة هو الأهم، وحتى يمكن أن نحدد بدقة هذه الملامح لا بد من إجراء تجارب على نطاق واسع، وهذا بالفعل ما يجرى الآن (١).

ومن مجالات الاتصال الأخرى التي تؤدى فيها اللغة دورا كبيرا.

ثمة وسائل يستخدمها البشر للاتصال كالإشارة مثلا، بيد أن اللغة أكثر وسائل الاتصال أهمية، وللغة وظائف متعددة بيد أن وظيفة الاتصال أعظمها تأثيرا، ونعنى بالاتصال هنا التفاهم المتبادل لا مجرد استخدام نفس اللغة، ومن المتوقع - وهذا ما يحدث كثيرا - أن ينشأ عن الاتصال مشكلات يكون لها تأثير في نواح عديدة من حياتنا اليومية، ومن الممكن أن تسبب لنا متاعب خطيرة.

ومن الأمثلة التي قدمها (كريستال) للإشارة إلى صعوبات الاتصال: العلاقة بين الطبيب والمريض، حيث يجد المرضى وبخاصة من الطبقات الدنيا صعوبة في العثور على الكلمات الصحيحة لوصف أعراض المرض، وحيث يجد الطبيب أيضا صعوبة في فهم العبارات المختلفة التي يستخدمها مرضى مختلفون، بل إنه ليجد صعوبة أكبر في صياغة تعليماته أو تقريره الطبي في لغة يفهمها المريض ولا يكون لها تأثيرات أو مضاعفات غير متوقعة، فكثير من المصطلحات الطبية له دلالات هامشية قد تسبب أذًى للمرضى.

---

(١) كريستال: التعريف بعلم اللغة ص ١٨٠.

وعلى سبيل المثال: ليس بين كلمة growth بمعنى ورم و كلمة Cancer سرطان ارتباط ضروري (وسوف نترك جانبا تأثير الكلمة الثانية المؤلم) ومع ذلك فمعظم الناس لديهم شعور قوى بأنهما متلازمان، ومن هنا كان وصف أية حالة بأنها (ورم) مؤديا بسهولة إلى قلق عظيم ليس له ما يبرره[1].

- وفي العالم المعاصر حيث يتعاظم دور الإعلام ومن ثم يتعاظم دور اللغة في التأثير على الناس بل في السيطرة عليهم. فالإعلان التجاري الذي يهدف إلى ترويج السلعة يعتمد على عناصر كثيرة من أهمها اللغة حيث تختار ألفاظ وعبارات ذات معان محببة إلى النفوس للتأثير على السامعين أو المشاهدين (فطعم شيكولاتة كذا يهديك طعم الجنة، ورائحة كذا تحمل شذى الربيع.. إلخ [2].

- ومن الصحيح أيضا أن عددا كبيرا من المصطلحات السياسية والفلسفية التي تصف الأفكار أو تحدد معايير السلوك في المجتمعات الغربية يكون لها معان مختلفة حين تستخدم في الأقطار الشرقية، إن كلمة (الحرية) مثلا تحمل مضمونا نسبيا مثل (تقدمية - رجعية - شيوعية - ديمقراطية.. إلخ) - هذا المضمون سوف يتوقف تأثيره السيىء أو الطيب أو المحايد على المنطقة التي يستخدم فيها في العالم، ولماذا نبعد والأمثلة لدينا حاضرة، فالمجاهد الفلسطيني الذي يسعى لتحرير وطنه (إرهابي) في نظر المجتمع الأمريكي بله المجتمع الإسرائيلي، وفلان من الحكام يزهو على غيره بالديمقراطية والسجون مليئة بمعارضي سياسته، ودولة كذا حققت الرخاء والسعادة لكل أفراد الشعب والغلاء يفتك بالناس فتكًا والشقاء في كل بيت.. إلخ.

وهكذا يبدو أن رجال السياسة والحكم يروجون لسياستهم ويبشرون لأنظمتهم بهذه الوسيلة الفعالة: اللغة بكل ما تحمله المفردات والعبارات من معانٍ وظلال تلائم أغراضهم وتتيح لهم التحكم في مشاعر الناس والسيطرة على عقولهم.

والأمثلة كثيرة وكلها تشير إلى الدور الخطير الذي تمثله اللغة في حياتنا، فقد تكون أداة للخير يستخدمها الناس للتفاهم فيما بينهم بما يحقق مصالحهم ويهيىء لهم أسباب العيش الكريم. وقد تكون أداة

---

(1) Crystal , Linguistics , p 15.

(٢) انظر في هذا الموضوع للمؤلف (الإعلان باللغة الإنجليزية والعامية المصرية) مؤتمر مجمع اللغة العربية ٢٠١٠.

للشر يستخدمها بعض الناس لتحقيق أغراضهم الشريرة في إثارة الفتنة والكراهية.

وهذا الدور الذي تمثله اللغة في حياتنا المعاصرة يشير إلى ما يمكن أن يقوم به علماء اللغة في تبصير الناس بهذا الدور في جانبيه الايجابي والسلبي، وباقتراح الطرق والوسائل التي من شأنها أن تساعد في أداء اللغة لوظيفتها النبيلة في التفاهم والتعاون لخير الإنسان [1].

(١) انظر في هذا الفصل المعنون بـ(اللغة والسياسة) ص ١٦١ - ١٧٩ من كتابي (علم اللغة الاجتماعي).

الباب الثالث

علوم اللغة

المبحث الأول

علم اللغة الوصفي

الدرس اللغوي بين المعيارية والوصفية:

إن أهم ما يميز علم اللغة الحديث الذي يستخدم المنهج العلمي في دراسة اللغة عن المناهج التقليدية هو أنه ينظر إلى اللغة نظرة وصفية تعتمد على الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية الموجودة بالفعل، ولا يهدف من ذلك إلى وضع قواعد يفرضها على المتكلمين، بل كلُّ ما يهدف إليه هو وصف نظام اللغة (الصوتي، والصرفي، والنحوي) ووضع معاجمها.

وقد كان اهتمام علماء اللغة الوصفيين باللغة المنطوقة عظيما، فلم يُولوا اللغة المكتوبة إلا اهتماما ضئيلا، لقد كانوا يرون أن اللغة نظام صوتي في المقام الأول . كما أنهم لم يقتفوا أثر القواعد النحوية التقليدية القديمة، لأن هذه الدراسة الأخيرة قد أسست جزئيا على لغات قديمة بطل استعمالها، كما أن أصحاب هذه الدراسة يأخذون الصورة المكتوبة للغة على أنها أساس البحث ويردون إليها كل ظواهر اللغة المتكلمة، ويندر أن تجد أيا منهم في تناوله للجزئيات يؤسس نتائجه على الملاحظة العلمية أو الاستقراء.

وقد تطور البحث التحليلي لعلماء اللغة الوصفيين نتيجة ارتباطه بدراسة ما يسمى بلغات الشعوب المتخلفة التي لم تعرف الكتابة بعد، حيث لا توجد أي صيغة مكتوبة للغة، وليس ثمة محاولات مسبقة لوصف نحوي، ولا وسيلة للحصول على اللغة في أي صورة غير صورتها المنطوقة[1].

---

(١) ماريو باي أسس علم اللغة ترجمة د. أحمد مختار عمر ص ١١٩.

وقد كان الوضع مختلفا في اللغة العربية فقد وضع علماؤها قواعدها وجمعوا مفرداتها على أساس اللغة المنطوقة، وكان مبدؤهم أخذ اللغة سماعا من الرواة ذوي الصدق والأمانة، وكثيرا ما تروى كتب الطبقات أن نحاة العربية ولغوييها كانوا يخرجون إلى البادية ليسمعوا العربية من أفواه الأعراب في نجد وتهامة والحجاز، والنص القرآني المقدس وهو المثل الأعلى للعربية الفصحى كان الاعتماد في نقله على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب، وكتاب سيبويه وهو أول كتاب في قواعد العربية لا تخلو صفحة من صفحاته إلا ويذكر أنه سُمع ذلك من العرب الفصحاء أو ممن يوثق بعربيته أو غير ذلك من ألفاظ السماع . بيد أنه بمرور الزمن وباتساع الفرق بين العربية الفصحى واللهجات المحلية أصبحت الفصحى مكتوبة لا تنطق إلا في مواقف محدودة، وأصبحت تتعلم في دور العلم المختلفة تعلما بعد أن كانت سليقة تكتسب اكتسابا.

إن قواعد العربية التي نتعلمها اليوم موجهة في الغالب لكي تعصم اللسان من الخطأ، ويكفي في التدليل لذلك أن تتصفح كتابا من كتب النحو أو من الكتب التي خصصها أصحابها لبيان اللحن أو الخطأ في اللغة ليتبين لك ما تمتلئ به من أحكام توجب على المتكلم أن يقول كذا أو كذا، أو تنهاه عن أن يقول كذا أو كذا، وقد لخص الشيخ محمد علي النجار هذا الموقف في كتابه (الأخطاء اللغوية) الشائعة بقوله: "تجري العربية على قوانين ومقاييس يعد الانحراف عنها خطأ ولحنا فيها، وكذلك مفرداتها في صيغها ومعانيها يجب الاحتفاظ بما ورد فيها عن العرب، ولا ينبغي أن نتجاوزه إلا بالمجاز أو الاشتقاق في حدود ما رسم جهابذة اللغة"(١).

وهكذا يختلف الهدف من دراسة اللغة بين اللغويين التقليديين والوصفيين، فاللغويون التقليديون يقدمون قواعد تعصم اللسان أو القلم عن الخطأ واللحن، وتقيده بمستوى لغوي محدد يجب الحفاظ عليه ويمتنع الخروج عنه، وترسم له حدودا لما ينبغي أن يقول، وهي

(١) الأخطاء اللغوية الشائعة جـ١ ص ١.

حدود لم تستخلص من الاستعمال الفعلي المعاصر للغة، وإنما هي حدود صورتها كتب النحو ورسمها جهابذة اللغة.

واللغويون الوصفيون يسجلون ما يقوله المتكلم تسجيلاً أمينًا يصور ما قاله بالفعل لا ما ينبغي عليه أن يقوله، ولا يعني هذا أنهم يقتصرون في بحثهم على الكلام المنطوق فحسب (والذي يغلب أن يكون لهجة محلية أو اجتماعية) بل إن من مجال عملهم أيضًا دراسة اللغة الفصحى أو المعيارية (منطوقة أو مكتوبة) على النحو الذي تُستخدم عليه بالفعل في وقت الدراسة لا على النحو الذي تصوره كتب النحو القديمة والذي يرسمه جهابذة اللغة.

إن أكثر الأحكام التي نطلقها على اللغة ليست إلا أحكامًا اجتماعية -وهي قرارات إنسانية تدور في دائرة ما يرغبه كل منا- فاللغة الفصحى عند قوم قد تكون غير فصيحة عند آخرين، والعكس صحيح أيضًا، وقد تؤدي اللغة وظيفتها وتنقل إلى السامع ما يريده المتكلم في شكل غير صحيح، وقد يتفاوت الناس في الأداء اللغوي، فبعضنا يكتفي بما يمكن أن يقال عنه (اللغة المُفْهِمة) وبعضنا يتجاوز ذلك فيستخدم ما يمكن أن يقال عنه (اللغة البليغة).

ولأن كثيرًا من البحوث اللغوية لم تصل إلى رأي قاطع في (اللغة الفصحى) فقد نشأ انطباع مؤداه أن وسائل الاتصال الناجحة هي المعيار الوحيد الذي يحكم به عالم اللغة على نمط لغوي معين، وهو انطباع غير دقيق، فالتعبير اللغوي -كما ألمحنا إلى ذلك- يتفاوت في أداء المقصود باختلاف الأشخاص والمواقف.

إن اللغوي الوصفي ينحي هذه الأحكام جانبًا، ويلتزم بتسجيل ما يسمع -قدر استطاعته- بدقة وموضوعية ولا يُعَنِّي نفسه بإصدار الأحكام.

إن اللغوي الوصفي يعتقد اعتقادا جازما في أن الكلام ذاته من حيث هو أصوات لا يتضمن ما يجعله صوابًا أو خطأ، بل مدار الأمر إلى الجماعة التي تستخدم هذه اللغة(1).

ربما تحظى اللغة الفصحى أو المعيارية بمكانة متميزة عند جماعة لغوية معينة بالقياس إلى

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.6

مكانة اللهجة المحلية، وهي نظرة ربما كان لها ما يسوغها عند أصحاب هذه اللغة، قد يكون ذلك لأسباب دينية أو قومية أو اجتماعية ... إلخ، ولكن اللغوي لا ينظر إلى اللغة هذه النظرة الخاصة بل ينظر إليها من حيث الخصائص اللغوية الخالصة فليست الفصحى أو المعيارية أكثر دقة أو أجمل تعبيرا أو أكثر منطقية واطرادا من اللهجة المحلية، وليست اللهجة المحلية في هذا المجال فسادا أو انحرافا، بل قد يتضح عند البحث أنها ليست أقل دقة أو جمالا أو منطقية أو اطرادا(١).

إن هذه الأحكام ما هي في الحقيقة إلا أحكام اجتماعية، وليست أحكامًا لغوية.

محاور الدراسة الوصفية:

تتم الدراسة الوصفية في ثلاثة محاور: الزمان والمكان والمستوى.

الزمان: ينبغي تحديد الفترة الزمنية التي تدرس في أثنائها الظواهر اللغوية؛ لأن اللغة تتغير بمرور الزمن، إن التغير ليس عملا مقصودا يحدث وفقا لمنهج مخطط سلفا، إنه يتوقف على عوامل كثيرة معقدة ليس لدينا إلا القليل عن كيفيات تأثيرها، إنه في الحقيقة يسري في اللغة شيئا فشيئا حتى لا يُدرك، وعلى الرغم من أن التغير عملية مستمرة فإننا نتغاضى قاصدين عن استمراريته، ونعد اللغة وكأنها ثابتة أو مستقرة في أثناء فترة البحث، ولذلك يحرص اللغويون أشد الحرص على ألا يستغرق البحث فترة طويلة من الزمن إذا ما كانت اللغة المدروسة معاصرة للبحث، بحيث لا تحدث تغيرات ذات أهمية في أثنائه، فإن طالت الفترة فعلى الباحث أن ينص على المدة التي استغرقها في جمع المادة ودراستها بحيث يمكن لغيره من الباحثين أن يجري التعديلات اللازمة طبقًا لذلك. أما إذا تناولت الدراسة فترة زمنية سابقة لتاريخ البحث فعلى الباحث أن يضيق من الفترة المختارة للبحث للاعتبار السابق الذي تحدثنا عنه.

المكان: ينبغي تحديد المكان الذي تقيم فيه الجماعة اللغوية التي ندرس لغتها؛ لأن اللغة

(1) Fromken and Rodman, An Introduction to Language, p.274.

تتغير باختلاف المكان، فالعربية اليوم مثلًا ليست سواء فيما يطلق عليه العالم العربي بل تختلف باختلاف أقطاره فثمة لهجة مصرية وأخرى عراقية.. إلخ واللهجة المصرية لها خصائص في أصواتها وصرفها ونحوها ودلالاتها تتميز بها عن اللهجات الأخرى، وكذلك الحال بالنسبة إلى هذه اللهجات.

وقد أُخِذ على قدامى النحاة واللغويين أنهم حين جمعوا مفردات العربية، ووضعوا قواعدها عدوها وحدة واحدة، وجعلوا كل ما ينطق به العربي حجة على الرغم من الاختلافات التي عرفوها بين عربية الشمال وعربية الجنوب، قال أبو عمرو: ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[1].

والعربية الشمالية نفسها تنقسم إلى مجموعتين لهجيتين كبيرتين هما لهجات نجد والحجاز، وبينهما اختلافات كثيرة تحدثوا عن القليل منها وأهملوا الكثير، قال ابن نوفل: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عما وضعت مما سميت عربية! أيدخل فيه كلامُ العرب كله؟ فقال: لا، فقلت: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات[2]، بيد أنهم لم ينصوا على كل ما خالف الفصحى الموحدة التي سماها أبو عمرو (العربية)، وجعلوا الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ. يقول ابن جني: باب اختلاف اللغات وكلها حجة. اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك، ولا تحظره عليهم، ألا ترى أن لغة التميميين في ترك إعمال (ما) يقبلها القياس، ولغة الحجازيين في إعمالها كذلك، لأن لكل واحد من القومين ضربا من القياس يؤخذ به ويخلد إلى مثله، وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها، لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها[3].

ليس غريبا إذًا أن يتضخم المعجم العربي فنجد للمفرد غير جمع واحد وللفعل غير

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء جـ ١، ص ١١.

(٢) السيوطي: المزهر جـ ١ ص ١٨٤، ١٨٥.

(٣) ابن جني: الخصائص جـ ٢ ص ١٠.

مصدر واحد، ونجد عين المضارع لا يستقر أمرها على فتح أو كسر أو ضم، ونجد للشيء الواحد عشرات من الألفاظ بل مئات تشير إليه.. إلخ وفي النحو شيء من هذا، لك أن تقول: ما هذا رجل وما هذا رجلا، فترفع على أن (ما) تميمية وتنصب على أنها حجازية، ولك أن تقول: إن الرجلين وإن الرجلان، فتنصب المثنى بالياء أو تلزمه في كل حال.. الخ.

وهذه كلها من آثار نظرتهم الموحدة إلى العربية الفصحى وتسويتهم بينها وبين لهجاتها، ولو أنهم نصوا على كل ما يخالف الفصحى ونسبوه إلى أصحابه لاختلف الحال تماما، ولأصبح لدينا معجم أكثر واقعية، ولكان لدينا قواعد أكثر اطرادا.

المستوى: لا تتنوع اللغة باختلاف الزمان والمكان فحسب، بل ثمة تنوعات أخرى تحددها عوامل كثيرة مثل الوسيلة التي يستخدمها المتكلم في الاتصال (اللغة المكتوبة أو المنطوقة) أو المجال الذي تستخدم فيه (لغة الشعر، لغة النثر، اللغة العلمية.. الخ) أو الموضوع الذي يتحدث فيه أو الشخص الذي يتحدث إليه، وهي تنوعات يغلب أن يشار إليها بالمستوى، وبعض الباحثين يوجب على الدارس أن يحدد المستوى وفقا للاعتبارات السابقة.

ومن المعروف أن نحاة العربية استخلصوا قواعدهم من القرآن الكريم وقراءاته ومن أشعار العرب وأقوالهم، ولكنهم أغفلوا عاملا هاما هو أن نظام الجملة في الشعر نظام خاص يختلف عن نظامها في غيره من شواهد العربية، ومن ثم كثر الخلاف بين النحاة في بعض هذه الأشعار.

فالبصريون مثلا يمنعون مطلقا أن يلي العامل معمولُ الخبر في باب كان إلا إذا كان ظرفا أو جارا ومجرورا، والكوفيون يجوزون مطلقا محتجين بقول الفرزدق:

قنافذ درَّاجون حول بيوتهم ... بما كان إياهم عطيةُ عَوَّدا

ورد عليهم البصريون بتأويلات كثيرة للبيت حتى يستقيم مع قاعدتهم، وكان أولى بهم

أن ينتبهوا إلى أن ترتيب الكلمات على النحو السابق خاص بالشعر[١].

لقد كان ينبغي ألا يخلطوا بين شواهد الشعر والنثر، وألا يضعوا قواعد عامة تشملهما معا، فهذا مستوى من اللغة وذاك مستوى آخر ولكل خصائصه التي تميزه عن صاحبه.

دور العرف في بيان الصواب والخطأ:

تبين مما سبق أن هناك فرقا كبيرا بين مهمة الباحث اللغوي التي تتلخص في وصف ما يلاحظه من ظواهر بدقة وموضوعية، ومهمة المعلم الذي يضع القواعد التي ترشد المتعلمين إلى الصواب وتجنبهم الخطأ، فالأول يستخدم المنهج الوصفي، وهو لذلك عالم، أما الثاني فينظر إلى اللغة نظرة معيارية، وهو لذلك معلم، وكلاهما يقوم بدور له أهميته البالغة.

ولكن ما الموقف الذي يتخذه علماء اللغة المحدثون حيال المقياس الذي نستخدمه للقول بالصواب أو بالخطأ؟ يقرر علماء اللغة المحدثون أن اللغة نظام عرفي بمعنى أن العربي هو الذي يحدد معايير الاستعمال في اللغة، فالمتكلم بلغةٍ ما يستعمل اللغة في أصواتها وتراكيبها ومفرداتها وفقا للعرف اللغوي للجماعة التي ينتمي إليها، فالصواب إذًا هو أن يكون استخدامه للغة موافقا لهذا العرف، والخطأ هو أن يكون استخدامه لها مخالفا له، إن العرف هو الذي يضع الأنظمة وهو الذي يقرها وهو الذي يحافظ عليها.

لنفرض أن العرف اللغوي للجماعة التي ينتمي إليها (أ) يتطلب نطق الفعل (قال) هكذا / jaal / على حين يتطلب العرف اللغوي للجماعة التي ينتمي إليها (ب) أن ينطقه هكذا / ʔaal / ، سوف نجد أن (ب) ومن ينتمي إلى جماعته قد يستنكرون نطق (أ) وسوف يكون مجالا لتندرهم، وهم أيضا لن يسلموا من اعتراض (أ) على نطقهم ومن سخريتهم به، والحقيقة أن (أ) حين ينطق الفعل السابق كما تنطقه جماعته اللغوية يكون مصيبا لأنه راعي عرفهم، ولو فعل غير ذلك لأخطأ، وليس لـ (ب) أن يخطئه محتجا عليه بطريقة نطقه هو، وليس لـ (أ) أيضا أن يخطئه في نطقه محتجا عليه بنطقه هو.

---

(١) انظر: الشيخ خالد: التصريح جـ١ ص ١٨٩، ١٩٠.

وحين يأتي من يقول لهما إن النطق الصحيح لهذا الفعل هو / qaal / مؤكدا أن العرب الفصحاء كانوا ينطقونه كذلك، وأن (أ) و (ب) قد أخطآ حين نطقاه على خلاف ذلك، مثل هذا الشخص - حين ينظر إلى اللغة هذه النظرة يكون معياريا أي يحكم على الاستعمال بالصواب، لأنه يراعي القاعدة ويحكم عليه بالخطأ لأنه لا يراعيها، وهنا نسأل: أتمثل هذه القاعدة جزءا من النظام اللغوي الذي تستخدمه الجماعة التي ينتمي إليها (ا) أو (ب)؟ والجواب في مثالنا السابق هو: لا. ولذلك لا نعد هذا الشخص محقا في حكمه.

والنظرة المعيارية إلى اللغة مقبولة بل ضرورية في كثير من الأحوال، فهي لازمة في المراحل المختلفة لتعليم اللغة القومية، وهي أيضا لازمة للحفاظ على هذه اللغة المشتركة من مخاطر استخدام اللهجات المحلية، وقد حافظت الأعمال التي خلفها لنا النحاة العرب في مجال وضع قواعد العربية حافظت على العربية الفصحى فترة طويلة من الزمن دون أن تتطور تطورات كبيرة كما حدث في اللاتينية حين تشعبت إلى لهجات متعددة هي الآن لغات قومية، وقد فعلوا ذلك بهدف المحافظة على القرآن الكريم والخوف من أن يتطرق إليه التغيير والتبديل، ولكن هذه النظرة مرفوضة حين نقوم بدراسة اللغة، إذ ينبغي على الدارس أن يصف ما يسمعه وصفا دقيقا موضوعيا، وليس من عمله أن يضع قواعد يستخدمها للحكم بالصواب أو الخطأ(1).

إن عالم اللغة له منهج يختلف عن منهج معلم اللغة، وكلاهما يقوم بجهد مطلوب، ولكن ينبغي أن تكون الحدود بينهما قاطعة، ولا ينبغي أن يتجاوز أي منهما حدود المنطقة التي يعمل فيها.

وهناك اصطلاح يكثر استعماله مرادفا لعلم اللغة الوصفي وهو علم اللغة التركيبي أو البنيوي Structural Linguistics الذي هدفه الرئيسي وصف تركيب اللغة.

وسوف نتحدث بالتفصيل عن هذا العلم في المبحث القادم.

---

(1) See Lyons, Introduction to theoretical Linguistics, p.p. 43,44.

المبحث الثاني

علم اللغة التاريخي

التغير اللغوي:

من أهم الأفكار التي تميز علم اللغة الحديث أن اللغات تتغير باستمرار، وأن هذا التغير ليس بالضرورة فسادا في اللغة أو انحرافا عن التعبير الصحيح -كما يعتقد اللغويون التقليديون- إن التغير اللغوي في أغلب أحواله ضرورة ملحة، وهو أيضًا حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها أو التغاضي عنها، لقد حدثت تطورات كبيرة وشاملة في عالمنا المعاصر في وسائل الحياة وفي نظرة الإنسان إليها، ولم تكن اللغة بمعزل عن هذه التطورات فهي أداة التعبير عن حاجات المجتمع، أداة طائعة تلبي الدواعي المتنوعة وتلاحق الحاجات المتجددة.

قد نحتاج إلى كلمات جديدة للتعبير عن هذه الوسائل فماذا نفعل؟

قد نقترض من اللغات الأخرى فنضيف بذلك كلمات جديدة إلى لغتنا، وقد نضطر إلى إحياء كلمات كانت مهجورة، وقد نضيف إلى معاني الكلمات التي نستخدمها معاني جديدة لتتسع لأغراضنا، كل هذا يحدث - وقد حدث شيء مثله في تاريخ كل اللغات، وهو عمل مشروع وحاجة ملحة وتغير ضروري.

وإذا ما ألقينا نظرة إلى اللغات الحية المعاصرة نجد أنها تغيرت تغيرات ملموسة، وإن كان معدل التغير يختلف من لغة إلى لغة ومن وقت إلى وقت، فالإنجليزي المعاصر يجد صعوبة كبيرة في فهم نصوص إنجليزية ترجع إلى عام ١٣٠٠م إلا إذا تلقى تدريبا لغويا خاصا، أما الوثائق الإنجليزية المكتوبة عام ٩٠٠م، فسوف تبدو وكأنها مكتوبة بلغة أجنبية،

وقد يبدو له أن هذه الوثائق لا تمت إلى الإنجليزية بسبب[1].

والعربي المعاصر ربما يجد صعوبة أقل في فهم نصوص ترجع إلى العصر الجاهلي مثلاً، ولكنها صعوبة يمكن التغلب عليها إذا ما ألم إلمامًا يسيرا ببعض المفردات الشائعة في هذه النصوص.

والذي نستخلصه مما قلناه آنفًا أن اللغة تتغير باستمرار، وأن هذا التغير لا ينبغي أن يفسر دائما على أنه فساد أو انحراف، إن دراسة التغيرات التي تصيب اللغة تقع في إطار ما يسمى علم اللغة التاريخي Historical Linguistics، وهي دراسة مخالفة من بعض الوجوه لما يسمى علم اللغة الوصفي Descriptive Linguistics، الذي عرفنا به وحددنا نطاقه في الصفحات السابقة.

علم اللغة الوصفي وعلم اللغة التاريخي:

يقسم علماء اللغة علم اللغة الحديث إلى قسمين: علم اللغة الوصفي وعلم اللغة التاريخي، وقد قلنا آنفًا إن علم اللغة الوصفي يهدف إلى وصف اللغة موضوع الدراسة وصفا علميا دقيقا في مكان وزمان محددين، بل أوجب البعض تحديد مستوى اللغة المدروسة، أما علم اللغة التاريخي فيهدف إلى دراسة اللغة في مكان محدد في مراحل زمنية مختلفة لبيان التغيرات التي لحقتها في أثناء تلك المراحل.

وهناك مصطلح يستعمل مرادفا لعلم اللغة التاريخي هو Diachronic Linguistics، مكون من dia بمعنى (عَبْر) و Chronic بمعنى (زمن)، ومصطلح آخر يرادف علم اللغة الوصفي وهو Synchronic Linguistics مكون من Syn بمعنى (في) وchronic بمعنى (زمن)، ويعني دراسة اللغة كما تبدو في نقطة معينة من الزمن[2].

لقد تبين لنا من الحديث عن علم اللغة الوصفي أن ظهوره كان له تأثير كبير في توجيه

---

(1) Barber, The story of Language, p.p. 49,50.

(٢) باى (ماريو) أسس علم اللغة ترجمة د. أحمد مختار عمر ص ٣٦.

الأنظار إلى اللغات الحية، وصرفهم عن الدراسات التاريخية التي بلغت أوجها في القرن التاسع عشر.

ويحدد (ماريو باي) موقف علماء اللغة الوصفيين من الدراسات التاريخية بقوله: إنهم لزموا الصمت فيما يتعلق بالقيمة العلمية لدراسة اللغويات التاريخية التي تعتمد على دراسة الوثائق والمخطوطات وقنعوا بمحاولة التقليل من شأنها واستبدالها بطرق أخرى للبحث، وصرفوا هممهم إلى دراسة اللغات الحديثة التي يستعملها الناس، ولهجاتها المحلية والفردية(١).

والشائع بين مؤرخي علم اللغة المعاصرين أنهم يضعون علم اللغة التاريخي بين العلوم اللغوية، ويجعلونه قسيما لعلم اللغة الوصفي(٢)، بيد أن بعضهم يخرجه منها، ومن هؤلاء (كريستال) الذي يرى أن علم اللغة ينبغي ألا ينظر إليه على أنه دراسة تاريخية للغة Diachronic.. ويفسر ذلك بقوله: إن علم اللغة يهتم بالدراسة غير التاريخية للغة Synchronic أي دراسة مرحلة معينة من اللغة في وقت بعينه بغض النظر عن تاريخه السابق أو اللاحق، إنه يبحث مثلا في اللغة الإنجليزية كما تستعمل اليوم، أو كما كانت تستعمل في عصر شكسبير، ولا يبحث في الطريقة التي تطورت بها اللغة الإنجليزية في عصر شكسبير إلى اللغة الإنجليزية الحديثة، ولا في الطريقة التي ستتطور بها الإنجليزية المعاصرة إلى إنجليزية القرن الحادي والعشرين، لأن معظم القضايا الهامة التي تشغل عالم اللغة ليست قضايا تاريخية على الإطلاق، وإنما الذي يشغله قضايا مثل: ما وظائف اللغة في المجتمع؟ وكيف تقوم بها؟ وكيف ندرس أي لغة دراسة تحليلية؟ وهل كل اللغات لها تركيب واحد؟ وما العلاقة بين اللغة والفكر؟ ولكي نبحث مثل هذه القضايا ونحددها لا بد لنا من أن ننظر نظرة غير تاريخية، أي ننظر إليها كموضوع للبحث لا بد من دراسته بطريقة تجريبية

---

(١) باى (ماريو) لغات البشر ترجمة د. صلاح المغربي ص ٧٧.

(2) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.3

وبالمصطلحات الخاصة به مثلما ندرس تماما الظواهر الطبيعية أو الكيماوية[1].

ومن الواضح أن (كريستال) يستند في محاولته إخراج الدراسة التاريخية من نطاق علم اللغة إلى أمرين:

أولًا: أن قضية التغير اللغوي التاريخي لم تعد تشغل اللغويين اليوم (وقد كانت هي قضية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين)، وأن قضايا لغوية أخرى أصبحت تشغلهم كقضية وظيفة اللغة وعلاقتها بالفكر.

(إن قضية اللغة التي تشغل اللغويين اليوم -إن صحت رؤيتنا- قضية المجالات العملية التي يمكن أن تستخدم فيها نتائج العلوم اللغوية أو بعبارة موجزة: علم اللغة التطبيقي).

ثانيا: أن دراسة التغير اللغوي لا تخضع لمقتضيات البحث العلمي (التي تحدثنا عنها في المبحث الأول) ولهذا يستبعد الوصول في دراسته إلى نتائج يمكن التحقق منها تجريبيا، ومع تسليمنا بذلك فإن الباحثين في علم اللغة التاريخي قد ابتكروا طرقا لعلاج القصور عند دراسة لغة ليس لها وثائق منطوقة، وسوف نتحدث عن ذلك بعد قليل.

والدراسة الوصفية أو التاريخية يمكن أن تتناول اللغة أو جانبا منها بالدراسة، فالظواهر الصوتية مثلًا يمكن دراستها دراسة وصفية فتوصف وصفا دقيقا في مرحلة معينة بهدف بيان خصائصها في هذه المرحلة، وقد تدرس دراسة تاريخية، فيختار الباحث مراحل زمنية محددة، ثم يقوم بدراسة الموضوع على حدة دراسة وصفية في كل مرحلة، ثم يقارن بعد ذلك بين هذه المراحل المختلفة ليحدد التغيرات التي حدثت، وهكذا الأمر إذا كانت الظواهر المدروسة صرفية أو نحوية أو معجمية.

ومن الخطأ أن يتجاوز الباحث المرحلة الزمنية التي اختارها أو المكان الذي حدده أو المستوى الذي عينه، لأنه إن فعل شيئا من ذلك اختلطت عليه الأمور واضطربت النتائج، ولهذا يؤكد علماء اللغة على تنحية الاعتبارات التاريخية تماما حين تكون الدراسة وصفية، وقد

---

(١) كريستال: التعريف بعلم اللغة ص ٣٤، ٣٦.

قدم لنا (سوسير) مثالا جيدا لهذا حين شبه اللغة بلعبة الشطرنج ففي أثناء اللعب تتغير حالة الرقعة باستمرار، غير أننا في أي وقت نستطيع أن نصف حالة الرقعة وصفا كاملا بتحديد المواقع التي تحتلها قطع الشطرنج المختلفة، ولا يعنينا والحال كذلك كيف وصل اللاعبان إلى الحالة الراهنة التي وصفناها آنفا، ولا يعنينا بأية وسيلة أو بأية حركة أو بأي عدد من القطع فعلا ذلك، لقد وصفنا الحالة الراهنة للرقعة دون التفات إلى حركة سابقة[1].

كل اللغات تتغير باستمرار مثل رقعة الشطرنج، وكل اللغات يمكن وصفها في وقت محدد دون الرجوع إلى أحوال سابقة كان لها تأثيرها في الحالة المعينة الموصوفة في الوقت المحدد. غير أن هذا لا يعني أبدا انقطاع الصلة بين علم اللغة التاريخي وعلم اللغة الوصفي، لقد اتضح لنا اعتماد الدراسة التاريخية على الدراسة الوصفية، لأننا لكي نتابع التغير التاريخي للغة نحتاج إلى وصف دقيق لمرحلة متقدمة ومرحلة متأخرة من تاريخ هذه اللغة.

مشكلات الدرس اللغوي التاريخي:

ومن المشكلات التي تعترض الباحث في علم اللغة التاريخي أنه لا تتوفر له مادة لغوية منطوقة لمرحلة لغوية سابقة على المرحلة المعاصرة، فلم تخترع وسائل التسجيل إلا حديثا، ومن ثم فليس أمامه إلا أن يلتجئ إلى الكتابة تلك الوسيلة العاجزة التي لا تمثل المنطوق تمثيلا صحيحا.

لقد كان تركيز الباحثين في علم اللغة التاريخي على الجانب المكتوب من اللغة، أما اللغة المتكلمة فقد صورت على أنها شيء متغير خداع وأن الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة ولهذا فليس محل دهشة إذًا أن تكون الخطوات الأصلية في علم اللغة قد تناولت بالبحث فقط الجانبين التاريخي والمكتوب للغة، وأن المنهجين الدراسيين في علم اللغة التاريخي ونعني بهما المنهج المقارن ومنهج إعادة تركيب اللغة قد أسسا كلية على ما وجد من وثائق مكتوبة، ومن حيث طبيعة البحث فإن علم اللغة التاريخي

(1) Lyons, Introduction to theoretical Linguistics, p. 46

لا بد أن يعتمد على المادة المكتوبة بقدر ما يعتمد علم اللغة الوصفي على المادة الكلامية لمتكلمين أحياء[1].

ولهذا ينبغي على الباحث عند دراسته لهذه المادة المكتوبة على الأحجار والصخور أو على الطين وألواح الشمع أو المسجلة في أوراق البردي... إلخ أن يحتاط في الاحتجاج بها، وأن يغلب الشك على اليقين في أغلب الأحيان، كما ينبغي أن يدعم استنتاجاته بشواهد أخرى مثل ملاحظات العلماء القدامى أو الكلمات التي تقترضها اللغة المدروسة من اللغات الأخرى، أو يدعم موقفه بالمعارف العظيمة التي تحققت بدراسة ميكانيكية النطق والسمع.

ولا شك أن المشاكل التي تتصل بهذا الجانب تختلف من لغة إلى أخرى، ففي تقديري أن دراسة الجانب المنطوق للعربية الفصحى في مراحل تاريخية غير معاصرة ممكن، لقد احتفظت الفصحى بصورة منطوقة حتى يومنا هذا هي القرآن الكريم الذي كان يتناقله حفظته قارئا عن قارئ، وقد وضعوا لذلك قواعد محكمة احتفظت بصورة يُعْتَقَد أنها لم تتعرض لتغيرات كبيرة كالتي حدثت في لغة الخطاب، أضف إلى ذلك أن الخصائص العربية في بناء كلماتها وخضوعها لأوزان معينة ولطرق الاشتقاق المحددة يتيح إمكان التعرف على بعض الحقائق الصوتية، كما أن الشعر العربي الموزون المقفى يساعد إلى حد كبير في التعرف على هذه الحقائق.

(١) باي (ماريو) أسس علم اللغة ص ١٦٤.

المبحث الثالث
علم اللغة المقارن

يدرس علم اللغة المقارن الظواهر المشتركة بين اللغات التي بينها علاقة قرابة (أي التي تنتمي إلى أصل لغوي واحد)، وعلى سبيل المثال قد يدرس الباحث المقارن ظاهرة معينة في العربية والعبرية والآشورية باعتبارها لغات تنتمي إلى أصل مشترك هو ما يطلق عليه السامية الأولى، ومن أهداف الدراسة المقارنة التوصل إلى إعادة بناء هذا الأصل المشترك.

وقد يراد بالدراسة المقارنة تناول مرحلتين زمانيتين أو أكثر من مراحل التطور التاريخي للغة واحدة، والغرض من هذه الدراسة التوصل إلى التغيرات اللغوية التي وقعت في أثناء تلك المراحل.

والدراسة المقارنة بهذين الاعتبارين أقرب إلى علم اللغة التاريخي.

ولكن (ماريو باى) يرى أنه بالإمكان استخدام المقارنة بين لغتين حديثتين من غير إشارة إلى تطوراتها أو أصولها التاريخية، وذلك بقصد الوصول إلى مواطن الشبه والاختلاف في صورتها الحاضرة[1]، ويتحقق هذا لأغراض تعليمية إذ تمكننا هذه المقارنات من تعلم اللغات المختلفة وتعليمها بطريقة ميسرة، غير أن الشائع بين الباحثين أن يطلق على هذا اللون من البحث (التحليل التقابلي Contrastive analysis) وقد تحدثنا عنه بالتفصيل في الباب الثاني من هذا الكتاب.

---

(١) أسس علم اللغة ترجمة د. مختار عمر ص ٣٦، ٥٩.

العلاقات بين لغات العالم:

وقد صنف علماء اللغة لغات العالم لما بينها من علاقات، وحددوا هذه العلاقات فيما يأتي:

علاقات قرابة genetical relations وعلاقات ثقافية cultural relations وعلاقات بنيوية أو شكلية (وسائل بناء الكلمات وتوليدها) Typological relations.

لقد لاحظ اللغويون تماثلا مطردا في بعض العناصر اللغوية بين الألمانية والإنجليزية، وقد أرجعوا هذا إلى أن اللغتين تنتميان إلى أصل مشترك أطلقوا عليه اللغة الجرمانية، فبين اللغتين بهذا الاعتبار (قرابة) والقرابة هنا تعبر عن مجموعة من العلاقات اللغوية تقع في مستويات أو على درجات أشبه ما تكون بالعلاقات الأسرية، كعلاقة الأم بابنتها أو الأخت بأختها أو ما إلى ذلك من علاقات قريبة أو بعيدة.

أما العلاقات الثقافية فتنشأ عن اتصالات واقعية بين مجموعات بشرية، وعلى سبيل المثال نجد بين العربية والفارسية علاقات ثقافية مشتركة تبدو فيما اقترضته كل لغة من الأخرى من ألفاظ تتصل بثقافتها الخاصة أي ثقافة العرب والفرس، وليس بين العربية والفارسية قرابة لغوية، فالعربية لغة سامية والفارسية لغة هندية أوروبية.

أما العلاقات البنيوية أو الشكلية فقد تكون بين لغات ليس بينها علاقة قرابة أو علاقة ثقافية، وعلى سبيل المثال لاحظ اللغويون وجوه شبه قوية بين الإنجليزية والصينية لإيثارهما طريقة مشتركة في بناء الكلمات، ولاحظوا أيضا وجوه شبه قوية بين العربية والسنسكريتية لإيثارهما منهجا مشتركا في تصريف الكلمات(1).

تطور البحوث المقارنة باكتشاف السنسكريتية:

وقد تطورت البحوث المقارنة تطورا كبيرا بعد أن اكتشف (وليم جونز) اللغة السنسكريتية لقد وجد (جونز) بين هذه اللغة واللغات الأوروبية وجوه شبه قوية جعلته

---

(1) See, D. Bolinger, Aspects of Language, p.p. 27, 28

يدعي أن السنسكريتية هي الأم التي تفرعت عنها هذه اللغات، وأطلق على الأسرة التي تجمع هذه اللغات أسرة اللغات الهندية الأوروبية.

وقد تطورت أيضا البحوث المقارنة التي درست اللغات العربية والعبرية والفينيقية والأكادية والحبشية، ووجد العلماء بين هذه اللغات وجوه شبه قوية جعلتهم يدعون أنها تنتمي جميعا إلى لغة مشتركة هي اللغة السامية الأولى، وأطلقوا على الأسرة التي تجمع هذه اللغات أسرة اللغات السامية.

وقد قسم علماء اللغات كل أسرة من الأسرات السابقة إلى فروع فقسموا أسرة الهندية الأوروبية إلى فروع منها: الفرع الجرماني والسلافي والإيراني والهندي، وبينوا اللغات التي تنتمي إلى كل فرع، فالفرع الجرماني مثلا يضم الألمانية والإنجليزية والدانمركية والسويدية... الخ.

وكذلك أيضا فعل علماء اللغات مع أسرة اللغات السامية فقسموها إلى السامية الجنوبية والسامية الغربية والسامية الشرقية، وقسموا كل مجموعة من هذه المجموعات إلى فروع، فالسامية الجنوبية تضم فرعين هما: العربية والحبشية.. الخ[1].

منهج البحث المقارن:

إن دراسة وجوه الشبه بين كل مجموعة من هذه اللغات قد انتهى إلى أنها تتشعب عن لغة واحدة امتدت فروعها شيئا فشيئا مع الزمن، وقد أصبح في مقدور علم اللغة المقارن أن يعيد بناء هذه اللغة الأم reconstruction إن أعوزته النصوص القديمة التي تنسب إلى هذه اللغة بدراسة الخواص اللغوية التي تتوفر في اللغات التي تفرعت عنها، وبإمكانه أيضا أن يحدد تغيرات معينة خضعت لها لغة ما في مرحلة معينة من مراحل تطورها التاريخي، ومن الواضح أنه ليس من الضروري أن يكون للأشكال أو للتغيرات المقترحة وجود فعلي فهي في

---

(١) انظر: الفصائل اللغوية مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة جـ٢٠، ٢١، ٢٢.

الغالب افتراضية، ولهذا يوضع قبلها علامة نجمة * للتنبيه إلى هذا المضمون(١).

وقد أدرك المقارنون الأوائل أن وجوه التماثل في النظام الصوتي بين اللغات التي تنتمي إلى أسرة واحدة تخضع لقوانين صوتية صارمة، ومن أشهر هذه القوانين قانون (جريم)، وسنعرض لبعض هذه القوانين عند الحديث عن علم اللغة في القرن التاسع عشر.

وقد استعار علماء اللغة المقارنون الطراز المعروف في الطبيعية بـ wave theory ليشرحوا كيف تتطور أشكال الكلام من لهجة إلى لهجة أو من لغة إلى لغة، وكيف تنتشر عبر مناطق واسعة للغات المنتمية إلى أسرة واحدة مثل الموجات التي تنشأ في الماء بعد إلقاء حجر في وسطه(٢).

علاقة علم اللغة المقارن بعلم اللغة الوصفي والتاريخي:

علم اللغة المقارن يعتمد على المنهج الوصفي، لأنه يتطلب القيام بدراسة وصفية مستقلة لكل لغة يتم مقارنتها بلغة أو بلغات أخرى، والدراسة المقارنة هي شكل من أشكال الدراسة التاريخية لأن تشعب اللغة الأم أو الأصل إلى لغات إنما هو تطور تاريخي.

---

(١) انظر: (باى) ماريو أسس علم اللغة ص ١٤٠، ١٧٧.

(2) See, Hartmann and strok, Dictionary of Language and Linguistics

المبحث الرابع
علم الجغرافيا اللغوية (علم اللهجات)

الجغرافية اللغوية Linguistic Geography أو علم اللهجات Dialectology فرع من فروع علم اللغة يعني بتحليل ووصف التنوعات المحلية أو الاجتماعية أو الزمنية للغة معينة مبينا كيف تختلف هذه التنوعات في النطق أو في القواعد (صرفية أو نحوية) أو في المعجم، وكيف تتوزع هذه التنوعات الجغرافية(١).

إن البحوث الشاملة للغات الحديثة والقديمة في أوروبا قد أوضحت أن اللهجات المحلية المتنوعة والتي ينبغي ألا تُعَدّ نقصا أو تشويها للغات الأدبية الفصحى (كما كان يعتقد من قبل) هذه اللهجات تطورت -بشكل ما- تطورا مستقلا، إنها ليست أقل نظاما، إن لها بنيتها ونماذجها الخاصة، ولها نطقها ومعجمها الخاص، إنها ليست أقل ملاءمة كوسيلة للاتصال في المواقف التي تستخدم فيها.

لقد أصبح من الواضح أن الفروق بين اللغات واللهجات ذات الصلة الوثيقة بها في معظمها فروق سياسية وثقافية أكثر منها لغوية، إن ما يعرف باللغات الإنجليزية الفصحى أو الفرنسية الفصحى.. ما هي إلا لهجات أصبح لها من الناحية التاريخية أهمية سياسية وثقافية، وأوضح الأمثلة على ذلك أن لهجة روما والمناطق المحيطة بها قد انتشرت ونمت في الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت اللغة التي يطلق عليها اللاتينية، ليس ثمة شيء ألبتة في بناء اللاتينية نفسها يفسر هذا التطور(٢).

---

(1) Hartmann and stork, Dictionary of Language and Linguistics
(2) See, Lyons, Introduction to theoretical Linguistics, p.p. 34, 35.

وقد ألمحنا من قبل إلى أن علماء اللغة في مطلع القرن العشرين قد قاوموا الاتجاه الذي كان سائدًا في القرن التاسع عشر إلى الدراسة التاريخية الخالصة، ووجهوا الاهتمام إلى دراسة اللغات الحية المعاصرة.

وأكثر جوانب الدراسة اللغوية قيمة وحيوية اليوم دراسة اللهجات أي تنوع الأشكال اللغوية والمقارنة بينها في لغة معينة، وهي دراسة معاصرة أي تدرس اللغة في حالتها الراهنة، والتركيز فيها موجه إلى الكلام المنطوق، بل قد تستبعد الكتابة بالكلية، بل إن اتجاهات جديدة ظهرت تميل إلى العناية بدراسة اللهجات الاجتماعية بعد أن كان الاتجاه العام هو دراسة اللهجات المحلية وتأليف الأطالس(١).

الجغرافية اللغوية وعلم اللغة الجغرافي:

قبل أن يمتد بنا البحث في القضايا والمشكلات التي تتصل بالجغرافية اللغوية نود أن نحدد علاقة هذا العلم بعلم آخر حديث الوجود هو علم اللغة الجغرافي.

وهذا العلم كما يقرر (ماريو باى) يصف بطريقة علمية وموضوعية توزيع اللغات في مناطق العالم المختلفة ليوضح أهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية والثقافية، ويدرس كذلك طرق تفاعل اللغات بعضها مع بعض وكيفية تأثير العامل اللغوي على تطور الثقافة والفكر الوطنيين، ومظاهر تطبيقه الحديثة تبدو -إلى حد كبير- وصفية جغرافية اجتماعية، إن أي لغة تملك عددا من المتكلمين قل أو كثر تتوزع في مناطق مختلفة من العالم ضاقت أو اتسعت، إنها تستعمل في مجال الإنتاج وتسويق البضائع وخلق القيم الثقافية، وهي تحمل -إلى جانب ذلك- نفوذا سياسيا وعسكريا في مناطق معينة، هذه العوامل تبرر القيمة العملية للغة(٢).

والمعلومات المفصلة التي يقدمها علم اللغة الجغرافي على جانب كبير من الأهمية للغويين

---

(1) See, Crystal, Linguistics, p. 158.

(٢) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ٣٧.

المتخصصين وغيرهم. إنه لمن الأهمية بمكان للمتعلم الجامعي -على الأقل- أن يعرف أن البرتغالية تتكلم في البرازيل... وأن الألمانية والروسية -أكثر من الإنجليزية والفرنسية- يمكن أن تستعملا الآن كلغات بديلة في المجر وتشيكوسلوفاكيا.. هذه المعلومات ذات طابع عملي بيد أن لهذا العلم أيضا طابعا علميا، إنه يتناول -في تفصيل- لغات المناطق المتنوعة على وجه الأرض، وكيف يمكن الاستفادة منها أو إحلال غيرها محلها، وماذا تمثل من وجهة النظر العملية للرجل العسكري والموظف الحكومي والباحث العلمي والفني والمبشر وقوات الأمن الدولية ولسرعة تحركات هذه الطبقات ونحوها فإنه لا يكفي أن يعرف الفرد منهم معلومات سريعة عن لغات منطقة معينة، إنهم يجب أن يُلقَّنوا بعض معلومات عن لغات مناطق أخرى ربما تعرضوا للانتقال المفاجئ إليها، وأهم من هذا ضرورة إعداد دراسات مفصلة وعمل إحصاءات عن اللغات والأمية، والمركز التعليمي لمناطق العالم المختلفة، وكذلك إعداد علماء لغة جغرافيين مدربين يمكنهم أن يسايروا التطورات السريعة المتوقعة في هذا الحقل، وهذه المعلومات أكثر فنية مما قد يبدو للنظرية السطحية(١).

وعلم اللغة الجغرافي -وإن كان يستخدم كثيرا من مصطلحات علم اللغة الوصفي والتاريخي- يختلف عنهما في الهدف، لأنه يغطي -بشيء من التفصيل- الوضع الحالي للغات، عاقدا المقارنة بينها على ضوء العوامل الموضوعية الحديثة مثل عدد المتكلمين والتوزيع الجغرافي واحتمالات الاستفادة منها وأهميتها التجارية والعلمية والسياسية... في إطار عالمنا الذي نعيش فيه. ولهذا يرى (ماريو باى) أن هذا العلم ليس تابعا إلا من بعض الجوانب غير المباشرة لعلمي اللغة الوصفي والتاريخي، وأنه يشكل حقلا خاصا بنفسه(٢).

ثم يقرر في موضع آخر أنه من الممكن أن يوصف هذا العلم بأنه التطبيق العملي الحديث لعلم اللغة مبينا أنه بينما يجد علمي اللغة التاريخي والوصفي لا يظفران بغير اهتمام اللغوي

---

(١) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ١٨٦.

(٢) انظر: باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ٦٤، ١٨٦.

المتخصص يظفر علم اللغة الجغرافي باهتمام أي إنسان تتاح له أي فرصة للذهاب إلى خارج بلده، أو لإقامة اتصالات أجنبية أو تشغله الحالة الدولية بوجه عام[1].

ليس إذًا علم اللغة الجغرافي فرعا من علم اللغة الذي يدرس اللغة في ذاتها ولذاتها، ومن ثم ينبغي أن نخرجه من مجالاته، ونضعه في إطار علم اللغة التطبيقي إطاره الصحيح.

علاقة الجغرافيا اللغوية بعلوم اللغة الأخرى:

الباحث في اللهجات عادة ما يستخدم الأصول المقررة في علم اللغة بفروعه (الوصفي والتاريخي والمقارن) فهو يبدأ عادة بدراسة وصفية على محور المكان تقوم على جمع عينات من لغة الخطاب في المنطقة المراد دراستها، ثم بعد ذلك يستخدم الطريقة المقارنة لدراسة الخلافات بين عينات متوازنة من حديث أفراد مختلفين، وأخيرا يصل إلى نتائج تاريخية تتعلق بتغيرات متوازنة ومتعارضة في نظام الحديث المستخدم في مناطق مختلفة وطبقات اجتماعية متباينة، ونظرا إلى أن نتائج البحث في هذا الفرع من الدراسة اللغوية تقدم عادة في صورة سلسلة زمنية فإن هذه الدراسة كثيرا ما تعتبر فرعا من علم اللغة التاريخي ولكن ينبغي ألا ننسى أنها تستخدم طرق الدراسة الوصفية والمقارنة أيضا[2].

وأغلب الباحثين يميلون إلى اعتبار الجغرافية اللغوية أو علم اللهجات فرعا من فروع علم اللغة، بيد أن بعض الباحثين يرى أنها من (علوم الاتصال)، لأنها تستخدم مادة مستقاة من ميدان دراسات أخرى إلى جانب ميادين الدراسات اللغوية الحقيقية، وأهم هذه الميادين التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع، وفي الواقع فإن الجغرافية اللغوية لا تستقي من هذه الميادين فحسب بل إنها تسهم فيها بقدر من المساعدة أيضا، فالأطالس هي في الواقع كنز من

---

(١) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ٣٨.

(٢) بدوي (د.السعيد) محاضرات في علم اللغة ص ٣٤ (مخطوط) وليس من الضروري أن تتم المقارنة بين لغتين، بل يمكن أن تكون بين مرحلتين زمنيتين أو مكانين في لغة واحدة.

المعلومات عن تاريخ الهجرات والتنقلات السكانية وعن العادات والتقاليد الاجتماعية للطوائف المختلفة وغير ذلك من الأمور التي تهم علم الاجتماع[1].

اللهجات الجغرافية والاجتماعية:

وموضوع الجغرافية اللغوية أو علم اللهجات هو دراسة التنوع اللغوي في اللغة الواحدة، وتوصف اللهجة بأنها جغرافية أو محلية إذا استخدمها جماعة من الناس يقيمون في منطقة جغرافية محددة، وتوصف اللهجة بأنها اجتماعية إذا استخدمتها طبقة محددة في إطار الجماعة اللغوية المعينة.

وعلماء اللهجات حين يتحدثون عن لهجات اجتماعية يشيرون إلى عوامل غير جغرافية، وبسبب هذه العوامل قد نجد في لغة المتكلم ظواهر لغوية مشتركة مع ناس آخرين من طبقته الاجتماعية في منطقة جغرافية مختلفة أكثر مما يكون بينه وبين طبقة أخرى في نفس المنطقة[2].

فـ (ا) من الناس ينتمي إلى اللهجة المحلية (ع) باعتبار المنطقة السكنية التي يقطنها، وينتمي إلى اللهجة الاجتماعية (ل) باعتبار المهنة التي ينتمي إليها وهي المحاماة مثلاً، سوف نجد ظواهر لغوية مشتركة بينه وبين غيره من المحامين الذين يقيمون بمناطق أخرى ويتحدثون لهجات محلية أخرى أكثر مما بينه وبين طبقة العمال الذين يقطنون منطقته السكنية وينتمون إلى لهجته المحلية.

لهجة الفرد:

وهناك أيضا ما يسمى بلهجة الفرد Idiolect وهي شكل لغوي يميز فردا عن فرد آخر في جماعة لغوية واحدة.

ومن أهم العوامل المؤثرة في لهجة الفرد العوامل البيولوجية، إذ لا تعمل أعضاء النطق بطريقة واحدة في كل الظروف، ومع العوامل الاجتماعية، إذ إن لكل فرد من أفراد المجتمع

---

(١) بدوى (د. السعيد) محاضرات في علم اللغة ص ٣٤.

(2) Hudson, Socio Linguistics .p.43.

علاقاته الاجتماعية التي يتخذ النشاط اللغوي يأخذ منها وتأخذ منه، يتأثر بها ويؤثر فيها، وكلما اتسع مجال علاقاته اتسع معجمه وتنوعت خصائصه التركيبية، وربما كان الفرد ميالا إلى العزلة فتضيق دائرة اتصاله ومن ثم تقل حصيلته ولا تتنوع أشكاله اللغوية.

اللغة واللهجة:

ومن العقبات التي اعترضت الباحثين في اللهجات صعوبة وضع تفريق حاسم بين اللغة واللهجة، وقد وضعوا لذلك معايير منها:

المعيار السياسي: والقائلون به يفترضون أن كل الأفراد المنتمين إلى دولة معينة يستخدمون لغة محددة واحدة هي التي يَنُصّ عليها دستور الدولة، وقد أبدى اللغويون اعتراضات قوية على هذا المعيار لأننا قد نجد في إطار الدولة الواحدة لغتين أو أكثر، ففي فرنسا مثلا يُتَحدث بالفرنسية والبريتانية وليس من الإنصاف أن يقال أن الذين يتحدثون بالبريتانية في فرنسا يتحدثون بالفرنسية.

معيار التفاهم المشترك: والقائلون به يلاحظون أن التفاهم يتحقق بين الذين يتحدثون لغة واحدة، ولا يتحقق بين الذين يتحدثون لغات مختلفة، وقد تبين للغويين أن هذا المعيار غير دقيق، ومثلوا لذلك بأقاليم يستطيع سكانها التفاهم مع جيرانهم المباشرين الذين يقيمون في الطرف الآخر من الحدود السياسية لوطنهم دون صعوبة تذكر، وهذا هو الحال في مناطق الحدود بين إيطاليا وفرنسا، فسكان هذه المناطق على جانبي الحدود يستطيعون التفاهم فيما بينهم دون صعوبة على حين يجدون صعوبة كبيرة في التفاهم مع مواطنيهم في المناطق البعيدة.

ولعل أفضل الحلول التي اقترحها اللغويون المعاصرون هو الاعتماد على شعور الفرد بالانتماء إلى لغة أو لهجة معينة، فأنا أتكلم العربية لأنني أعد نفسي فردا من جماعة المتكلمين بها، وأتكلم اللهجة القاهرية، لأنني أعد نفسي فردا من المتكلمين بها، ولا تعارض في انتسابي إلى اللغة العربية باعتبار وإلى لهجة القاهرة باعتبار آخر، وأفراد الجماعة التي تعد نفسها متحدثة بلغة معينة أو لهجة خاصة يكون لهم ثقافة واحدة تتمثل في تقاليد ومعتقدات...

مشتركة، كما أنهم يكادون يتحدثون بطريقة متشابهة، إنهم متفقون ضمنا على قدر من الخواص اللغوية، وبعبارة موجزة: لديهم صورة مثالية لما ينبغي أن تكون عليه ثقافتهم ولغتهم، وهم جميعا يحاولون الوصول إلى هذه الصورة المثالية وإن تفاوتوا في ذلك[1].

الحدود الفاصلة بين اللهجات:

وقد برزت مشكلة أخرى أمام علماء اللغة منذ القرن التاسع عشر، مشكلة وضع حدود فاصلة بين اللهجات، وذلك حين نشط البحث في علم الأطالس اللغوية، كان هؤلاء العلماء يدرسون التوزيع الجغرافي للظواهر اللغوية مثل الكلمات المترادفة (أسد وسبع وليث .. الخ) أو صور النطق المختلفة للكلمة (قال وجال وآل) وكانوا يضعون نتائجهم على خرائط تبين الأشكال الموجودة في القرى خاصة، لأن هذه الأشكال كانت تنحو إلى أن تتمركز في القرى، وكان العلماء يتجنبون لهجات المدن لتعقد ظواهرها وتغيرها المستمر، وكانوا يرسمون خطا يفصل المنطقة التي يظهر فيها شكل لغوي معين عن المنطقة التي يظهر فيها شكل آخر، ويعرف هذا الخط بخط التوزيع isogloss.

واكتشف العلماء أن خطوط التوزيع كثيرا ما تتقاطع وهذا معناه أن المنطقة التي تنتشر فيها ظاهرة معينة تختلف عن المنطقة التي تنتشر فيها ظاهرة أخرى، ولكنهم تبينوا أيضا أن بعض الظواهر اللغوية تتماثل خطوط توزيعها، ومن هنا نتبين أن لكل ظاهرة لغوية خط توزيع خاص بها ربما يتقاطع أو يتطابق مع أي ظاهرة لغوية أخرى.

يقول (فندريس): أصبح اليوم من المقرر أن الخصائص اللغوية لا ينسجم بعضها مع بعض من حيث التوزيع، وبعبارة أخرى إن الخطوط التي تفصل بين خاصية وأخرى ليست هي نفس الخطوط التي تفصل بين خاصيتين أخريين، ويكفينا للتحقق مما نقول أن نرجع إلى إحدى الخرائط اللغوية لاستيضاحها، فأطلس فرنسا اللغوي يعطينا عن كل حالة حدودا

---

(١) انظر كتابي (مدخل إلى اللغة) ص ٢٢٠ - ٢٢٨.

مختلفة[1].

ولعل هذا هو ما جعل بعض اللغويين يذهب إلى أن اللهجات لا وجود لها يقول (ماريو باى): إن كان من الممكن أن تصنف اللهجات إلى وحدات كبيرة على أساس من سماتها العامة فإن البحث الدقيق قد أثبت أن مثل هذا التصنيف -على الرغم من فائدته- من صنع الخيال إلى درجة كبيرة[2].

ولكننا نجد لغويين آخرين يعترفون بوجود اللهجات على أساس السمات المشتركة يقول (مييه): من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات كلما رأينا عددا كبيرا من الخطوط التي تفصل بين الخصائص ينطبق بعضها على بعض ولو بشكل تقريبي، فهناك لهجة محددة في كل منطقة يُلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة، وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين فإنه يبقى أن كلا منهما تتميز في مجموعها ببعض السمات الخاصة التي لا توجد في الأخرى[3].

اللهجات إذًا موجودة مادامت السمات العامة موجودة، والخط الفاصل بين لهجة وأخرى ممكن إذا كانت عدد خطوط التوزيع المتطابقة للظواهر اللغوية أكبر من عدد الخطوط المتقاطعة.

الأطلس اللغوي:

يعرف الأطلس بأنه مجموعة من الخرائط واللوحات توضح التوزيع الجغرافي للخصائص الصوتية أو النحوية أو المعجمية للغة أو لهجة أو لكليهما، ويجمع مادته باحثون مدربون تدريبا ميدانيا من رواة مختارين بعناية من بين المتحدثين باللغة أو اللهجة المدروسة من خلال الأحاديث العادية أو الإجابة عن أسئلة أو الاستعانة بأشرطة التسجيل، ثم تسجل

---

(١) فندريس: اللغة ترجمة عبد الحميد الدواخلي ص ٣١٠.

(٢) أسس علم اللغة ص ٦٩.

(٣) فندريس: اللغة ص ٣١٢.

هذه البيانات على خرائط وتنشر في كتاب[1].

والأطلس اللغوي -كما واضح من التعريف- قد يكون أطلس لغات يُعْنَى بتوزيع اللغات والفصائل توزيعا جغرافيا على منطقة أو أكثر من الكرة الأرضية، وقد يكون أطلس لهجات يُعْنَى بتوزيع الظواهر اللهجية للغة معينة في منطقة معينة.

وأطالس اللغات لا تتطلب في كثير من الأحيان عملا ميدانيا يستلزم منهجا خاصا إذا استثنينا دراسة بعض حالات التماس اللغوي Language in contact.

ولهذا فإن هذه الأطالس عادة أقل تعقيدا وأسهل انجازا حتى في هذه الحالة الأخيرة، أما أطالس اللهجات فهي التي تحتاج حقا إلى عمل ميداني معتمد على منهج خاص يتجه وجهتين الأولى: جمع المادة والثانية إنجاز الخرائط وتوزيع الخصائص اللهجية على الرسوم التوضيحية بأنواعها المختلفة[2].

ومن الواضح أن الباحث اللغوي حين يجمع مادته من الرواة ويسجلها في الخرائط يقوم بعمل لغوي وصفي قائم على تسجيل الواقع اللغوي تسجيلا أمينا، كما أن موضوع الأطلس ليس مقصورا على الناحية اللغوية بل يُستعان به على الدراسات الاجتماعية والتاريخية على أساس أمتن وأشمل.

وقد بدأ العمل في الأطالس في النصف الثاني من القرن الماضي في بعض الخرائط التي أنجزها (فنكر) الألماني، فيما يعرف بين الباحثين بالأطلس الألماني، وخلاصة منهجه أنه ألف أربعين جملة تمثل أهم ما يجري على ألسنة الناس في حياتهم اليومية من كلام مثل (تسقط أوراق الشجر في الشتاء وتتناثر في الهواء) و (ضَعْ شيئا من الفحم في الفرن حتى يغلي اللبن). وطبعها في شكل استمارة بها بيانات خاصة تتصل بالجهة التي سمعت فيها الظاهرة المدروسة وبالراوي الذي نقلت عنه وبالمسجل الذي سمعها ودونها (مع تحديد اسم الراوي وسنه

(1) Hartmann and stork, Dictionary of Language and Linguistics

(٢) انظر: (د. سعد) عن مناهج العمل في الأطالس اللغوية ص ١٠٧، ١٠٨.

ومهنته ومحل ميلاده وكذلك المسجل).

وقد أرسلت نسخ من الاستمارة المذكورة المشتملة على الجمل الأربعين إلى جهات ألمانية ظلت تزداد شيئا فشيئا حتى بلغت في النهاية خمسين ألف جهة.. أما المسجلون الذين سمعوا اللهجات من أفواه الرواة ودونوها فكانوا في معظم الأحيان من معلمي المدارس الأولية نظرا لمعرفتهم بأحوال القرى التي ينزلون فيها، واتصالهم بأهلها عن كثب ثم لثقافتهم التي أهلتهم لتسجيل النطق وتصويره تصويرا قائما على أساس وإحساس لغوى لا بأس بهما ولا غبار عليهما في معظم الحالات.

وبعد أن تجمع هذه الإجابات يبدأ بعمل خريطة لكل لفظ على حدة، وذلك بأن تفرغ أولًا صورة اللفظ وصيغه ومترادفاته على خرائط تفصيلية تشتمل على بلاد الإقليم جميعها، ثم تحدد عليها المناطق اللغوية المختلفة، وبعد ذلك ترسم الخريطة على ضوء الخرائط المفصلة بل على أساسها، ويبين على هذه الخريطة العامة الحدود النهائية للمناطق اللغوية على وجه الإجمال[1].

وقد دونت الجمل المذكورة حسب قواعد الإملاء العادية وكانت طبيعتها أميل إلى كشف بعض الفروق الفونولوجية بين حوالي أربعين ألف لهجة، أما الفروق الصرفية والمعجمية فلم تحظ بعناية كبيرة.. ولم يكن المسجلون الذين دونوا الجمل المذكورة من ذوي الخبرة والاختصاص في الدراسة اللغوية .. ومع هذه المآخذ فقد كان لهذا الأطلس قيمة عظيمة من حيث إنه كان بداية العمل في هذا المجال الجديد.

أما الأطلس الفرنسي فقد كان أسعد حظا فقد نشر كاملا، وقد أعده (جيرون) وقام بالجمع (أدمون) وكان عالما صوتيا مدربا.

أما طريقة هذا الأطلس وهي الطريقة السائدة الآن في عمل الأطالس فخلاصتها أن تعمل خريطة للإقليم المراد عمل أطلس له وتُنْتَخَب منه قرى وبلاد يلاحظ في كل منها أن

---

(١) عساكر (د. خليل) الأطلس اللغوي ص ٣٨١ - ٣٨٢.

تمثل إلى حد ما البيئة اللغوية التي توجد البلدة أو القرية فيها، وكان عدد النقاط التي تم الجمع منها ٦٣٩ نقطة في مقابل ما يقرب من خمسين ألف في الأطلس الألماني.

وقد تم الجمع وفقا لكتاب خاص يعرف بكتاب الأسئلة يتضمن ما يقرب من ألفي سؤال يُتَوَخَّى فيها أن تكون شاملة لأهم الأشياء التي تشاهد في الريف والمدينة، ولأكثر الألفاظ شيوعا في الحياة اليومية، كما يتوخى فيها أن تكون الإجابة عنها بكلمة واحدة في أغلب الأحيان كأسماء الأهل والأقارب وأعضاء البدن وأسماء الصناعات والأعداد والظواهر الجوية.. الخ.

أما الراوي اللغوي الذي توجه إليه الأسئلة فيجب أن يراعى فيه أن يكون من صميم أبناء البلدة التي يعيش فيها، وألا يكون قد نزح عنها ثم عاد إليها، وأن يكون صريحا صادقا مخلصا في إجاباته، وأن تكون مخارج حروفه سليمة، وأن يكون تام القدرة على فهم السؤال والتعبير عن نفسه وعلى إدراك المراد..[1].

والمادة المجموعة للأطلس مدونة بالرموز الصوتية الدولية، وقد كانت معطياتها الصوتية والمعجمية أوفر من نظيرتها في الأطلس الألماني، كما أن الباحث الذي قام بالجمع كان على درجة عالية من الكفاءة، وقد أُخذ عليه قلة عدد النقاط المختارة للجمع، ومع ذلك صار الأطلس الفرنسي مثلًا يُحْتَذَى من حيث أسسه العامة في كثير من المشروعات اللاحقة بسبب ما استطاع تحقيقه من مستوى مرض من حيث الدقة في الجمع والتسجيل[2].

وقد كان الأطلس الفرنسي هو المثل الذي احتذاه المشرفون على الأطلس الإيطالي من حيث الجمع المباشر الذي قام به ثلاثة من اللغويين المدربين معتمدين على كراسة الاستفتاء الموضوعة بعناية ودقة والمبوبة تبويبا شاملا يتناول أهم ما يتصل بالحياة اليومية من ألفاظ، ولكن اللغويين الإيطاليين أضافوا بعدا جديدًا في عملية الجمع؛ إذ حاولوا إرساء مبادئ

---

(١) انظر: عساكر (د. خليل) الأطلس اللغوي ص ٣٨٣.

(٢) انظر مصلوح (د. سعد) عن مناهج العمل في الأطلس اللغوية ص ١١١، ١١٢.

يفسرون بها تعقد الظاهرة اللغوية، فأرادوا أن يصوروا إلى جانب اللهجات المحلية Local Dialect جانبا من اللهجات الاجتماعية Social Dialect، ولذلك نلحظ أن هذا الأطلس أولى اهتماما أكبر لمظاهر الاختلاف في الثقافة التي تصاحب الاختلاف في اللهجة، وكانت وسيلته إلى ذلك أن ينتقي من كل نقطة راوين يمثل كل منهما مستوى ثقافيا خاصا.

وقد نشر الأطلس الإيطالي فيما بين عام ١٩٢٨ و ١٩٤٠م في ستة عشر مجلدا[١].

أما منهج العمل الميداني في الأطلس الأمريكي -كما يقول الدكتور سعد مصلوح- فحصيلة التجارب المستفادة من الأطالس السابقة، فهو ثمرة لهذه العوامل والجهود جميعا. وقد قام بعملية الجمع تسعة من الباحثين تلقوا تدريبا ميدانيا على يد (يعقوب يود) محرر الأطلس الإيطالي، وكانت المادة المجموعة مسجلة بالرموز الصوتية الدولية مع إضافة عدد من العلامات اقتضاها التسجيل.

وقد بلغ الرواة ٤١٦ راويا، وقد حرص الأطلس عند اختيارهم أن يمثلوا فئات المجتمع تمثيلا صحيحا، فكان ينتخب في معظم الأحوال ثلاثة من الرواة يختلفون فيما بينهم سنا وثقافة.

والنظرة الاجتماعية واضحة في الأطلس الأمريكي، فقد آمن محرروه بتعقد الظاهرة اللغوية إيمانا عظيما.

وكان الباحثون يسجلون مشاهداتهم الخاصة وملاحظاتهم على المتكلم والبيئة والتقاليد والعادات السائدة فيها، وكل ما يستأنس به في التحليل العلمي للنص اللغوي المسجل، كما كانوا يشيرون إلى ما كان يبديه الراوي من ملاحظات على الصيغة اللغوية من حيث ندرتها أو استعمالها في مواقف خاصة أو غير ذلك من الأمور التي تخدم تقييم الصيغة، هذا إلى جانب وصف العوامل المحيطة كالطقس الطبوغرافي والحياة الحيوانية والنباتية تلك التي تؤثر على اللهجات في منطقة ما.

---

(١) مصلوح (د. سعد) عن مناهج البحث في الأطالس اللغوية ص ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥.

وقد تعرض الأطلس الأمريكي -على الرغم مما بذل فيه من جهد- لنقد شديد وبخاصة ما يتصل بالجانب الاجتماعي الذي أولاه عناية كبيرة، وبالمدة الطويلة التي استغرقها إعداده حتى ظهرت أجزاؤه الأولى إذ بلغت نحو سبعة وعشرين عاما تقدمت فيها أساليب الدراسة الاجتماعية واختلفت في أثنائها نظرة المجتمع الأمريكي إلى الحياة، وببعض التفسيرات الانطباعية لبعض الصيغ اللغوية والفروق بين اللهجات(١).

وبتقدم العلوم الاجتماعية وباستخدام الإحصاء تطورت كثيرا الأساليب المستخدمة في إعداد كراسة الاستفتاء اللغوي، كما وضعت صورة للراوي اللغوي أقرب إلى تمثيل الواقع اللغوي من الصورة التي وضعها أصحاب الأطالس الرواد، وقد تحدثنا في المبحث الأول من الباب الأول من هذا الكتاب في هذا الموضوع.

---

(١) مصلوح (د. سعد) عن مناهج البحث في الأطالس اللغوية ص ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥.

المبحث الخامس

علم اللغة العام

يضم علم اللغة العام General Linguistics كل فروع البحث اللغوي التي تزودنا بالمفاهيم الأساسية والنظريات والطرز والمناهج، وهو -عادة- يشكل مبادئ الوصف والتحليل في مجال البحث في الفونولوجيا والقواعد (النحو والصرف) والمعجم والرموز الهجائية، كما يعني أيضا بالبحوث التاريخية والمقارنة والبحوث اللهجية والتطبيقية(١).

وعلى هذا فعلم اللغة العام هو العلم الذي يقدم لنا النظرية التي تفسر اللغة الإنسانية، ويقدم إلينا المناهج التي نستخدمها، وكثيرا ما يكتفي الباحثون بالعبارة (علم اللغة Linguistics) ويريدون بها (علم اللغة العام).

والأساس النظري لهذا العلم هو أن اللغة ظاهرة إنسانية تستخدمها كل المجتمعات لأداء وظائف محددة، وبناء هذه اللغات يتألف -بشكل عام- من أصوات تنتظم في كلمات، والكلمات تتألف منها جمل، والبشر أجمعون يستخدمون لغاتهم في التعبير عن أفكارهم أو رغباتهم أو توصيلها إلى الغير وفي قضاء الحاجات والمصالح.

وعلم اللغة العام يهدف إلى وضع نظرية في اللغة، ونظرا لهذه الطبيعة النظرية أطلق عليه بعض الباحثين (علم اللغة النظري Theoretical Linguistics).

وقد فُهم علم اللغة العام -غالبا- على أنه يعني علم اللغة الوصفي، على اعتبار أنه -بالمعنى الواسع- أي دراسة تلاحظ وتحلل الخواص الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو المعجمية للغة، وإن كان العلماء الآن يحرصون على التفريق بينهما.

---

(1) See, Hartmann and stork, Dictionary of Language and Linguistics

وعلم اللغة العام يعتمد في وضع نظرياته ومناهجه على ما تصل إليه علوم اللغة المختلفة، والعلوم اللغوية هي الأخرى تعتمد على نظرياته ومناهجه.

فعلم اللغة الوصفي -كما سبق القول- يهدف إلى وصف اللغة المدروسة وصفا علميا دقيقا، وهو في سبيل ذلك يعتمد على نظرية في اللغة، وعلم اللغة العام يستفيد من الحقائق التي ينتهي إليها علم اللغة الوصفي، وهكذا الأمر بالنسبة إلى علم اللغة التاريخي والمقارن.

وفي هذا المجال يقرر (دينين) أن التفاعل بين علم اللغة الوصفي والتاريخي والمقارن سوف ينجم عنه نظرية لغوية عامة قد يستخدمها علم اللغة التطبيقي في مجالاته المتنوعة، إن اللغوي الوصفي -دون معرفة بنظرية لغوية- لن يكون في موقع مناسب لكي يختار وحدات الوصف بذكاء واقتدار ... كما أن النظرية اللغوية التي يهدف إليها عالم اللغة النظري سوف تكون نتيجة خبرة واسعة في علم اللغة الوصفي والتاريخي والتطبيقي(١).

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.3

المبحث السادس

الفيلولوجيا وعلم اللغة

أولا: عند الغربيين:

سبق أن قلنا إن علم اللغة Linguistics هو الدراسة العلمية للغة، وإنه بهذا التعريف قد كان من آثار العالم السويسري (دي سوسير) الذي قرر أن موضوعه هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها. غير أن مفهوم هذا المصطلح Linguistics يختلط بمفهوم مصطلح آخر أقدم منه استعمالا في مجال دراسة اللغة هو (الفيلولوجيا) Philology الذي قد يرادفه عند بعض الباحثين، ومن هنا فالحاجة ماسة إلى بيان الفرق بين المصطلحين، وهذا يقتضي بدوره أن نعود إلى الماضي البعيد لنستكشف هذا الفرق.

كانت حضارة الإغريق والرومان هما دعامتا النهضة الأوروبية، وكان الأوربيون يرون أن نهضتها لم تكن إلا ميلادا أو بعثا جديدا لتراث اليونان الذي تمثل في فلسفتهم وفي دراستهم اللغوية، وتراث الرومان في القانون والإدارة وفي الدراسات اللغوية التي كتبت باللاتينية لغة الإمبراطورية الرومانية.

ولا جرم وهاتان اللغتان بهذه الأهمية أن تنصرف الهمم إلى إحياء دراستهما ونقد ما جاء من نصوص قديمة نقدا لغويا في طابعه، وأصبحت هذه الدراسات الشارحة والناقدة للنصوص القديمة باللغتين المذكورتين تعرف باسم (الفيلولوجيا) Philology وبهذا المعنى أصبح لفظ (الفيلولوجيا) يعني دراسة النصوص القديمة من حيث القاعدة ومعاني المفردات وما يتصل بذلك من شروح ونقد وإشارات تاريخية وجغرافية.. إلخ وكان عنصر (القِدم) من

أهم العناصر التي يتكون منها معنى الفيلولوجيا[1].

وفي نهاية القرن الثامن عشر اكتشف أن السنسكريتية لغة الهند القديمة المقدسة لها علاقة لغوية باللاتينية وبلغات أخرى في أوربا، وقد اكتشف هذه العلاقة عدد من الباحثين، بيد أن السير (وليم جونز) كان أكثرهم تأثيرا، إذ أعلن هذه الحقيقة عام (١٧٨٦م) حيث قال: إن اليونانية واللاتينية بينهما صلة وثيقة في جذور الأفعال وفي الصيغ النحوية بحيث لا يمكن أن نعزو هذه القرابة إلى مجرد الصدفة، ولا يسع أي (لغوي Philologer) بعد تفحصه هذه اللغات إلا أن يعترف بأنها تتفرع من أصل مشترك لم يعد له وجود .. وقرب نهاية القرن التاسع عشر كانت قد توفرت للباحثين معلومات كافية عن لغات كثيرة ذات بنية مختلفة ليدركوا في الحال أن وجوه الشبه الملحوظة بين اللغات الكلاسيكية في أوربا والسنسكريتية واضحة جدًّا بحيث لا تحتاج إلى توضيح[2].

ومنذ هذا التاريخ بدأ يظهر ما يسمى Comparative Philology (الفيلولوجيا المقارنة). وكانت دراسة السنسكريتية وعلاقتها باللغات الهندية الأوربية تعتمد على النصوص المكتوبة، ومن هنا عُنِي الفيلولوجيون بتحقيق هذه النصوص وشرحها والمقارنة بينها.

وهكذا يمكن أن يقال إن (الفيلولوجيا) كانت تعني أمرين:

١ . الدراسة المقارنة للغات.

٢ . تحقيق النصوص وشرحها.

ونظرًا لأن دراسة النصوص القديمة -وقد كانت معظمها ذات مكانة أدبية ممتازة- كان يتطلب معارف كثيرة تتصل بتاريخ الشعب وثقافته وبالعلوم والفنون التي يتدعها وما إلى ذلك مما يساعد في توثيق النصوص وشرحها، فإن الفيلولوجي كان يدرس هذه الموضوعات

---

(١) انظر: حسان (د. تمام) الأصول ص ٢٥٢.

(2) See, Lyons, Introduction to theoretical Linguistics, p. 24.

أيضا، ولذلك فهمت الفيلولوجيا على أنها تعني -بالإضافة إلى ما سبق- دراسة الأدب والحضارة.

يقول (روبنز): وربما جاز أن نعد اصطلاح philology بهذا الاستعمال مناسبا لما يربط بين علم اللغة باعتباره علما وبين الدراسات الجمالية والإنسانية للأدب وللميدان الذي يعتمد فيه مؤرخ مظاهر الحضارة المختلفة على نتائج عالم اللغة في فهم النصوص والنقوش وفي وضع أسس معتمدة من المخطوطات والوثائق والمواد لتكون دعامة لدراسته، والصلة بين علم اللغة والفيلولوجيا بهذا المعنى قريبة جدًّا وكثيرا ما يتلاقى ميدانهما(١).

وفي التفريق بين مجال علم اللغة والفيلولوجيا يقول (ماريو باى) إن موضوع الفيلولوجيا philology لا يختص بدراسة اللغات فقط، ولكنه يجمع إلى ذلك دراسات تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبي للغات موضوع الدراسة، أما علم اللغة Linguistics فيركز على اللغة نفسها، ولكن مع إشارات عابرة أحيانا إلى قيم ثقافية وتاريخية، ويُولي علم اللغة معظم اهتمامه إلى اللغة المتكلمة، وإن كان يوجه كذلك إلى اللغة المكتوبة شيئا من الاهتمام(٢).

الفيلولوجيا وعلم اللغة المقارن:

ينظر علماء اللغة المعاصرون إلى علم اللغة المقارن على أنه تطور للفيلولوجيا المقارنة، ولهذا قال (هارتمان وستورك) إن الفيلولوجيا هي المصطلح القديم لعلم اللغة المقارن(٣).

ولا شك في أن علم اللغة المقارن (وهو فرع من علم اللغة كما ذكرنا من قبل) قد تقدم كثيرا عما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر، ومع ذلك فهو يعتمد في الأساس على المبادئ التي أعلنها الفيلولوجيون آنذاك، وفي هذا المجال يقول (ليونز): أن علم اللغة المقارن Comparative Linguistic كفرع من علم اللغة العام علم تفسيري، إنه يهدف إلى شرح

---

(1) Robins, General Linguistics, An Introduction silvery, p.p. 6, 7

(٢) باى (ماريو) أسس علم اللغة ص ٣٥.

(3) Hartmann and stork, Dictionary of Language and Linguistics.

المقولة التي مؤداها أن اللغات تتغير، وأن اللغات مختلفة قد يكون بينهـا صـلات قرابـة عـلى درجات متفاوتة، وإن التغيرات التي تخضع لها اللغات ودرجات القرابة المتعددة بينها تفسر على ضوء فروض (مماثلة لأي فروض علمية) قابلة للفحص والاختبار نتيجة لظهـور دليـل جديد أو تبني منهج جديد في النظرة إلى الموضوع أو إعادة تنظيمه، ونحن الآن نقدم تفسيرا مختلفا للمصطلح تطور evolution عن التفسير الـذي قدمـه علـماء القـرن التاسـع عـشر، ونفهم المصطلحات الآتية: القانون الصوتي sound law، وإعادة البنـاء reconstruction والقياس analogy، فهما مختلفا، ولدينا إدراك أكثر وضوحا من أسلافنا بأن التغـير اللغـوي ليس -ببساطة- نتيجة لمرور الزمن بل إنه كذلك نتيجة لظروف اجتماعية وجغرافية، ونحـن نسلـم كذلك بأن اللغات يمكن -تحت ظروف محددة- أن تتقارب وتتباعد بمـرور الوقـت، ومع هذا فلا تعديل من هذه التعديلات التي قدمها علم اللغة المقارن كافٍ لأن يلغـي تمامـا المناهج أو النتائج التي قدمها علم اللغة المقارن في المرحلة القديمة(١).

تأثير الفيلولوجيا في نشأة علم اللغة الحديث:

لقد ظهر لنا من الفقرات السابقة أن النتائج التي انتهى إليهـا الفيلولوجيـون في القـرن التاسع عشر كانت الأساس الذي انبنى عليه صرح علم اللغة الحديث، ويلاحظ الدكتور تمام حسان أن الفيلولوجيا كانت الأصل الذي تفرع عنه علم اللغة Linguistics في أوربـا وأن الأنثروبولوجيا كانت الأصل بالنسبة للدراسات اللغوية الأمريكية، وهو يرى أن المقالة التي أعلنها (وليام جونز) بشأن العلاقات التركيبية بين السنسكريتية واللغات الأوربيـة القديمـة هي التي آذنت بظهور علم اللغة الحديث، غير أنه يقرر أن الفيلولوجيا التي أصبحت فيما بعد (علم اللغة) اتجهت اتجاها آخر لم يقنع الدارسون فيه بالنصوص القديمة والوثائق فقـط، ولم يصبحوا مرتبطين بالقدم فحسب، وإنما حولوا "تحليل النصوص" إلى "مقارنـة الظـواهر، ثـم تخطوا الظواهر التاريخية بأن ضموا إليها وصف الأنظمة القائمة باللغات الحية، وهكذا كانت

---

(1) Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics. P.p. 34, 35.

نشأة علم اللغة من منطلق (الفيلولوجيا)، ولكن علم اللغة وإن لم يتحلل تماما من فكرة "القدم" أو فكرة "المقارنة" فقد أضاف إليهما فكرتي "المعاصرة" و"الوصف" ووضع القِدم والمعاصرة جنبا إلى جنب، وخصص لكل منهما منهجا، فالقدم Diachronic يدرس بمنهج تطور تاريخي والمعاصرة Synchronic تدرس بمنهج وصفي Descriptive أشبه ما يكون بمناهج العلوم الطبيعية(١).

الفيلولوجيا وعلم اللغة في الوقت الحاضر:

من الباحثين الغربيين من يسوي بينهما وهم الأكثرية، بيد أن منهم من يوجب الفصل، وفي هذا المجال يستشهد الدكتور محمد أبو الفرج بما أعلنه (ألن) في محاضراته التي ألقاها عام ١٩٥٧م، من وجوب التفريق بينهما يقول: إن التفريق بين الاصطلاحين واجب للتفريق بين دراسة اللغة كوسيلة ودراستها كغاية في ذاتها(٢)، ومؤدى هذا أن الفيلولوجيا تصل من دراسة اللغة إلى غايات كالتعرف على حضارة الشعب الذي يستخدمها أو آدابه أو تاريخه.. الخ.

أما علم اللغة فيدرس اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها يقول الدكتور أبو الفرج: إن إشارة الأستاذ (ألن) السابقة إلى الحاجة إلى الاصطلاح (علم اللغة) إنما جاءت لتوضيح التركيز على التركيب اللغوي دون غيره كأساس للفرق بين الاثنين، وذلك واضح في وصف philology بأنه مقارن، أما علم اللغة فهو تركيبي أو شكلي يعني بالشكل فقط ولا يعني بما حول اللغة أو ما يتصل بالشكل اللغوي، ولعل هذا يلخص في التركيز على لفظ Science في عبارة علم اللغة(٣).

---

(١) حسان (د. تمام) الأصول ص ٢٣٥.

(٢) أبو الفرج (د. محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ١٧.

(٣) أبو الفرج (د. محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ١٨.

ثانيا: علاقة الفيلولوجيا وعلم اللغة
بالبحث اللغوي عند العرب

لكي أوضح علاقة (الفيلولوجيا philology أو ما عرف بفقه اللغة) و(علم اللغة Linguistics) بالبحث اللغوي عند العرب وجدت من الضروري أن نتعرف على ما يقابل هذين المصطلحين في العربية، وأن نحدد المقصود منهما، وقد اقتضى هذا أن أرجع إلى بداية البحث اللغوي عند العرب ثم أعود مرة أخرى إلى الوقت الحاضر، وقد تطلب الأمر كذلك الحديث عن بعض المصطلحات العربية التي تتصل بهذين المصطلحين كالحديث عن (العربية وعلم العربية) إلا أن اهتمامنا سيكون اهتماما عرضيا.

اللغة وعلم اللغة (قديما):

يطلق مصطلح (اللغة) ويراد به العلم الذي يختص بمفردات اللغة بجمعها وتصنيفها وبيان معانيها أو موضوعاتها، وبخاصة الغريب منها، وكانت كتب الطبقات تميز بين المشتغلين بالنحو أو العربية من جانب والمشتغلين باللغة من جانب آخر، فهم يعدون ابن أبي إسحق ويونس وسيبويه وأضرابهم من النحويين، على حين يعدون الأصمعي وابن الأعرابي والشيباني وأضرابهم من اللغويين.

يقول ابن الأنباري: برز من أصحاب الخليل أربعة: عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه، والنضر بن شميل، وعلي بن نصر الجهضمي ومؤرج السدوسي، وكان أبرعهم في النحو سيبويه، وغلب على النضر اللغة، وعلى مؤرج الشعر واللغة، وعلى الجضهمي الحديث[1].

ويقول في أبي عمرو: هو العلم المشهور في علم القراءة واللغة والعربية[2].

---

(١) ابن الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٦٢، ٢٤.

(٢) ابن الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٦٢، ٢٤.

وهكذا يبدو لنا أن (اللغة) غيرُ النحو أو العربية، وقد كان ذلك معروفا بين القدماء، ثم جاء الخالفون فزادوا الأمر وضوحا حين فرقوا بين عمل اللغوي والنحوي يقول عبد اللطيف البغدادي: اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه، ومثالهما: المحدث والفقيه فشأن المحدث نقل الحديث برمته، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علله ويقيس عليه الأمثال والأشباه[1].

أما مصطلح (علم اللغة) فقد أطلق قديمًا على العلم الذي يدرس مفردات اللغة على النحو السابق في مصطلح (اللغة) وهو لذلك مرادف له.

وقد كتب ابن خلدون في مقدمته فصلا في علوم اللسان العربي (علم النحو، وعلم اللغة، وعلم البيان، وعلم الأدب) وقال في تعريف (علم اللغة): هو بيان الموضوعات اللغوية (أي معاني المفردات) ثم يذكر أن الفساد في موضوعات الألفاظ قد وقع بعد فساد الألسنة في الإعراب، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، ثم يذكر أن الخليل كان سابق الحلبة في ذلك فألف كتاب (العين) ثم جاء من بعده كالزبيدي والجوهري والزمخشري فوضعوا المعاجم[2].

ويقول أبو حيان في الفرق بينه وبين النحو: والفرق بين علم النحو وبين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كلية، وموضوع علم اللغة أشياء جزئية، وقد اشتركا معا في الوضع[3].

ويقصد بالأمور الكلية التراكيب وبالأمور الجزئية المفردات، وفي ذلك أيضا يقول

---

(١) السيوطي: المزهر ١/ ٥٩.

(٢) انظر: ابن خلدون: المقدمة ص ٥١٦ – ٥١٩.

(٣) السيوطي: المزهر ١/ ٤٣.

الزركشي: لم يتكلم أهل اللغة في المركبات ولا في تأليفها، وإنما تكلموا في وضع المفردات، وما ذاك إلا لأن الأمر موكول فيها إلى المتكلم بها[1].

وقد يضاف أحيانا كلمة (متن) إلى اللغة فيقال (متن اللغة) ويراد بهما ما يراد من مصطلح (اللغة) من البحث في المفردات.

ومما سبق نتبين أن (اللغة وعلم اللغة ومتن اللغة) مصطلحات مترادفة تعني البحث في المفردات من حيث جمعها وتصنيفها وبيان معانيها، وأنها تختلف في ذلك عن النحو أو العربية الذي موضوعه التراكيب.

العربية وعلم اللغة:

ومن المناسب هنا أن نتحدث عن مصطلح (العربية) الذي تردد ذكره آنفًا لنبين المقصود به.

يشيع استخدام مصطلح (العربية) مرادا به (النحو) فقد قيل عن أبي الأسود إنه كان أول من أسس العربية، وفتح بابها وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، ثم قيل في سبب ذلك: وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقية ولم تكن نحوية فكان سراةُ الناس يلحنون ووجوهُ الناس[2].

ويقول المبرد عن قراءة من قرأ (معائش) بالهمز.. إنما أخذت عن نافع بن نعيم ولم يكن يدري ما العربية، وله أحرف يقرأها لحنا نحوا من هذا[3].

ويبدو أن الكلمة كانت معروفة متداولة بين النحاة الأوائل، قال ابن نوفل: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عما وضعت مما سميت عربية! أيدخل فيه كلامُ العرب كله؟ فقال لا فقلت كيف تصنع فيما خالفتك فيه العربُ وهم حجة، فقال أحمل على الأكثر

---

(١) السيوطي: المزهر ١/ ٤٣.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ١٢.

(٣) المبرد: المقتضب ١/ ٣٠٧.

وأسمي ما خالفني لغات[1].

ويفسر أبو حيان ما يعنيه هذا المصطلح بقوله في معرض الدفاع عن نافع في همزه (معائش): ولو فرضنا أنه لا يدري ما العربية: وهي هذه الصناعة التي يتوصل بها إلى التكلم بلسان العرب فهو لا يلزمه ذلك إذ هو فصيح متكلم ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء، وكثيرون من هؤلاء النحاة يسيئون الظن بالقراء ولا يجوز لهم ذلك[2].

ويرادف المصطلح السابق مصطلح (علم العربية) يقول ابن فارس: وكذلك الحاجة إلى علم العربية فإن الإعراب هو الفارق بين المعاني، ألا ترى أن القائل إذا قال: "ما أحسن زيد" لم يفرق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب[3].

علم اللغة حديثًا:

يرى الدكتور كمال بشر أن بعض الباحثين المحدثين ما يزالون يستخدمون مصطلح اللغة وعلم اللغة ومتن اللغة بالمعنى القديم غير ناظرين إلى ما يستتبعه هذا الاستعمال من غموض وما ينطوي عليه من تساهل ويضرب المثل على ذلك بكتاب (أطوار الثقافة للأستاذ على الجندي وزملائه)[4].

ومع ما سبق نذكر أن أغلب الباحثين اليوم يستخدم مصطلح (علم اللغة) ليعني ما يعنيه المصطلح Linguistics، إن علم اللغة اليوم أصبح يعني مجالا أوسع مما كان يعنيه قديما من البحث في المفردات، وأصبح له منهج مخالف لمنهج القدماء في الدراسة، إنه يعني الدراسة العلمية للغة أي الدراسة التي تستخدم المنهج العلمي في دراسة الموضوع، وموضوع هذا العلم هو: اللغة بجوانبها المتعددة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية.

---

(١) السيوطي: المزهر ١/ ١٨٤، ١٨٥.

(٢) أبو حيان: البحر المحيط ٤/ ٢٧١.

(٣) ابن فارس: الصاحبي ص ٥٥.

(٤) بشر: (د. كمال) دراسات في علم اللغة ص ٣٩.

ولهذا لا يجيز الدكتور بشر إطلاق هذا المصطلح الآن على هذه الدراسة الجزئية (دراسة المفردات)، لأنه أصبح الآن ذا مفهوم واسع شامل يضم كل فروع البحث اللغوي من جوانبها كلها والتي أشرنا إليها آنفًا(١).

وكان المصطلح الذي اختير أول الأمر ليشير إلى الدراسات اللغوية الحديثة المعروفة الآن بعلم اللغة هو مصطلح (فقه اللغة) ثم بدأ الباحثون يتخلون عنه وإن لم يتفقوا على اسم لها بيد أن أكثرها انتشارا وهو المصطلح الغالب هو (علم اللغة)(٢).

فقه اللغة (قديما):

ظهر هذا المصطلح قديما عنوانا لكتابين أولهما لابن فارس (المتوفى ٣٩٥هـ) وهو (الصاحبي في فقه اللغة وسَنَن العرب في كلامها) والثاني للثعالبي (المتوفى ٤٢٩هـ) وهو (فقه اللغة وسر العربية).

ويجزم بعض الباحثين بأن ابن فارس هو أول من أطلق هذه التسمية، إذ لو سبقه إليها سابق لما أغفلها رجال الطبقات على دقتهم في ترجمة الرجال(٣).

وقد أوضح ابن فارس موضوع كتابه حين قسم علم العرب إلى أصل وفرع، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كرجل وطويل، وهو ما يُبْدَأ به عند التعلم، وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا(٤).

ولا يهتم ابن فارس بمعرفة الفروع أي معرفة الألفاظ لأنها أكثرُ من أن تحصى، والجهل بها لا يُنقص عند أهل المعرفة نقصا شائنًا، أما معرفة الأصول فواجبة للتعرف على خطاب الله

---

(١) بشر: (د. كمال) دراسات في علم اللغة ص ٤١.

(٢) حسام (د. تمام) الأصول ص ٢٦٠، ٢٥٩.

(٣) الراجحي (د. عبده) فقه اللغة في الكتب العربية ص ٤٢.

(٤) ابن فارس: الصاحبي ص ٣.

والرسول، فقوله جل ثناؤه (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ...) إلى آخر الآية سره في نظمها لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوحشي من الكلام، وإنما معرفته بغير ذلك مما يذكره في كتابه من أصول.

يقول ابن فارس: والفرق بين معرفة الفروع ومعرفة الأصول أن متوسما بالأدب لو سئل عن الجزم والتسويد في علاج النوق فتوقف أو عَيّ به لم ينقصه ذلك عند أهل المعرفة نقصًا شائنا لأن كلام العرب أكثر من أن يحصى، ولو قيل له هل تتكلم العرب في النفي بما تتكلم في الإثبات؟ ثم لم يعلمه - لنقصه ذلك في شريعة الأدب عند أهل الأدب[1].

ويعود إلى هذا المعنى تقريبا عند الحديث في حاجة أهل الفقه والفتيا إلى معرفة اللغة العربية فيقرر أن معرفة أصول اللغة والطرق التي جاء عليها كتاب الله وسنة رسوله واجب، ثم يضيف إلى ذلك معرفة علم العربية أي النحو، لأن به معرفة الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني.

يقول: ولسنا نقول إن الذي يلزمه من ذلك الإحاطة بكل ما قالته العرب (من ألفاظ) لأن ذلك غير مقدور عليه، ولا يكون إلا لنبي كما قلنا أولا، بل الواجب علم أصول اللغة والسنن التي بأكثرها نزل القرآن وجاءت السنة ... وكذلك الحاجة إلى علم العربية فإن الإعراب هو الفارق بين المعاني[2].

وبهذا نطمئن إلى القول بأن كتابه في أصول اللغة أي في القول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها ومالها من الافتنان تحقيقا ومجازا، لا في الفروع أي معرفة الأسماء والصفات (وهو ما سبق أن قلنا إنه موضوع "علم اللغة بالمفهوم القديم").

وهذا هو ما رجحه الدكتور أبو الفرج الذي يقرر أن ابن فارس وإن لم يذكر عبارة (فقه

---

(١) ابن فارس: الصاحبي ص ٤، ٥.

(٢) ابن فارس: الصاحبي ص ٥٠، ٥١.

اللغة) يقصد بها الأصل فهو الذي جعل له الأهمية وأشار إلى أن كثيرا منه جاء في كتابه[1].

وقد ضمن ابن فارس كتابه عددا كبيرا من الأبواب يمكن أن تتوزع في صنفين من المباحث:

مباحث عامة في حياة اللغة العربية نشأتها وتطورها، ومن ذلك حديثه عن نشأة اللغة العربية والخط العربي وأنهما توقيف لا اصطلاح ومواضعه، وعن أفضلية اللغة العربية واتساعها وعن اختلاف لهجاتها: اللهجة الفصحى أو اللهجات المذمومة... وغير ذلك من الموضوعات.

مباحث خاصة في مجال الأصوات والصرف والنحو والبلاغة والأسلوب، وهي مباحث غير مقصودة لذاتها، فليس الكتاب كتابا في النحو أو في البلاغة أو في غيرهما من العلوم التي تنتمي إليها هذه المباحث أصلا، وإنما هي ملاحظات عن هذه المجالات تهدف إلى بيان كيف ينتظم الكلام العربي وكيف يفتن أصحابه في التعبير به.

والدكتور الراجحي يذهب إلى أن عنوان الكتاب يشير إلى أمرين:

فقه اللغة: وكان يعني به القضايا العامة التي تخضع لها حياة اللغة.

وسنن العرب في كلامها: وكان يعني بها القوانين التي تسير وفقها الاستعمالات اللغوية[2].

ولا يتعارض هذا مع ما رجحناه سابقا من أن عبارة (فقه اللغة) تعني الأصول التي خصها ابن فارس باهتمامه، وهي تشمل الموضوعين السابقين اللذين فصل بينهما الدكتور الراجحي أعني القضايا العامة والقوانين، ولعله من فضول القول -بعد ذلك- أن نقرر أن مباحث الكتاب متداخلة بحيث يصعب الفصل بينهما، ولكن في ضوء الغاية من تأليفه كتابه نفهم لماذا وضعت هذا الوضع، إنها -كما قلنا سابقا- ليست إلا ملاحظات حول اللغة

---

(١) أبو الفرج (د. محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ٣٦.

(٢) انظر الراجحي (د. عبده) فقه اللغة في الكتب العربية ص ٤٤، ٤٥.

العربية للكشف عن خصائصها أو مزاياها وأسرارها وليست بحثا في اللغة ذاتها نحوها وصرفها وبلاغتها، فهذا البحث تنهض به علوم أخرى كالنحو أو البلاغة.

أما الكتاب الثاني كتاب الثعالبي (فقه اللغة وسر العربية) فقد قسمه صاحبه صراحة إلى قسمين: سمي القسم الأول (فقه اللغة) ضمنه ثلاثين بابا يشتمل كل باب منها على عدة فصول، وهذا القسم عبارة عن معجم خاص جمع فيه الألفاظ المتصلة بموضوع واحد ثم رتبها حسب الموضوعات، بدأها بباب في الكليات (وهو ما أطلق عليه أئمة اللغة لفظ كل، ومن ذلك: كل ما علاك وأظلك فهو سماء، كل أرض مستوية فهي صعيد ...الخ[1].

أما القسم الثاني والذي سماه (سرَّ العربية) فيضم مباحث مختلفة شبيهة بالمباحث التي ضمها كتاب ابن فارس، بل إن بينهما أبوابا مشتركة نقلها الثعالبي نقلا من ابن فارس كالنحت والاتباع وغيرهما.

ولم يعرض الثعالبي لبعض المباحث العامة التي بدأ بها ابن فارس كتابه من الحديث عن نشأة اللغة والخط.

ويبقى بعد ذلك أنه عُني بما أهمله ابن فارس من الفروع أي مفردات اللغة من الأسماء والصفات.

وبهذا نتبين صحة ما قرره الدكتور الراجحي من أنه كان واضحا في قصره (فقه اللغة) على دراسة الألفاظ على ما هو واضح في القسم الأول[2].

وهذه الدراسة التي جعلها الثعالبي فقها للغة أصبحت جزءا من مفهوم المصطلح (علم اللغة) الذي جعله ابن خلدون خاصا بالبحث في الموضوعات اللغوية، وفي ذلك يقول: ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظًا أخرى خاصة بها، فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال، واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز

(١) الثعالبي: فقه اللغة ص ٣٣، ٣٦، ٣٢٢.

(٢) انظر: فقه اللغة في الكتب العربية ص ٥١.

المأخذ، كما وُضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب، واختص بالتأليف في هذا المنحى الثعالبي وأفرده في كتاب سماه (فقه اللغة) وهو من آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه[1].

والآن: ما علاقة الموضوعات التي عرض لها ابن فارس والثعالبي في فقه اللغة بالموضوعات التي عرضت لها الفيلولوجيا بالمفهوم السائد عن الأوربيين؟

يعقد الدكتور عبده الراجحي مقارنة بين موضوعات فقه اللغة كما بحثها ابن فارس والثعالبي وموضوعات الفيلولوجيا، ويخرج من هذه المقارنة بأن هذه الموضوعات لا يصح إدراجها تحت الفيلولوجيا كما يفهمها أصحابها من الغربيين، ويرى أن هذه الموضوعات داخلة في إطار علم اللغة Linguistics وإن كان لا ينكر أن هناك فرقًا كبيرًا بين منهج العرب في دراسة لغتهم ومنهج الغربيين في علم اللغة[2].

وكان الدكتور أبو الفرج قد سبق إلى هذا حين رأى أن تركيز ابن فارس على رسوم اللغة في المخاطبة وعلى نظمها مما هو أصول اللغة العربية والتهوين من شأن الألفاظ بالنسبة لهذه الأصول قريب في الإحساس باللغة وبموضع الأهمية منها مما نقلناه سابقا عن العلماء المحدثين الذين يهتمون بالعلاقات الداخلية للغة أو ما يسمونه الأنماط التي هي أساس التمييز بين لغة وأخرى[3].

وهذا يجعل موضوع كتاب ابن فارس أقرب إلى علم اللغة وبخاصة الاتجاه التركيبي الذي يعني ببيان العلاقات بين وحدات اللغة.

وثمة رأي آخر يربط بين موضوعات الفيلولوجيا وفقه اللغة فالذين ترجموا

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٥١٨.

(٢) انظر: فقه اللغة في الكتب العربية ص ٥٦.

(٣) مقدمة الدراسة فقه اللغة ص ٣٩.

philology إلى (فقه اللغة) قد وضعوا في اعتبارهم أن فقه اللغة يعرض لمباحث من النوع الذي تعرض له الفيلولوجيا أو أنهم جعلوا كلمة (الفيلولوجيا) مرادفة لـ (علم اللغة).

ومنشأ التعارض الظاهر بين الفريقين أن من ربط فقه اللغة بعلم اللغة أو Linguistics نظر إلى ما اهتم به ابن فارس من الكلام في أصول اللغة ورسوم مخاطبتها والملاحظات النحوية والصرفية التي بدأها، ونظر كذلك إلى ما يشبه هذا من المباحث التي عرضها الثعالبي في القسم الثاني من كتابه، وأن من ربطه بالفيلولوجيا نظر إلى بعض المباحث العامة التي عالجها ابن فارس كالحديث عن نشأة اللغة وتطورها وانشعابها إلى لهجات، وإلى المباحث التي جعلها الثعالبي في القسم الأول من كتابه وهي مباحث تعرض في عمومها للألفاظ ودلالاتها وبعضها يمكن إدراجه في الدراسة المقارنة كالباب الذي عقده بعنوان "فيما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية"(١).

فقه اللغة حديثا:

ظهرت عبارة (فقه اللغة) في العالم العربي حديثا في الجامعة المصرية وبخاصة حين استقدم جماعة من المستشرقين ليعاونوا في التدريس بها، وقد فهمت آنذاك على أنها ترجمة لمصطلح philology.

يقول الدكتور زكي مبارك: ذكر السنيور جويدي (وكان أستاذ فقه اللغة في كلية الآداب) في محاضرته الأولى (٧) أكتوبر ١٩٢٦ أن كلمة philology تصعب ترجمتها بالعربية، وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب، فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية، ومنهم من يذهب إلى أنه ليس درس اللغة فقط، ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها، وإذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل في دائرة (الفيلولوجي) علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في

---

(١) انظر فقه الثعالبي: ص ٣٠٤ – ٣٠٧.

معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم من حيث تصنيف الكتب العلمية، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه في المجاميع والمجلات، وتاريخُ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام، ولا سبيل إلى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه الآثار الأدبية[1].

ومما ذكره (جويدي) نرى أن نظرة الغربيين إلى (الفيلولوجي) قد تكون ضيقة فتجعله خاصا بدرس قواعد الصرف والنحو ونقد النصوص الأدبية، أو متسعة فتجعلهُ خاصا بدرس الحياة العقلية وما ينبني على دراسة هذه الحياة من دراسة للنشاط اللغوي بمختلف جوانبه، وهي نظرة لا تختلف عما عرضناه من قبل عند الحديث عن مفهوم الفيلولوجيا عند الغربيين.

وقد ألف الدكتور على عبد الواحد وافي كتابين في الدراسات اللغوية أسمى أولهما (علم اللغة) وأسمى الثاني (فقه اللغة).

أما موضوع (علم اللغة) فهو دراسة النواميس العامة التي تسير عليها اللغات الإنسانية في نشأتها وانتقالها من السلف إلى الخلف وانشعاب الأصل الواحد منها إلى شعب وفروع وتكون مجموعاتها وفصائلها وصراعها بعضها مع بعض وتطورها من مختلف الوجوه[2].

ومباحث هذا العلم يمكن أن تتوزع على فروع البحث اللغوي الآتية: علم اللهجات Dialectlogy وعلم الأصوات phonetics وعلم السمانتيك (المعنى) Semantics وعلم المفردات Lexicology وعلم البنية (الصرف) Morphology وعلم السنتكس (النحو) Syntax وعلم ستيلستك (الأسلوب) Stylistics علم الإيتمولوجيا (البحث في أصول الكلمات) Etymology.

---

(١) مبارك (د. زكي) النثر الفني في القرن الرابع ص ٤٤، ٤٥.

(٢) وافي (د. علي عبد الواحد): علم اللغة ص ٦.

ثم يضيف إلى هذه المباحث بعض البحوث الاجتماعية التي ترمي إلى توضيح العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه، في مختلف الظواهر، وبعض البحوث النفسية التي تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها من تفكير وخيال وتذكر... إلخ وتبين أثر كل طائفة في الأخرى[1].

ولا تختلف المباحث السابقة إلا قليلا عن المباحث التي يضمها (علم اللغة) بالمعنى الواسع وبالتعريف المختار هنا وهو الدراسة العلمية للغة.

وسوف نتبين تفصيل ذلك عند الحديث عن مستويات البحث اللغوي، أما المباحث الاجتماعية والنفسية فلها علاقة وثيقة بعلم اللغة وإن كانت ليست منه كما أوضحنا في المبحث الثاني من هذا الكتاب.

وفي ضوء الحقائق العامة في (علم اللغة) يدرس في كتابه الثاني (فقه اللغة) - فصيلة خاصة من فصائل اللغات الإنسانية وهي فصيلة (اللغات السامية) مفصلا بعض التفصيل في لغة منها وهي اللغة العربية ومجملا فيما عداها يقول: فمؤلفنا هذا بمنزلة الجزء الثاني من كتابنا (علم اللغة) غير أننا آثرنا أن نطلق عليه اسما خاصا شاع استعماله في الموضوعات التي يعرض لها وخاصة ما يتعلق منها باللغة العربية، وهو يعالج في كتابه هذا تاريخ اللغات السامية ونشأتها وشعوبها وأهم خصائصها واللهجات المتفرعة منها.. ثم يتكلم بعد ذلك عن اللغة العربية مفصلا الحديث عن حياتها ونشأتها وانشعابها إلى لهجات.. إلخ وعن عناصر اللغة العربية وما تمتاز به بوجه عام في أصواتها ومفرداتها وقواعدها صرفا ونحوا وأسلوبا، ثم يتحدث عن موضوعين عامين يتصل أولهما بكفاية اللغة العربية وثانيهما بوسائل صيانتها[2].

ومما سبق نتبين أن الدكتور وافي يعد علم اللغة وفقه اللغة شيئا واحدا، وإن كان أولهما

---

(١) انظر: وافي (د. علي عبد الواحد) علم اللغة ص ٦ - ١٣.

(٢) وافي (د. علي) فقه اللغة ص ١، ص ٩٢.

يتصل باللغة في عمومها والثاني يتصل بلغة معينة هي العربية.

وليس الدكتور وافي وحده الذي يقول بالتسوية بين العلمين فثمة كُتاب آخرون جروا على ذلك ومن هؤلاء الأستاذ محمد المبارك الذي يقول: إن علم اللغة بهذا المفهوم الذي بسطناه والذي آل إليه الأمر في تطور البحث اللغوي نرى أن نطلق عليه أحد الاسمين (علم اللغة) أو (فقه اللغة) وكلاهما يفيد المقصود وينطبق على المفهوم العلمي لمباحث اللغة[1].

وعلم اللغة عنده يضم دراسات تتصل بالأصوات والمفردات والتراكيب، ودراسات أخرى عن تأثير اللغات بعضها في بعض، وعن اللهجات وكيفية نشوئها وتطورها وأسباب ذلك، وعن الرسم والكتابة[2].

ونتبين من علاجه للموضوع أنه يدرس اللغة العربية من خلال النظرات الحديثة لعلم اللغة التي تتلاءم معها أو كما يقول: لم نأخذ من النظرات الحديثة إلا اتجاهها أو بعضها ومسائلها العامة المشتركة بين اللغات[3].

ويقول فيما درسه في كتابه المذكور: وقد اقتصرت في أبحاثه على ما يتعلق بالكلمة المفردة دون التراكيب إذ لا يزال البحث في الكلمات المفردة يؤلف القسم الأكبر من علم اللغة، وهو موضع عناية الباحثين، وإن كانت العناية بتراكيب اللغة أخذت تتزايد وانتهت إلى تخصيص قسم خاص بالتراكيب أو نظم الكلام.. وكان موضوع تركيب الكلام يدرس في سائر اللغات في علم النحو من جهة وفي علم المعاني من علوم البلاغة من جهة أخرى[4].

ومؤدى ما سبق أن موضوع فقه اللغة عنده هو المفردات، وإن كان لا يمنع من درس التراكيب على أساس أنها من موضوع علم اللغة بالمفهوم التي حدده هو سابقا مع الوضع في

---

(١) انظر: المبارك (محمد) فقه اللغة ص ٣٩.

(٢) المبارك (محمد) فقه اللغة ص ٢١ - ٢٤.

(٣) المبارك (محمد) فقه اللغة ص ١٢.

(٤) المبارك (محمد) فقه اللغة ص ١٢.

الاعتبار أنه ممن يقولون بالتسوية بين علم اللغة وفقه اللغة.

والدكتور محمد أبو الفرج يؤلف كتابا بعنوان (مقدمة لدراسة فقه اللغة) يقول في تصديره: وفقه اللغة يعني بالدراسة العلمية الفاحصة للغة، وواضح أن هذا التعريف هو التعريف المختار لعلم اللغة Linguistics ثم يقول ومع أنه حظي بمجموعة من مؤلفات العلماء العرب في القديم والحديث فليس هناك اتفاق تام على منهجه ولا على الموضوعات التي تندرج تحته[1]، ولعله -لهذا السبب- دعا إلى التسوية بين العلمين فقه اللغة وعلم اللغة.

"وجدت عند التعريف بـ (فقه اللغة) من الناحية الاصطلاحية أن هناك اصطلاحين في اللغة الإنجليزية لدراسة ما يشابه موضوعاته وهما philology, Linguistics فبينت آراء العلماء فيهما، ووضحت أن منهم من يسوي بين الاصطلاحين وهم الأكثرية، ومنهم من يوجب الفصل بينهما، وانتهت إلى التسوية بينهما معتبرا في هذا مصلحة الدراسة اللغوية في العالم العربي"[2].

والدكتور رمضان عبد التواب يُعَرِّف (فقه اللغة) في العصر الحاضر تعريفا عاما يجعله شاملا لكل الدراسات اللغوية مؤكدا التسوية بينه وبين علم اللغة وضرورة كل منهما للآخر، يقول:

تطلق كلمة (فقه اللغة) عندنا الآن على العلم الذي يحاول الكشف عن أسرار اللغة والوقوف على القوانين التي تسير عليها في حياتها ومعرفة سر تطورها ودراسة ظواهرها المختلفة دراسة تاريخية من جانب ووصفية من جانب آخر. وهو بهذا المعنى يضم كل الدراسات اللغوية التي تبحث في نشأة اللغة الإنسانية واحتكاك اللغات المختلفة بعضها ببعض، ونشأة اللغة الفصحى واللهجات، وكذلك تلك التي تبحث في أصوات اللغة ودلالة الألفاظ وبنيتها من النواحي التاريخية المقارنة والنواحي الوصفية، وكذلك في العلاقات

---

(١) أبو الفتوح (د. محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص .

(٢) أبو الفتوح (د. محمد أحمد) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص ٦.

النحوية بين مفرداتها، كما تبحث أخيرا في أساليبها واختلاف هذه الأساليب باختلاف فنونها من شعر ونثر وغير ذلك، وهذا هو ما يطلق عليه في الغرب philology وإن كانت هذه الكلمة philology قد تحددت عند الألمان بدراسة النصوص اللغوية دراسة تاريخية مقارنة لمحاولة فهمها والاستعانة بذلك في دراسة الفروع الأخرى التي يبحث فيها علم آخر عندهم هو (علم اللغة Sprachwissen schaft). وكل علم من هذين العلمين لا ينفصل في الواقع عن الآخر انفصالا حادا، ولا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر مطلقا[1].

وقد ظهر منذ سنين رأي حديث في موضوع (فقه اللغة) وعلاقته بـ(علم اللغة) أعلنه الدكتور تمام حسان في كتابه (الأصول) الذي جعله دراسة إيبستمولوجية لأصول الفكر العربي في النحو وفقه اللغة والبلاغة.

وموضوع (فقه اللغة) هو المفردات يحصيها ويتكلم في علاقة اللفظ باللفظ وعلاقة اللفظ بالمعنى، وعلاقة اللفظ بالاستعمال وسنعود إلى هذا الموضوع بالتفصيل بعد قليل.

وقد تتبع الدكتور تمام هذا المصطلح (فقه اللغة) منذ بدأ البحث في اللغة حتى العصر الحديث، ففي القديم كان موضوعه يدرس تحت عنوان (اللغة) وهو المصطلح الذي كان يقابل (العربية) أي النحو، وربما دخل في مجاله الترادف والمشترك اللفظي والفروق وأنواع المعاجم، ثم يقرر أنه لم يطلق على هذه الدراسة اسم (فقه اللغة) إلا في القرن الرابع الهجري في عنوان كتاب ابن فارس (الصاحبي في فقه اللغة)[2].

ونلاحظ ما يأتي على ما ذكره الدكتور تمام:

- أن مفهوم مصطلح (فقه اللغة) عند ابن فارس -على ما رجحناه آنفا- ليس البحث في المفردات أو ما سماه الفرع وإنما موضوعه البحث في موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطبتها وما لها من الافتتان تحقيقا ومجازا، وبهذا يبدو لنا أن الدكتور تمام قد

---

(١) عبد التواب (د. رمضان) فصول في فقه العربية ص ٩.

(٢) انظر: الأصول ص ٢٥٨، ٢٥٩.

استخدم مصطلح (فقه اللغة) بمعنى يخالف المعنى الذي ظهر عليه أول مرة عند ابن فارس.

- أن ابن خلدون يجعل (فقه اللغة) على النحو الذي قدمه الثعالبي في القسم الأول من كتابه جزءا من (علم اللغة) الذي مجاله عنده بيان الموضوعات اللغوية (أي معاني المفردات)، وقد أضاف إليه موضوعات أخرى لها علاقة به: الحديث عن الألفاظ المشتركة والفصيح.. إلخ وبهذا لا يختلف موضوع (فقه اللغة) عند الدكتور تمام عن موضوع (علم اللغة) عند ابن خلدون.

ويبقى بعد ذلك أن الدكتور فضل مصطلح (فقه اللغة) وجعله الأصل على خلاف ما يذكره ابن خلدون.

وفي العصر الحديث أطلق (فقه اللغة) على الدراسة المقارنة للغة العربية واللغات السامية، وعلى مقارنة الألفاظ الفصيحة وغير الفصيحة سواء جاءت هذه الألفاظ من لهجات قبيلة قديمة أو من لهجات عامية حديثة، ويطلقه البعض على دراسة اللهجات العربية على نحو ما فعل الدكتور أنيس في كتابه "اللهجات العربية".. كما يطلق أحيانا على دراسة الأصوات العربية على نحو ما يبدو في (سر صناعة الإعراب) لابن جني[1].

ولم يبين لنا الدكتور تمام المقصود بفقه اللغة عند هؤلاء الذين ذكرهم في القديم والحديث أهو (فقه اللغة) بالمعنى القديم عند ابن فارس أم عند الثعالبي، أم (فقه اللغة) بالمعنى الذي يرادف (علم اللغة) عند القائلين بالتسوية أم فقه اللغة بالتعريف الذي يرادف (علم اللغة) عند القدماء.

و(فقه اللغة) بالتعريف الذي وضعه الدكتور تمام ليس علما مضبوطا (كعلم النحو) إذ العلم المضبوط عنده ما يتوفر فيه الشروط الآتية: الموضوعية والشمول والتماسك والاقتصاد.

و(فقه اللغة) لا يتسم بالشمول؛ لأنه لا يعتمد على الاستقراء الناقص، وهو بهذا يختلف

---

(١) انظر: الأصول ص ٢٥٩، ٢٦٠.

عن علم النحو الذي يتسم بهذه الصفة، فالنحوي يستخرج القياس، أما (فقه اللغة) فملاحظات لا قواعد، وإذ لم تكن له قواعد فلا مجال للقياس، فهو لا يقاس على نتائجه.

والاقتصاد يتمثل في الاستغناء عن الكلام في المفردات بالكلام في الأصناف، وفي التقعيد، وإذا التمسنا هذين الأمرين في (فقه اللغة) أدركنا أنه لا أثر لهما فيه، فالكلام عن المُعَرَّب أو الدخيل أو الفصيح كلام عن مفردات لا أصناف، ولا يَسْلَم لفقه اللغة ما يزعمه أحيانا من قواعد كالذي نراه من كلام عن حركة عين المضارع مثلا.

ومع افتقار (فقه اللغة) إلى الشمول والاقتصاد فإنه يتسم بالموضوعية والتماسك، فهو علم موضوعي ولكن من قبيل موضوعية الاستقراء التام والعد والإحصاء، وهو علم غير مضبوط لأن الضبط لا يتحقق مع الموضوعية إلا بالاستقراء الناقص وإمكان التحقق من صدق النتائج وهما الشرطان اللذان توافرا في النحو ولم يتوافرا في (فقه اللغة)، وهو علم متماسك بعيد عن التناقض، وهو يعتمد أيضا على التصنيف وإن كان تصنيفه لا يهدف إلى بناء هيكل بنيوي كما يحدث في النحو مثلا، وإنما يهتم بالتصنيف سعيا لتيسير العرض ولا يستعمل الأصناف إلا لإبراز الفروق فقط[1].

لقد تبين لنا أن (فقه اللغة) بالتعريف الذي وضعه الدكتور تمام يختلف عن علم النحو. فقه اللغة علم غير مضبوط يفتقر إلى الشمول والاقتصاد وإن اتسم بالموضوعية والتماسك، أما علم النحو فعلم مضبوط يتسم بهذه الصفات جميعا الموضوعية والتماسك والشمول والاقتصاد.

موضوع فقه اللغة عند الدكتور تمام:

ولنعد إلى ما وعدنا به من تفصيل القول في موضوع (فقه اللغة) لقد قلنا إن موضوعه هو الألفاظ المفردة، ويتحدد هذا ببيان: علاقة اللفظ باللفظ أو اللفظ بالمعنى أو اللفظ بالاستعمال.

---

(١) انظر: الأصول من ص ٢٦٠ – ٢٦٦.

يدخل في إطار علاقة اللفظ باللفظ: المقارنات السامية والمقارنات العربية بين اللهجات (ومحصلة ذلك أن المقارنات تتم في مستوى الكلمة المفردة ولا تتم في مستويات اللغة الأخرى).

ويدخل في إطار علاقة اللفظ بالمعنى: الكلام في جرس الكلمة وأثره في دلالتها كالحديث عن المحاكاة (دلالة الكلمة بجرسها على مدلولها) والتأليف (تركيب الكلمة من أصوات يحسن أو يقبح تجاورها) والكلام في المعنى العرفي أو المعجمي (وهو ما كان يدخل أصلا في متن اللغة) ويدخل فيه كذلك معاجم الموضوعات أو الألفاظ أو المعاني.

ويدخل في إطار علاقة اللفظ بالاستعمال: الكلام عن الغريب والدخيل (معرب ومولد) والموضوع المجاز.

هذا هو موضوع (فقه اللغة) عند الدكتور تمام فما علاقته إذًا بالفيلولوجيا؟ يقول:

يتضح لنا من كل ما سبق أن (فقه اللغة) أقرب بموضوعه إلى الفيلولوجيا منه إلى (علم اللغة) غير أن (فقه اللغة) يختلف عن الفيلولوجيا من حيث إن فكرة المعنى أو (القِدم) ليست دائما من عناصر فهمه بل إننا نلمح في (فقه اللغة) أحيانا عنصرا مستقبليا هو ما أطلقنا عليه عبارة (إثراء اللغة)(١).

خاتمة المطاف:

وبعد، فلنلخص الآن أهم الأفكار التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة:

- (الفيلولوجيا philology) مصطلح غربي يعني:

- تحقيق النصوص وشرحها وما يتطلبه ذلك من دراسة للجوانب الصرفية والنحوية والمعجمية.

- الدراسة المقارنة للغات.

- دراسات تشمل الثقافة والتقاليد والتاريخ والآداب الخاصة باللغة المدروسة.

---

(١) انظر: الأصول من ص ٢٦٧ - ٢٨٨.

والدراسة التاريخية والمقارنة التي كانت موضوع اهتمام اللغويين في القرن التاسع عشر أصبحت الآن -مع اختلاف في المنهج- تعد فرعا من (علم اللغة) يعرف بعلم اللغة التاريخي وعلم اللغة المقارن.

وبعض الباحثين من الغربيين يرى أن الصلة وثيقة بين الفيلولوجيا وعلم اللغة Linguistics وكثيرا ما يتلاقى ميداناهما، ولذلك لا يرى بأسا من التسوية بينهما، وثمة فريق آخر وهم الأغلبية يقول بالفصل بينهما على اعتبار أن علم اللغة يدرس اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها على حين يدرس الفيلولوجيا اللغة باعتبارها وسيلة لتحقيق أغراض أخرى.

- فقه اللغة مصطلح عربي يعني:

عند ابن فارس: القول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ثم على رسوم العرب في مخاطباتها وما لها من الافتتان تحقيقا ومجازا.

وعند الثعالبي: البحث في الألفاظ من حيث ترتيبها وبيان معانيها.

وقد استخدم المصطلح (فقه اللغة) حديثا ترجمة لكلمة (فيلولوجيا) ليعني:

- ما تعنيه كلمة فيلولوجيا وعلم اللغة من موضوعات، والذين فعلوا ذلك عدوا البحوث التي عرضها ابن فارس والثعالبي أقرب ما تكون إلى مفهوم الفيلولوجيا.

- ما تشير إليه الفيلولوجيا وعلم اللغة من موضوعات، والذين قالوا ذلك كان في اعتبارهم أمران:

١. أن بعض الباحثين من الغربيين قال بالتسوية بين العلمين (الفيلولوجيا وعلم اللغة).

٢. أن ما درسه اللغويون العرب تحت عنوان (فقه اللغة) يدخل في إطار أحد العلمين ولا شك.

وعند الدكتور وافي: دراسة الفصيلة السامية بعامة والعربية بخاصة، دراسة تستخدم المنهج العلمي الدقيق الذي اختطه (علم اللغة الحديث).

أما الدكتور تمام فيعني به (ما كان يعنيه الثعالبي في القسم الأول من كتابه) و(ما كان

يعنيه ابن خلدون بعلم اللغة) من البحث في المفردات وبيان علاقة اللفظ باللفظ واللفظ بالمعنى واللفظ بالاستعمال.

- (علم اللغة) مصطلح عربي قديم يعني:

- البحث في المفردات من حيث تصنيفها وبيان معانيها.

- استخدم حديثا ليشير إلى موضوعات Linguistics ويعرف بأنه الدراسة العلمية للغة.

وبعض الباحثين يستخدم مصطلحات أخرى لهذا الغرض مثل: اللغويات أو اللسانيات أو الألسنية، بيد أن مصطلح (علم اللغة) أصبح الآن أكثرها انتشارا، وليس ثمة داع لاستخدام (فقه اللغة) للإشارة إلى موضوعاته، وقد انصرف كثير من الباحثين عن القول بالتسوية بينهما.

ومع ما سبق أن لخصناه نقترح ما يأتي:

- أن تستخدم كلمة (فيلولوجيا) مُعَرَّبة لتشير إلى مفهوم مصطلح philology في التراث اللغوي الغربي، ولا داعي لاستخدام عبارة (فقه اللغة) في ترجمتها حتى تتحدد المفاهيم بدقة.

- أن تستخدم عبارة (فقه اللغة) لتشير إلى مدلولها القديم عند ابن فارس والثعالبي، أو بمدلولها الحديث عند الدكتور تمام مع النص على صاحب الاستعمال.

- أن تستخدم عبارة (علم اللغة) لتشير إلى الدراسة التي تستخدم المنهج العلمي في دراسة العربية قديما أو حديثا[1].

---

(١) هذا ما فعلناه حين وضعنا مفردات منهج (علم اللغة) و(علم اللغة العربية) لكلية التربية بالمدينة المنورة.

الباب الرابع

التحليل اللغوي

المبحث الأول

مستويات التحليل اللغوي

تعقد الظاهرة اللغوية:

اللغة ظاهرة على جانب كبير من التعقيد لا يمكن لأي منهج أو مخطط مقترح أن يصف خصائصها وصفا كاملا، أو يفسر ظواهرها تفسيرا تاما، لهذا لجأ الباحثون إلى افتراض أنها تتضمن جوانب متعددة يمكن لفرع أو أكثر من فروع علم اللغة أن يقوم بدراستها - مع إيماننا بأن طبيعة اللغة تأبى هذا الفصل، لأن الأحداث اللغوية تتفاعل مع عناصرها في أثناء الكلام تفاعلا تاما،كما أن فروع علم اللغة التي تقوم بدراسة هذه الأحداث يعتمد بعضها على بعض بشكل كبير، ولهذا كان مبدأ التقسيم - مع ما سبق - مبدأ مقررا منذ عهد بعيد وقائما على أساس سليم.

ويقرر (هاليداي) أن اللغويين قد اختلفوا كثيرا في الطبيعة الخاصة للحدود بين المستويات، بيد أن هذا الاختلاف ليس أكثر ولا أقل مما هو معروف من اختلاف العلماء في فروع العلم الأخرى.

تعدد مستويات التحليل اللغوي:

وينبغي أن يوضع في الاعتبار عند مناقشة هذا الموضوع أمران:

الأول: وجود أرضية واسعة مشتركة قائمة على أساس راسخ بين المواقف المتعددة للتقسيم: فما هو مقرر وشائع أولى وأكثر أهمية مما هو في مجال الأخذ والرد.

الثاني: أن النظريات المقدمة في هذا الشأن ليست في الغالب نظريات متصارعة إحداها ينبغي أن تكون صوابا، والأخرى ينبغي أن تكون خطأ، والأصح أن ما يُعْرف بالمخططات أو

الطرز Models تتعايش وتترابط في ضوء النظرية العامة(١).

والمشكل حقا – بعد أن تبين لنا تعقد الظواهر اللغوية، وتعدد مناهج دراستها – هو أن نختار أو نبتكر المخطط أو الطراز الذي يكون أكثرها ملاءمة لتحقيق الهدف.

وتقسيم التحليل اللغوي إلى مستويات قائم في الحقيقة على أساس موقف أصحاب التقسيم من اللغة وما تتضمنه من جوانب.

كما أنه يقوم على أساس موقف كل فريق من الجانب الصوتي أو المادي في اللغة، فبعضهم يرى أنه يستأهل أهمية مماثلة لأي جانب آخر من جوانب اللغة، على حين يرى بعض آخر أنه يستوجب اهتماما خاصا،لأنه يُدرس وفق نظرية ومنهج مختلفين عن النظرية والمنهج اللذين تدرس بهما جوانب اللغة الأخرى.

وعلى ضوء ما سبق نعرض وبإيجاز اتجاهين شائعين في التقسيم، وعلى الباحث أن يختار التقسيم المناسب لبحثه.

الاتجاه الأول:

إن دراسة اللغة- كما يقول (ماريو باى) – على ما جرى عليه العرف سواء أكان المنهج وصفيا أم تاريخيا تتدرج في أربعة مستويات، وإن كانت الحدود بينها غير واضحة تماما كما نحب أنْ تكون. وهذه المستويات هي:

١. **مستوى الأصوات Phonology** ويدرس أصوات اللغة، ويشمل كلا النوعين المعروفين باسم علم الأصوات العام Phonetics وعلم الفونيم Phonemics. والوحدة الأساسية أو المادة الخام لعلم الأصوات العام هي الصوت المفرد Phone الذي يُعَرَّف بأنه صوت لغوى بسيط يمكن تسجيله بالآلات الحساسة في المعمل، ولهذا العلم فروع هي: علم

(1) see: Halliday, McIntosh and Stevens, The Linguistic sciences and Language Teaching, p.p.17, 18

الأصوات النطقي، وعلم الأصوات الفيزيائي أو الطبيعي، وعلم الأصوات السمعي[1].

وعلم الأصوات النطقي يقوم أساسا على تحديد مخارج الأصوات وبيان الصفات الصوتية التي تشكل الصوت، إنه يعطينا وصفا موضوعيا لهذه الأصوات وكيفية إنتاجها وتصنيفها تصنيفا ضيقا أو واسعا، وهذا التصنيف قد تكفلت به الأبجدية الصوتية الدولية التي تشمل من الوجهة النظرية - على الأقل - التنوعات الأساسية الممكنة لأصوات الكلام، وتصنيفها على حسب المخارج الصوتية المستعملة مع كل منها والأوضاع التي تتعرض لها هذه المخارج.

وعلم الأصوات الفيزيائي يقوم بدراسة التركيب الطبيعي للأصوات فهو يحلل الذبذبات والموجات الصوتية المنتشرة في الهواء بوصفها ناتجة عن ذبذبات الهواء في الجهاز النطقي المصاحبة لحركات أعضاء هذا الجهاز.

أما علم الأصوات السمعي فيقوم بدراسة إدراك الأذن والأعضاء الملحقة بها للأصوات كما يدرس سيكولوجية الإدراك[2].

أما علم الفونيمات فوظيفته وصف أصوات لغة معينة وتصنيفها على أساس من إحساس المتكلمين باللغة، واعتبارهم عددا من الأصوات صوتًا واحدا أو أصواتا منفصلة.

وعلى سبيل المثال يشعر المتكلم العربي بأن ألف المد في (طاب) وفي (تاب) وفي (قاب) ألف واحدة على الرغم من أنها تختلف في النطق في كل كلمة، فهي في الكلمة الأولى مفخمة وفي الثانية مرققة وفي الثالثة بين بين، ولكنه يشعر بأن الطاء في (طاب) والتاء في (تاب) صوتان مختلفان على الرغم من أن الطاء كالتاء في كل الصفات إلا أنها مفخمة، والأساس في ذلك (أي في اعتبارهما صوتين مختلفين) هو إحساس المتكلم أو حكمه بأنه يترتب على وجود

---

(١) أسس علم اللغة ص٤٣، ٤٧، ٤٨.

(٢) انظر: أسس علم اللغة ص ٤٧ وعلم اللغة العام (الأصوات) ص ١٧ ومقدمة لدراسة فقه اللغة ص ١٢٢.

(الطاء) في الكلمة الأولى و(التاء) في الكلمة الثانية خلاف في المعنى.

الفونولوجيا إذًا يتفرع إلى فرعين علم الأصوات وعلم الفونيمات.

وثمة تقسيم آخر شائع يفترض أن يدرس الجانب الصوتي علمان مستقلان هما:

علم الأصوات: **phonetics** ووظيفته دراسة الصوت اللغوي الإنساني لذاته بصرف النظر عن وظيفته التي يؤديها في لغة معينة.

وعلم وظائف الأصوات: Phonology وهو دراسة طريقة تأدية الأصوات الإنسانية لوظائفها في اللغات المختلفة، وطريقة تناسقها في أنماط خاصة بكل لغة، وتتسع دائرته لتشمل دراسة المقاطع والنبر والنغم...الخ(١).

٢. مستوى **Morphology** أو مستوى دراسة الصيغ اللغوية وبخاصة تلك التغيرات التي تعترى صيغ الكلمات فتحدث معنًى جديدًا مثل اللواحق التصريفية كألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة وياء النسب... في العربية، فالكلمة (رجل) حين يضاف إليها ألف الاثنين تجعلها للمثنى فيقال (رجلان)، والسوابق مثل السين وهمزة التعدية وحروف المضارعة، فالسين مثلا حين تلحق الفعل المضارع تجعله للمستقبل فحسب، ومثل التغيرات الداخلية التي تعترى بعض الصيغ مثل قلب تاء الافتعال طاءً حين تسبق بصوت مفخم نحو اصطبر واضطرب.

ويقول الأشموني عن التصريف أو الصرف: يُطلق على شيئين: تحويل الكلمة إلى أبنية مختلفة لضروب من المعاني كالتصغير والتكسير واسم الفاعل واسم المفعول...: والآخر تغيير الكلمة لغير معنى طارئ عليها، ولكن لغرض آخر ينحصر في الزيادة والحذف والإبدال والقلب والنقل والإدغام(٢).

---

(١) مقدمة لدراسة فقه اللغة ص١٢٢، ١٢٣.

(٢) منهج السالك ص٧٧٩.

والوحدة التي يعالجها علم الصرف هي (المورفيم) وهو أصغر وحدة ذات معنى في اللغة المدروسة. وعلى سبيل المثال تتألف (مسلمات) من مورفيمين (مسلم) و(ات) لا يمكن أن تنقسم الكلمة (مسلم) أو (ات) إلى أقسام أخرى لها معنى.

٣. مستوى النحو Syntax الذي يختص بتنظيم الكلمات في جمل أو مجموعات كلامية، ففي الإنجليزية مثلا يقال: John hit George والمتقدم هو الفاعل، والسبب في ذلك ترتيب كلمات الجملة على النحو السابق، ولو تقدم George لأصبح هو الفاعل، ومثل هذا في العربية قولنا: ضرب موسى عيسى فالمتقدم هو الفاعل حتما.

بيد أن اللغات تختلف فيما بينها من حيث العناصر التي تمثل نحوها، فالإعراب مثلا يقوم بدور كبير في التمييز بين معاني الأبواب النحوية في العربية، وليس له مثل هذا الدور في اللغة الإنجليزية.

ومن الواضح أن علاقة قوية تربط علم الصرف بالنحو، وفي هذه العلاقة يقول (ماريو باي): التغيرات الحادثة في داخل الكلمات نفسها تشكل موضوع علم الصرف Morphology الذي يختص بدراسة الصيغ، وتنظيم الكلمات في نسق معين يشكل موضوع علم النحو Syntax، والصرف والنحو يكونان معا ما يسمى بعلم القواعد Grammar أو التركيب: Structure[1].

وشيء قريب من هذا قاله بعض النحاة القدامى، فأبو حيان مثلا يجعل موضوع علم النحو يضم أحكام الكلمة في حالة الإفراد أو في حالة التركيب: أي ما يشمل دراسة الصيغة، وهو موضوع علم الصرف أو التركيب وهو موضوع علم النحو[2].

---

(١) أسس علم اللغة ص ٥٣.

(٢) انظر: السيوطى همع الهوامع ٢/ ٢١٢.

٤ـ مستوى المفردات vocabulary الذي يختص بدراسة الكلمات المفردة، ومعرفة أصولها، وتطورها التاريخي ومعناها الحاضر وكيفية استعمالها، ويدخل تحت دارسة المفردات: فرع يسمى الاشتقاق etymology وهو يختص بدراسة تاريخ الكلمات، وفرع آخر يسمى الدلالة semantics ويختص بدراسة معاني الكلمات، وهناك فرع يسمى المعجم lexicology وهو فن عمل المعجمات اللغوية(١).

وقد سبق أن عالجنا موضوع عمل المعاجم عند الحديث عن علم اللغة التطبيقي.

هذا وقد جعل (ماريو باى) علم السيمانتيك أو الدلالة فرعا من فروع المعجم يختص بدراسة معاني الكلمات، وفي هذا المنحى يقول الدكتور (بشر): وفي رأي البعض أن السيمانتيك يدرس المعنى على مستوى اللفظة المفردة على نحو ما يجرى في المعجمات، وما يشبهها من كتب اللغة التي تُعْنَى بجمع الثروة اللفظية وتفسيرها بوجه من الوجوه، وهذه – كما يقول المدققون – نظرة ضيقة قنعت بالأمور السطحية، ولم تأت بجديد في هذا الشأن أكثر من تقديم تسمية جديدة لدراسة قديمة معروفة هي صناعة المعجمات وما يرتبط بها من تصنيف كلمات اللغة وإعطائها معانيها العامة(٢).

وثمة رأي آخر يجعل السيمانتيك فرعا خاصا من الفروع اللغوية ويجعل موضوعه: المعنى على مستوى اللفظة والعبارة كليهما، ولكن في إطار اجتماعي معين، ومن زاوية معينة هي: زاوية الاستعمال الحي في البيئة الخاصة، وهو منهج (فيرث) الذي يفضله الدكتور بشر، ويعرف أحيانا هذا الفرع بعلم المعنى الاجتماعي.

وفي هذا الفرع يقول الدكتور تمام: اللغة نتاج اجتماعي بلا شك... وهذا الجانب الاجتماعي في اللغة لابد من مراعاة الكشف عنه في إبانة المعنى، وإن وجود هذا العنصر

---

(١) أسس علم اللغة ص٤٤.

(٢) دراسات في علم اللغة (القسم الثاني) ص١٥٣، ١٥٤.

الاجتماعي في اللغة ليدفعنا إلى الكلام عن معنى اجتماعي هو المعنى الدلالي الذي يتوافر فيه الخصوص الذي افتقدناه في المعنى المعجمي العام، وإذا كان المعنى المعجمي هو معنى الكلمة فليس المعنى الدلالي إلا معنى المنطوق الذي هو نشاط نطقي قبل كل شيء[1].

الحدود بين المستويات:

إن الحدود بين هذه المستويات الأربعة غير واضحة تماما ومتشابكة، فأصوات اللغة مثلا تتأثر كثيرا بالصيغ والعكس صحيح، والصوت والصيغة كلاهما يتأثران غالبا بالمعنى، كذلك يوجد تبادل مطرد بين الصرف والنحو كما هو الحال بالنسبة لبعض اللغات حين تستعمل واحدا منهما وتستغني عن الآخر، ولهذا فإن الصرف والنحو كثيرا ما يجمعان تحت اسم واحد هو التركيب القواعدي Grammatical structure[2].

الاتجاه الثاني:

انتهينا فيما سبق إلى أنه لا خلاف بين اللغويين في القول بأن الحدث اللغوي يمكن النظر إليه على أنه يتضمن جوانب متعددة، وأن كل جانب منها يمكن أن يقوم بدراسته فرع أو أكثر من فروع علم اللغة، بيد أنهم مختلفون في عد هذه الجوانب، وفي تسمية العلوم التي تقوم بدراستها وفي تحديد مجالها. وقد عرضنا موقف بعض الباحثين الذين يرون أن علم اللغة (الذي يدرس اللغة دراسة علمية) يمكن أن يدرس جوانب اللغة وفقا لمستويات أربعة يعتمد بعضها على بعض هي: مستوى الأصوات والصرف والنحو والمفردات.

ومن أكثر الآراء التي أبديت في هذا الموضوع أهمية وانتشارًا بين الباحثين ما رآه (هاليداي) ورفيقاه، وقد رأينا من المفيد أن نعرض لهذا الرأي بالتفصيل.

يستخدم (هاليداي) مصطلح (العلوم اللغوية Linguistics Sciences ليغطي موضوعين مترابطين جدا، وإن كانا متمايزين هما: علم اللغة Linguistics وعلم الأصوات

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ص١٢١.

(٢) أسس علم اللغة ص ٤٤، ٤٥.

Phonetics. وهما مترابطان بشدة، لأنهما يدرسان نفس المادة أي اللغة لنفس الهدف أي اكتشاف كيف تعمل، وهما متمايزان، لأنهما يدرسان جوانب مختلفة من اللغة ويحتاجان إلى مناهج مختلفة لوصف هذه الجوانب(١).

وعلم اللغة- عند باحثين آخرين- يغطي المجالين السابقين كليهما، ومن ثم فان علم الأصوات عند هؤلاء يعد فرعا من علم اللغة لا قسيما له، كما هو عند (هاليداي)، ولا يرى (هاليداي) بأسا في هذا، ولكنه يفضل استخدام مصطلح (علم اللغة) و(علم الأصوات) كمصطلحين متكاملين، وجمعهما معا في إطار المصطلح، (العلوم اللغوية) لأنه كان حريصا على أن يتوفر للباحثين مصطلح خاص يشير إلى الجانب غير الصوتي للغة.

اللغة نشاط:

إن تحديد مستويات البحث في اللغة بجوانبها المتعددة، وبيان العلوم التي تنهض بدراستها ينبني على نظرة خاصة إلى اللغة. واللغة- عند هاليداى- ليست جهازا عضويا - على حد ما قاله معظم اللغويين في القرن التاسع عشر-، وليست بناء أو صرحا- كما عدها علماء اللغة التركيبيون أو البنيويون في العصر الحديث، اللغة نشاط، نشاط يتمثل أساسا في أربعة أشكال: الكلام والسمع والكتابة والقراءة، وهذه الأنشطة تتمثل في عمليات مادية يمكن ملاحظتها ومن ثم دراستها(٢).

وثمة بالطبع عمليات أخرى في اللغة لم نتمكن من دراستها حتى الآن، وبخاصة المراحل الإدراكية، فالعمليات المتصلة بالسمع والقراءة والتي تحدث في أعضاء الحس وفي الجهاز العصبي وفي المخ قد فهمت بعض الفهم، ولكن مازال أمر دراستها أمرًا عسيرا، والدراسة الحديثة تبدأ بإلقاء ضوء على إدراك الأصوات الكلامية، ولكننا مازلنا بعيدين جدا حتى الآن من قدرتنا على تسجيلها بوضوح، ولهذا ينصح (هاليداى) بأن نكتفي بوصف

---

(1) see: The Linguistics sciences and Language Teaching p.p.9,10.
(2) see: The Linguistics sciences and Language Teaching p.p.9,10.

الجوانب المادية التي يمكننا ملاحظتها، وأن نتجنب الوقوع في محاولة شرح المعروف بالمجهول وما يمكن ملاحظته بما لا يمكن ملاحظته.

والعمليات المادية الأساسية للنشاط اللغوي هي إنتاج وإدراك ونقل تنتج نوعين من المادة الخام للأحداث اللغوية هما: الموجات الصوتية المسموعة، والعلامات المرئية.

والجانب المادي (material) المتمثل في العمليات السابقة ليس هو الجانب الوحيد للنشاط اللغوي، فثمة جانبان آخران ينبغي أن نضعهما في الاعتبار هما: الجانب التركيبي أو البنيوي (Structural) والجانب المحيطي أو البيئي (environmental)[1].

إن الأحداث اللغوية لا تقع في وسط مادي فحسب، بل تكشف عن اطرادات محددة في علاقاتها الداخلية التي لا يمكن ملاحظتها مباشرة في الحدث المادي.. كما أنها لا تقع في عزلة بل لها علاقات مطردة بأحداث أخرى خارج اللغة.

وهذه الجوانب الثلاثة للنشاط اللغوي: المادي والتركيبي والمحيطي هي السبب في تقسيم النشاط اللغوي إلى مستويات، ومن هذه الجوانب نستنبط ثلاثة مستويات أساسية هي: المادة Substance والشكل Form والمقام Context.

ولنأخذ الجملة الآتية لتوضيح ذلك: (المطر غزير).

المادة: هي الجملة السابقة منطوقة أو مكتوبة، وعلى هذا فالمادة هي الواسطة أو الوسيلة التي تنقل بها اللغة.

الشكل: هو هيكل أو مظهر الوحدات التي تؤلف الجملة السابقة: أل (أداة تعريف) + مطر (اسم) + غزير (وصف).

والعلاقات التي بينها: فالجملة نفسها تتألف من وحدتين هما: (المطر) وهي من أشكال المسند إليه، و(غزير) وهي من أشكال المسند، والشكل (المطر) يتألف من وحدتين هما (أل)

(1) see: The Linguistics sciences and Language Teaching p.p.9,10.

وهي للتعريف و(مطر)...إلخ.

المقام: هو العلاقة بين الشكل اللغوي المنطوق أو المكتوب والعالم الخارجي أي الموقف الذي قيلت فيه الجملة السابقة.

العلوم اللغوية علمان: علم الأصوات وعلم اللغة

والآن أعتقد أن نظرة (هاليداى) إلى اللغة وتحديده لجوانبها قد أصبحت واضحة بحيث نعود لنفصل القول فيما رآه من اعتبار العلوم اللغوية علمين لا علما واحدا. ويقول: السبب هو أننا نستخدم نظريات ومناهج لكل منهما على انفراد، فحين نصف (المادة) نستخدم نظريات ومناهجَ مأخوذةً من المجالات العامة لعلم وظائف الأعضاء والطبيعة، ولهذا فان دراسة المادة تنتمي إلى العلوم الطبيعية (الفيزياء والبيولوجيا) ودراسة المادة الصوتية هي علم الأصوات.

أما الجانبان الآخران للغة: الجانب الشكلي والمقامي فيتطلبان نظرية ومناهج لها صفات العلوم السلوكية والاجتماعية، وهذان الجانبان يمكن جمعهما معا في مجال دراسي واحد هو علم اللغة.

وإذا ما اعتبرنا اللغة المنطوقة أصواتا في نظام، جعلنا علم الأصوات يدرس الأصوات وعلم اللغة يدرس النظام(١).

وعلاقة علم الأصوات بالعلوم الطبيعية والبيولوجية واضحة، ولهذا كانت دراستها دراسة علمية تجريبية أمرا مقررا، فعلم الأصوات النطقي له اتصال بعلم وظائف الأعضاء، بينما علم الأصوات الأكوستيكي (دراسة الموجات الصوتية) له اتصال بعلم الطبيعة.. وفي دراسة الجانب الإدراكي للكلام نتبين مرة أخرى أن له علاقة بعلم وظائف الأعضاء، وله أيضا علاقة بعلم النفس.

(1) see: The Linguistic sciences and Language Teaching, p.p.12,13

أما علم اللغة - الذي يعنى بدراسة نماذج من العلاقات بين الأحداث اللغوية، هذه الأحداث أجزاء من النشاط المحدد اجتماعيا - فعلاقته واضحة بالعلوم الاجتماعية: علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعي.

والأحداث اللغوية تقع في نماذج داخلية وخارجية، والنموذج الداخلي هو ما يعرف بالشكل اللغوي، ودراسة الشكل اللغوي تتبع القواعد العامة التي تحكم دراسة الخصائص والأحداث المترابطة تركيبيًا والتي تكون من حيث الجوهر منطقية، وإحصائية احتمالا. والنموذج الخارجي هو ما يطلق عليه المقام وهو الذي يوضح العلاقة بين الأحداث اللغوية والظواهر غير اللغوية، ودراسة المقام تُوضع عادة تحت عنوان (علم المعنى أو الدلالة semantics) وعلم المعنى عادة: ما يتضمن منهجا خاصا بالمفاهيم، وهي دراسة تميل إلى أن تكون منفصلة عن الدراسات اللغوية الأخرى[١].

وقد أوضح (هاليداى) ما يعنيه سابقا من أن العلاقات التي بين الأشكال اللغوية منطقية في جوهرها بأن هذا لا ينبغي أن يفهم منه أن هناك علاقة بين المنطق واللغة، أو أن الإسناد المنطقى يمكن أن يستخدم في تفسير العلاقات بين المفردات اللغوية. والذي يعنيه هو العلاقة الموجودة بين المنطق وعلم اللغة، بمعنى أن من الممكن الاستفادة من المنطق ليشكل الصحة النظرية للنماذج المستخدمة في وصف اللغة، ويشكل تناسق علاقاتها بعضها ببعض في إطار البناء الكلى للنماذج[٢].

مستويات التحليل

وقد وضع (هاليداى) الجدول الآتي ليوضح البناء الكامل لمستويات الدراسة الوصفية أتم توضيح.

---

(1) see: The Linguistic Science and Language Teaching p.12,13
(2) see: The Linguistics Sciences and Language Teaching, p.

الموضوع المدروس	علم الأصوات		علم اللغة		
المستوى (عام)	المادة صوتيةً أو مكتوبةً	علاقة الشكل بالمادة	الشكل	المقام علاقة الشكل بالموقف	العرف ظاهرة غير لغوية
المستوى (خاص)	علم الأصوات	فونولوجي	النحو المعجم (القاموس)	علم المعنى	
	الإملاء	جرافولوجى (نظام الكتابة)			

وبعد فمن الممكن الآن أن نتبين الأفكار الأساسية الآتية:

- اللغة نشاط يتمثل في ثلاثة جوانب: الجانب المادي والجانب التركيبي والجانب المحيطي، والعلم الذي يدرس الجانب المادي هو علم الأضوات ينتمي إلى العلوم الطبيعية (الفيزياء والبيولوجى)، وهو يستخدم نظريات ومناهج هذه العلوم، أما العلم الذي يدرس الجانب التركيبي والمحيطي فيتطلب نظرية ومناهج لها صفات العلوم السلوكية والاجتماعية.

- المستوى العام (في الجدول) يقصد به خصائص اللغة، فاللغة: مادة وشكل، ومقام (معنى).

- المستوى الخاص (في الجدول) يقصد به العلوم التي تدرس هذه الخصائص.

- يدرس علم الأصوات مادة اللغة منطوقةً أو مكتوبةً، وثمة علم آخر يدرس علاقة المادة بالشكل وهو (الفونولوجيا Phonology) هذا إذا كانت المادة منطوقة، فإن كانت مكتوبة درسها من حيث هي مادة (علم الإملاء Script) ومن حيث علاقتها بالشكل علم الجرافولوجى (علم نظام الكتابة).

- يدرس علم اللغة الشكل والمقام (علاقة الشكل بالعالم الخارجى) فالشكل يدرسه علم النحو grammar (وهو يشمل الصرف) والمعجم Vocabulary، وإن كان كل منهما

يدرسه من زاوية مختلفة، ويدرس المقام علم المعنى أو الدلالة Semantics.

- ثمة جانب من جوانب اللغة لا يدخل في مجال علم اللغة الوصفي هو دراسة اللغة في علاقاتها بالذين يستخدمونها، وهذا الجانب يعده (هاليداى) فرعا منفصلا من العلوم، ويدرسه كموضوع خاص.

تداخل العلوم اللغوية وتكاملها:

عندما ندرس اللغة تنكشف لنا أنواع مختلفة من النماذج في صور متكاملة لا يغاير بعضها بعضا بل تتفاعل في الحدث اللغوي ودون حدود فاصلة، ولهذا لا ينبغي النظر إلى جوانب اللغة أو إلى العلوم التي تقوم بدراستها إلا بهذه النظرة.

ومن المفيد - بعد ما لخصناه من أفكار أساسية- أن نعرض بالتفصيل ما رآه (هاليداى) ورفيقاه من الفرق بين الفرعين اللذين يدرسان أصوات اللغة (علم الأصوات وعلم الفونولوجى) وبين الفرعين اللذين يدرسان الشكل اللغوي (النحو والمعجم).

أولا: علم الأصوات والفونولوجيا (علم نظام الأصوات):

لقد رأينا (هاليداى) يعد علم الأصوات قسيما لعلم اللغة لا فرعا له، ورأيناه كذلك يقرر أننا إذا اعتبرنا اللغة المنطوقة أصواتا في نظام، فإن علم الأصوات هو الذي يدرس الأصوات وعلم اللغة هو الذي يدرس النظام، وبين علم اللغة وعلم الأصوات يقع الفونولوجيا (أو علم وظائف الأصوات) كما سماه الدكتور أبو الفرج. إن الفونولوجيا هي الواسطة بين المادة (موضوع علم الأصوات) والشكل (موضوع علم اللغة) لأنها هي التي تضع أصوات اللغة في أنماط ونماذج، هذه الأنماط أو النماذج تُستغل كمكونات للعناصر الشكلية للغة. ولهذا كانت (الفونولوجيا) ذات ارتباط وثيق بهذين العلمين، ولا يجوز الفصل بينهما إلا لغرض التحليل اللغوي، ولا غِنى عنها في الدراسة اللغوية إذا أريد لها أن تكون شاملة ودقيقة[1].

---

(1) see: The Linguistics Sciences and Language Teaching, p.

ثانيا: النحو والمعجم:

يقرر (هاليداى) ابتداء شيوع ثلاثة أفكار مضللة بخصوص الفرق بين العلمين.

الأولى: أن المعجم يعالج مفردات اللغة، والنحو يعالج كل شيء آخر (أي العناصر الصغرى التي تتألف منها الكلمات والعناصر الكبرى التي تتألف من الكلمات).

الثانية: أن المعجم يعالج مفردات اللغة، والنحو يعالج العلاقات المجردة بين هذه المفردات.

الثالثة: أن المعجم يعالج المعنى، والنحو يعالج الشكل.

ثم يقرر أن الفكرة الثالثة خاطئة تماما، لأن الشكل جزء من المعنى لا نقيض له، والنحو والمعجم كلاهما يُعْنيان بالمعنى. ويقرر كذلك أن في الفكرتين الأولى والثانية بعض الصواب، ومع ذلك يرى أن ما يطلق عليه (الكلمة) ينتمي في الحقيقة إلى النحو والمعجم، ولكن من زاوية مختلفة، والنحو والمعجم يعالجان - في الحقيقة - مفردات وعلاقات تجريدية، وإن كان من الحق القول بأن التجريد أكثر في النحو منه في المعجم(١).

ويوضح (هاليداى) الفرق بين العلمين بطريقة جيدة قائمة على أساس مفهوم الاختيار في النحو والمعجم.

لو قلت لك ضع في المكان الخالي مما بين القوسين كلمة مناسبة (....الرجل كان جالسا) لقلت (هذا)، لقد اخترت (هذا) من بين مجموعة محدودة جدا من العناصر اللغوية هي ما يطلق عليه أسماء الإشارة وهي (هذا وهذه وهذان وهاتان وهؤلاء).

ولكنني لو قلت لك ضع كلمة مناسبة في المكان الخالي مما بين القوسين (هذا الرجل كان جالسا على.....).

فمن المحتمل أن تقول: كرسي، أريكة، الحشائش، بساط ومن المحتمل أن تقول شيئا آخر، بل من المحتمل ألا يتفق شخصان فيما يمكن أن يضعاه من كلمات.

---

(1) The Linguistics sciences and Language Teaching p.p.22,23

أنت في الحالة الأولى تختار من مجموعة محدودة من المفردات، وفي الحالة الثانية من مجموعة غير محدودة غالبا، وهذا هو أساس الفرق بين النحو والمعجم.

النحو يختص بالاختيار من النوع الأول حيث الاحتمالات محدودة، وحيث يوجد خط فاصل بين ما هو ممكن وما هو غير ممكن، فلو قلت (هذه) بدلا من (هذا) لتبينت أن (ذلك) غير ممكن لمخالفته للقاعدة التي توجب المطابقة بين البدل والمبدل منه في هذه الحالة، وأما المعجم فمجال الاختيار فيه من النوع الثاني حيث الاحتمالات بلا حدود غالبا. ويعرف النوع الأول بالاختيار المغلق Closed والنوع الثاني بالاختيار المفتوح Open ، إن معدل الاختيار من النوع المغلق يطلق عليه اصطلاح (النظام System)، ومن النوع المفتوح يطلق عليه (القائمة Set) وغالبا ما يقال عن النحو: إنه مختص بالنظام المغلق Closed System، وعن المعجم بأنه مختص بالقائمة المفتوحة Open System أو بعبارة مختصرة: النحو نظام والمعجم قائمة(١).

والسمة الأساسية للنظام المغلق أن عناصره يمكن تعريفها تماما سلبيا وإيجابيا، وعلى سبيل المثال ألف الاثنين عنصر من عناصر النحو في اللغة العربية، ويمكن تعريفها سلبا بالقول بأنها ليست مفردا أو جمعا، والفعل الماضي كذلك جزء من نظام الفعل في النحو العربي، ويمكن تعريفه سلبا بأن نقول: إنه ما ليس مضارعا أو أمرا... وهكذا الأمر في كل ما يتصل بعناصر النحو، بيد أنه لا يمكننا أن نفعل ذلك مع عناصر المعجم إذ لا يمكن أن نعرف الكرسي بأنه ما ليس كنبة أو بساطا(٢).

والفرق السابق - مع ذلك - ليس حاسما، في طرف نجد عناصر النحو المتمثلة في النظام المغلق، وفي الطرف الآخر نجد عناصر المعجم المتمثلة في القائمة المفتوحة. لقد تبين أن في كل اللغات عناصر تقع في الوسط بين النظام والقائمة تتدرج من هذا الطرف إلى ذاك،

---

(1) see: The Linguistics sciences and Language Teaching p.p.21.2

(٢) انظر: السابق ص٢٤.

حيث يكون عدد الاحتمالات مقيدا، ولكنه مع ذلك كبير، ومن أمثلة ذلك حروف الجر في العربية، ولهذا يختلف الباحثون في معالجتها فبعضهم يعالجها في النحو وبعضهم يعالجها في المعجم.

وإذا أردنا الدقة فإن اللغة لا ترسم فاصلا بين النحو والمعجم، ومع ذلك فمن الضروري أن يُرْسم مثل هذا الخط، لأن عناصر كل منهما تحتاج إلى نظريات مختلفة لتفسيرها أي: أننا لا يمكننا أن نفسر النموذجين كليهما (نماذج النحو) و(نماذج المعجم) بنفس الأقسام والعلاقات(١).

---

(١) انظر: السابق ص٢٢.

المبحث الثاني

منهج مقترح لتحليل الوحدات اللغوية

المنهج الشكلي (البنيوي):

تكرر في غير موضع من هذا الكتاب قولنا: إن اللغة نظام، أي أنها تتألف من وحدات، ومن قواعد، وعلاقات تحكم هذه الوحدات. لقد تبين للغويين أن معظم لغات العالم لها نظام صوتي ونظام صرفي ونظام نحوي، ولكل نظام من هذه الأنظمة وحدات وقواعد وعلاقات تحكم هذه الوحدات ولهذا قيل: إن اللغة نظام الأنظمة.

وقد كان (دى سوسير) ينظر إلى اللغة باعتبارات ثلاثة: اعتبار نفسي واعتبار اجتماعي واعتبار شكلي، ويتمثل الاعتبار الأخير - وهو الذي يعنينا هنا - فيما قرره من أن اللغة مجموعة من النظم المتداخلة التي تُكوِّن فيما بينها نظاما تركيبيا عاما هو الذي نسميه قواعد اللغة، وهو لا يعنى بالنظام مدلول التركيب أو الصيغة بل يعني التركيب نفسه أو الصيغة نفسها، وهذا هو الجانب الشكلي[1].

الدراسة الشكلية إذًا هي التي تدرس النظام أي وحدات اللغة وقواعدها وعلاقاتها.

ونظرا لاعتماد الدراسة اللغوية الحديثة على الجانب الشكلي للغة فقد وثق بعض اللغويين علاقتها بالعلوم الرياضية على اعتبار أن علم اللغة والعلوم الرياضية معنيان بالأنظمة الشكلية أي بالعلاقات التي تربط بين العناصر التي تؤلف النظام، وقد كان الهدف

---

(١) أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور ص٨٣.

من ذلك هو الوصول إلى دقة في الدارسة اللغوية تعدل الدقة في العلوم الرياضية(١).

والمصطلح (شكلي Formal) يراد به: معايير أو خصائص لغة ما يمكن أن تستخدم في التحليل اللغوي كأساس لتصنيف وحداتها وأنماطها أو نماذجها مثل: صيغ الكلمات أو نماذج الجمل أو ترتيب عناصرها... الخ.

واللغويون قد يقابلون الخصائص الشكلية بالخصائص الدلالية، وفي هذه الحالة تكون كلمة (شكل) مقابلة لكلمة (معنى)، وقد يقابلونها بالخصائص المادية للغة المنطوقة أو المكتوبة، وفي هذه الحالة تكون الكلمة (شكل) مقابلة لكلمة (مادة)(٢).

وتردد كذلك قول بعض اللغويين إن اللغة بنية أو تركيب، وأن علم اللغة الوصفي قد يَعْني عند بعض الباحثين علم اللغة البنيوي(Structural Linguistics). وبهذا يكون موضوع هذا العلم هو بنية اللغة أو تركيبها.

ويعرف علم اللغة البنيوي- بأوسع معانيه - بأنه أي دراسة لغوية لأية لغة على أنها نظام مستقل من الخصائص الصوتية والتركيبية تدرس من أجل ذاتها. ويعرف- بأضيق معانيه - على أنه يشير إلى منهج جماعة معينة من اللغويين الأوربيين (كاللغويين المعروفين بمدرسة براغ) الذين يزعمون أنه: لا عنصر من عناصر اللغة يمكن تحليله بمعزل عن العناصر الأخرى للغة نفسها(٣).

ونخرج من هذا بأن الدراسة الشكلية أو التركيبية يدرسان اللغة من حيث هي نظام أو مجموعة من الأنظمة، لكل نظام منها وحدات وقواعد وعلاقات.

---

(1) Dinneen, An Introduction to general Linguistics p.p. 67,68
(2) Hartmann and Stork, Dictionary of Language and Linguistics
(3) Dinneen, An Introduction to general Linguistics p. p. 67,68

ويطلق على وحدات النظام الصوتي المصطلح Phonemes فونيمات أو وحـدات صـوتية، ويطلق على وحدات النظام الصرفي المصطلح Morphemes مـورفيمات أو وحـدات صرفيـة، أما وحدات النظام النحوي فهي بعينها الوحدات الصرفية حين تُنظم في عبارات أو جمل.

وسوف نعرض هنا بإيجاز المخطط الشائع بـين اللغـويين أصـحاب المـنهج الـشكلي أو البنيوي في تحليل هذه الوحدات تحليلا لغويا.

أولا: الوحدات اللغوية

١. الفونيم:

يعرف دانيال جونز الفونيم بأنه: عائلة من الأصوات المترابطة فيما بينها في الصفات في لغة معينة، والتي تستعمل بطريقة تمنع وقوع أحد الأعضاء في كلمة من الكلمات في نفس السياق الذي يقع فيه عضو آخر من العائلة نفسها(١).

فالنون في أنباء وأنياب واندحار وانشطار فونيم واحد على الرغم من أنها تتميز في كل موقع من المواقع السابقة بصفة اكتسبتها من وقوعها موقعا خاصا منها، وإن كانت كل هذه النونات تشترك في صفات أخرى تجعلها مخالفة لأي فونيم آخر. وهذا معناه أن النون فونيم واحد له تنوعات مختلفة تظهر في سياقات خاصة، ويطلق على هذه التنوعات المصطلح ألفون allophone فالنون إذًا فونيم له ألوفونات تظهر في مواقع خاصة.

وهناك تعريفات أخرى للفونيم والألوفون نشير هنا إلى تعريف (فوكس)، لأنه سيلقى الضوء على هذا المفهوم يقول: الفونيم صورة ذهنية يَكُدُّ المتكلم في الوصول إليها، أما الصوت allophone فهو الإنجاز الذي يحققه تحت أي ظرف معين وفي أي محيط محدد(٢). وعلى هذا ففونيم النون المشار إليه سابقا ليس له وجود فعلى، أو تحقق واقعى، بل هو فكرة مجردة في ذهن المتكلمين بالعربية، أي أنه ليس واحدا من النونات السابقة التي في أنباء أو في أنياب....إلخ، وهذه النونات ليست إلا الأشكال الواقعية المتحققة التي يقوم المتكلم بإنتاجها، ويقوم السامع باستقبالها، وليست إلا محاولات يقوم بها المتكلم لتحقيق الفكرة المجردة لفونيم النون، وهي- كما أسلفنا - يتم إنجازها تحت شروط خاصة (موقعها مما قبلها ومما بعدها).

ويفطن المتكلمون باللغة المعينة إلى الاختلافات الفونيمية، ولكنهم قليلا ما يدركون

---

(١) بشر (د. كمال) علم اللغة العام (الأصوات) ص١٥٧.

(٢) ماريو باى أسس علم اللغة ص٩٠.

الفروق الصوتية التي تميز أفراد الفونيم الواحد[1]. فلو نطق أحدهم بالفعلين انتصر واقتصر لأدرك السامع الفرق بينهما، ولكنه ربما لا يفطن إلى الفرق بين النون في انتصر وانكسر. وذلك راجع إلى أن تغيير الفونيم يصحبه تغيير في المعنى، على حين لا يترتب على التغيير الصوتي تغير في المعنى، وعلى هذا فالوحدة الصوتية أو الفونيم تشير إلى فرق في المعنى، ولكنها لا تشير إلى شيء خارج السياق اللغوي، فالقاف من (قام) تشير إلى فرق بين هذه الكلمة وكلمات أخرى تتفق معها في الوحدات الأخرى مثل: (نام) و (صام) و(عام)... إلخ فالقاف من (قام) والنون من (نام) والعين من (عام) هي التي جعلت كل كلمة من الكلمات السابقة مختلفة عن الأخرى، ولكنها لا تدل وحدها على شيء مما تدل عليه الكلمة كلها.

وفي بعض اللغات مجموعة من الفونيمات يطلق عليها الفونيمات الثانوية كالنبر والتنغيم وهي ظواهر صوتية إضافية تصاحب الفونيمات الأساسية أو مجموعاتها.

وقد يكون لهذه الفونيمات تأثير في المعنى في بعض اللغات. ففي الإنجليزية تكون الكلمة Present ظرفا إذا نَبَرت المقطع الثاني، وتكون فعلا إذا نبرت المقطع الأول، ويرتبط النبر بقوة الصوت أو علوه.

أما التنغيم فيؤدى دورا كبيرا في اللغة الصينية، وقيمته تعادل تمام قيمة السواكن أو الحركات فالكلمة Fu تنطق بأربعة ألحان مختلفة فتعنى مرة (رجل) ومرة (حظا سعيدا) ومرة (مقر الوالي) ومرة (غنى)[2].

ولكنه يؤدى دورًا أقل أهمية في الإنجليزية والعربية. ففي العامية المصرية مثلا تنطق الجملة (محمد جه) بنغمات مختلفة فتكون مرة للإخبار بمجيئه، ومرة للسؤال عن مجيئه.

ويرتبط التنغيم بتركيب نغمة الصوت الأساسية.

---

(١) انظر: ماريو باى أسس علم اللغة ص٩٣، ٩٤.

(٢) انظر: ماريو باى: أسس علم اللغة ص ٩٣، ٩٤.

٢. المورفيم:

يعرف المورفيم بأنه: أصغر وحدة ذات معنى في تركيب اللغة[١].

ويقصد بالمعنى هنا العلاقة بين المورفيم كجزء من النظام التعبيري للغة، والوحدة المقابلة له في نظام المضمون في نفس اللغة. فالكلمة (تفاحة) مورفيم، لأنها ترتبط ارتباطا مباشرا بفرد من أفراد نظام المضمون في اللغة العربية أي صورة الثمرة المعروفة.

وقد يتألف المورفيم الواحد من عدد من الفونيمات، فالكلمة كتاب تتألف من الفونيمات: k+ i + t + aa + b. وقد يكون من فونيم واحد ومثاله في الإنجليزية s فالشكل Books يتألف من المورفيم Book والمورفيم s، والمورفيم s هو أصغر وحدة ذات معنى في النظام التعبيري في اللغة الإنجليزية،وهو يدل على الجمع، ومثاله في العربية تاء التأنيث فهي أصغر وحدة ذات معنى في اللغة العربية وهي فونيم واحد.

ومن التعريفات المفيدة للمورفيم: سلسلة من الفونيمات ذات المعنى لا يمكن تقسيمها بدون فقدان المعنى أو تغييره[٢]. فالشكل: (كتابان) يمكن تقسيمه إلى شكلين هما كتاب + ان، فالمورفيم (كتاب) يشير إلى شيء محدد معروف، والمورفيم (ان) يشير إلى التثنية. غير أن المورفيم (كتاب) لا يمكن تقسيمه بعد ذلك فلا يمكن أن يقال Ki + taab فالجزء الأول Ki لا معنى له وكذلك الجزء الثاني.

المورفيم الحر والمورفيم المقيد:

من المناسب هنا أن نشير إلى نوعين من المورفيمات النوع الأول هو ما نسميه المورفيم الحر، وهو وحدة صرفية يمكن أن تستخدم وحدها باعتبارها كلمة ذات معنى محدد[٣].

فالشكل (مسلمون) يتألف من مورفيمين أحدهما وهو (مسلم) مورفيم حر حيث

---

(1) Gleason, An Introduction to descriptive Linguistics, p.509

(٢) أسس علم اللغة ص١٠١.

(٣) انظر: أسس علم اللغة ص ٥٣، ٥٤.

يمكن استخدامه وحده باعتباره كلمة ذات معنى محدد، والثاني هو المورفيم (ون) ولا يمكن استخدامه وحده باعتباره كلمة مستقلة. والمورفيم الحر هو ما يطلق عليه (الكلمة).

ويعنى هذا أن المورفيم المقيد لا يوجد في اللغة المعينة مستقلا بنفسه بل لابد من اتصاله بسواه من المورفيات.

ومن أمثلة المورفيات المقيدة في العربية ما يسمى اللواصق، واللواصق تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ويعرف بالسوابق وهو المورفيات التي تسبق المورفيم الحر، ومن أمثلتها حروف المضارعة وهمزة التعدية.

النوع الثاني: ما يعرف بالأحشاء وهي المورفيات التي تتوسط المورفيم الحر، ومن أمثلتها تضعيف عين الفعل، وألف فاعل وألف جمع التكسير.

النوع الثالث: ما يعرف باللواحق وهي المورفيات التي تلحق بآخر المورفيم الحر مثل ياء النسب وتاء التأنيث وعلامة جمع التصحيح والتثنية.

المورفيم والألومورف:

لعلك لاحظت معي أن الفرق بين معنى قام وقامت هو وجود المورفيم تاء التأنيث في الشكل الثاني، وأن الفرق بين كتب Kataba وكتب Kutiba هو في نوع الحركة في المقطع الأول وفي المقطع الثاني منهما، وهذا معناه أن التغيير في شكل الكلمة يترتب عليه تغيير في المعنى. ولكن قد يقع تغيير في الشكل لا يترتب عليه تغيير في المعنى، ولعل المثال الآتي من اللغة الإنجليزية يوضح القضية السابقة.

نلاحظ أن اللاحقة S حين تضاف إلى الكلمات الآتية cat, dog, rose يكون لها نفس الوظيفة، وهي الدلالة على الجمع، ولكنها تتغير مباشرة بنوع الأصوات التي تسبقها، فالصوت الأخير في Cats يشبه الصوت الأول في الكلمة Sue والصوت الأخير في Dogs يشبه الصوت الأول في الكلمة Zoo والصوت الأخير في roses يشبه أصوات الكلمة is.

ومعنى هذا أن المورفيم الواحد قد يظهر في أشكال صوتية مختلفة تبعا لما يسبقه من أصوات فهو S بعد P, t, k, o, وهو iz بعد z, s,e وهو Z بعد الأصوات الساكنة الأخرى.

وهذا مؤداه أن المورفيم S الذي معناه الجمع قد يظهر في أشكال مختلفة في مواقع لغوية محددة، وهذه التنوعات لا يقابلها تغيير في المعنى، فهي كلها على الرغم من تعددها تؤدي معنىً واحدا هو: الجمع، ولهذا يفرق اللغويين بين المورفيم وبين أشكاله المختلفة في مواقع محددة، ويطلق على هذه التنوعات allomorphs ألومورفات.

والخلاصة أن الأشكال اللغوية s,z,iz ما هي إلا ألومورفات لمورفيم واحد هو / S/ .

ومن أقرب الأمثلة لتوضيح هذا الموضوع أن الألف والتاء حين يضافان إلى اسم أو وصف في العربية يفيدان معنى الجمع المؤنث فيقال في زينب زينبات وفي مسلم مسلمات... وهكذا.

والألف تأخذ في النطق أشكالا مختلفة فهي [a a t] إذا سبقت بصوت مفخم مثل قصات وبطات وعظات، وهي [æ æ t] إذا سبقت بصوت مرقق نحو خمسات وثابتات وباردات، وهي [ạ ạ t] إذا سبقت بصوت بين التفخيم والترقيق نحو بلاغات وصرخات ورقيقات...

ومؤدى ذلك إلى أن الألف والتاء مورفيم يدل على معنى معين وهو جمع المؤنث، وأنها تأتي في النطق في ثلاثة أشكال (ألومورفات) مشروطة بموقع معين (أي بعد صوت مفخم أو مرقق أو بين بين) ولا ينبني على التغيير الصوتي الناشئ عن موقعها هذا الموقع أي تغيير في المعنى.

٣. الجملة:

يبذل علماء اللغة المحدثون جهودا كبيرة في محاولة الوصول إلى تعريف يوضح الخصائص العامة لمفهوم الجملة أي الخصائص العامة التي يمكن التعرف عليها من منطوق

كل اللغات. وفي هذا المجال يذكر لغوى معاصر مائة وأربعين تعريفا مختلفا[1] وسوف نكتفي هنا بتعريف بلومفيلد التي يكاد يتفق عليه الباحثون، ولا يعني هذا أنه تعريف جامع مانع يحسم كل خلاف ويستعصى على النقد، إن هدفا كهذا يصعب الوصول إليه بل من العبث الادعاء بالوصول إليه. وما نهدف إليه هنا هو التعريف الذي يصلح للبحث ويحقق الهدف المحدد للدراسة.

يقول بلومفيلد: الجملة شكل لغوى مستقل ليس متضمنا في شكل لغوى أكبر وفقا لمقتضيات التركيب النحوي[2].

ولتوضيح ذلك نقول: إن المنطوق: (قام محمد) جملة، لأنه شكل أكبر ليس جزءا من شكل أكبر منه. أما قولنا: (الذي قابلته) في المنطوق (قام محمد الذي قابلته) فليس جملة، لأنه جزء من تركيب أكبر هو: (قام محمد الذي قابلته)، وحين يقع الشكل اللغوي جزءا من شكل أكبر يقال: إنه في وضع متضمَّن، وإلا فيقال إنه في وضع مطلق، وهذا الشكل الأخير هو: الجملة.

ويشير بلومفيلد إلى نقطتين مهمتين في هذا الصدد:

الأولى: أن الشكل اللغوي قد يكون مستقلا في موضع ومتضمنا في موضع آخر.

"قد يظهر شكل ما في منطوق ما على أنه جملة على حين يظهر هذا الشكل نفسه في منطوق آخر في وضع متضمن، فنحن نعد الشكل (نبح الكلب) جملة، ولكنه في المنطوق (إن نبح الكلب هرب الطفل) في وضع متضمن.

الثانية: أن المنطوق الواحد قد يتألف من عدة جمل.

"قد يتألف منطوق ما من أكثر من جملة، وهذا هو الحال عندما يحتوى المنطوق على أشكال لغوية ليس لها علاقة نحوية مرتبطة – بأي معنى من المعاني وفقا للنظام النحوي

---

(1) Fries, The structure of English, p. 17.
(2) Bloomfield , Language , p. 179

المعين بشكل أكبر"(١).

والمثال الآتي يوضح ما سبق:

لا تصري على الكذب. لا يهمك إلا أمره وحده. ألم تطلعي على نشرته المسودة بمداد الحقد؟

يتضمن المنطوق السابق وفقا لتعريف بلومفيلد ثلاث جمل، لأنه لا يتضمن أي عنصر نحوي مما نسميه في العربية الروابط يربط بين جمله الثلاث، على الرغم من وجود ارتباط معنوي بينها.

ومن الخصائص التي تنبه إليها اللغويون في تحديد الأشكال المستقلة أو الحرة أنها يمكن أن تأتى منفردة في أية منطوق لغوى، وهذا يعنى أنها تقع بين سكتتين، سكتة قبلها وأخرى بعدها.

إن أسهل وحدة يمكن تحديدها بدقه - في أي محادثة - هي كلام شخص ما حتى يتوقف ويبدأ شخص آخر، أي أن وحدات الكلام سوف تكون بناء على هذا مجموعات تتحدد بتغير المتكلم، والخطوة الأولى في الدراسة التي تهدف إلى بيان الأشكال المستقلة وغير المستقلة تعتمد على وحدات المنطوق التي يمكن أن تأتي منفصلة عن طريق تغيير المتكلم(٢).

وقد أشار بلومفيلد في تعريفه إلى ما يطلق عليه (التراكيب النحوية) التي يكون بمقتضاها شكل ما شكلا مستقلا أو غير مستقل. وهي قرائن يستدل بها على الأشكال المستقلة وغير المستقلة. ومن النماذج التي قدمها للأشكال غير المستقلة:

١. الأشكال التي تعتمد على موقف معين أو كلام سابق. كأن تقول: (غدًا) تكملة لكلام سابق.

٢. الأشكال التي تتضمن وحدات لغوية تشير إلى وحدات سابقة كأن تقول: (وهو

(1) Bloomfield , Language , p. 179
(2) Fries , The structure of English, p. 23 , 25.

يركب سيارته) تكملة لكلام سابق.

٣. الأشكال التي تتضمن أدوات أو عبارات تشير إلى كلام سابق. كأن تقول: (إن جاءني) تكملة لكلام سابق[1].

الجملة في النحو العربي

إن فكرة استقلال الجملة أو عدم استقلالها من الأفكار المهمة البارزة في النحو العربي يقول: ابن جني في تعريف الكلام أو الجملة: أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحاة جملة نحو: زيد أخوك وقام محمد وفي الدار أبوك وصه ومه ورويدَ وحاءِ في الأصوات فكل لفظ استقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام[2].

فالكلام أو الجملة في تعريفه يشترط فيهما أمران: الاستقلال والإفادة. وأمثلته للجمل المستقلة لا تبعد كثيرا عما مثل به بلومفيلد آنفا.

وما ذكره النحاة عن الكلم في حال عدم الإفادة يكاد يعبر عما يعبر به اللغويون المحدثون بالشكل غير المستقل، يقول أبو يعقوب المغربي: جملة الحال إذا نظر إليها من حيث هي، أي من حيث إنها جملة، مستقلة بالفائدة، لأنها إنما وضعت في الأصل بناء على وضع الجمل، أو استعملت لتفيد فائدة يحسن السكوت عليها فتكون مستقلة بالإفادة، فإذا لم تستقل بأن توقف إفادتها على شيء آخر فلعروض ربطها بغيرها، فالجملة الحالية من حيث هي حالية تفتقر إلى كون آخر تكون هي قيدا له، ولا تستقل بالإفادة من تلك الحيثية، لأنها سبقت حينئذ لتكون قيدا لغيرها، فإذا قلت: جاء زيد وعمرو يتكلم فجملة قولك (وعمرو يتكلم) لها جهتان: جهة كونها حالا وجهة كونها من مبتدأ وخبر[3].

ونستخلص من النص السابق أن ما يطلق عليه في النحو العربي جملة الحال (وغيرها من

---

(1) See: Bloomfield , Language , p.p. 176 , 299.

(٢) الخصائص ١/ ١٧.

(٣) شروح التلخيص ٣/ ١٩٣.

الجمل التي لها محل من الإعراب) شكل غير مستقل، لأنه يتوقف على شكل لغوى آخر يتعلق به عن طريق ما يسمى الربط، فالشكل (وعمرو يتكلم) ليس جملة لأمرين: الأول أنه شكل متضمن في شكل أكبر منه هو قولنا: جاء زيد. والثاني أن هذا الشكل لا يجيء مستقلا بدليل الواو التي تربطه بما قبله من قولنا: جاء زيد.

وعندما نقابل ما ذكره بلومفيلد وشراحه عن الجملة بما ذكره نحاة العربية سوف نجد تشابها كبيرا بين الفريقين، وليس معنى هذا أن بلومفيلد قد تأثر بالنحو العربي، ولكن الأمر ينبغي أن يتجاوز تلك النظرة الضيقة إلى نظرة أكثر عمقا وشمولا. ومؤدى هذه النظرة أن مفهوم الجملة مفهوم عالمي عام لا يختص بلغة معينة وهذا مبرر كاف لكثير من الدارسين في القول بالنحو العالمي الذي ينتظم كل لغات البشر، وفي ذلك يقول أحدهم: " إن اللغات الإنسانية كلها تتضمن منطوقات مستقلة وأخرى غير مستقلة، ولكنها تختلف فيما بينها في الخواص الشكلية التي تميز هذه المنطوقات[1].

(1) Fries , The structure of English, p. 14.

ثانيا: المكونات المباشرة immediate constituent

المكونات المباشرة من أهم المبادئ والتقنيات المعتمدة في النظرية البنيوية.

ونقطة البداية في توضيحها أن الجملة ليست مجرد عدد من الوحدات أو المورفيمات المتتالية، بل هي عبارة عن نسيج متداخل من عناصر أولية تتمثل من طبقات بعضها وراء بعض، فوحدات الطبقة السفلى جزء من طبقة عليا، ووحدات هذه الطبقة هي الأخرى جزء من طبقة أعلى منها.. إلخ. ولكي نحقق هذا المستوى من التحليل نتعرض بالدراسة لعدد من المصطلحات التي تتصل بالموضوع.

ولنبدأ بتعريف المصطلح construction المركب: يقول (جليسون) في تعريفه: "المركب: أي مجموعة ذات معنى من الكلمات (أو المورفيمات). وهو يتألف على الأقل من شكلين ، ولابد أن يكون بين مكوناته ارتباط مباشر"(١).

فالمنطوق: عندما دخل العميد وقف الحاضرون. مركب لأنه يتألف من أكثر من شكل لغوي. ويمكن تحليل هذا التركيب إلى مكونين أساسيين هما: أ- دخل العميد . ب- وقف الحاضرون. ويمكن أيضا تحليل المكونين السابقين إلى وحدات أخرى.

فالمكون أ يتألف من مكونين هما: ١- دخل. ٢- العميد.

والمكون ب يتألف من مكونين هما: ١- وقف. ٢- الحاضرون.

ويمكن أيضا تحليل أحد مكوني (أ) أو (ب) إلى وحدات أخرى:

فالمكون(٢) وهو أحد مكوني (أ) يتألف من مكونين هما:١- أل.٢-عميد.

والمكون (٢) وهو أحد مكوني (ب) يتألف من مكونين هما: ١- أل. ٢- حاضرون.

وقد لاحظنا أننا وقفنا في تحليل المركب (دخل العميد) إلى ثلاثة مكونات فحسب ولم يعد ممكنا تحليله إلى وحدات أقل.

(1) Gleason , An Introduction to descriptive linguistics, p. 132.

أما المركب (وقف الحاضرون) فلم نقف عند حد تحليله إلى ثلاثة مكونات: وقف + أل + حاضرون لأن المركب (حاضرون) يمكن تحليله إلى مكونين هما: حاضر + ون.

وبهذه المرحلة من التحليل نصل إلى المكونات النهائية للمنطوق.

والشكل الآتي يوضح هذا التحليل.

عندما	دخل	أل	عميد	وقف	أل	حاضر	ون
عندما	دخل	أل	عميد	وقف	أل	حاضرون	
عندما	دخل	العميد		وقف	الحاضرون		
عندما	دخل العميد			وقف الحاضرون			

ونصل الآن إلى المصطلح الثاني وهو "المكون " Constituent:

المكون: أي كلمة أو (مورفيم) أو مركب يشترك في مركب أكبر[1].

لقد اعتبرنا كل المورفيمات الداخلة في المثال السابق مكونات، ولقد لاحظنا أنها كلها ماعدا أصغر مكون تعد مركبات، وأنها كلها ماعدا أكبر مركب تعد مكونات.

وهنا نأتي إلى المصطلح الثالث وهو: المكون المباشر Immediate Constituent ؛ والمكون المباشر هو: واحد من اثنين من المكونات التي يتألف منها مباشرة أي مركب مدروس[2].

مثال ذلك أن المكونين المباشرين في المركب (عندما دخل العميد وقف الحاضرون) هما:

أ- دخل العميد. ب- وقف الحاضرون.

وأن المكونين المباشرين للمركب (دخل العميد) هما:

١- دخل. ٢- العميد.

وأن المكونين المباشرين للمركب (العميد) هما:

(1) Gleason , An Introduction to descriptive linguistics, p. 132.
(2) Gleason , An Introduction to descriptive linguistics, p. 132.

١ - أل. ٢ - عميد.

إن المكونات المباشرة للمركب المدروس هي مكوناته في المستوى الأدنى القادم، وهذه المكونات في أي مستوى أدني سوف تكون مكونات، ولكنها سوف تكون مكونات غير مباشرة(١).

ففي المركب (عندما دخل العميد وقف الحاضرون) مكونان مباشران هما في التحليل الأول:

دخل العميد. ب- وقف الحاضرون.

وفي التحليل الأدنى ينقسم المكون الأول إلى مكونين مباشرين هما:

١ - دخل . ٢ - العميد. هذان المكونان غير مباشرين في المركب (عندما دخل العميد وقف الحاضرون).

١ - وقف. ٢ - الحاضرون.

هذان المكونان غير مباشرين في المركب (عندما دخل العميد وقف الحاضرون).

وفي النهاية نستطيع أن نقول إن مكونات المركب عندما دخل العميد وقف الحاضرون هي: عندما / دخل / أل / عميد / وقف / أل / حاضر / ون.

هذه المكونات هي ما يطلق عليه المكونات النهائية Ultimate Constituent.

وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نقسم أي مكون منها إلى أجزاء أخرى.

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن دراسة المكونات المباشرة ومعرفة ما بينها من علاقات تأتي في المقام الأول، أما دراسة المكونات غير المباشرة فلها أهمية ثانوية، لأن معظم العلاقات ذات الأهمية الكبيرة تكون بين المكونات المباشرة(٢).

---

(1) Ibid , p. 133.
(2) Dinneen An Introduction to general Linguistics, p.11

ثالثا: التحليل اللغوي المتكامل

قدمنا في الصفحات السابقة فكرة موجزة عن الوحدات اللغوية، وكيف تسلك في خيط تتوالى فيه وتتعالق وهو ما يعرف بالمكونات المباشرة، وبعض اللغويين لا يكتفي بهذا الجانب ويضيف إليه جانبين آخرين وهما الجانب التوزيعي والجانب الوظيفي، وقد رأيت أن نجمع الجوانب الثلاثة في هذا المبحث لتتكامل جوانبه. وقبل أن نتحدث عن هذا المنهج المقترح للتحليل نقرر بعض المبادئ الكبرى التي تلقي الضوء عليه.

اللغة أصوات: بمعنى أنها تتألف من عدد من الأصوات تنتظم في مجموعات أو أشكال محددة.

اللغة معنى: أي أن أصوات اللغة لها علاقة تقريبا بكل ما هو خارج اللغة من حقائق الكون والإنسان.

اللغة اعتباطية: أي أن العلاقة بين الأصوات والمعاني ليست دائما إلا علاقة غير مباشرة.

اللغة عرفية: أي أن أفراد المجتمع اللغوي المعين يربطون - بطريق العرف العام - بين شكل لغوى ما و شيء خارج اللغة.

وهذا المنهج المقترح في تحليل وحدات اللغة يعتمد على أن أي وحدة لغوية يمكن تحديدها عن طريق صفاتها التركيبية والتوزيعية والوظيفية.

١. تركيب الوحدات اللغوية:

لكي نعرف شيئا عن طريق تركيبه فمعنى ذلك أننا لابد أن نعطى قائمة تامة جامعة للأجزاء المكونة له، وهي عملية تميز هذا الشيء عن أشياء أخرى ذات أجزاء أكثر أو أقل. وعلى سبيل المثال يمكننا أن نعرف الأصوات المفردة المستخدمة في لغة ما عن طريق تركيبها بوصف وتصنيف الحركات النطقية المطلوبة لإصدارها(1).

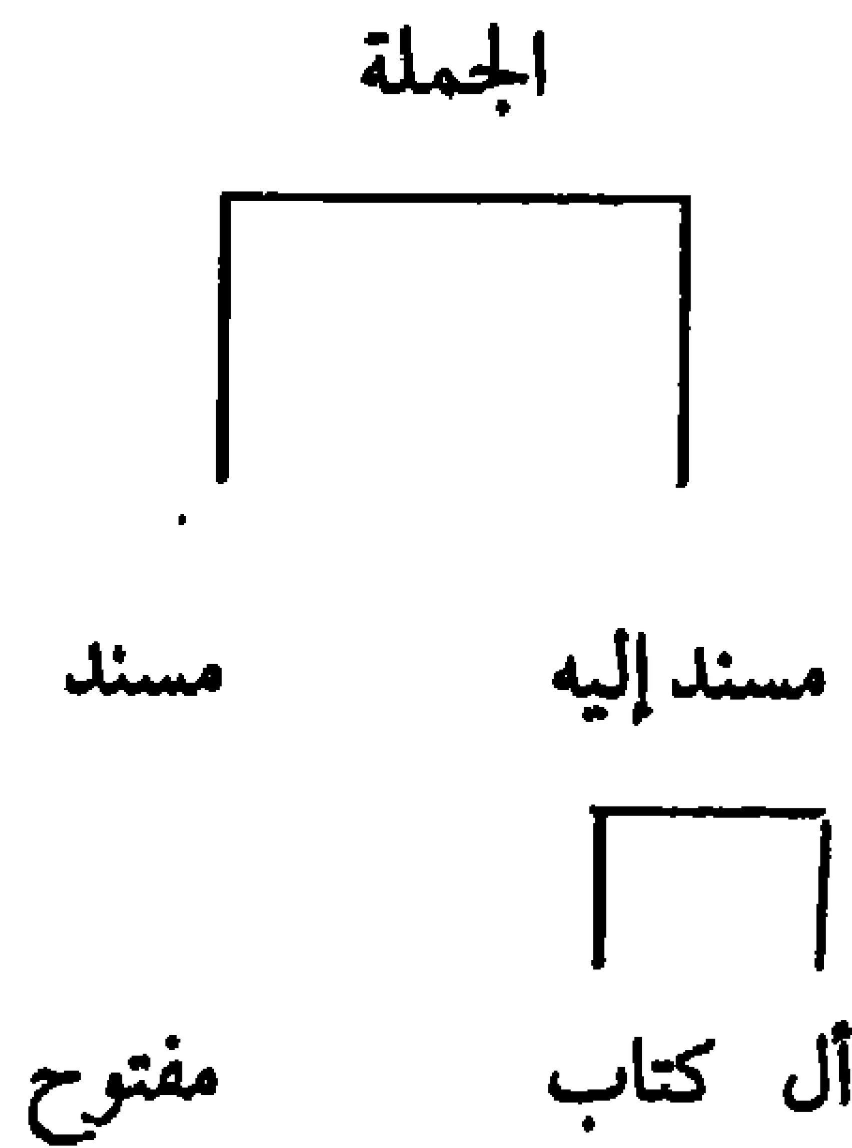
---

(1) Dinneen , An Introduction to general Linguistics , p. 11.

لنفرض أننا نريد أن نعرف الوحدة الصوتية (ب) علينا أولا أن نصف مكوناتها، فنصف ما تقوم به أعضاء النطق من حركات لكي تقوم بإنتاجها (لاحظ أننا قد عزلنا هذه الوحدة عن غيرها من الوحدات التي قد تسبقها أو التي تتلوها في الكلام الفعلي، وقد فعلنا ذلك حتى يتيسر لنا دراستها) فنقول مثلا: عند النطق بالباء يمر الهواء بالحنجرة فيتذبذب الوتران الصوتيان، ثم يتجه إلى الحلق ثم الفم، ثم ينحبس عند الشفتين المغلقتين إغلاقا تاما، ثم تنفتح الشفتان فجأة ويخرج منها هذا الصوت.

أما المورفيمات فيمكن تعريفها تبعا للفونيمات التي تكونها فالمورفيم (كتاب) مثلا يتألف من الفونيمات الآتية K+ i + t + aa+ b

أما الجمل فيمكن تعريفها عن طريق المورفيمات التي تكونها، فالجملة: الكتاب مفتوح تتألف على النحو الآتي:



٢. توزيع الوحدات اللغوية:

رأينا قبلا أن الأصوات المفردة (الفونيمات) في لغة ما تأتي في عدد من التجمعات الصوتية نتيجة لطبيعة اللغة المنطوقة، وهذا هو ما يقال أيضا عن المورفيمات أو الكلمات.

ومن الممكن بناء على هذا أن نعرف الوحدات اللغوية عن طريق توزيعها وبيان علاقة كل منها بالأخرى. ولكي نقوم بذلك بدقة كبيرة فعلينا أن نعين بيئة محددة يمكن أن تقع فيها هذه الوحدات. إن البيئة اللغوية هي نقطة مختارة من السياق الذي تتوالى فيه وحدات

اللغة[1].

ويمكننا على سبيل المثال أن نحدد في مجال توزيع الأصوات كل الأصوات التي تقع في أول المقطع أو في وسطه أو في آخره وما يمكن أن يحدث لها من تغيير. فالحركة الطويلة في العربية (ألف المد) قد تأتي مسبوقة بالأصوات الساكنة (أ ب ت ث... إلخ) فتكون قمة المقطع. وتختلف طبيعتها وفقا لهذه الأصوات وفقا للنظام التوزيعي الآتي:

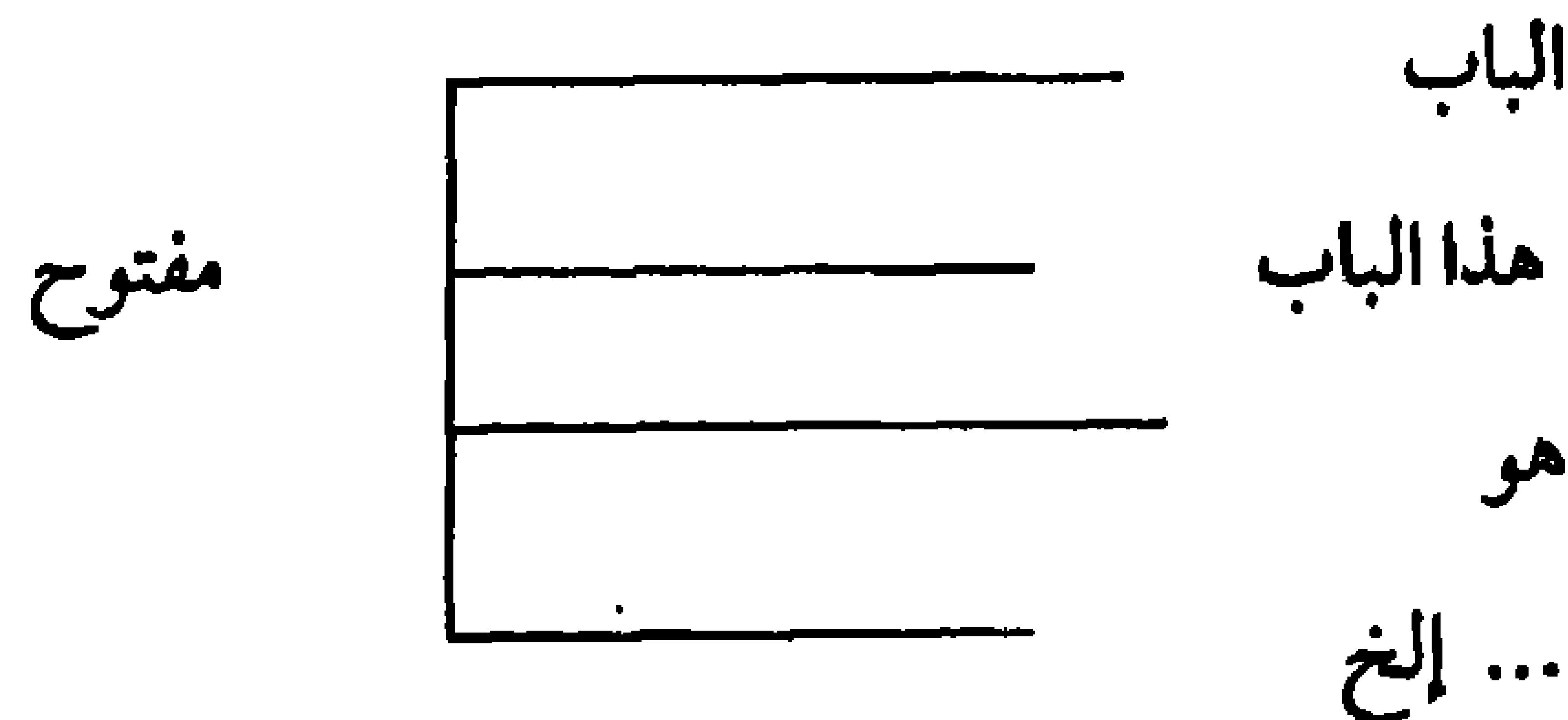
١. ألف المد مفخمة حين تسبق بصوت مفخم مثل صار ضار طار.. إلخ.

٢. ألف المد مرققة حين تسبق بصوت مرقق مثل سار دار تاب.. الخ.

٣. ألف المد بين الترقيق والتفخيم حين تسبق بالأصوات الأخرى غير المفخمة وغير المرققة مثل مال وبال.. إلخ.

ويمكننا كذلك أن نحدد – في مجال توزيع أجزاء المورفيم أو الكلمة من الفونيمات – الصيغ التي يمكن أن تجيء عليها الجذور، والقسم الذي تنتمي إليه الصيغة، وما يمكن أن تتعرض له الجذور من تغيرات عند صوغها، كما يمكن أيضا التعرف على ما يمكن أن يتصل بالكلمة من سوابق أو لواحق أو أحشاء.

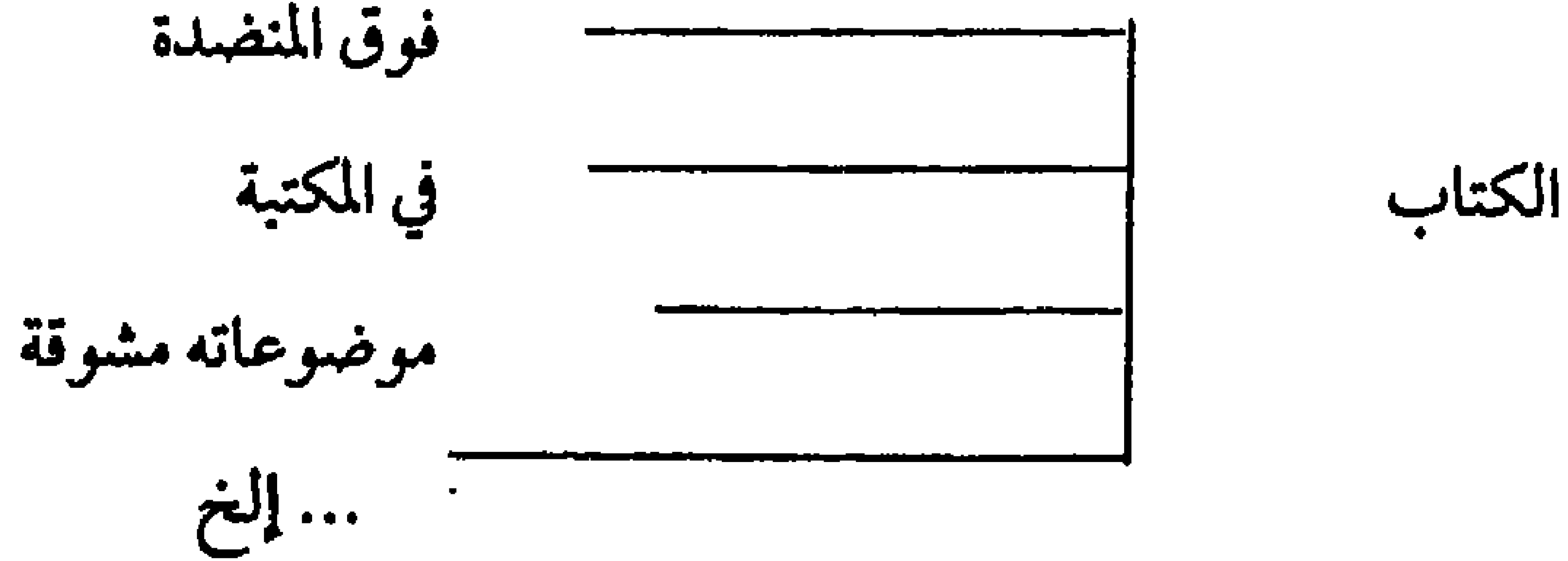
ويمكننا التعرف – في مجال توزيع الكلمات في الجملة – على الكلمات أو العبارات التي يمكن أن تحل محل كلمات أو عبارات أخرى، وعلى سبيل المثال يمكن أن تحل أشكال معينة (كلمات أو عبارات) في موقع الكلمة (الكتاب) في الجملة (الكتاب مفتوح) فنقول:



(1) Dinneen , An Introduction to general Linguistics , p.p. 11 ,12.

وتعرف هذه الأشكال بأشكال المسند إليه.

ويمكن أيضا التعرف على الأشكال التي يمكن أن تحل في موقع الكلمة (مفتوح) في الجملة السابقة فنقول:



وتعرف هذه الأشكال بأشكال المسند.

وشغل المواقع على النحو الذي شرحناه يعرف بالعلاقة الرأسية[1]؛ لأن اختيار وحدة من الوحدات السابقة لتشغل موقعا محددا يقوم على أساس علاقة هذه الوحدة بوحدات أخرى من خارج السياق تصلح أن تشغل الموقع نفسه، وهو ما يشار إليه بالمصطلح (الاستبدال Substitution).

وقد يتم اختيار وحدة ما لتشغل موقعا معينا حين ننظر إلى علاقة هذه الوحدة بما يجاورها في سياقها ويعرف هذا بالعلاقة الأفقية، ويتفرغ عن العلاقة الأفقية العلاقات الآتية:

التضام وهو أن تتطلب كلمة من قسم ما (من أقسام الكلام) وهي في سياق بعينه كلمة أو كلمات بعينها ليتألف من مجموعها جملة أو جزء خاص من جملة فالكلمة (محمد) مثلا وهي من قسم الأسماء تتطلب كلمة مثل (جاء) وهي من قسم الأفعال ليتألف منهما الجملة (جاء محمد).

والرتبة وهي النظام الذي تسلكه الوحدات في سياق أفقي محدد، كأن تتقدم وحدة على

---

(١) انظر في موضوع العلاقات النحوية رأسية أو أفقية:

Robins , General Linguistics , an introductory survey p. 224.

وكتابي (سوسير رائد علم اللغة الحديث).

وحدة أخرى، أو تتأخر عنها بشكل ثابت أو غير ثابت، وعلى سبيل المثال تأتي الصفة في العربية في مكان ثابت في العبارة، فهي بعد الموصوف فيقال محمد الكريم فحسب، ولكن المفعول به قد يتقدم على الفعل أو الفاعل. فيقال ضرب محمد عليا، وعليا ضربه محمد، وضرب عليًا محمدٌ.

والمطابقة: وهي تتم بين بعض الأشكال اللغوية في سياقات معينة، فالصفة مثلا تتطابق مع الموصوف في التعريف والتنكير والتذكير والتأنيث والإفراد والجمع... إلخ.

٣.وظيفة الوحدات اللغوية:

من الممكن أن نعرف الوحدات التي تتكون منها لغة ما عن طريق وظائفها أي عن طريق الغرض الذي تؤديه أو الهدف الذي تحققه[1].

والوظيفة الأولى للغة هي أن تنقل المعاني وهذا يتم من خلال الأصوات ومن خلال الفروق الصوتية، ولكل وحدة من وحدات اللغة وظيفة واحدة مميزة على الأقل. إن كل وحدة سوف تميز رسالة من أخرى حتى وإن لم تحمل معنى في ذاتها، وهذه هي الوظيفة العادية للأصوات المفردة أو الفونيات. أما الوحدات الأخرى فلها بالإضافة إلى وظيفتها المميزة وظيفة إشارية، أي أن هناك علاقة عرفية بين الوحدة اللغوية وشيء ما في خارج اللغة، ولتوضيح ذلك خذ مثلا المنطوق (تفاحة) هذه الكلمة يمكن أن يقال إن لها وظيفة إشارية، لأننا نستخدمها للإشارة إلى ثمرة معينة، ويمكن أيضا أن يقال إن لها وظيفة مميزة، لأنها تقرر أننا نقصد ما سميناه ولا نقصد شيئا آخر.

وتعريف الوحدة الصوتية من حيث الوظيفة يقوم على أساس أنها تقوم بدور التمييز والتفريق، فالباء في (بلد) جعلت هذه الكلمة مختلفة عن كلمة (ولد) مثلا التي تتفق معها في وجود الفتحة واللام والفتحة والدال.. ومعنى هذا أن وجود الباء هو الذي جعل هذه الكلمة (بلد) مختلفة عن تلك الكلمة (ولد)، ومما يؤكد دور الوحدة الصوتية في التمييز بين

(1) see: Dinneen, An Introduction to general Linguistics , p.12

معاني الكلمات أن حذف وحدة صوتية أو إضافة وحدة إلى الكلمة ينبني عليه إما تغير معناها أو فقدانها له ألبتة.

فإذا حذفنا (اللام) من الكلمة (فيل) بقيت كلمة أخرى تختلف عنها في المعنى هي (في) ولو حذفنا الجيم من الكلمة (تاج) لبقيت كتلة صوتية لا معنى لها.

وإذا أضفنا العين إلى الكلمة (مَنْ) فسوف نحصل على كلمة جديدة هي (منع)، وإذا أضفنا الباء إلى نهاية الكلمة (حجر) فسوف نحصل على كتلة صوتية لا معنى لها.

وما سبق يؤكد خطأ الذين ينسبون بعض المعاني لبعض الفونيات أو الحروف، ومن هؤلاء الشاعر رشيد الخوري الذي يقول: قد تنبهت بطول المراجعة إلى أن حرف الفاء هو نقيض حرف الغين بدلالته على الإبانة والوضوح: فتح فضح فرج فلق فجر فسر.. إلخ مما يعي إحصاؤه ويندر استثناؤه[1].

وقد أخطأ الشاعر حين نسب المعنى الذي يدعيه وهو الإبانة والوضوح إلى حرف بعينه في الكلمات التي مثل بها، فالفاء وحدها لا تدل على الإبانة والوضوح كما قال، بل تدل عليه كلمة بعينها هي (فضح) مثلا، والفاء في هذه الكلمة أو في غيرها لا تقوم وحدها بأداء هذا المعنى بل تقوم به أفراد أو حروف الكلمة كلها على سواء.

والوحدة الصرفية أو المورفيم كالوحدة الصوتية تقوم بوظيفة التفريق والتمييز فقامت غير قام لوجود التاء، ولكنها تتميز عنها بأن لها وظيفة إشارية، والوظيفة الإشارية للوحدة (بلد) مثلا تعنى أن هذه الكلمة تشير إلى شيء ما خارج اللغة.

---

(١) العقاد (عباس) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٤٣.

رابعا: النحو التوليدي التحويلي
Transformational Generative Grammar

النحو التوليدي التحويلي نظرية وضعها تشومسكي عام ١٩٥٧ ودعمها ووسعها عدد من مريديه، وعُدت منذ هذا التاريخ ثورة في علم اللغة بعامة، وثورة على المنهج الوصفي السائد آنذاك.

إن علم اللغة الذي بَشَّر به يُعْني بما هو أكثر من مجموعة العينات أو النماذج الموجودة في أية عينة (مدونة)؛ لأن العينات – مهما كثرت – لا يمكن أن تمثل اللغة كلها بل تعكس فحسب صورة جزئية مختارة. أضف إلى ذلك أن تسجيل الكلام في الظروف الطبيعية يكشف عن بدايات زائفة جدا، وانحرافات عن القواعد، وتغيرات في مجري الحديث حين يدرك المتكلم أن السامع لم يفهم ما يقول، أو أنه لم يعبر عما يريد تعبيرا مقبولا، هذه الأخطاء أو العثرات قد تكون راجعة إلى عوامل: مثل الذاكرة الضعيفة أو انشغال السامع عن المتكلم.. إلخ غايةُ الأمر أن لدينا قدرة على التعرف على ماهية هذه العوامل وكيف نتجنبها.. وهذا يفترض أن لدينا طريقة لتمييز المنطوق الخاطئ من الصائب، ومن ثم نفترض أن البشر قد تمكنوا من نظام من القواعد، هذا النظام ليس كامنا في العينات بل إنه قابع خارجها ويؤكد هذا ما نراه في منطوقاتنا من خلق وإبداع.

النحو في هذه النظرية هو الحصيلة اللغوية المتراكمة في ذهن المتكلم / السامع عن لغته، وهو ما يعرف بالكفاية Competence وهي نظام عقلي تحتي يكمن وراء السلوك الفعلي، أما الاستعمال (أو السلوك) performance الذي يجري على لسان المتكلم أو قلمه عند التخاطب فهو ما يعرف بالأداء.

وفُسرت الكفاية كذلك بأنها قدرة ابن اللغة على فهم لغته وقواعدها، وقدرته على أن يؤلف ويفهم عددًا غير محدود من الجمل من عدد محدد من المورفيمات والقواعد، وقدرته على إدراك الصائب والخاطئ منها، وفُسر الأداء بأنه الاستعمال الفعلي للغة منطوقةً أو مكتوبةً.

ونحو هذه النظرية توليدي؛ لأنه يهتم مباشرة بآلية اللغة التي تتيح للإنسان أن ينتج جمل اللغة كلها انطلاقا من نظام من القواعد ضمن كفايته اللغوية، وعملية الإنتاج هذه منوطة في الأساس بنوع من القواعد تؤدي - في حال استخدامها - إلى إنتاج كل الجمل التي يمكن استعمالها في اللغة، وبعبارة أخرى تعطى القواعد التوليدية المعلومات اللازمة لتوليد كل الجمل الصحيحة والمحتملة الصياغة دون سواها في اللغة، أي أن القاعدة تمنع، في الوقت نفسه، توليد جمل غير صحيحة(١).

وأبسط تمثيل للتوليد هو ما يعرف بقواعد تركيب أركان الجملة Phrase structure grammar يمكن معرفة التركيب النحوي للجملة بمعرفة الكلمات التي تتكون منها وفق الترتيب الذي تظهر فيه هذه الكلمات.

ويرى (تشومسكي) أن النموذج الذي اقترحه لهذه القواعد ملائم للعمل؛ لأنه يولد أي عدد من الجمل الصحيحة نحويا. ولأنه يصلح لتحليل لغات مختلفة. وهو معتمد فيه على ما اقترحه البنيويون فيما يسمى (immediate constituents analysis) والذي شرحناه في الفقرة (ثانيا من المبحث الثاني من الباب الرابع).

وهذه القواعد هي:

١. الجملة ← مركب اسمي+مركب فعلي	1. S → NP + VP
٢. مركب اسمي ← أداة تعريف+اسم	2. NP → art + N
٣. مركب فعلي ← فعل+مركب اسمي	3. VP → V + NP
٤. أداة تعريف ← أل	4. art → the
٥. الاسم ← (رجل، كرة،....)	5. N → (man, ball,...)

---

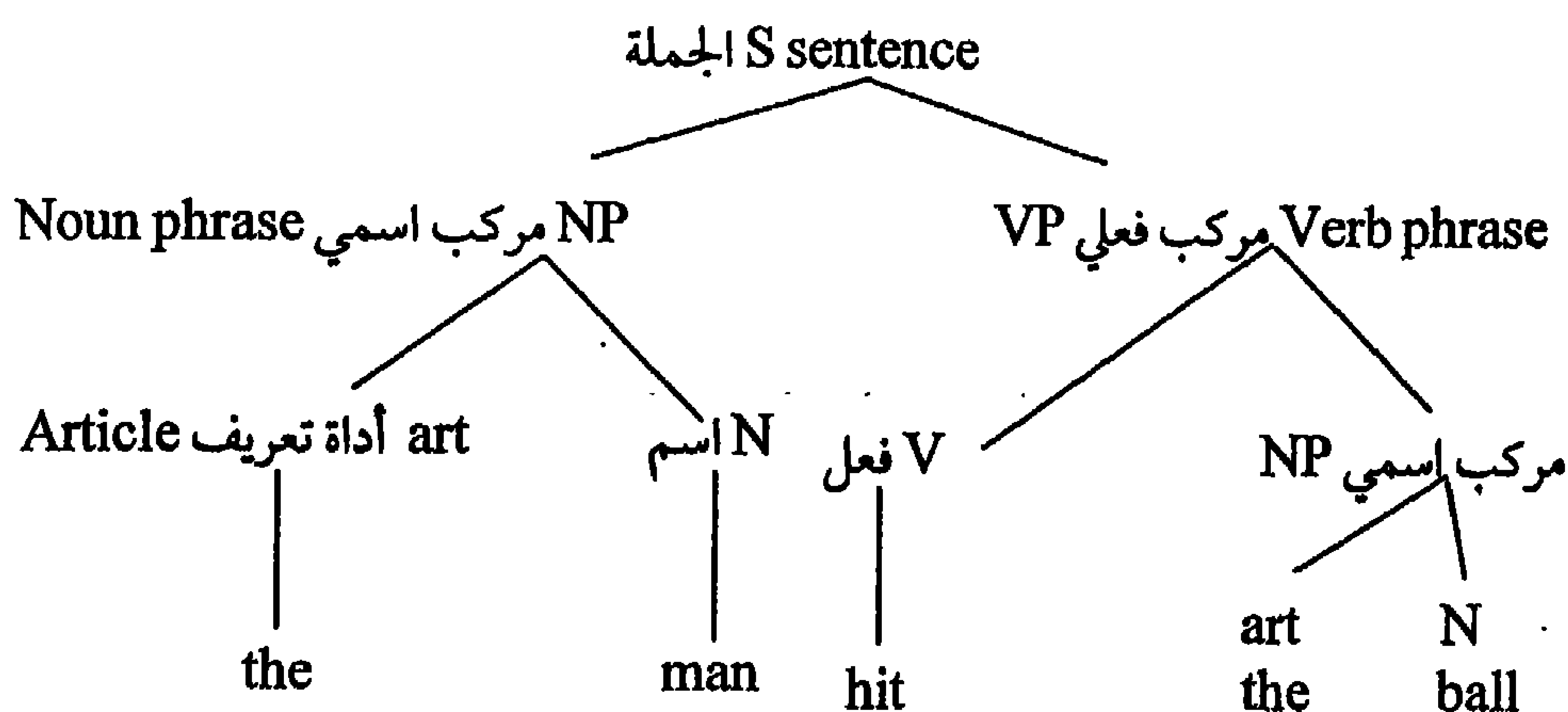
(١) سبق أن تحدثنا عن النحو التوليدي التحويلي عند الحديث في الباب الأول عن التعارض بينه وبين المنهج التجريبي، وستتحدث بتفصيل أكبر عنه عند الحديث في الباب الخامس المعنيّ بتاريخ علم اللغة.

6. V ⟶(hit, took,…)　　　　٦. فعل ⟵(ضرب، أخذ،....)

- يشير السهم ⟵ إلى أن ما بعد الرمز يساوى ما سبقه، أو إعادة كتابة له.

- يشير القوسان ( ) إلى أن ما بينهما عناصر يمكن اختيار عنصر منها، وتشير النقاط إلى مزيد من العناصر يمكن إضافتها إلى ما هو موجود.

- الانتقال من قاعدة إلى قاعدة أخرى يوصلنا إلى المرحلة الأخيرة terminal string وعلى سبيل التمثيل؛ بتطبيق هذه القواعد بفرض أننا أخذنا العناصر man, hit, ball نحصل على الجملة؛ The man hit the ball وهو ما يعرف باشتقاق الجملة، ويمكن تمثيله بما يعرف بالرسم الشجري.



- يمكن تكرار القاعدة رقم(٢) مركب اسمي⟵أداة تعريف+اسم NP⟶ art+N كما هو واضح في القاعدة رقم (٣).

- يمكن تطبيق إحدى القاعدتين إما (٢) وإما (٣).

وثمة إمكانات أخرى ولكننا آثرنا غاية التبسيط للتعريف فحسب بالنظرية.

وثمة قواعد أخرى إضافية لتوسيع هذا النموذج[1].

---

(١) أعلم ما في هذا العرض من إيجاز مُخِل، ولكن -في تقديري- ربما يفيد فيما نحن فيه، ويحث القارئ على استكماله وإذا ما أراد أن يعرف شيئا مفصلا أنصحه بالرجوع إلى كتابه:

=

ونحو (تشومسكي) تحويلي أيضا، ويقوم مفهوم التحويل على الملاحظة الآتية: في اللغـة جمل يرتبط بعضها ببعض بـصورة وثيقـة (انظـر مـا سـبق أن قلنـاه عـن العلاقـات الأفقيـة والرأسية) ولا يمكننا من خلال عناصرها فقط أن نلحظ الصلة القائمة بينها.

لنأخذ الجمل التالية:

١. أكل الرجل التفاحة.

٢. الرجل أكل التفاحة.

٣. التفاحة أكلها الرجل.

لا بد لنا لكي أن نفسر العلاقة القائمة بين هذه الجمـل بمفهـوم يتـيح لنـا معرفـة هـذه العلاقات، ويسمح بأن نعيد تركيب عناصرها.

- الجمل الثلاثة تفيد معنًى واحدًا، وإن اختلف تركيبها.

- بمفهوم التحويل نقرر أن الجملتين الثانية والثالثة متحولتان عن الجملة الأولى.

- في الجملة الثانية تغير موقع (الرجل) إلى مبتدأ الكلام، وفي الجملة الثالثة تغـير موقـع (التفاحة) إلى مبتدأ الكلام، ومن ثم جرى تعديل بإلحاق ضمير يعـود إليـه يتـصل بالفعـل. وليس ما سبق إلا عرضا بسيطا لفكرة التحويل.

وقد أوضح الدكتور- محمد على الخولي بعضا من أهم التحويلات التي يمكن تعميمها في تحليل عدد من اللغات، ومنها اللغة العربية، وهي:

Lester, Introductory Trans Formational grammar of English.

ففيه عرض واضح واستخدام جيد للنظرية في اللغة الإنجليزية بأسلوب متدرج، كما أن به تدريبات جيـدة، وهـذا أفضل من الدخول مباشرة إلى محاولات النحويين العرب في تطبيق النظرية.

أما بالعربية فأنصح القارئ بالرجوع إلى ترجمة الدكتور حلمي خليـل لكتـاب جـون ليـونز: (نظريـة تشومـسكى اللغوية) وإلى كتاب د. محمد على الخولي (قواعـد تحويليـة للغـة العربيـة) وإلى كتـابي د. ميـشال زكريـا (الألـسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية).

١- الحذف deletion أ + ب ← ب

٢- التعويض أ ← ب.

٣- التمدد والتوسع أ ← (ب + ج).

٤- التقلص أو الاختصار (أ + ب) ← (ج).

٥- الإضافة أو الزيادة (أ) ← (أ+ ب).

٦- إعادة الترتيب (التبادل أو التقديم والتأخير): أ+ب ← ب+أ[1].

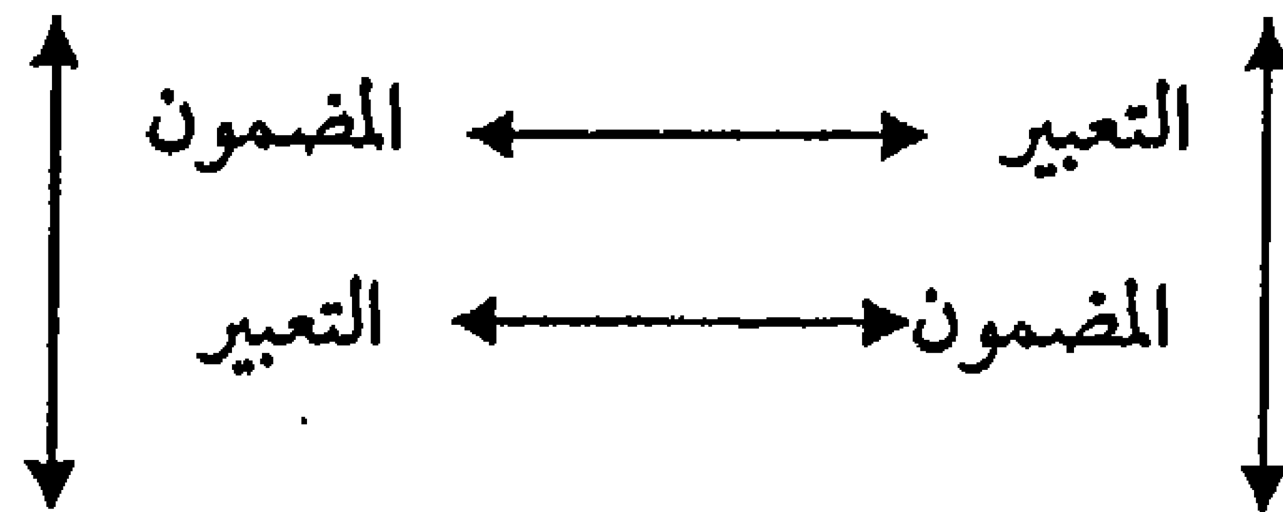
---

(١) الخولي (د. محمد علي) قواعد تحويل اللغة العربية. ص ٣٨، ٣٩.

خامسا: المعنى في التحليل اللغوي:

في اللغة سمتان يمكن تمييزهما أو التعرف عليهما بيسر، أولاهما: أن اللغة مكونة من أصوات مفردة أو من مجموعات صوتية يمكن أن توصف نماذجها بدقة، ثانيهما: أن اللغة تستخدم لتوصيل رسائل من خارج اللغة.

ويمكننا أن نسمي السمة الأولى:: جانب التعبير أو اللفظ، والسمة الثانية: جانب المضمون أو المعنى، والرسم البياني الآتي يقدم إحدى الطرق التي تبين لنا العلاقة التي تربط الجانبين.



وتبين الأسهم العلاقة المطردة بين الوحدات وتفترض:

١. أنه يمكننا دراسة وحدات المضمون (أو المعنى) دون أي إشارة إلى أي تعبير لغوى معين.

٢. أنه يمكننا دراسة وحدات التعبير أي (اللفظ) دون إشارة إلى المضمون.

٣. أنه يمكننا أن ندرس الأنظمة المتوازية للتعبير والمضمون عن طريق الوحدات المفردة وأبنيتها المحتملة.

وإذا كان علينا أن ندرس العلاقات المطردة التي بين عناصر المعنى دون إشارة إلى التعبير، فلا يمكن أن يقال إننا ندرس لغة معينة، لأننا في هذه الحالة سوف ندرس مفاهيم إنسانية عامة. نقول هذا إلى جانب ما قد يوجه إلى هذه العلاقة من نقد.

وإذا كان علينا أن ندرس أشكال التعبير دون ربطها بالمعاني فقد يقال حينئذ أننا ندرس (شفرة) ما دون محاولة حلها، وهنا أيضا لا ندرس لغة معينة.

ومن هنا نصل إلى الفرض الثالث الذي نرى أنه أمثلها وأقربها إلى تحقيق الهدف وهو أن نأخذ بعين الاعتبار النظام الدلالي إلى جانب النظام الشكلي، غير أن هذا لا يعنى الخلط بينهما

في الدارسة، فالدارس يبدأ أولا بدراسة الأشكال ويقوم بتحليلها من وجهة النظر الشكلية ثم بعد ذلك يوجه اهتمامه إلى جانب الدلالة[1].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن بعض المدارس اللغوية الحديثة تتجاهل المعنى في تحليلها للغة تجاهلا تاما، وتوجه اهتمامها كله إلى الأشكال اللغوية ومعرفة وظائفها، أي أن ما يعنى هؤلاء في تحليل اللغة هو الجانب المادي أي اللغة باعتبارها سلسة من الأصوات يستخدمها أصحابها بطريقة معينة، وهم يؤيدون وجهة نظرهم هذه بأنهم يستطيعون معرفة نوع الكلمة ووظيفتها في منطوقات لا معنى لها. ولتوضيح مقصدهم أطلب منك تحليل ما بين القوسين (لبم المقالسون منقلمين).

وقبل أن نفعل سوف نتفق على أمرين:

أولهما: أن ما بين القوسين لا معنى له، إذ ألفته الآن، وأنا أكتب هذه الكلمات وتستطيع أنت أيضا أن تؤلف مثله.

ثانيهما: أن المراد بالتحليل هنا أمران: الأول أن نحدد نوع الكلمة أي القسم الذي تنتمي إليه من أقسام الكلام(الاسم، الفعل، الوصف، الظرف الأداة) والثاني: أن نحدد الوظيفة التي تشغلها الكلمة المعينة بعد معرفة نوعها.

ولنبدأ الآن معا، وسوف نكتفي بأقل قدر ممكن من المعلومات يُعين على بيان المراد، لأن التحليل الكامل قد يستغرق منا صفحات.

سوف نتفق على أن الكلمة الأولى من قسم الفعل، وأن الكلمة الثانية من قسم الاسم، وأن الكلمة الثالثة من قسم الوصف.

فإذا ما جئنا إلى بيان وظائف الكلمات السابقة فلن نختلف على أن الكلمة الأولى تشغل موضع المسند الفعلي، وأن الكلمة الثانية تشغل موقع المسند إليه، وأن الكلمة الثالثة تشغل

---

(1) see: Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.p 12,13

موقع الحال.

والآن نسأل أنفسنا كيف عرفنا تحليل المنطوق السابق تحليلا صحيحا على الرغم من أننا لا نعرف معاني كلماته إن كان لها معنى؟.

والإجابة يسيرة، لقد نجحنا، لأن المنطوق السابق قد جاء على نسق التراكيب اللغوية ذات المعنى في اللغة العربية في بناء كلماتها، وفي نظامها في الجملة وفي علاقاتها النحوية.

فالكلمة (لبم) فعل ماض لأنها على وزن (فعل) وهو من أوزان هذا الفعل.

والكلمة (منقلمين) وصف لأنها على وزن (مُنْفَعِل) وهو من أوزان الوصف.

وهكذا الأمر حين نريد دراسة وظائف هذه الكلمة، فالكلمة الأولى مسند فعلي والكلمة الثانية مسند إليه، والعلاقة بينهما هي وقوع هذا الحدث من هذا المحدث أي الفاعلية، والكلمة (منقلمين) حال لأنها تصف هيئة المسند إليه، ولعلك لاحظت أن الكلمة الثانية لها علامة هي الواو والنون وهي علامة الرفع مع جمع المذكر السالم، وأن الكلمة الثالثة لها علامة هي الياء والنون، وهي علامة النصب مع جمع المذكر السالم.

ولعلك لاحظت أيضا أن المنطوق السابق قد تضمن عددا من هذه العلامات مثل (أل والواو والنون والياء والنون) هذه العلامات - والتي تعرف بالكلمات الوظيفية - أعانتنا كثيرا في التعرف على المنطوق السابق فدخول (أل) على الكلمة (مقالس) جعلها اسما قابلا لأن يقع مسندا إليه، ولحوق الواو والنون به جعلته جمعا مذكرا، وجعلته في حاله الرفع... الخ.

وهنا نصل إلى النقد الذي يوجه إلى أصحاب هذه المدرسة. لقد نجحنا في تحليل المنطوق السابق، لأنه جاء على نفس النظام التركيبي (الصوتي والصرفي والنحوي) لمنطوق آخر في اللغة التي نعرفها، ولنقل مثلا إنه يماثل قولنا (وقف المشاهدون مندهشين).

ولو وضعنا المنطوق السابق أمام لغوى لا يعرف نظام اللغة العربية في بنائها الصوتي والصرفي لوجد صعوبة بالغة في الوصول إلى التحليل الصحيح.

وقد أشار (ماريو باى) إلى فشل اللغويين في معرفة اللغة الأتروسكانية لأنهم لا يعرفون معاني كلماتها ويعلق قائلا: لا جدوى إذن من كل ما يتشدق به بعض اللغويين عن قدرتهم على تحليل اللغات على أساس الأشكال والوظائف النحوية للوحدات اللغوية فقط دون الرجوع إلى المعنى، ولا نعجب إذا عرفنا أن أتباع المدرسة التي تنادى بفصل الشكل عن المعنى يلجؤون عند دراستهم للغات الهنود الحمر إلى واحد أو أكثر ممن يستخدمون هذه اللغة ليزودوهم بمعاني الجمل التي يدرسونها والمفردات التي تحتويها الجمل(١).

المعنى والسياق:

لقد تبين لنا أن المعنى عند بعض المدارس فرع من فروع علم اللغة، بل هو وحده قسيم لفروع علم اللغة كلها، وقد أشرنا من قبل إلى أن علماء اللغة قد استخدموا المنهج العلمي بنجاح في دراسة الظواهر اللغوية، وأصبح من الممكن أن يقال: علم الأصوات وعلم الصرف وعلم النحو. ولكن موضوع (المعنى) مازال حتى اليوم مختلفا في اعتباره علما يمكن أن يخضع لمقتضيات البحث العلمي. ولهذا آثر أصحاب المنهج الوصفي البنيوي تجنب الخوض في هذا الموضوع باعتباره موضوعا لا يمكن أن يخضع للملاحظة والتجربة.

يرى (جليسون) مثلا: أن الدراسات التي تناولت جانب (المعنى) كانت أقل تطورا من الدراسات التي تناولت (الشكل) وينتهي إلى أنه ليس من المقبول حتى الآن أن نعتبر هذا الجانب علما، ويقول: إن من أكبر عيوب العمل الوصفي في ناحية الشكل في لغة ما الافتقار إلى فهم العلاقة بين الشكل والمعنى، وعدم القدرة على تحليل المعنى في دراسة ذات صلة بالشكل، ويرى أن مادة (المعنى) هي بالطبع كل تجارب الإنسان، وليس هناك علم واحد يمكنه أن يدرس كل هذه التجارب(٢).

---

(١) لغات البشر ص٤٦.

(2)see: Gleason, An introductions to Descriptive Linguistics, p. 1.15

ويرى الدكتور السعيد بدوى أن اعتبار (المعنى) علما واستخدام المناهج العلمية في دراسته يتوقف على المراد من (المعنى) ويلخص موقفه من هذه القضية قائلا:

إن المعنى إذا قُصد به ما تثيره الكلمات في النفس والشعور فهو (المعنى النفسي) وإذا قُصد به علاقة الكلمات بما تشير إليه من محسوسات العالم المحيط بنا فهو (المعنى الإشاري) وهذان النوعان خارجان عن ميدان الدراسة اللغوية العلمية، لأن الأول لا يخضع للملاحظة الموضوعية، ولأن الثاني ليس لغة ولا صوتا لغويا بل أشياء ملموسة.

أما إذا قصد به التحديد الذي تضيفه الكلمات المصاحبة في سياق ما على كلمة معينة من جهة ومجموع ما تضيفه كل السياقات التي تظهر فيها تلك الكلمة عليها من جهة أخرى فهو (المعنى التوزيعي) وهذا النوع من صميم الدراسات اللغوية نظرا إلى أن معنى الكلمات لا يُطلب خارج ميدان اللغة بل في جمل اللغة نفسها، فالمعنى التوزيعي لكلمة (الساعة) يمكن التعرف عليه من السياقات الآتية.

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾

دقت ساعة الجامعة معلنة الثالثة صباحا

دقت ساعة العمل

حانت ساعتك

كم الساعة معك؟

الحياة ساعة

فمعنى الكلمة في كل مثال يتوقف على السياق الذي تظهر فيه، ولما كان السياق يتكون من كلمات معينة ونظام لهذه الكلمات كان المعقول أن نقول: إن معنى كلمة (الساعة) يكمن في الكلمات المصاحبة لها في السياق. وينتهي إلى أن معنى هذه الكلمات هو في الواقع مجموع معانيها في كل هذه السياقات وغيرها من السياقات الأخرى التي قد تظهر فيها في اللغة أي

أن معنى الكلمات موزع على هذه السياقات بالتساوي(١).

وعلى هذا فالباحث اللغوي الذي يختار (المعنى) مجالا لعلمه، عليه أن يحدد التعريف الذي يتبناه في دراسته، وينبني على ذلك اختيار المنهج المناسب لما قصد إليه.

وقد أشرنا إلى أن المدرسة الوصفية البنيوية قد وقفت دراستها على الشكل الخارجي للغة، وأهملت جانب المعنى، وقد كان ذلك انطلاقا من إيمانهم بالمنهج العلمي وإدراكهم أن هذا الجانب لا يخضع لمقتضيات هذا المنهج. ولكن هذا المنهج قد ضَحَّى - حين أخلص للمنهج العلمي - بأهم جوانب اللغة وهو المعنى، كما أن اللغة لها طبيعة تختلف اختلافا جذريا عن طبيعة المواد الكيماوية والظواهر الطبيعية... إلخ ولهذا ثارت مدرسة لغوية معاصرة على هذا القصور في البحث اللغوي، ووضعت المعنى في اعتبارها. والمشكلة في هذا أن هذه المدرسة اللغوية تعتمد على الحدس الفردي أو الحس الخاص للفرد كجزء من المادة التي يعمل بها اللغوي، وهذا أمر غير مقبول من علماء الطبيعة وزملائهم، ولكن وجهة نظر اللغويين جميعا هي أن اللغة ظاهرة ذات طبيعة خاصة فذة تختلف عن طبيعة أية ظاهرة أخرى من ظواهر هذا العالم. ولهذا فان المنهج العلمي الذي يجب أن يطبق على دراساتها يجب أن يعدل بالشكل الذي يتلاءم مع هذه الطبيعة الخاصة.

---

(١) انظر: بدوى (د. السعيد) محاضرات في علم اللغة ص ٢٦ (مخطوط).

الباب الخامس

موجز بتاريخ البحث اللغوي

من أين نبدأ تاريخ علم اللغة؟ ولماذا ندرسه؟

يكاد يُجمع المؤرخون على أن علم اللغة حديث النشأة جدًّا، وأن العالم السويسري (دي سوسير ١٨٥٧ - ١٩١٣م) هو الذي أرسى دعائمه، حين ألقى محاضراته التي جُمعت بعد وفاته، وظهرت بعنوان (محاضرات في علم اللغة العام) بيد أن هذا لا يعني أن البحث في اللغة ابتدأ فحسب منذ ذلك التاريخ، أو أن الناس قديمًا لم ينظروا في اللغة ولم يدرسوها.

إن تاريخ البحث في اللغة قديم جدًّا، يعود به بعض المؤرخين إلى اكتشاف أول نظام كتابي في الحضارة المصرية والسومرية في العالم القديم، كما فعل (مونين) في كتابه (تاريخ علم اللغة)، ولكن نظرًا لقلة الوثائق التي بين أيدي الباحثين عن هذه الحقبة فضل كثير من المؤرخين أن يبدؤوا هذا التاريخ بالهنود كما فعل (بلومفيلد) و (جسبرسن) و (روبنز) حيث نجد عند الهنود أول تفكير واضح يتصل باللغة، وأول وصف لها باعتبارها لغة.

ولكن لماذا نكتب تاريخ علم اللغة؟ أو بعبارة أخرى ما الذي يستفيده الباحث اللغوي المعاصر من هذا التاريخ؟

ولا شك أن تاريخ العلوم قد يجد فيه الكثيرون ما يشبع نهمهم إلى المعرفة الخالصة، وهذا عمل نبيل حقا، ولكن لا يقل عنه نبالة أن يكون في درس هذا التاريخ فائدة للباحثين الذين تفرغوا لهذا اللون من البحث.

قد يجد الباحث المعاصر في دراسة علم اللغة ما يعينه على فهم الاتجاهات اللغوية المعاصرة، التي ربما كانت امتدادًا أو إحياء أو تعديلًا لاتجاهات أو أفكار سابقة، ولا شك أن الباحث اللغوي المعاصر الذي يتطلع إلى التعمق في نظرية (النحو التوليدي) مثلًا قد يجد فائدة كبيرة في الرجوع إلى القرن الثامن عشر وبخاصة آثار (همبولدت) أو في الرجوع إلى النحو العربي، وبخاصة مفهوم الحذف والتقدير.

إن تاريخ علم اللغة سوف يهدينا بكل تأكيد إلى الأصول العامة للفكر اللغوي، وبالعوامل التي أثرت في تكوينها، وعلى سبيل المثال لا الحصر كان علم اللغة في القرن الثامن عشر متأثرًا بنظرية لاهوتية مؤداها أن اللغة العبرية هي أم اللغات جميعها، ولهذا توجهت البحوث في هذه الحقبة إلى البحث في موضوع أصل اللغة الإنسانية.

وقد كان اكتشاف السنسكريتية في القرن التاسع عشر والتحقق من صلتها باللغات الأوربية الحديثة هو الذي وجه البحوث اللغوية في هذا القرن إلى الجانب التاريخي والمقارن أي البحث في تطور اللغات وفي العلاقات اللغوية بينها.

إن تاريخ علم اللغة يكشف عن العلاقة الوثيقة التي ربطته بالعلوم وبالاتجاهات الفكرية السائدة، لقد نشأ علم اللغة عند الهنود للمحافظة على كتابهم المقدس (الفيدا)، ونشأ عند الإغريق متأثرًا بفلسفتهم، ونشأ عند العرب من أجل المحافظة على القرآن الكريم، وبانبثاق عصر النهضة أسدل الستار على منطق أرسطو وفلسفة الإغريق، وظهرت العلوم التجريبية، وتسابق علماء اللغة للاستفادة من هذه العلوم، لقد نبعت أفكار (شلايشر) في أن اللغة جهاز عضوي من نظرية (دارون)، وكان النحويون الشبان حريصين أشد الحرص على أن يربطوا علم اللغة بعلم الطبيعة، ويجعلوا للتطور اللغوي قوانين ثابتة ثبات القوانين الطبيعية، وقد انتفع (دي سوسير) بعلم الاجتماع، واصطنع منهجه في دراسة الظواهر الاجتماعية لدراسة اللغة؛ لأنها عنده ظاهرة اجتماعية بالمعنى الذي قرره (دور كايم) في تعريف الظاهرة الاجتماعية، ويقرر زعيم المدرسة التوليدية (تشومسكي) أن علم اللغة ما هو إلا فرع من فروع علم النفس الإدراكي.

ومن هنا تتحقق فائدة جليلة للباحثين في علم اللغة أو في العلوم الأخرى للتعرف على العلاقات الوثيقة بين العلوم.

إن العودة إلى الماضي ليست عبثًا كما قد يتصور بعض الناس، وليست لإرضاء الفضول العلمي، أو لإمتاع ذوي المتع العالية، إن الباحث المعاصر حين يتتبع حركة التاريخ، وهي

تمضي في سيرها تقفه على المشكلات التي برزت، والحلول التي قدمت، والنظريات التي اعتنقت والمناهج التي استخدمت، والمراجع التي رجع إليها.. الخ، وفي هذا يقول (مونين):

"يقدم لنا هذا التاريخ ثبتًا - مهما كان موجزًا - للمراجع الأساسية، وقائمة تضم مشاكل البحث والأسئلة المطروحة على الباحث، كما يتوق إلى الإسهام في تكوين اللغوي الشاب تكوينًا أكمل؛ لأنه يساعده على إلقاء نظرة عامة على مجموع الأبحاث المتصلة بالمبادئ والطرق، ولعله يستمد من هذا التاريخ المادة التي تعينه على القيام بتأملات عديدة واسعة في اللغة بوصفها بحثًا موضوعيًّا، كما يستمد منه إدراكًا أفضل لقيمة المشاكل إذا هو اطلع على ماضيها، فيتوصل إلى معرفة القيمة النسبية للمسائل، وإلى قضاء فترة استشفاء من التسمم الناتج عن التخصص العلمي الدقيق - ولن يكون وحيدًا بهذا الصدد - كما يكتسب إحساسًا كاملًا بعلم اللغة الذي هو عام حقا، وربما كانت بُغْية اللغوي الشاب - حين أقبل على تاريخ علم اللغة أن يطلع اطلاعًا واعيًا على هذا الماضي المديد من الأخطاء والعقبات الكأداء، وأسباب الفشل التي عاناها الأسلاف، وهذا لا يقل فائدة عن معرفة نجاح وتقدم المؤلفين بالنسبة لنفسية الباحث وخلقه بوصفه عالمًا مقدرًا لواجباته"[1].

---

(١) تاريخ علم اللغة، ص ١١، ١٢.

المبحث الأول

تاريخ علم اللغة في العصور القديمة

أولا: الهنود

كان الهنود أول من تناول اللغة بالتأمل الواعي في طبيعتها، وبالدرس المنهجي لخصائصها. فظهر عندهم أول وصف دقيق واف مبني على الملاحظة الدقيقة لا على النظريات.

وكان البحث اللغوي عند الهنود وليد شعور ديني راسخ يدفعهم إلى المحافظة على كتابهم المقدس (الفيدا) وإلى تلاوته تلاوة صحيحة، ومن ثم نظروا إلى لغة هذا الكتاب وهي (السنسكريتية) نظرة التقديس، ووسموها بالكمال، وكانت دراسة هذه اللغة والعناية بها لونًا من ألوان العبادة[(١)].

(والفيدا) هي أقدم النصوص المعروفة عند البراهمة ويرجع تاريخها إلى حوالي ١٢٠٠ ق.م، وبمرور الزمن أصبحت (السنسكريتية) لغة (الفيدا) لغة قديمة، وانصرف الهنود عن استعمالها في حياتهم اليومية، وحلت محلها لغة تدعى (براكريت) ومع ذلك ظلت السنسكريتية لغة رسمية أدبية تُستخدم في التراتيل الدينية، وفي المواضيع العلمية والفنية، وهي تشبه في ذلك اللغة اللاتينية القديمة في أوروبا واللغة العربية الفصحى اليوم[(٢)].

وكانت القواعد التي وضعها الهنود لهذه اللغة غير مدونة، يتوارثها الباحثون جيلًا بعد

---

(١) انظر: مونين: تاريخ علم اللغة، ص ٦٤.

(٢) انظر: مونين: تاريخ علم اللغة، ص ٦٤.

جيل، إلى أن ألف (بانيني) إمام النحاة الهنود فيها كتابًا يقول عنه أحد المؤرخين: لا نجد له مثيلًا في ذلك التاريخ سواء في مصر أم في صومر أم عند اليونان(١).

كتاب المُثَمَّن لبانيني:

عاش (بانيني) في شمال الهند حوالي القرن الخامس أو الرابع ق . م وسمي كتابه (المُثَمّن) أي ذو الثمانية أجزاء، وتضم هذه الأجزاء أربعة آلاف قاعدة منظومة بلغت في دقتها مبلغ المعادلات الرياضية، وهي – مع دقتها وإيجازها – تستوعب قواعد السنسكريتية استيعابًا عظيمًا.

يقول بلومفيلد: إن هذه القواعد التي يعود تاريخها إلى حوالي ٣٥٠ – ٢٥٠ ق م لتعتبر من أهم مظاهر الذكاء الإنساني، إنها تصف – بكل دقة وتفصيل – كل ما يتصل باللغة السنسكريتية من الاشتقاق والتصريف والتركيب، وكل الخصائص النحوية للمتحدث باللغة(٢).

عالج بانيني في كتابه قواعد تنتظم أصوات السنسكريتية وصرفها ونحوها، والكتاب من ثمانية أقسام كل قسم من أربعة فصول، في القسم الأول تعريفات عامة وقواعد للشرح كما يعالج مشكلات صوتية متنوعة، أما القسم الثاني فيعالج موضوع الإبدال، وهدف التصريف وقواعد الجنس gender والعدد، ويتناول القسم الثالث موضوع اللواحق الأساسية، أما القسمان الرابع والخامس فيتعرضان للواحق التي يمكن إضافتها للأصل غير الفعلي مكونة جذرًا غير أساسي ولواحق تصريفية، ويتناول القسمان السادس والسابع بحوثًا صرفية صوتية morphophonemic، أما القسم الثامن فيتناول موضوعات متعددة(٣).

الأصوات عند بانيني:

كانت عناية الهنود بالأصوات عناية عظيمة لحرصهم الشديد على أن تُتْلَى نصوص

---

(١) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ٦٤.

(2) Bloomfield, Language p.11

(٣) مختار (د. أحمد) البحث اللغوي عند العرب، ط٢، ص ٢٣٦.

(الفيدا) كما كانت قديمًا، وتتمثل هذه العناية واضحة في كتاب بانيني، إذ بدأه بالحديث عن أصوات السنسكريتية من الحركات والسواكن، ومن منهجه في تصنيفها وطريقته في ترتيبها، وأسلوبه في وصفها نتبين ما يأتي:

- قسم الأصوات إلى أربعة أقسام هي: الحركات ومنها الفتحة والضمة والكسرة، والسواكن كالباء والتاء والدال .. إلخ وسواكن الصفير كالسين والشين، وأنصاف الحركات وهي عنده الياء والراء واللام.

- يرتب الأصوات ترتيبًا مخرجيًا بدأه بأعمقها مخرجًا وتدرج في الصعود حتى وصل بها إلى الشفتين.

- يحدد مجاري الأصوات وعلى أساسها يعرض الأصوات الانحباسية والاحتكاكية والمنطلقة (مثل الحركات) ... الخ.

- يبين مخارج الأصوات ويقسم الأصوات تبعًا لذلك إلى شفوية وأسنانية.. الخ.

- ثمة معلومات أخرى تتصل بالنبر والغنة الأنفية، والحركات طويلها وقصيرها بسيطها ومركبها[1].

الصرف والنحو:

قسم بانيني الكلام إلى قسمين: وضع في القسم الأول الأفعال، ووضع في القسم الثاني ما ليس من الأفعال كالأسماء والحروف، وذلك على أساس ما يلحق الكلمة من زوائد في نهايتها[2].

ومن الطريف أنه تنبه إلى ما يلحق أصوات الكلمة من تغيير نتيجة اتصالها بهذه الزوائد، ومثل ذلك في العربية ما يعرف بقلب تاء الافتعال طاء حين يكون فاء الكلمة صوتًا مفخمًا نحو اصطبر.

---

(١) غالي (د. محمد محمود) أئمة النحاة في التاريخ ص ٩٤، ٩٥.

(٢) أئمة النحاة في التاريخ، ص ٩٧.

ومن أعظم ما أبدعه (بانيني) من مفاهيم مفهوم الصفر اللغوي، ومثاله في العربية أن الفعل الماضي يكون مؤنثًا حين تلحقه التاء، ويكون مذكرًا حين يخلو منها، وبهذا يتعرف الجنس في الفعل بأحد أمرين: تاء التأنيث، أو خلوه منها[1].

ومن المفاهيم اللغوية التي أظهرها بانيني فكرة الجذر وما يلحق به من حركات وأدوات، وما يعتريه من صور مختلفة من التصرف، على نحو ما هو معروف في العربية فكاتب ومكتوب ومكتب وكاتب .. إلخ يجمعها جذر واحد من السواكن (ك، ت، ب) وبإضافة الحركات، أو حروف الزيادة إلى هذا الجذر تتنوع الصيغ وتختلف المعاني.

وفي هذا المفهوم يقول جورج مونين: بهذا أمكن للعلماء أن يبحثوا بحثًا لغويًا صرفًا في تكوين الكلمات، وحل هذا محل الثرثرة المسماة بالدراسات الاشتقاقية والتي شغلت أوربا أكثر من ألفي عام، إن اكتشاف تلك المفاهيم - بعد دراسة السنسكريتية - كان نقطة الانطلاق لدراسة علمية في الاشتقاق ضمن نطاق القواعد المقارنة[2].

ويوجز أحد علماء الألسنة الهندية طريقة (بانيني) النحوية بأنها طريقة رياضية كلية تأخذ من أصحاب النحو الحديث اهتمامهم بسياق الكلام، وترتيب الكلمات في الجملة، كما تأخذ عن غيرهم اهتمامهم بتتبع الكلمة في صيغها المختلفة من اسم أو ضمير أو أداة شارحًا ما يعتريها من تغير صرفي وصوتي - ثم يحدد مكانها من المناهج المعاصرة قائلًا: قد يسميها بعض المحدثين الطريقة الظاهرية؛ لأنها تدرس اللسان كظاهرة إنسانية متكاملة Phenomenon وقد يسمى بعضهم هذا المذهب التحويلية التي تتبعها المدرسة التحويلية، وعلى رأسها تشومسكي[3].

(١) انظر مونين: مونين تاريخ علم اللغة، ص ٦٩.

(٢) تاريخ علم اللغة، ص ٦٨.

(٣) غالي (د. محمد محمود) أئمة النحاة في التاريخ، ص ١٠١.

تأثير النحو الهندي:

وقد وصل إلى أوربا بعض القواعد السنسكريتية والهندوسية بواسطة المبشرين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وفي القرن الثامن عشر نقل الإنجليز الموجودون في الهند تقارير ومعلومات أكثر دقة، وحوالي القرن التاسع عشر أصبح الإلمام باللغة السنسكريتية جزءًا من ثقافة الطلاب الأوربيين(١).

وقد ظهرت أول ترجمة كاملة لكتاب بانيني (١٨١٥ - ١٨٤٠م) قام بها (بوتلينج).

وقد كان لهذا التراث اللغوي الهندي آثار بعيدة في التفكير اللغوي الأوربي وبخاصة في القرن التاسع عشر، فبلومفيلد - مثلًا - يرى أن النحو الهندي قد أطْلَع الأوربيين ولأول مرة على وصف كامل دقيق للغة يعتمد على الملاحظة لا على النظرية، أضف إلى ذلك أن اكتشاف السنسكريتية قد جعل من الممكن عقد دراسة مقارنة بين اللغات(٢).

وقد أشار اللغوي (فولرز) إلى بعض نقاط التماس بين (بانيني) والعلوم الصوتية اللغوية التي أنشأها الجيل الأول من النحويين العرب كالخليل مثلًا.

وقد أشار الدكتور عبد الرحمن أيوب إلى وجود تأثير هندي في المنهج والتبويب على كتاب سيبويه، ويتمثل ذلك في العناية بدراسة الأصوات ومخارجها وعدم الاهتمام بالنظريات والتقسيمات العقلية(٣).

وثمة باحثون آخرون ينكرون هذا التأثير أو يقللون من شأنه، ويرون أن التفكير اللغوي عند العرب من نتاج العقلية العربية فحسب.

---

(1) Bloomfield, Language p.11

(2) Bloomfield, Language p. 11

(٣) أيوب (د. عبد الرحمن) التفكير اللغوي عند العرب، ص ١٣٤ - ١٣٥.

ثانيًا: اليونان

لقد عُرِف عن اليونان عنايتهم الشديدة بدراسة اللغة، وقد بحثوا بجد ومثابرة في أصولها وتاريخها، وفصلوا القول في بنيتها، وإليهم يعود الفضل بكثير من معارفنا اللغوية، بيد أن هذه العناية قد صرفتهم عن دراسة اللغات الأجنبية، وقد أطلقوا لفظ (برابرة) على الذين لا يتكلمون اليونانية، وهذه الكلمة في الأصل تشير إلى صراخ الطيور.

وفي ذلك يقول أحد الباحثين: إن الإغريق اعتنوا ببنية اللغة ونشأتها أكثر من عنايتهم بتطور اللغات وتنويعها(١).

وفي إحدى محاورات أفلاطون (كراتيلاس) يظهر لنا نقاش لغوي له طابعه الفلسفي بين متحاورين، يدور حوارهما في طبيعة العلاقة بين الأشياء والألفاظ التي تدل عليها أهي علاقة طبيعية ضرورية أم علاقة عرفية واتفاق بين الناس.

يرى أحد المتحاورين ويدعى (كراتيلاس) أن اسم الشيء ما هو إلا نتيجة لطبيعة الشيء المُسَمَّى، وينبغي أن يكون البناء الصوتي للاسم انعكاسًا لبناء الشيء المسمى، ومن ثم فالأسماء ليست رموزًا للأشياء، بل هي جزء لا يتجزأ من جوهر المسمى.

أما الثاني ويدعى (هرموجينس) فينكر الزعم السابق ويرى أن الألفاظ رموز نستخدمها في التعبير عن الأشياء، والعلاقة بين الألفاظ والأشياء علاقة عرفية قائمة على اتفاق المتحدثين باللغة، وينبني على هذا أن يحدث اختلاف في معاني الألفاظ متى حدث اختلاف في هذا الاتفاق(٢).

ومن المعروف أن أرسطو قال بالعلاقة العرفية بين الألفاظ والأشياء وهذا القول هو ما يرجحه اللغويون المعاصرون منذ (سوسير) إلى اليوم.

---

(١) ماريو باي: لغات البشر ترجمة د. صلاح المغربي.

(2) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.p. 74, 75.

وقد كان هذا الحوار بداية لجدل لا يهدأ استمر زهاء قرن بين مدرسة الشذوذيين ويتزعمها (كراتيس) ومدرسة القياسيين ويتزعمها (أرستراخوس).

يرى (كراتيس) أن اللغة فطرة إنسانية لا تخضع للقواعد أو القوانين المطردة، ويدلل على ذلك بما هو ملحوظ في اليونانية من خروج على القواعد المقررة، أما (أرستراخوس) فيعتقد أن اللغة أمر طبيعي، وهي لذلك منتظمة ومنطقية، أي أنها نظام مترابط تحكمه قواعد وقوانين مطردة[١].

ومن المعروف أيضًا أن أرسطو كان يرى أن اللغة نظام وضعي وأنها بهذا تخضع لقوانين ثابتة، وكانت هذه القوانين عندهم قريبة مما نسميه اليوم بالقوانين الصوتية[٢].

ويعرف أفلاطون الجملة Logos بأنها تعبير عن أفكارنا بواسطة الأسماء والأفعال، والاسم والفعل عنده هما العنصران الأساسيان فيها، ويعرف الاسم بأنه اسم فاعل الحدث، ويعرف الفعل بأنه اسم الحدث.

ومن الواضح أنه كان في مقدوره أن يلاحظ الفروق الشكلية فيما بينهما، وأن يضعها في اعتباره عند التعريف، ولهذا غاب عنه ذكر عناصر كلامية معروفة في اللغة اليونانية ليست من قبيل الأسماء أو الأفعال[٣].

وقد كان لدى أرسطو نظرية عامة في اللغة، لقد وضع مستويات مختلفة يمكن على أساسها أن تدرس اللغة، وأن تتميز أشكال الكلمات والجمل، وأن تتحدد معاني الكلمات في حال إفرادها أو تركيبها، وأن تذكر الفروق بين أنماط اللغة المنطوقة والمكتوبة.

ومن الجدير بالذكر هنا أن أرسطو ليس لغويًا بالمعنى الدقيق، فقد كان يمزج بين الاعتبارات اللغوية والمنطقية. ومع ذلك فإليه يرجع الفضل في إرساء أسس تحليل النحو مع

---

(١) ماريو باي: لغات البشر ترجمة د. صلاح المغربي.

(٢) أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ١١.

(3) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.p. 78, 79.

نظرية في بنية العبارة المؤلفة من قطبين هما: المسند والمسند إليه(١).

وقد عرف (أرسطو) الاسم بأنه لفظ مفرد يدل على معنى بالاصطلاح، ولا يدل على زمن ولا يفيد أي جزء من أجزائه معنى على انفراد.

فالكلمة (أرنب) مثلًا تدل على معنى عرفي متفق عليه بين المتحدثين بالعربية، ولا يدل المقطع (أر) منفردًا على معنى.

وعرف الفعل بأنه لفظ مفيد يدل على حدث، وليس لأي جزء من أجزائه معنى قط، وهو أبدًا يدل على معنى يُسْنَد إلى شيء ما.

فالكلمة (الضرب) مثلًا اسم؛ لأنها لا تدل على زمن. أما الكلمة (يضرب) ففعل، إذ إنها تدل على حدث حاصل الآن على وجه التخصيص.

أما الجملة Logos فإنها كلام مفيد، قد يدل الجزء من أجزائها على معنى بانفراد.

ونتبين معنى الجملة إثباتًا أو نفيًا بالإسناد فحين نقول: الولد يصيح. نتبين أن المنطوق السابق يتألف من عنصرين هما: الاسم المسند إليه، والفعل المسند، وكل واحد منهما له معنى في ذاته، ونتبين هذا المعنى بالإسناد أي حين نسند حدث الصياح إلى الولد(٢).

وقد راعى (أرسطو) في تعريفاته السابقة الجانب الصوتي في الجملة، فتحدث عن الأجزاء التي تتألف منها الكلمة والجملة، والجانب الدلالي فحدد مدلول الاسم والفعل والجملة.

وقد نظر الرواقيون وعلماء الإسكندرية في هذه الأبحاث جميعًا، وقد وضع (ثراكس) أول كتاب في قواعد اللغة اليونانية ١٧٠ - ٩٠ ق.م، وقد درس في كتابه أصوات اليونانية، وتحدث في أصول كلماتها وفي أقسام الكلام.

وعند حديثه عن الأصوات اليونانية فرق بين الأصوات الانفجارية والاحتكاكية

---

(١) تاريخ علم اللغة، ص ٩٠، ٩١.

(٢) فخري (ماجد) أرسطو ص ١٤٤.

والأصوات المجهورة والمهموسة، وعند حديثه عن أقسام الكلام جعلها ثمانية وهي: الاسم والفعل، واسم الفاعل، وأداة التعريف والضمير، وحروف الجر، والظرف، وأدوات العطف[1].

وقد قدر لهذا التقسيم أن ينتقل من اليونانية إلى عدد من اللغات الأوربية، ولم يحدث عليه إلا تغييرات طفيفة.

ويرى (مونين) أن علماء الإسكندرية لم يفعلوا - على صعيد القواعد اللغوية - سوى التوسع في تلك الموضوعات التي أشار إليها أفلاطون وأرسطو حول تصنيف الحروف وأقسام الكلام، وتحليل حالات الإعراب وبنية العبارة.

ومع ذلك ينسب إليهم إرساء فقه اللغة في العالم الغربي، وقد أشرنا من قبل إلى الصراع بين مدرسة القياسيين الذين يقولون باطراد القواعد اللغوية ومدرسة الشذوذيين الذين يقولون بأن اللغة لا تخضع لقواعد ثابتة، ويقول أيضًا في هذه القضية: إن الفائدة الحقيقية لهذه المسألة أنها حفزت الفلاسفة الغربيين وبصورة مستمرة على النظر في شئون اللغة[2].

---

(١) غالي (د. محمد محمود) أئمة النحاة في التاريخ، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) تاريخ علم اللغة، ص ٩١.

ثالثًا: الرومان

لم يكن للرومان فضل كبير في تاريخ علم اللغة إذا وضعنا في الاعتبار الجدة والابتكار، وكل ما يذكر لهم من فضل أنهم نقلوا إلينا بحوث اليونان اللغوية، وقد ألف (فارون) (القرن الأول ق. م) كتابًا أسماه (اللغة اللاتينية) قسم فيه الكلام أربعة أقسام مخالفًا بذلك التقسيمات المعروفة في عصره.

وألف (كونتيليان) (القرن الأول الميلادي) كتابًا في (فن الخطابة) ضمنه موجزًا في قواعد اللاتينية، وألف بريشيان (القرن السادس ق. م) كتابه (قواعد اللغة) من ثمانية عشر جزءًا، وهو صاحب التعريف الذائع للجملة، وهو الجملة: نظم من الكلام يدل على معنى كامل.

وقد كانت هذه الكتب مرجع قواعد اللغات الأوربية جميعًا هذه القرون(١).

ومن الملاحظات العامة التي تنبه إليها المؤرخون الذين درسوا النتاج اللغوي لليونان والرومان:

١ . يقول ماريو باي: وقد قام كل من الرومان والإغريق بكتابة قواعد نحوية للغتين اليونانية واللاتينية، وكانت كلها تتحدث عما ينبغي أن يكون بدلًا من وصف ما هو كائن، فحاولوا أن يخضعوا اللغة لقوانين وضعية (مع أن اللغة الدارجة في ذلك الوقت كانت تختلف اختلافًا بينًا عن اللغة الفصحى وعما تنادي به القوانين النحوية)، وهذا الاختلاف ثابت بالدليل الكتابي(٢).

---

(١) انظر تاريخ علم اللغة، ص ٨٨، ٨٩، وأئمة النحاة في التاريخ، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) لغات البشر، ص٣.

٢. لم يهتم اليونان والرومان باللغات الأجنبية أدنى اهتمام، وقد كان لدى الرومان فرصة لإجراء المقارنة بين اليونانية واللاتينية مثلًا، ولكنهم لم يفعلوا، وملاحظاتهم القليلة بهذا الشأن لا غناء فيها، بل إن موضوع التطور اللغوي لم يشغل بالهم اللهم إلا ملاحظات يسيرة تتصل باللهجات المحلية التي تعيش إلى جوار اليونانية أو اللاتينية[1].

---

(١) انظر لغات البشر ص ٣، وتاريخ علم اللغة ص ٨٩.

رابعًا: العصر الوسيط من القرن الرابع
إلى القرن الرابع عشر

انتشرت المسيحية في أثناء هذه الفترة بين شعوب وثنية، وقد قام المبشرون بها بترجمة النصوص الدينية كالتوراة والإنجيل إلى لغات هذه الشعوب، ولم تكن هذه الشعوب تعرف الكتابة، مما حدا بهؤلاء المبشرين أن يستحدثوا لها أبجديات كالأبجديات الكلتية والجرمانية، وكان المتوقع أن يؤدي هذا النشاط إلى تقدم حقيقي في مجال التحليل الصوتي، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وما حدث - بالإضافة إلى ابتكار هذه الأبجديات - ظهور كتيبات تساعد الحجاج والمسافرين والجنود على التفاهم مع الأجانب[1].

ولم تخرج كتب القواعد التي انتشرت آنذاك عما ذكره (دونات وبريشيان) وكانت كلها تدرس قواعد اللاتينية، أما كتب القواعد التي تدرس اللغات الأوربية الأخرى فقد تأخر ظهورها، لقد كانت اللاتينية وحدها هي التي تستحق أن تكون لغة، بل إن علماء هذا العصر وطلاب العلم كانت عنايتهم موجهة إلى اللاتينية القديمة كما تظهر في الكتب، ولم نلحظ إلا اهتمامًا ضئيلًا بصور الكلام المنطوق، لقد كان هؤلاء يرون أن اللغات الأوربية لا ترقى إلى مرتبة الفن والعلم، يعنون بذلك العلم الثابت أي علم القواعد، أما اللاتينية فقد ضبطت قواعدها وثبتت منذ أكثر من ألف عام، وخلال العصر الوسيط كله كانت كلمة grammar، تعني اللغة اللاتينية القديمة[2].

وكانت اللاتينية في أثناء هذه الحقبة الطويلة من الزمن تتطور من شكلها القديم إلى أشكالها التي نعرفها اليوم باللغات الرومانسية، ومع ذلك لم يتنبه العلماء إلى هذا التطور، وظل العلماء ملتزمين بتقاليد الكتابة التي تمثل اللاتينية القديمة[3].

---

(١) انظر (مونين): تاريخ علم اللغة، ص ١٠٤.

(٢) (مونين): تاريخ علم اللغة، ص ١٠٩.

(3) see: Bloomfield, Language p.p. 6, 7

وقد عُني (دانتي) - وهي عناية غريبة في عصره - بدراسة اللهجات الإيطالية في كتابه (بلاغة العوام). في هذا الكتاب عالج خصائص اللهجات الإيطالية الأربعة عشرة على نحو ما نعرفه عنها اليوم وميزها تمييزًا مختصرًا، وقد قام كذلك بمحاولة جادة في مجال المقارنة بين اللغات، وقد خرج منها بأن اللغة الإيطالية وأخواتها من اللغات الرومانسية ترجع إلى أصل لاتيني(١).

وقد شرح (بيكون) هذا المفهوم بقوله: إن مبادئ النحو في جوهرها واحدة بالنسبة لجميع اللغات، ولكنها قد تختلف في التفاصيل بين لغة وأخرى(٢).

وقد ظهر هذا المفهوم عند علماء (بور رويال) في القرن الثامن عشر، بل ظل سائدًا كذلك في القرن العشرين حيث عارضه اللغويين، ثم ظهر مرة ثانية عند (ورف) ثم تبلور عند (تشومسكي)(٣).

وقد كان شائعًا في هذه العصور النظرية التي تستند إلى تصور يهودي مسيحي - والتي تعتقد أن العبرية هي أم اللغات الإنسانية جميعًا، وربما كانت هذه الفكرة من الأسباب التي صرفت الأذهان عن عقد المقارنات بين اللغات على أساس علمي واقعي.

---

(١) ماريو باي: لغات البشر، ص ٤.

(٢) ماريو باي: لغات البشر، ص ٥.

(٣) انظر (مونين) تاريخ علم اللغة، ص ١١٦.

خامساً: العرب

لا نرى أن الصفحات القليلة التي يقدر لها أن تستغرق الحديث في البحث اللغوي عند العرب تكفي لبيان أصوله وسماته المميزة، ومكانه بين البحوث اللغوية للأمم الأخرى، هذا شيء أبعد ما يكون عن الحق والعدل، كما أنه أبعد ما يكون عن الواقع، فالبحث اللغوي عند العرب يستغرق مجلدات لا صفحات، وهو عمل ينبغي أن يتوفر له جمع من العلماء، لا هم لهم غيره ولا مطمح لهم سواه، لا يدخرون في سبيله وقتًا أو مالًا أو جهدًا، لهذا كان لهذه الصفحات هدف غير هذا الهدف. هذه الصفحات أقرب ما تكون إلى الصورة التي يلتقطها المصور لجبل شامخ تسمو ذروته إلى السماء، أو لسهل واسع مترامي الأرجاء تمتد فيه الأنهار وتفترشه الزروع والأشجار، مثل هذه الصورة لا تكشف إلا عن الملامح العامة أو الأصول.

هذه الصفحات إذًا ليست إلا صورة لهذا البحث ومستوياته وأهم مصادره واتجاهاته، الغاية منها أن تضع البحث اللغوي عند العرب في لوحة التاريخ العام لعلم اللغة الممتد من الهنود إلى العصر الحديث.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن مؤرخي علم اللغة لم يطلعوا على التراث العربي اطلاعهم على التراث الهندي، أو اليوناني مثلًا، ولهذا لم يوفوه حقه، ولم يقدروه قدره، واكتفوا - إذا ما اضطرهم الأمر إلى ذلك - بسطور قلائل لا تغني طالب التاريخ العلمي بله طالب التاريخ اللغوي.

البحث اللغوي عند العرب:

كانت نشأة العلوم العربية أثرًا من آثار الإسلام، فلم يعرف عن العرب قبل الإسلام جهد يذكر في دراسة لغتهم، فظهر علم النحو ليضع القواعد التي تصون المتكلم عن الخطأ في الإعراب الذي كان قد بدأ ظهوره بانتشار الإسلام بين شعوب غير عربية، كما ظهرت جهود علماء اللغة في تقييد ألفاظ العربية وضبط شكلها وتحديد معانيها.

غير أن ظهور اللحن في العربية وخوف أولي الأمر على القرآن منه لم يكن وحده الذي دعاهم إلى وضع العلوم العربية، بل دعتهم إلى ذلك دواع كثيرة، لقد توفرت لديهم الرغبة الشديدة في فهم القرآن الكريم والتعرف على أسراره، ووجدت لدى المسلمين من غير العرب حاجة ملحة إلى تعلم العربية والتعبد بكتابها الخالد، كما أن العربية قد بدأت تحتك بلغات أخرى وتدخل في صراع معها تؤثر فيها وتتأثر بها، وبدأت العرب حينئذ ينظرون إلى لغتهم نظرة المتأمل الباحث، ومن هنا يمكن أن يقال أيضًا: إن نشأة العلوم العربية كانت أثرًا من آثار نضج العقلية العربية واحتكاكها بالحضارات الأخرى واستفادتها منها[1].

وقد اعتمد علماء العربية حين وضعوا قواعدها، وألفوا معجمها على القرآن الكريم والشعر العربي، وكلام العرب الموثوق بعربيتهم، وقد التزموا في ذلك مبادئ صارمة، وبذلوا جهودًا كبيرة في أخذها من أفواه العرب الخلص، واحتملوا في سبيل ذلك أقسى المتاعب، فقد كانوا يسعون إليهم في مواطنهم ويقيمون في مظاعنهم، وكثيرًا ما كان الأعراب الفصحاء ينتقلون إلى هؤلاء العلماء في البصرة والكوفة ليأخذوا عنهم.

لقد قلنا عند الحديث عن مستويات التحليل اللغوي، إن بعض المدارس اللغوية الحديثة ترى أن دراسة اللغة تتم وفقًا لخطوات متدرجة تسلم كل خطوة منها إلى خطوة تالية، وهكذا حتى يتم للباحث وصف اللغة المدروسة وصفًا دقيقًا، وسوف نقدم هنا صورة موجزة لما خلفه لنا علماء العربية في مجال البحث اللغوي وفقًا لمستويات البحث: الأصوات والنحو والمعجم.

أولا: الأصوات:

لم يدرس علماء العرب أصوات العربية دراسة مستقلة إلا حديثًا، وقد تناولوها قديمًا مختلطة بغيرها من البحوث النحوية، أو في مقدمات معاجمهم.

وأول ما يلقانا من ذلك المقدمة التي وضعها الخليل بن أحمد (١٠٠هـ - ١٧٥هـ)

(١) انظر ضيف (د. شوقي): المدارس النحوية ص ١١، ١٢، وحسان (د. تمام) الأصول، ص ٢٢-٢٩.

لمعجمه (العين) الذي رتبه وفقًا لمخارج الحروف، فقد بين في مقدمته هذه أن في العربية تسعة وعشرين حرفًا، ثم مضى يحدد مخارج هذه الحروف حرفًا حرفًا.

وقد تكلم (سيبويه) صاحب الكتاب عن الأصوات عَرَضًا، وله فيها تقريرات جعلها في نهاية كتابه عند حديثه عن الإدغام، وقد رتب حروف العربية ترتيبًا يخالف ترتيب الخليل قليلًا، وقد حدد صفة كل حرف وبين مخرجه، وأوضح مجراه بدقة عظيمة، وكذلك فعل النحاة من بعده حين عالجوا موضوع الإدغام.

وكان لعلماء التجويد والقراءات القرآنية جهود كبيرة في مجال البحث الصوتي، وكانت كتب التجويد - على سبيل التمثيل - تشتمل - إلى جانب قواعد التلاوة - على فصل في مخارج الحروف وطريقة نطقها وصفاتها كما فعل (ابن الجزري) في كتابه (النشر في القراءات العشر).

ولعلماء البلاغة والأدب ملاحظات صوتية مفيدة حين كانوا يتحدثون عن فصاحة الكلمة، ومن هؤلاء (الباقلاني) صاحب (إعجاز القرآن) و (ابن سنان) صاحب (سر الفصاحة)، وللجاحظ ملاحظات طريفة في الأصوات العربية حين تحدث في كتابه (البيان والتبيين) عن عيوب النطق.

ولابن سينا الفيلسوف رسالة طريفة في الأصوات هي (أسباب حدوث الحروف) تكلم فيها عن سبب حدوث الصوت بعامة أي باعتباره ظاهرة طبيعية، فقال إن سببه القريب تموج الهواء دفعة واحدة بسرعة وقوة بسبب القرع أو القلع، وعن سبب حدوث الحروف أي الأصوات الإنسانية، فذكر أن التموج هو الذي يحدث الصوت، ثم يتحدث عن طريقة تموج الصوت وانقسامها، ثم يعرض لتشريح الحنجرة واللسان، ثم يتحدث باستفاضة عن أصوات العربية ويصفها مفصلًا، ثم يتحدث عن الأصوات الشبيهة بأصوات العربية في لهجات العربية وفي اللغات الأخرى، وفي نهاية الرسالة يقارن بين أصوات العربية وغيرها من أصوات اللغات الأخرى.

وقد ألف (ابن جني) كتابًا في الأصوات هو (سر صناعة الإعراب) أجمل فيه ما يأتي:

- بيان صفاتها العامة وتقسيمها وفقًا لاعتبارات مختلفة.
- عدد حروف المعجم وترتيبها ووصف مخارجها.
- ما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغيير.
- نظرية الفصاحة في اللفظ المفرد ورجوعها إلى تأليفه من أصوات متباعدة المخارج.

ثانيًا: النحو:

يرى بعض الباحثين أن النحو العربي نشأ متأثرًا بالنحو السرياني، وكانت السريانية منتشرة في (الرها) و (نصيبين) وغيرهما من المناطق المجاورة للعراق موطن النحاة العرب الأوائل، ويميل دارسون آخرون إلى أن النحو نشأ عربيًا أصيلًا، وتختلف روايات المؤرخين العرب فيمن وضع النحو، وفيمن أشار إليه بذلك، ومن أشهرها الرواية التي تنسب وضع النحو إلى أبي الأسود بتكليف من علي بن أبي طالب، وهذه الرواية تزعم أنه وضع بعض أبواب النحو، وحدد أقسام الكلام من اسم، وفعل، وحرف.

ويتشكك بعض الباحثين في هذه الرواية، ويرى أن التعريفات والتقسيمات المنسوبة إلى علي أو إلى أبي الأسود، أبعد ما تكون عن العصر الذي عاشا فيه ويميل هؤلاء إلى القول بأنها من وضع الشيعة، ومع ذلك يرجحون أن أبا الأسود صنع أول نقط يضبط أواخر الكلمات في القرآن الكريم، وقد أضاف نصر بن عاصم إلى هذا النقط نقط الإعجام الذي يميز الحروف بعضها عن بعض، وبنقط الإعراب (نقط أبي الأسود) ونقط الإعجام أحيط القرآن بسياج قوي يحميه من اللحن.

والنحو بالمعنى الفني قام به جيل جاء بعد تلامذة أبي الأسود من القراء على رأسهم عيسى بن عمر، أبو عمرو بن العلاء، وعبد الله بن أبي إسحق.. وهؤلاء جميعًا رويت عنهم أنظار في النحو، وقد روي عنهم سيبويه في كتابه بعض ذلك.

وقد اصطلح المؤرخون على أن يتحدثوا عن هؤلاء النحاة الأوائل، ومن جاء بعدهم في

إطار مدرستين لغويتين هما مدرسة الكوفة، ومدرسة البصرة.

مدرسة البصرة:

فتح العرب الحيرة عام ١٤هـ، وأمر عمر بن الخطاب بتأسيس البصرة عام ١٥ هـ، فصارت حاضرة العراق، وقد توافرت لهذه المدينة ظروف عديدة جعلتها مجالًا لنشاط علمي متنوع كان أظهره البحث في اللغة والنحو، ويصعد بعض الدارسين بزعامة هذه المدرسة إلى أبي الأسود الدؤلي، وتلامذته الذين أشرنا إلى بعضهم آنفًا.

وقد روى سيبويه في كتابه الشهير كثيرًا من الآراء والتعليلات النحوية التي توضح أن أصول النحو، وأهم مصطلحاته كانت موجودة قبله، وفي رأي كثير من الباحثين أن الخليل بن أحمد هو المؤسس الحقيقي لعلم النحو الذي وضعه سيبويه في كتابه، وقد نقل عنه سيبويه كثيرًا، وجملة ما رواه ٥٢٢ مرة، وهو قدر لم يرد مثله ولا قريبًا منه عن أحد من أساتذته.

وسيبويه (ت ١٨٠هـ) هو إمام النحو العربي، وصاحب كتاب العربية الأشهر (الكتاب)، وقد بلغ افتتان العلماء به وتقديرهم لصاحبه مبلغًا حتى قيل إنه قرآن النحو، والكتاب يجمع مسائل النحو في أبواب، يعالج مسائل كل باب بحشد من الأمثلة والنصوص يكشف ما فيها من صواب، أو خطأ، أو حسن، أو قبح، أو كثرة، أو قلة، ولا نجد في الكتاب ما نجده في كتب المتأخرين وبخاصة الألفية وشروحها من تقسيمات وتفريعات ووضع شروط وتحديد تعريفات... الخ.

وقد تلقف العلماء كتاب سيبويه وأخذوا في درسه، فكان مدار البحث منذ ظهر حتى اليوم.

مدرسة الكوفة:

نشأت مدرسة الكوفة متأخرة قليلًا عن مدرسة البصرة، وقد أخذ علماؤها النحو عن البصريين، ويروى أن أبا جعفر الرؤاسي – مؤسس هذه المدرسة – أخذ النحو عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء.

ومن أعلام هذه المدرسة (الكسائي) و (الفراء) فإليهما يرجع الفضل الحقيقي في وضع النحو الكوفي، فهما اللذان وضعا أصوله وأوضحا خصائصه، وللفراء كتاب جليل هو (معاني القرآن) يجعله الباحثون علم المدرسة الكوفية في النحو، وإن كان في أصله كتابًا في التفسير، والفراء في كتابه هذا لا يفسر القرآن بالطريقة المعروفة، وإنما يتخير من الآيات على حسب ترتيب السور ما يدير حولها مباحثه اللغوية والنحوية.

ونوجز هنا ما ذكره المؤرخون من فروق بين المدرستين:

- يتشدد البصريون في الحكم بفصاحة العربي المعتد بعربيته، على حين يتساهل الكوفيون حتى كانوا يأخذون عن الإعراب الذين قطنوا حواضر العراق.

- يتوسع الكوفيون في قبول القراءات القرآنية على حين يضيق البصريون مجال القبول، بسبب ما عرف عنهم من توسع في أصول اللغة وقياس على القليل واعتدادهم بالمثال الواحد.

- اشترط البصريون كثرة الأمثلة والشواهد وتداولها على ألسنة العرب الفصحاء، أما الكوفيون فكانوا يعتدون بالأشعار والأقوال الشاذة، ولا يشترطون الكثرة في تقعيد قواعدهم.

- كثرة التأويل والتقدير عند البصريين لرفضهم كثيرًا من الأمثلة العربية الصحيحة ونتيجة لمحاولاتهم المتكررة إخضاع الأمثلة العربية الصحيحة لأقيستهم النظرية.

ويضم بعض الباحثين مدرسة ثالثة إلى مدرستي البصرة والكوفة، هي مدرسة بغداد ويرى أن هذه المدرسة نهجت في دراستها نهجًا جديدًا يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين، وبهذه الطريقة نشأ جيل من النحاة يحمل آراء هاتين المدرستين ويميل إلى رأي هذه المدرسة أو تلك، ومن أعلام هذه المدرسة ابن كيسان والزجاجي وأبو علي الفارسي.

ثالثًا: المعجم:

تتنوع المعاجم العربية وتتعدد مدارسها وتختلف مناهجها على نحو رائع أدهش

المستشرقين يقول (فيشر): إذا استثنينا الصين لا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته وبشعوره المبكر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب.

والمعاجم العربية قسمان:

- معاجم الألفاظ: ويقوم ترتيب مادتها على أساس الشكل أو اللفظ.

- معاجم المعاني: ويقوم ترتيب مادتها على أساس المعنى بحيث تجتمع ألفاظ موضوع معين في باب بعينه.

(أ) معاجم الألفاظ:

ويمكن وضعها في مدارس على النحو الآتي:

- مدرسة الترتيب المخرجي الذي ترتب فيه الكلمات بحسب المخرج، ويطلق عليها بعض الدارسين مدرسة التقليبات.

وقد ابتكر الخليل بن أحمد هذا الترتيب، ووضع على أساسه أول معجم عربي يضم بين دفتيه ألفاظ العربية، وهو معجم (العين) وقد سار على نهجه عدد من اللغويين منهم الأزهري صاحب (تهذيب اللغة) والقالي صاحب (البارع) وابن سيده صاحب (المحكم والمحيط الأعظم).

- مدرسة الترتيب الألفبائي العادي، وقد أخذت هذه المدرسة صورتين:

١. ترتيب الكلمات تحت حرفها الأول: وكان أسبق من استخدم هذا الترتيب أبو عمرو الشيباني صاحب معجم (الجيم)، بيد أنه لم يكتمل له تنسيق كتابه وفقًا للحرف الثاني فالثالث.

وأهم المعاجم التي استخدمت هذا الترتيب بطريقة ميسرة كان معجم (أساس البلاغة) للزمخشري، وقد نهج نهجه الفيومي صاحب (المصباح المنير) وقد اتبعت المعاجم الحديثة في ترتيب موادها نهج (أساس البلاغة) و(المصباح) نظرًا لسهولته وقرب مأخذه.

٢. ترتيب الكلمات وفق حرفها الأخير.

يرى بعض الدارسين أن الجوهري هو أول من ابتدع هـذا الترتيـب، وقـد وضـع عليـه معجمه (الصحاح) الذي حاز شهرة واسعة لسهولة استخدامه ووضوح منهجه، ومن الذين اتبعوا نظامه: ابن منظور صاحب أضخم المعاجم العربيـة (لـسان العـرب) والفيروزآبـادي صاحب (القاموس المحيط) والزبيدي الذي شرح القاموس في كتابه (تاج العروس).

- مدرسة الترتيب بحسب الأبنية، ظهر أول معجم يرتب ألفاظه وفقًـا لأبنيـة أو صـيغ الألفاظ في القرن الرابع الهجري وهو معجم (ديوان الأدب) لأبي إبراهيم إسحق بن إبراهيم الفارابي.

ومن هذه المدرسة معاجم خاصة بأبنية الأفعال، وأول كتاب ظهر منها هـو (الأفعـال) لابـن القوطيـة، ومـن المعـاجم التـي اقتفـت أثـره (الأفعـال) لابـن القطـاع و(الأفعـال) للسرقسطي.

(ب) معاجم المعاني:

كان علماء العربية قبل أن يظهر معجم (العين) يضعون ما يجمعونه من ألسنة العـرب في رسائل في موضـوعات معينـة، ولهـذا كانـت الكتـب اللغويـة التـي ترتـب الكلـمات وفقًـا للموضوعات أسبق في الوجود، أو معاصرة لمعاجم الألفـاظ فوضـعت كتـب أو رسـائل في (الإبل) و (الخيل) و (السلاح) ... الخ.

ومن أضخم معاجم المعاني وأوفاها معجم (المخصص) لابن سيده.

وبقي أن نشير إلى مجموعة من الكتب تبحث في اللغة العربية وخصائصها بـشكل عـام، ومـن هـذه الكتـب (الـصاحبي في فقـه اللغـة وسـنن العـرب في كلامهـا) لابـن فـارس و(الخصائص) لابن جني و (فقه اللغة وسر العربية) للثعالبي، وقد عرضنا لهـا عنـد حـديثنا عن مصطلح (فقه اللغة).

ملاحظات عن منهج العرب في البحث اللغوي:

أولًا: من العرض الموجز السابق لنشأة البحث اللغوي عند العرب وتطوره، نتبين أنهـم

درسوا اللغة في مستوياتها المختلفة الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية.

كان النحو عندهم شاملًا لقواعد العربية على مستوياتها الصوتية، والصرفية، والنحوية، منذ ظهر أول كتاب فيه، لقد بدأ سيبويه كتابه بمسائل النحو، وفي أثناء عرضها عالج بعض مسائل الصرف التي ينبني على تغير البنية فيها تغيرٌ في المعنى كالتصغير والتثنية، والجمع، ثم أنهى كتابه بمسائل الصرف الأخرى فتحدث عن أبنية الأسماء والأفعال والصفات... الخ، وعند حديثه عن الإدغام عدد حروف العربية ووصفها محددًا مخارجها وصفاتها، وما يعرض لها في مواقعها من تغيير.

وقد مضى النحاة على هذه الوتيرة يجمعون مسائل النحو والصرف، وإن كانوا يفرقون بين نوعين من مسائل الصرف، الأول درسوه مع مباحث النحو كالتصغير، والنسب، والجموع، والثاني أخروه إلى الانتهاء من مسائل النحو كمسائل الأبنية والإبدال والإعلال.

وثمة اتجاه آخر وإن كان أقل شيوعًا، ذلك أن المازني ألف كتابًا في (التصريف) جعله للمسائل التي عرض لها سيبويه في نهاية كتابه من حديث عن أبنية الأسماء والصفات والأفعال، وما يعرض للكلمات من تغير في بنيتها بالحذف أو الزيادة أو التغيير.

وقد سار ابن الحاجب في (الشافية) والرضي في شرحه لها على إفراد التصريف بالتأليف كما فعل المازني، وإن كانا قد ضما مباحث تصريف المازني إلى بعض المباحث التي لها ارتباط بالنحو كالتصغير والجمع، وجعلوها جميعًا في علم التصريف، ومع أن ابن الحاجب والرضي ومن تبعهما قد جمعوا مسائل التصريف بنوعيها في كتاب إلا أنهم يرون أن التصريف جزء من النحو يقول الرضي (اعلم أن التصريف جزء من أجزاء النحو، بلا خلاف بين أهل الصنعة)[1].

وفي هذا أيضًا يقول أبو حيان (علم النحو مشتمل على أحكام الكلمة) والأحكام على قسمين: قسم يلحقها حالة التركيب، وقسم يلحقها حالة الإفراد، فالأول قسمان: قسم

(١) الرضي: شرح الشافية جـ١، ص٦.

إعرابي وقسم غير إعرابي، وسمي هذان القسمان علم الإعراب تغليبًا لأحد القسمين. والثاني أيضًا قسمان: قسم تتغير فيه الصيغ لاختلاف المعاني نحو ضرب وضارب وتضارب، وكالتصغير والتكسير وبناء الآلات وأسماء المصادر وغير ذلك، وهذا جرت عادة النحويين بذكره قبل علم التصريف، وإن كان منه، وقسم تتغير فيه الكلمة لا لاختلاف المعاني كالنقص والإبدال، والقلب، والنقل، وغير ذلك[1].

وقد رأينا أن (هاليداي) عند حديثه عن الفرق بين النحو والمعجم يرى أن النحو نظام من القواعد، وأن المعجم قائمة من المفردات، وقد كان هذا الفرق واضحًا عند النحاة العرب، وقد بينا ذلك بالتفصيل عند عرضنا لمصطلح اللغة والنحو.

ثانيًا: درس النحاة اللغة العربية في مستوياتها السابقة دراسة وصفية وبخاصة إذا وضعنا في الاعتبار نحو المتقدمين لا المتأخرين، لقد كان كتاب سيبويه مثلًا للعربية الفصحى من مصادرها الأصيلة: القرآن وقراءاته والشعر وكلام العرب، وسيبويه في الحقيقة - على خلاف النحاة المتأخرين - كان يتحدث عن صور الاستعمال العربي فيحدد خصائصها كما كان يستخدمها العرب إلى عصره، وإن مال أحيانًا إلى إصدار أحكام على ما يلاحظه من صور الاستعمال بالصحة أو بالخطأ بالحسن أو بالقبح، بالقلة أو بالكثرة، بيد أن هذه الأحكام لم تكن ناتجة عن القاعدة التي يقررها، وإنما كانت ناتجة عن الاستعمال الذي يلاحظه، فالصحيح صحيح؛ لأنه يوافق ما يستعمله العربي والحسن حسن؛ لأن العربي يستحسنه... إلخ.

وقد كان من أصول النحو عندهم السماع عن العرب، فكان النحاة يأخذون العربية سماعًا لا من الكتب، بل كانوا ينكرون أن تؤخذ من الصحف، على خلاف ما كان مقررًا بين النحاة اليونانيين واللاتين من الاعتماد على اللغة المكتوبة. وكان من أصول السماع عندهم أن تؤخذ العربية من عرب البادية: بادية نجد والحجاز وتهامة، ولذلك اعتبروا (محور المكان)

---

(١) السيوطي: همع الهوامع، جـ٢، ص ٢١٢.

فحددوا القبائل التي تؤخذ منها والقبائل التي لا تؤخذ منها، واعتبروا كذلك (محور الزمان) فلم يتجاوزوا القرن الرابع بين عرب البادية والقرن الثاني بين عرب الحواضر.

وعلى الرغم مما شاب جمعهم وتقعيدهم من مآخذ فقد كان جمعًا وتقعيدًا جاريين على أصول المنهج الوصفي.

ثالثًا: لم يكن لعلماء العربية عناية بالمقارنة بين اللغات على النحو الذي انتشر في أوربا في القرن التاسع عشر، بل لم ينتبهوا إلى درس لغتهم درسًا تاريخيًا يتتبع مراحلها، ويقارن كل مرحلة منها بالأخرى، بيد أنه من الإنصاف لهم أن يقال: إن هذا كان شأن اللغويين الهنود والإغريق، فلم يعرف عنهم عناية بهذا الجانب. يقول (مونين): إن لفظة (برابرة) بليغة في حد ذاتها؛ لأنها كانت تشير إلى صراخ الطيور.. ثم صارت تعني - في شيء من الذم - أولئك الذين لا يتكلمون الإغريقية[1]، ولا تختلف نظرة العرب إلى اللغات الأخرى عن نظرة الإغريق، فالذين لا يتكلمون العربية أعاجم لا يفصحون ولا يبينون، فكأنهم من العجماوات أي الحيوانات[2].

قد يقول بعض الناس إن علماء العربية كانت لهم ملاحظات طيبة عن علاقة اللغة العربية باللغات السامية، فالخليل بن أحمد يقول في (العين): وكنعان بن نوح، ينسب إليه الكنعانيون، يتكلمون بلغة تضارع العربية[3]، ومن المعروف أن أصحاب المعاجم وفقهاء اللغة وعلماء الأصول لم يغفلوا عن الكلمات غير العربية، وعن ردها إلى لغاتها الأصلية كالحبشية، والآرامية، والنبطية.

كما أن بعض القائلين بالاصطلاح في نشأة اللغات قد تنبهوا إلى أن اللغة تتغير، يقول ابن جني بعد أن يذكر أنه جوَّز الأمرين: التوقيف والاصطلاح: وكيف تصرفت الحال وعلى أي

---

(١) تاريخ علم اللغة، ص ٨٩.

(٢) انظر لسان العرب (عجم).

(٣) انظر: العين (كنع).

الأمرين كان ابتداؤها، فإنها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الدواعي إليه فزيد فيها شيئًا فشيئًا[1]، وكان لابن حزم موقف لغوي عظيم من القائلين بتفضيل اللغة العربية، وأنها أم اللغات، يقول: وحروف الهجاء واحدة لا تفاضل بينها ولا قبح ولا حسن في بعضها دون بعض، وهي تلك بأعيانها في كل لغة، فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة... وقد قال قوم: العربية أفضل اللغات؛ لأنها بها نزل كلام الله تعالى، وهذا لا معنى له؛ لأن الله - عز وجل - قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولًا إلا بلسان قومه، وقال تعالى: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر: ٢٤]، و(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) [الشعراء: ١٩٦]، فبكل لغة نزل كلام الله ووحيه[2].

بيد أن هذه الملاحظات أو المواقف لم تنشأ عنها نظرية في علم اللغة التاريخي، ولم ينبن على أساسها نظرة متكاملة للتغير اللغوي، وللعلاقات الأسرية بين اللغات.

مكانة الفكر اللغوي العربي:

ينبغي أن يكون واضحًا هنا ما قلناه آنفًا من أن مؤرخي علم اللغة من الأوربيين لم يدرسوا الفكر اللغوي العربي، كما درسوا الفكر المعاصر له وبخاصة فكر الهنود واليونان واللاتين، ولهذا لا يقفون عنده طويلًا عندما يقتضيهم البحث التاريخي أن يمروا به، بيد أن القلة التي توفرت على درسه من المستشرقين الذين درسوه حق درسه قدروه حق قدره يقول (فيشر) عن العمل المعجمي: وإذا استثنينا الصين فلا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته، وبشعوره المبكر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب[3].

وقد شدت أعمال النحاة في الأصوات انتباه هؤلاء المستشرقين وفتنوا بدقتها في الوصف

(١) الخصائص، جـ١، ص٢٨.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام، جـ١، ص ٣٣ - ٣٥.

(٣) المعجم اللغوي التاريخي، ص ٤.

والتقسيم، حتى ذهب بعضهم إلى افتراض اقتباس واسع عن حضارات سابقة تتمتع بمفاهيم لغوية متطورة تطورًا بعيدًا كالحضارة الإغريقية والهندية، وقد أشار اللغوي (فولرز) إلى بعض نقاط التماس بين (بانيني) والعلوم الصوتية التي أنشأها الجيل الأول من النحويين العرب كالخليل مثلًا[1]. بيد أن هذا الرأي يبدو للكثيرين من الباحثين فرضًا لا تدعمه الأدلة، ولهذا تخلى (بروكلمان) عنه واعتبر وجود علم للأصوات عند العرب ظاهرة هامة في حد ذاتها، و(فليش) يقول: منذ القرن الثامن الميلادي كان علماء اللغة في البصرة يسعون إلى وصف لغتهم وصفًا صوتيًا، وسواء أوجدوا تلقائيًا علمًا جديرًا بأن يذكرنا بالعلامة (بانيني) أم أنهم اقتبسوا هذا العلم عنه فتلك مشكلة أخرى، ولكن لا بد لنا بادي ذي بدء أن نعترف بوجود هذا العلم في الأصوات وأنه علم فذ ممتاز[2].

وقد حسم العلامة (شاده) هذه القضية بقوله: ولم يكن هناك في الشعوب القديمة إلا شعبان بحثًا عن كيفية الأصوات وإنتاجها بحثًا فاق بحث اليونان دقة وهما: الهند والعرب، وبما أن الهند سبقوا العرب في علم الأصوات بألف سنة أو أكثر زعم بعض المستشرقين أن العرب اقتبسوا علم الأصوات من الهند، ولكن مذهب العرب في دراسة الأصوات يخالف مذهب الهند في نقط مهمة، فنرجح أن العرب استحدثوا هذا الفن من المدارك العربية بأنفسهم، ولم يقتبسوه من أي شعب غيرهم[3].

وقد كانت بواعث نشأة هذا العلم والتعمق في درسه متوفرة يقول: إن العجم الذين أسلموا في القرنين الأولين من قرون الإسلام كان يهمهم للغاية أن يحسنوا قراءة المصحف الشريف، وينطقوا أصواته نطقًا عربيًا خالصًا، ولم يروا إلى ذلك سبيلًا إلا بعد تعميق المطالعة لأصوات العربية وإحكام إنتاجها، فيظهر أن حدوث علم الأصوات عند العرب مقرون

---

(١) تاريخ علم اللغة، ص ١٠٦.

(٢) تاريخ علم اللغة، ص ١٠٧.

(٣) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، ص ٤.

بنشوء علم التجويد[١].

ولهذا أيضًا قال بعض الباحثين أن تدوين علم القراءة أفاد المسلمين فائدة لم تحظ بها أمة سواهم، وذلك أن البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسير تلاوة كلمات القرآن الكريم على أفصح وجه وأبينه كان من أبلغ العوامل في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها، وكانت ثمرة هذا الاهتمام والجهد أن القراء تشربوا بمزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها، ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من أئمة القراءة كأبي عمرو والكسائي بارعون في علم النحو[٢].

إن تعمق العرب في دراسة لغتهم وأهمية ما انتهوا إليه من حقائق هو الذي جعل مؤرخًا منصفًا يرى استحالة وضع تاريخ عام لعلم الأصوات مع تجاهل علم الأصوات العربي، يقول (مونين): يستحيل علينا أن نتجاهل علم الصوت عند العرب، فندرس أولًا أصوله ثم انتشاره في أوساط الثقافة العبرانية إلى ما بعد القرن السادس عشر، وما أحدثه من أثر في الغرب من ناحية التفكير الصوتي[٣].

وللنحو العربي تأثير كبير على النحو العبري، وعنه أخذت بعض المفاهيم اللغوية العربية طريقها إلى الأوربيين في عصر النهضة، يقول (بلومفيلد): وخارج إطار تقاليد أوروبا طورت أمم عديدة نظرياتها اللغوية معتمدة أساسًا على أصل قديم، لقد وضع العرب نحوًا للغتهم الفصحى كما تظهر في القرآن الكريم، وعلى منواله وضع اليهود في الأقطار الإسلامية نحوهم، وفي عصر النهضة أصبح الباحثون الأوروبيون على علم بهذا النحو، والمصطلح (جذر root) مثلًا جاءهم من النحو العربي[٤].

---

(١) علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، ص ٤.

(٢) مقدمة ناشر التيسير للداني، ص ـ ج.

(٣) تاريخ علم اللغة، ص ٢٠٦.

(4) Bloomfield, Language p.o

وفي ذلك أيضًا يقول كاتب مادة (grammar) في دائرة المعارف اليهودية: إن الحافز لدراسة الفيلولوجي العبري قد قوى بعامل خارجي، وبالتحديد بالمثال العربي الذي قدمته اللغة العربية، وقد استمرت اللغة العربية تؤثر في علم اللغة العبري، وكان النموذج العربي هو الذي احتذاه العبرانيون ثم طوروه(١).

وثمة كتب عديدة كتبها النحاة اليهود عن المقارنة بين العبرانية والعربية، منها كتاب إبراهيم بن إسحق بن بارون (عاش في الأندلس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ونهاية القرن الثاني عشر) (الموازنة بين اللغة العبرانية واللغة العربية) وهو مكتوب بالعربية بحروف عبرية. يقول الدكتور محمد خليفة حسن في مقدمته للكتاب الذي حققه ونقله إلى العربية الدكتور أحمد هويدي: "هذا الكتاب هو أول عمل لغوي مقارن بين العبرية والعربية يصلنا شبه متكامل، ويستخدم منهجا في المقارنة اللغوية له معالمه الواضحة، وينبع عن فهم جيد بطبيعة اللغة العربية ولخصائص اللغة العبرية". ويقول في محتويات الكتاب: "يحتوي في جزئه الأخير على عمل معجمي تأصيلي، يقوم على أساس من إعطاء النظير العبري، فهو لم يكتف بالموازنة على المستوى الصرفي والنحوي، ولكنه اهتم أيضا بالدراسة الدلالية". ويقول في تأثير التراث اللغوي العربي: "تظهر في هذا الكتاب بعض معالم هذا التأثير القوي، ومن أهمها ما يظهر في مجال التأليف النحوي، حيث استخدم ابن بارون أبواب النحو العربي، كما استخدم مصطلحات النحو العربي، وطرق الاستشهاد التي اتبعها النحاة العرب، واستخدامه للعديد من المصادر النحوية العربية"(٢).

---

(١) مختار عمر (د. أحمد) البحث اللغوي عند العرب ص ٥٠.

(٢) ابن بارون: الموازنة بين اللغة العبرانية واللغة العبرية، ص٤.

المبحث الثاني

تاريخ علم اللغة في العصور الحديثة

أولاً: عصر النهضة

اتسع نطاق العلاقات الدولية في هذه الفترة اتساعًا كبيرًا، وبتأثير ذلك أُنشئت معاجم وكتب مدرسية في اللغات الأجنبية، ثم ظهرت حركة الإصلاح الديني التي وجهت الناس إلى دراسة العبرية والآرامية والسريانية تلك اللغات التي حفظت كثيرًا من النصوص الدينية.

ولما ظهرت المطبعة ظهرت معها مشكلة الكتابة مما أسهم في تنمية الوعي بالظواهر الصوتية والعناية بوضع أبجديات جديدة أو بإصلاح الإملاء القديم(١).

بيد أن انتشار كتب القواعد لم يسهم كثيرًا في تطور البحث اللغوي، فقد ظل اللغويون معتمدين في تحليلهم لأجزاء الكلام على أرسطو، وفارون أو على كتب القواعد التي وضعها نحاة اللاتينية في العصر الوسيط التي لم تخرج هي الأخرى عما ذكراه.

وقد سادت آنذاك تلك الفكرة المستمدة من التوراة فكرة أن اللغات الإنسانية جميعها مصدرها واحد، وأن العبرية هي هذا الأصل المشترك، ومن ثم فقد كثرت البحوث التي تهدف إلى إثبات ذلك بعقد المقارنات بين العبرية واللغات الأخرى، ومن أهم البحوث في هذا الشأن بحث (كانيوس) الذي أذاع في أوربا فكرة القرابة بين اللغات السامية، تلك القرابة التي اعترف بها اليهود والعرب على سواء في العصر الوسيط.

---

(١) انظر (مونين) تاريخ علم اللغة، ص ١١٩، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧.

ومع أن الملاحظة والآراء اللغوية التي ظهرت في هذه الفترة لم تكن مستندة إلى أساس لغوي صحيح، إلا أن مؤرخي علم اللغة يقررون أنها كانت لها فائدة عظيمة فقد أثارت بعض الأسئلة التي لم تُطرح من قبل، وكشفت عن بعض المشكلات التي ينبغي أن تتوجه إليها البحوث في المستقبل(١).

(١) انظر (مونين) تاريخ علم اللغة ص ١١٩، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧.

ثانيًا: القرن السابع عشر

استمر النشاط اللغوي في هذا القرن على مِنوال ما كان في القرنين السادس عشر والخامس عشر، بيد أن أهم ما يميز هذا القرن هو المباحث اللغوية، التي قام بها رهبان دير (بور رويال)، لقد وضع الراهبان (أرنولد) و (لانسلو) الأساس لما أسمياه القواعد اللغوية العامة والمعللة تعليلًا عقليًا، وكان معتمدهم في الوصول إلى هذه القواعد العامة مقارنة الفرنسية والإيطالية، وسوف يكون لهذه المحاولة تأثير في علم اللغة المعاصر، إذ وجد فيها تشومسكي دعمًا لنظريته في القواعد التحويلية[1].

وثمة قضية أخرى ظهرت إبان هذا القرن وهي قضية اللغات العالمية المصطنعة، فقد سعوا إلى إيجاد لغة (فلسفية) عامة تجمع بين مزايا التصنيف المنطقي لجميع المفاهيم مع تعبير مشترك عالمي يتحقق ببعض الرموز أو بأبجدية مصطنعة اصطناعًا[2].

---

(١) السابق.

(٢) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٣١، ١٣٤، ١٣٧.

ثالثًا: القرن الثامن عشر

كان الاتجاه العقلاني في دراسة اللغة بارزًا في هذا القرن ولهذا استمر البحث النحوي في الاتجاه الذي أرسته مدرسة (بور رويال) والقائم على أن اللغات جميعها تعبر عن الأفكار وأن ثمة علاقة قوية بين الجملة في النحو والقضية في المنطق، وأن تحليل الجملة ينبغي أن يقوم على أساس واحد بغض النظر عن اللغة المعينة الخاضعة لهذا التحليل، ولهذا كانت تجري البحوث لوضع القواعد العامة التي تصلح لكل اللغات.

وقد استمر كذلك البحث في اللغات الحية في آسيا وإفريقيا، وقام كثير من الباحثين بوضع قوائم للمفردات وبعقد مقارنات بين اللغات(١).

ولم يكن عمل هذه القوائم عملًا دقيقًا، ومع ذلك فقد كانت لها مزاياها، إذ إنها وضعت نظرية أكثر وضوحًا عن طبيعة اللغة، وكيف تكون المقارنات بين اللغات، مما مكن الباحثين الآخرين من نقد أعمالهم وإلقاء الضوء عليها ومعالجة مادتها بطريقة أكثر إقناعًا(٢).

أما البحث اللغوي التاريخي فقد غلبت عليه أيضًا النزعة العقلانية، وكان البحث في أصل اللغات هو مقصد كثير من الفلاسفة في تلك الفترة، فكتب فيه (روسو) و (آدم سميث) و(هوبز) و (كوندياك)، وآراء هؤلاء كانت قائمة على فروض تخمينية في علم النفس التوليدي المعروف آنذاك أكثر من قيامها على تحقيقات تاريخية، ومع ذلك فقد بدأ البحث التاريخي يأخذ مكانه شيئًا فشيئًا مما يعد تبشيرًا بظهور علم القواعد المقارنة في القرن التاسع عشر، وقد بدأ (لايبنتز) هذه الخطوة حين دحض النظرية القائلة بأن العبرية هي أم اللغات، وبدأ يبني تلك اللغة التي يعتقد أنها كانت سابقة لكل اللغات المعروفة.

---

(١) انظر: تاريخ علم اللغة، ص ١٤٨، ١٤٩.

(2)see: Dinneen, An Introduction to General Linguistics, m p.1 79.

وفي مجال النظريات اللغوية التي اتسعت آفاقه اتساعًا باهرًا يظهر (كونديالك) الذي ألمح في كتاباته إلى ضرورة الاجتماع البشري؛ لكي يتحقق التبادل اللغوي، وإلى أن العلامات أو الإشارات اللغوية عرفية فنحن الذين اخترناها واتفقنا على استعمالها وغير ذلك من الآراء التي سيكون لها تأثيرها في القرنين التاليين[1].

(١) انظر: تاريخ علم اللغة، ص ١٥٣، ١٥٤.

رابعًا: القرن التاسع عشر

لقد كان القرن التاسع عشر قرن البحوث اللغوية التاريخية والمقارنة، وبخاصة البحوث التي تناولت اللغات الهندوأوربية، وإن كان هذا لا يعني كما يقرر (روبنز) أن البحوث التاريخية والمقارنة لم تظهر من قبل، أو أن الجوانب الأخرى لعلم اللغة، قد أهملت في أثناء هذا القرن، وكل ما في الأمر أن هذا القرن قد شهد تطور المفاهيم الحديثة النظرية والمنهجية لعلم اللغة التاريخي والمقارن، وأن الاهتمام الأكبر للباحثين كان خالصًا لهذا الجانب أكثر من الجوانب الأخرى(١).

وقد كانت العناية باللغة السنسكريتية التي اكتشفت في نهاية القرن الثامن عشر هي أهم أحداثه، وقد تعرف اللغويون الأوربيون الأوائل على البحوث اللغوية التي قام بها الهنود، وبخاصة البحوث الصوتية، بيد أنهم لم يستفيدوا منها في بحوثهم المقارنة، وسوف نرى أن الأسلوب المقارن قد تم على أساس الحروف لا الأصوات، كما أن معرفتهم بطرق التحليل الصرفي عند الهنود لم تغير مفاهيمهم اللغوية تغيرًا ثوريًا، بل إنهم استغلوه استغلالًا سيئًا للوصول إلى ما سموه اللغة الأصلية ولتبرير نظرياتهم في تفوق اللغات المُعْرَبة(٢).

اكتشاف اللغة السنسكريتية:

في نهاية القرن الثامن عشر اكتشف أن السنسكريتية لغة الهند القديمة المقدسة لها علاقة باللاتينية وبلغات أوروبية أخرى، وقد ظهرت هذه الحقيقة لكثير من الباحثين، بل وضع بعضهم معاجم لها، وذلك قبل أن يعلن (وليم جونز) ١٧٨٦م نبأ هذا الاكتشاف العظيم.

وفي ذلك يقول (مونين): إن (جونز) هو الذي أهدى السنسكريتية إلى أوربا وطرح المسألة طرحًا مباشرًا في البحث الذي قدمه للجمعية الآسيوية التي أسسها في البنغال بقوله:

---

(1) Robins, A short History of Linguistics, p.164.

(٢) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٥٨، ١٥٩.

إن للغة السنسكريتية، مهما كان قدمها، بنية رائعة أكمل من الإغريقية وأغنى من اللاتينية، وهي تنم عن ثقافة أرقى من ثقافة هاتين اللغتين، لكنها مع ذلك تتصل بهما بصلة وثيقة من القرابة سواء من ناحية جذور الأفعال أم من ناحية الصيغ النحوية، بحيث لا يمكن أن نعزو هذه القرابة إلى مجرد الصدفة، ولا يسع أي لغوي بعد تفحصه هذه اللغات الثلاث إلا أن يعترف بأنها تتفرع من أصل مشترك زال من الوجود، وثمة أسباب مماثلة، وإن كانت أقل وضوحًا، تحملنا على الرأي بأن اللغتين الكلتية والقوطية - وإن اختلطا بلغة غريبة عنهما - تنتسبان هما أيضًا إلى أصل واحد مع السنسكريتية، بل يمكننا إضافة الفارسية القديمة إلى هذه الفصيلة من اللغات(١).

وقد نشطت البحوث التي تناولت السنسكريتية في باريس نشاطًا عظيمًا فقد بعث (سلفستر دي ساسي) الحياة في مركز حقيقي للأبحاث تابع لمدرسة اللغات الشرقية منذ عام ١٧٧٦م، وقد وفد إلى هذا المركز جميع اللغويين الألمان الذين أوجدوا القواعد المقارنة ومن هؤلاء الأخوان (شليجل) و(همبولدت)، و(بوب)(٢).

إن اكتشاف السنسكريتية والتعرف على علاقتها باللغات الأخرى، قد كان له آثار بالغة الأهمية في حقل الدراسات اللغوية في ذلك الوقت.

وقد عزز هذا الاكتشاف رأي أولئك الذين يعتقدون بأن نحو اللغات متماثل في جوهره مختلف في مظهره، وثبتت الفكرة التي مؤداها أن تطور اللغات كان تحريفات متعاقبة حدثت بمرور الزمن، فاللاتينية مثلًا كانت تحريفًا لليونانية، أما السنسكريتية، فقد كانت آنذاك أكثر كمالًا من اليونانية.

إن دراسة السنسكريتية دعمت الزعم بأن المنهج المقارن الذي يرى أن اللغات التي بينها

---

(١) انظر مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٦٢. و Dinneen, An Introduction to General Linguistics, p. 180

(٢) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٦٣.

علاقات واضحة في بنيتها النحوية، ينبغي أن تكون هذه العلاقات قائمة على أساس من القرابة لا على أساس الصدفة، وأن اكتشاف - أو على الأقل - إعادة بناء اللغة الأصلية القُدْمَى يمكن أن يتم من خلال اللغات التي تفرعت منها.

إن اكتشاف السنسكريتية جعل من الممكن أن ندرس اللغات الشرقية والغربية، التي قد تكشف عما بينها من علاقات القربى[1].

القرابة بين اللغات:

يستخدم مصطلح العلاقة Relationship، ليشير إلى صلات تاريخية، أو صلات قرابة Genetic relations، فحين نقرر أن بين لغتين قرابة نعني أنهما قد تطورتا من لغة أقدم منهما، أي أنهما ينتميان إلى عائلة لغوية واحدة.

وعلى أساس من علاقة القرابة تم تصنيف اللغات وفقًا لاعتبارات مختلفة سوف نتبينها عند الحديث عن مؤسسي البحوث المقارنة في هذا القرن، وباعتماد هذه الأسس في المقارنة استبدعت كثير من الأفكار الخاطئة، كالعبرية التي اعتبرت أم اللغات، ومع ذلك فقد ظهرت تصنيفات شابها الهوى والتعصب فـ (شليجل) مثلًا يميز بين صنفين من اللغات بحسب بنيتها الداخلية: لغات مُعْرَبة (كاللغات الهندية الأوربية) ولغات غير معربة (كاللغة الصينية ولغات الهنود في أمريكا) واللغات المعربة لغات نبيلة؛ لأنها نشأت وتكونت تكوينًا عضويًا، أما اللغات غير المعربة فلغات ناقصة جدًّا بالقياس إلى غيرها، وعلى الرغم من أن اللغات السامية لغات معربة، وبناء مفرداتها قائم على أساس الاشتقاق من الجذور فإن (شليجل) لا يضعها بين اللغات المعربة، ويرى أن بنيتها المعربة ليست قديمة، بل مقتبسة - على حد زعمه.

ولقد كانت نظرة (شليجل) إلى السنسكريتية نظرة أقرب إلى التقديس فهي أكمل اللغات وأقدم اللغات، واللغات الهندية الأوربية جميعها قد انحدرت منها، بل إنه يرى كذلك أن السنسكريتية لغة شعب لا يتألف من البهائم بل من أصحاب العقول النيرة.

(1) Dinneen, An Introduction to General Linguistics, p. 181.

ومن هذه الأفكار التي أملاها التعصب والهوى ظهرت النظرية التي ترى في أوربا مركز الكون - وترى أن الألمانية هي أقرب اللغات إلى السنسكريتية، وسوف نرى أن البحوث القادمة في مجال المقارنة سوف تستبعد كثيرًا منها[1].

الأسلوب المقارن:

لقد تبين لنا أن اكتشاف السنسكريتية كان فتحًا في مجال الدراسات التاريخية والمقارنة، ومع ذلك يقرر المؤرخون أن نشأة القواعد المقارنة لم تكن حادثة مفاجئة فقد ظهرت في الحقيقة قبل عام ١٨١٦م بزمن طويل، وذلك في مجال الأبحاث الدينية وسوف نتبين فيما بعد كيف أثرت البحوث في المجالين على تطور النظريات اللغوية في هذا القرن.

وينسب المؤرخون إلى (ف. شليجل) أنه صاحب هذا المصطلح حين دلل على ضرورة خلق القواعد المقارنة بالوسائل التي يستخدمها علم التشريح في التوصل إلى الحلقات الأولى من الكائنات في التاريخ الطبيعي.

وقد وصف (شليجل) هذه القواعد وصفًا واضحًا حين قال عن السنسكريتية: لا يقتصر الشبه بينها وبين اللاتينية واليونانية والألمانية على ذلك العدد العديد من الجذور المشتركة، لكنه يمتد إلى البنية الداخلية لهذه اللغات، وإلى أعماق القواعد، إذن لسنا هنا بإزاء توافق عارض، بل إنها قرابة تظهر البنية اللغوية بأسرها[2].

وسوف يخطو هذا الأسلوب خطوات سريعة إلى الأمام بالبحوث العميقة التي قام بها (راسك) و (جريم) و(بوب).

راسك (١٧٨٧-١٨٣٢م):

لقد تبينا أن (ف. شليجل) قد وضع بذرة الدراسة المقارنة حين حدد بعض القواعد التي على أساسها لاحظ أوجه الشبه بين السنسكريتية واليونانية واللاتينية والألمانية، بيد أن العالم

---

(١) انظر: تاريخ علم اللغة، ص ١٥٩، ١٦٠، ١٦٧، ١٦٨.

(٢) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٦٥، ١٦٦.

الدانمركي (راسك) كان هو أول من جعل المقارنة بين اللغات قائمة على أسس ثابتة، فاعتمد على المقارنات المطردة بين المفردات، وعلى الرغم من ذلك لم يجعله المؤرخون مؤسس القواعد المقارنة، وقد كان جديرًا بذلك اللقب، لأسباب كثيرة منها أنه كتب بحوثه باللغة الدانمركية ونشرها متأخرًا.

ولقد أدرك راسك إدراكًا قويًا أن المقارنة بين اللغات ينبغي أن تستند إلى أسس نحوية، وفي هذا المجال يقرر أن التجارب أثبتت أن التوافق بين المفردات لا يعول عليه دليلًا على الأصل المشترك أو العلاقة بين اللغات، إن هذا التوافق قد يرجع إلى الاقتراض أو الصدفة الخالصة، ثم يقرر أن الصيغ الصرفية وطرق الاشتقاق في اللغة نادرًا ما تُقْتَرض، ولهذا فإن أفضل طريق للمقارنة هو أن نعتمد على:

١. جذور اللغات.

٢. التوافق الصوتي بين جذور اللغات(١).

ولم يعتمد (راسك) في المقارنة على الأسس النحوية وحدها، بل اعتمد كذلك على المفردات، وإن جعل ذلك في المرتبة الثانية، فهو يقرر أن لغة ما تنتسب إلى فرع واحد مع لغة أخرى، إذا اشتركت اللغتان في المفردات الأساسية الشائعة، وعندما نلاحظ توافقًا بين اللغتين في هذا اللون من المفردات، وكان التوافق متواترًا بحيث يعيننا على استنباط بعض القواعد التي تنتظم تحول حرف إلى حرف آخر من لغة إلى أخرى، كنا على يقين بوجود علاقة أساسية بين هاتين اللغتين(٢).

من هذه المفردات الأساسية المفردات ذات الدلالات القديمة كالأرض والسماء ودرجات القرابة كالأب، والأم، والأخ... الخ.

(1)Dinneen, An Introduction to General Linguistics, p. 181.

(٢) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٧٢ وانظر أيضًا. Robins, A short History of Linguistics,, p. 171

وقد وضع راسك قوانين التحول الصوتي التي تخضع لها الحروف الصامتة في الجرمانية كالانتقال من الحرف اللاتيني P إلى الحرف الجرماني F كما في Patsr > Father وإن كان يؤخذ عليه أنه يتحدث عن الحروف لا الأصوات[1].

وبهذا البيان الواضح في أسس المقارنة وقوانين التحول الصوتي يكون (راسك) قد سبق غيره من الباحثين إليها وبخاصة (جريم) الذي أخذ عنه ما عرف بين اللغويين بقانون (جريم) في التحولات الصوتية[2].

جريم (١٧٨٥-١٨٦٣):

لقد تبين لبعض فقهاء اللغة المقارنين منذ عهد مبكر وبخاصة (راسك) أن بعض حالات التوافق الصوتي تأخذ طابعًا منتظمًا في الكلمات المترادفة في اللغات المختلفة، وقد أعلن جريم في عام ١٨٢٢م بعض هذه الحالات.

لقد أوضح جريم أن اللغات الجرمانية (ويمثلها في الجدول الآتي اللغة القوطية):

حين تضم إحدى كلماتها الحرف F يقابله في الكلمة المشتركة في اللاتينية واليونانية والسنسكريتية الحرف P. وحين تضم P يقابله في اللغات الأخرى الحرف b. وحين تضم الحرف θ (وهو صوت مهموس احتكاكي أسناني يشبه الثاء العربية) يقابله في اللغات الأخرى T. وحين يضم الحرف T يقابله في اللغات الأخرى المحرف d.

وهذا هو الجدول الذي يوضح هذه التقابلات:

Gothic	f	P	b	e	t	d	h	k	g
Latin	p	b	f	t	d	t	c	g	h
Greek	P	b	ph	t	d	th	k	g	kh
Sanskrit	P	b	bh	t	d	dh	s	I	h

لاحظ أن ph, kh, dk, bh; المستخدمة في كتابة اليونانية واللاتينية تشير إلى

(١) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٧٢.

(٢) تاريخ علم اللغة، ص ١٧٥.

أصوات وقفية نَفَسِيَّة Aspirated Stops وهي تستخدم في التمييز بين الاحتكاكيات والوقفيات النفسية(1).

وهذا جدول يوضح بالأمثلة بعض التقابلات السابقة:

Sanskrit	bhrātar-	pitār-
Gothic	brōbar	fadar
Latin	frāter	pater

وقد فسر جريم هذه التقابلات بافتراض حدوث تغير صوتي في مرحلة ما قبل تاريخ الجرمانية بمقتضاه أصبحت الصوامت الهندوأوربية النفسية (bh, dh, gh) غير نفسية (b, d, g) وأصبحت الأصوات المجهورة (b, d, g) مهموسة وأصبحت الأصوات الأصلية المهموسة (P, T, K) نفسية (F, θ, h)

وقد اعترف (جريم) ومعاصروه بوجود مستثنيات كثيرة على هذا القانون.

لقد لاحظوا مثلًا أن الكلمة brother تخضع له تمامًا في تطور سواكنها.

اللاتينية	القوطية
Frater	Broθar

حيث تقابل b في القوطية F في اللاتينية.

وحيث تقابل θ في القوطية T في اللاتينية.

على حين نلاحظ أن الكلمة Fathar تخضع له جزئيًا.

حيث تقابل F في القوطية P في اللاتينية.

وحيث تقابل d في القوطية T في اللاتينية وهذا موضع الاستثناء.

ولم تزعجهم المستثنيات السابقة، فلم يكن لديهم أي سبب يدعوهم إلى الاعتقاد بأن التغير الصوتي تغير مطرد، وقد قرر (جريم) نفسه بأن التغير الصوتي ينطبق على معظم

(1) See, Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics, p. 27

الحالات لا على كلها واحدة واحدة، فبعض الحالات تبقى في شكلها الـذي كانـت عليـه في مرحلة أقدم، ثم تجاوزها تيار التطور تمامًا(١).

بوب (١٧٩١-١٨٦٧م):

(بوب) - عند مؤرخي علم اللغة - هو مؤسس القواعـد المقارنـة، ففـي عـام ١٨١٤م نشرت مذكرته: "في تصريف اللغة السنسكريتية، ومقارنتـه بالأنظمـة الـصرفية المعروفـة في اللغات اليونانية، واللاتينية، والفارسية، والجرمانية"، ثم تابع أبحاثه المقارنـة طـوال نـصف قرن من الزمن، ومنها على سبيل المثال مذكرته في "التحليل المقارن بين اللغـة السنـسكريتية، واللغات التي تمُتُّ إليها بصلة القربى، وكتابه "القواعد المقارنة"(٢).

وقد كان الاعتقاد السائد في عهـده أن السنـسكريتية هـي المـصدر الـذي تفرعـت عنـه اليونانية واللاتينية واللغات الأوربية الأخرى، وجاء بوب فخالف هذا الاعتقـاد، ورأى أن هذه اللغات بغير استثناء تحولات متدرجة للغة أصلية واحدة، كما أنه لم يقر المصطلح اللغات الهندية الجرمانية، الذي أشاعه (كلابروت) منذ عام ١٨٢٣م وقال: لا يـسعني أن أقـر لفظـة هندية - جرمانية، إذ لا أرى ما يـستوجب اعتبـار الـشعب الجرمـاني ممـثلًا لجميـع شـعوب قارتنا(٣).

وهو لهذا لا يعد السنسكريتية اللغة الأصلية التي تفرعت عنهـا عائلـة اللغـات الهنديـة الأوربية، بل يعدها أقربها إلى هذه اللغة.

وقد جعل (بوب) الهدف الرئيسي لنظامه التصريفي إعادةَ صياغة البنيـة النحويـة للغـة الأصلية التي نتج عن انحلالها التدريجي للغات المنضوية في أسرة اللغات الهندية الأوربية.

وكان (بوب) يوجب علينا أن ننظر إلى اللغات على أنها أشياء طبيعية عضوية تنمو وفقًا

---

(1) See, Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics, p. 27, 28

(٢) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٧٧-١٧٨.

(٣) السابق ص ١٧٨، ١٨٢ Robin, A Short History of Linguistics, p.173

لقوانين محددة حاملة في ذواتها بذرتها الحية، ثم تصل إلى أدوار من التطور وفي النهاية تموت[١].

فاللغات الأوربية بهذا الفهم ليست إلا نتيجة لانحلال تدريجي للغة الأولى التي تفرعت منها جميعًا، ومن ثم كان التغير اللغوي عنده حالة انحلال تصيب اللغة الأصلية الكاملة.

وقد أعلن (بوب) أن هدفه من الوصف المقارن للغات المدروسة هو وضع القوانين التي تخضع لها وبيان أصولها الاشتقاقية[٢].

ومن الواضح أن (بوب) قد هُدِي إلى المنهج الوصفي في الدراسة حين قال: "إن اللغات التي نتناولها في بحثنا هذا قد درسناها لذاتها بوصفها غرضًا من الأغراض العلمية، ولم ندرسها كوسيلة من وسائل المعرفة، وهي عبارة تذكرنا بما سيقوله (دي سوسير) في آخر كتابه[٣].

ظهور علم اللغة التاريخي:

كانت البحوث المقارنة هي الطابع السائد في بداية القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٧٠م، حين ظهر علم اللغة التاريخي، وإن كان مؤرخو علم اللغة يحترسون من هذا التحديد الصارم، ويرى بعضهم أن علم اللغة التاريخي قد ظهرت بشائره قبل ذلك، وبخاصة عند (جريم) الذي يعد عندهم مؤسس علم اللغة التاريخي.

وقد أوضح (ماييه) الفرق بين القواعد المقارنة وعلم اللغة التاريخي فقال: "حقيق بنا أن نقر ونعترف بأنه لا يوجد علم يسمى بالقواعد المقارنة، إذ لا توجد إلا طريقة مقارنة، وإن ما ندعوه خطأ بالقواعد المقارنة ليس إلا شكلًا من أشكال علم اللغة التاريخي، فإذا ما أردنا بحث القواعد المقارنة لإحدى اللغات درسنا تاريخ هذه اللغة على هدى الطريقة المقارنة"[٤].

---

(1) Robin, A Short History of Linguistics, p.181
(2) Robin, A Short History of Linguistics, p.173

(٣) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ١٨٢، ١٨٣.

(٤) انظر: تاريخ علم اللغة، ص ١٨٣، ١٨٧.

وقد كانت هذه الدراسة المقارنة إبَّان نشأتها تختلف في منهجها وفي الغاية منها عن الدراسة التاريخية التي أعقبتها، وفي ذلك يقول (مونين): وكان الهدف الأساسي من القواعد المقارنة إثبات القرابة بين اللغات، وهي لا تسعى إلى تتبع تاريخها خطوة خطوة، بل تعتمد طريقة الموازنة الدقيقة الصارمة، وتنتهي من عملها أو تستنفد طاقتها إذا أثبتت أن التشابه بين أشكال لغتين لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة، وبالتالي لا بد أن تكون إحداهما منحدرة من الأخرى، وإما أن تنحدرا معًا من أصل مشترك، ولا تتضمن الطريقة المقارنة في حد ذاتها، أي استعانة بتاريخ تطور اللغات، فلكي تثبت صلة القربى بين اللغات لا يعنيها مباشرة أن تنظر في الفترات التاريخية التي تقارن بينها[1].

وهكذا يبدو أن الدراسة المقارنة قد أهملت الجانب التاريخي فلم تنظر إلى التغير اللغوي على فترات متعاقبة، وكذا لم تعن بدراسة المراحل المختلفة التي مرت بها اللغات بمرور الزمن، ولم تحدد الظواهر اللغوية التي تميز كل مرحلة عن المراحل الأخرى.

همبولدت (١٧٦٧-١٨٣٥):

كان (همبولدت) من أعمق المفكرين الذين تناولوا القضايا اللغوية العامة في القرن التاسع عشر، وهو من اللغويين الأوائل القلائل الذين لم يركزوا كل عملهم في مجال البحث اللغوي التاريخي، بل إن بحوثه اللغوية كانت تهدف إلى وضع علم إنساني مقارن، ومن هنا كانت عنايته البالغة بالقضايا العامة مثل: طبيعة الفكر الإنساني ونشأته وتقدمه، أصل الديانات والملاحم القديمة باعتبارها شواهد ثابتة تكشف لنا عن تفكير الأولين ومعتقداتهم.

وقد كان له دور هام في الشئون العامة لبروسيا سفيرًا ومديرًا للتعليم ووزيرًا، وكان له إلمام واسع بعدد كبير من اللغات المنتشرة في الشرق والغرب، كما كان له معرفة بعدد من لغات الهنود بأمريكا.

وكان ينظر - كالمألوف في عصره - إلى اللغة السنسكريتية على أنها أفضل اللغات

(١) انظر: تاريخ علم اللغة، ص ١٩٣، ١٩٤ و Robins, A short history of Linguistics p. 174

المعروفة لنا وأقربها إلى الكمال.

ونظريته اللغوية قائمة على أساس أن اللغة ملكة خلاقة متأصلة في عقول المتحدثين بها، وأن الإنسان البدائي دفعته طبيعته الخلاقة إلى أن يبدع اللغة، ثم إنه يتصور أنه بعد فترة التكوين السالفة تناقصت قوة الطاقة المبدعة للغة، وهذا يذكرنا بما شاع في عصره من حديث عن كمال اللغات، ثم انحلالها التدريجي(١).

وقد شغل بعلاقة اللغة بالفكر، وعنده أن الفكر واللغة يتوقف كل منهما على الآخر، ولا ينفصل أحدهما عنه، ولهذا السبب كان يعتقد أن الفروق بين اللغات ليست في الأصوات فحسب، بل هي إلى ذلك فروق في العقليات، فروق في نظرة الإنسان إلى العالم الذي يعيش فيه وإدراكه له.

واللغة هي الوسيلة التي يتكون بها التفكير، أي أنها تعبر عن الروح القومية، وكذلك تكون هذه الروح في كل خصائصها، وتشير إلى تلك النظرة الكونية الشاملة التي تنفرد بها جماعة من الجماعات، وليس تنوع اللغات إلا دليلًا على تنوع العقليات، ومنه نشأت أهمية التحليل الدقيق المفصل لعضوية كل لغة حتى تتم المقارنة بين مزايا بنيتها ومزايا بنية اللغات الأخرى، ذلك أن تفوق البنية اللغوية برهان أكيد على تفوق العقلية والعرق(٢).

ولم تلق أفكاره السابقة ترحيبًا كبيرًا من معاصريه، وقد ظهرت حديثًا اتجاهات مؤيدة لها، ونكتفي هنا بالإشارة إلى: (بواز) و (سابير) و (ورف)(٣).

وقد صنف همبولدت اللغات تصنيفًا بنائيًا، أي وفقًا للشكل السائد لبنية الكلمة فيها باعتبارها وحدة قواعدية grammatical unit وهي: اللغات المفردة isolating

---

(١) انظر: تاريخ علم اللغة، ص ١٩٧.

(٢) See, Robins, A short history of Linguistics, p. 175, 176 وتاريخ علم اللغة، ص ١٩٧.

(٣) See, Robins, A short history of Linguistics, p, 176 وانظر المبحث الخامس بعنوان: (اللغة والفكر والثقافة) في كتابنا "مدخل إلى اللغة".

واللاصقة agglutinative واللغات الاشتقاقية flexional، وهـو تقـسيم كـان شـائعًا في عصره وبخاصة عند (أ شليجل)[1].

شلايشر (١٨٢١-١٨٦٨م):

(شلايشر) عند مؤرخي علم اللغة هـو أعظـم علـماء اللغـة تـأثيرًا، وأكثـرهـم أهميـة في منتصف القرن التاسع عشر، وربما كان له هذا التأثير وهذه الأهمية إذا وضعنا آراءه ونظرياته في إطار عصرها، فبعض الباحثين يرى أنها لم تثبت أمام النقد، ولم يبق منها في أيامنا إلا القليل النافع.

وقد كانت له اهتمامات واسعة كان عالمًا في النبات، وكان متأثرًا بفلسفة (هيجل)، ومـن آثاره اللغوية مبحثه الرائد "الموجز في اللغة اللتوانية"، الذي ما زال محتفظًا بقيمته حتى اليوم، ومن مباحثه المقارنة "الموجز في القواعـد المقارنـة للغـات الهنديـة - الأوروبيـة" وقـد عـرض نظرياته اللغوية في كتابه "مذهب دارون وعلم اللغة"[2].

وفي مجال القواعد المقارنة يُذكر أن (شلايشر) هو أول من وضع فكرة إعادة بنـاء اللغـة الهندية الأوربية موضع التنفيذ عـلى نحـو مـنظم، ومـؤدى هـذا الفكـرة أن يجمـع الباحـث الأشكال المختلفة لكلمة ما لا تزال موجودة في اللغات الهندية الأوربية (في السنسكريتية وفي اليونانية واللاتينية والإيرانية ... إلخ مثلًا) ثم يقوم بتطبيق قواعد العلاقات المتبادلة بين لغـة وأخرى، وبعدئذ يحاول أن يصل إلى أقدم هذه الأشكال اسـتنادًا إلى قواعـد ثابتـة في التطـور الصوتي، هذه التحليلات سوف توصلنا إلى أقدم الأشكال التي تدعمها الشواهد، وهذا كله يعيننا على تركيب صيغة افتراضية صوتًا بصوت، وتسمى هذه الصيغة هندية - أوربية ويشار إليها بنجمة صغيرة تمييزًا لها عن الصيغ الأخرى المعروفة، فيقـال مـثلًا: إن الـصيغة الهنديـة الأوربية akwa-s (وهي صيغة مفترضة ناتجة عن عمليات التحليل والمقارنة التي لخصناها

(1) Robins, A short history of Linguistics p.p. 176, 177

(٢) انظر تاريخ علم اللغـة، ص١٩٩، ٢٠٠ و Robins, A short history of Linguistics p. 178, 181

آنفًا) هي الأصل الذي تحولت عنه الصيغة اللاتينية equus ... الخ.

وقد ذهب (شلايشر) إلى أبعد من ذلك حين اعتقد أن هذه الصيغة التي افترضها فرضًا واختلقها اختلاقًا قد وجدت فعلًا في فترة من فترات التطور، وعلى هذا الأساس أعاد إنشاء قصة خرافية بكاملها هي قصة (النعجة والخيل) بالهندية الأوربية المشتركة.

ولا شك أن هذه الصيغ التي أعاد (شلايشر) بناءها وفقًا لقوانين التطور الصوتي ما هي إلا صيغ ناتجة عن فروض ومعادلات، وليس لدينا من دليل على أنها قد وجدت يومًا[1].

أثر الداروينية في أعمال شلايشر:

سيطرت نظرية "داروين" التي أوضحها في كتابه "أصل الأنواع" سيطرة بالغة على مناحي التفكير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد كان (شلايشر) يعد نفسه عالمًا طبيعيًا يعمل في مجال اللغة، وكان يرى أن اللغة جهاز عضوي ينبغي أن تدرس وفقًا لمناهج العلوم الطبيعية، واللغة بهذا الاعتبار (اعتبار أنها جهاز عضوي) قابلة للتطور تنمو وتتطور ثم تنحل وتموت كأي كائن عضوي حي، وهكذا تتلاقى نظرية (شلايشر) اللغوية التي أعلنها في كتابه "مذهب دارون وعلم اللغة" بنظرية (دارون).

ويلخص (مونين) فكرة (شلايشر) قائلًا: اللغة جهاز عضوي أي أنها ليست ظاهرة اجتماعية، بل هي حادث من حوادث الطبيعة، أو جهاز عضوي طبيعي، ومن ثم لا يكون علم اللغة علمًا إنسانيًا، إنما هو علم طبيعي، وعلوم الإنسان - كما يقول (هيجل) الذي تأثر به (شلايشر) - هي ميدان الحرية، في حين أن علوم الطبيعة هي ميدان الضرورة والتقييد، ومن ثم كان علم اللغة خاضعًا لقوانين حتمية تساعد علم الصوت على إنشاء اللغات البائدة، وعلى هذا النحو شعر (شلايشر) شعورًا واضحًا بضرورة فصل الدراسة الإنسانية القديمة المسماة بفقه اللغة عن الدراسة اللغوية الجديدة التي كان يريد أن يطلق عليها اسم علوم

---

(١) مونين تاريخ علم اللغة، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

الحنجرة"[1].

وقد صنف (شلايشر) اللغات ووضعها في مجموعات كل مجموعة منها تمثل عائلة لغوية، هذه العائلات تفرعت من أصل قديم لم يعد له وجود، وقد بينا سابقًا أنه قد حدد الأسس، ووضع الطرق التي تيسر لنا بناء هذا الأصل، وقد بينا أيضًا أن اللغة تتطور وتمر في مراحل: النمو والتطور والانحلال، وفي أثناء مرور اللغة بهذه المراحل تتغير بنيتها وفقًا للمراحل الآتية: مرحلة الانفصال واللصق والاشتقاق.

ويزعم (شلايشر) أن كل لغات البشر تمر بهذه المراحل التطورية المتعاقبة، وحين تبلغ المرحلة الأخيرة وهي - عنده - غاية النضج والكمال يحين أجلها فيقضى عليها.

وقد تعرضت هذه الآراء لنقد شديد.

ومن ذلك:

١. ليس في لغات البشر ما هو لصقي تمامًا، أو اشتقاقي تمامًا، فاللصق أو الاشتقاق مسلكان لغويان أو طريقان من طرق الصياغة وليسا مرحلتين في تطور اللغة، ومن ثم لا يتعارضان فثمة لغات اشتقاقية تستخدم اللصق، ولغات لصقية تستخدم الاشتقاق.

٢. الزعم بأن اللغات الأم لغات كانت موجودة بالفعل - زعم لا دليل عليه، وليست اللغات الأم غير ألفاظ ونظم افتراضية تفسر العلاقة القائمة بين عدد من اللغات المتشابهة التي تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة.

٣. اقتصر (شلايشر) على طرق بناء الكلمات، وليس ذلك فحسب ما يميز لغة أو عائلة لغوية عن سواها، فثمة خصائص صوتية ونحوية ينبغي أن توضع في الاعتبار عند المقارنة.

٤. نسب (شلايشر) إلى اللغات ما ينسب إلى الكائنات العضوية، فهي تحيا وتنمو وتتطور وتموت، بل إنها تتصارع ليذهب الضعيف، ويبقى الأقوى، وليس هذا صحيحًا بحال، فاللغات لا تموت بالمعنى البيولوجي، بل إن اللغة تُهْجَر وتبقى آثارها، وقد تعود إلى

---

(١) تاريخ علم اللغة، ص ٢٠٢.

الاستعمال مرة أخرى، واللغات لا تتصارع، وكل ما في الأمر أن أفراد الجماعة اللغوية يميلون إلى نمط لغوي دون نمط، وقد يتركون لغة ويستخدمون لغة أخرى(١).

ومع أن آراء (شلايشر) قد عفا عليها الزمن وتجاوزها العلماء فقد أتاحت للغويين الذين جاءوا بعده أن يصلوا إلى نتائج أكثر دقة، وأن يتجنبوا ما وقع فيه من أخطاء، ويبقى له كذلك أنه حاول أن يجعل من علم اللغة علمًا بالمعنى السائد في عصره، وسوف يكون ذلك هدفًا من أهداف اللغويين، وإن كان المعنى سيختلف كثيرًا عما عناه.

النحويون الشبان (الجدد):

هم جماعة من اللغويين التفوا حول أحد العلماء البارزين في (لايبزغ) عام ١٨٧٦م وهو (كورتيوس) وكان لهم اهتمام ببعض الموضوعات المقارنة، ومن أبرزهم (بروكمان) و(أستهوف)، ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا مع أستاذهم وأصدروا مجلة لغوية تعبر عن مواقفهم المعارضة لكثير من أفكار معاصريهم، وقد أثاروا هؤلاء بتعريضهم بعلم اللغة القديم الذي يمثلونه وبدعوتهم إلى علم اللغة الجديد الذي يبشرون به، ولم يسكت خصومهم، بل أخذوا في التدليل على أن أفكارهم ليست مبتكرة وأنها كانت عند (جريم) وغيره(٢).

وبغض النظر عن المهاترات التي أثارها هؤلاء الشبان، فقد كان تأثيرهم في مسيرة علم اللغة بالغًا فـ(روبنز) مثلًا يرى أن ظهور هؤلاء اللغويين كان حدثًا هامًا ومثيرًا تمخض عنه ردود أفعال ملحوظة ومباشرة، وظهر في أعقابه عدد من الاتجاهات في البحث والتفكير كاستجابة مباشرة لما قالوه، إن نظريتنا اللغوية في معظمها وبخاصة نظريتنا في علم اللغة التاريخي ما كانت لتحمل شكلها الحالي لو لم تعتمد اعتمادًا على النحويين الجدد(٣).

---

(١) انظر أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور، ص ٤٢، ٤٣.

(٢) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ٢٠٩، ٢١٠.

(3) Robins, A short history of Linguistics p. 182

ويلاحظ (مونين) أن علم اللغة في صورته التي تبلورت قبل بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان يحمل كثيرًا من التناقضات، ويمثل على ذلك: بالمقارنات التي تعتمد على البراهين، وبالأهمية الكبرى التي منحت للغة السنسكريتية، وبالأفكار المتسرعة التي أعلنها (شلايشر) في التطور اللغوي، هذه كلها دفعت هؤلاء الباحثين إلى إنشاء علم لغوي جديد أكثر دقة وعلمية(١).

لقد كان (جريم) ومعاصروه واقعين تحت تأثير الرومانسية، وقد ظهرت أعمال (شلايشر) في إطار الداروينية، أما النحويون الجدد فقد رغبوا في أن يجعلوا من علم اللغة التاريخي علمًا دقيقًا له مناهج العلوم الطبيعية، تلك العلوم التي حققت تقدمًا واضحًا في القرن التاسع عشر، وقد تمسك علماء هذا القرن بقوة بعمومية القوانين وبإدراك الظواهر إدراكًا واقعيًا وبنظرتهم الواعية إلى النظام والتناسق في العالم(٢).

وفي هذا الإطار نفسه كتب (أوستهوف) عن قوانين صوتية ناشئة عن الضرورة البحتة قوانين مستقلة عن إرادة الأفراد. وليس معنى هذا أن اللغة لها حياتها المستقلة بل هي - كما يقرر - ذات وجود لدى الأفراد الذين يؤلفون جماعة لغوية، والتغيرات اللغوية ما هي إلا تغيرات في العادات اللغوية للأفراد(٣).

وفي ضوء فهمهم للقوانين الصوتية الصارمة فسروا بعض المستثنيات التي خرجت على قانون (جريم) واكتشفوا أن مكان النبر هو العامل المؤثر في تحول (T) في السنسكريتية في الكلمة Pitar إلى (d) في القوطية(٤).

وثمة عاملان آخران أدرك النحويون الشبان أثرهما البعيد في تفسير المستثنيات في قواعد التغير الصوتي هما الاقتراض والقياس.

---

(١) انظر: تاريخ علم اللغة، ص ٢١١، ٢١٢.

(2) Robins, A short history of Linguistics, p. 184
(3) Robins, A short history of Linguistics, p. 184
(4) Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics p. 29

أما الاقتراض فمن المعروف أن الكلمات المقترضة ربما لا تخضع للتغيرات التي تلحق الكلمات الأصلية فربما اقترضت بعد تحقق التغير فتبقى وكأنها استثناء على القاعدة.

والقياس من أهم العوامل في تطور اللغات، فقد تبين للغويين أن هذا التطور كثيرًا ما يتأثر بالاتجاه إلى خلق أشكال جديدة مقيسة على نمط أشكال سابقة أكثر شيوعًا أو اطرادًا في بنية اللغة، وربما تجد أشكالا مخالفة غير صحيحة تبدو وكأنها استثناء على القواعد كما يفعل الأطفال الإنجليز مثلا حين يقولون goed قياسًا على played[١].

وقد قاوم (بروكمان) النظرية الشائعة التي تعتبر الهندية الأوروبية بداية مطلقة يتعذر مسها ولا تخضع لقوانين اللغة، ورأى أنها لا تعدو أن تكون فترة من فترات التطور، ونبه اللغويين إلى أن انصرافهم إلى البحث عن اللغة الأصلية قد جعلهم يغفلون عن التطورات اللغوية الحديثة التي نظروا إليها نظرة ازدراء، وكأنها فترات من التحلل والانحطاط، ثم يقرر أنه لكي نكون نظرية عامة في التطور اللغوي ينبغي أن تدرس الأشكال اللغوية على أساس تطورات لغوية يمكن أن نتتبع مقدماتها اعتمادًا على وثائق تمتد على فترة أطول من الزمن، وتكون بدايتها معروفة لنا معرفة مباشرة[٢].

ثم يعلن في معارضة صريحة لنظرية (شلايشر): أتمنى على كل لغوي أن يحزم أمره، ويمتنع عن استخدام تلك التعابير الضارة مثل "شباب اللغة" أو "شيخوختها" التي لم ينجم عنها إلا أذى في أيامنا وقليل جدًّا من الفائدة[٣].

وقد كان موقفهم هذا من العوامل التي أدت إلى ازدهار البحث في حقلين لغويين هامين هما: حقل الأصوات واللهجات.

لقد تلقى علم الأصوات دفعة قوية حين وجه النحويون الجدد الأنظار إلى دراسة

---

(1) Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics p. p. 30, 31

(٢) مونين: تاريخ علم اللغة، ص ٢١٦، ٢١٧.

(٣) السابق.

اللغات الحية، وحين أدركوا أن الحروف في اللغات الميتة لا تكفي في تقديم معلومات صحيحة عن نطقها الفعلي.

أما اللهجات المنطوقة في أوربا فقد توجهت إليها جهود اللغويين منذ الحركة الرومانسية التي كانت تقدس كل شيء له علاقة بالشعب، ولكن النحويين الجدد جعلوا من دراستها مجالًا حيويًا للدراسة العلمية في ضوء ما وصلوا إليه في شأن التطور اللغوي منذ مثلوا له بالمرحلة الأخيرة من تصنيف العائلة الهندية الأوربية.

وقد بدأ ظهور البحوث والتقارير اللهجية ونشر الأطالس اللغوية في هذا العصر مع أن بعض خصوم مذهب النحويين الجدد كانوا من بين علماء اللهجات(١).

(1) See, Robins, A short history of Linguistics , 186

خامساً: علم اللغة الحديث "القرن العشرون"

١. دي سوسير (١٨٧٥-١٩١٣م)

علم اللغة وعلم الاجتماع:

لقد تبين لنا من العرض الموجز لتاريخ علم اللغة في القرن التاسع عشر أن اللغويين كانوا حريصين على أن يجعلوا من دراسة اللغة عملًا علميًا دقيقًا، باستخدام المناهج والوسائل التي استخدمتها العلوم في ذلك الوقت، رأينا (شلايشر) يضع نظريته في التطور اللغوي وفق الأفكار التي بَشَّر بها (دارون) في كتابه (أصل الأنواع) ورأيناه يصنف اللغات وفقًا للتصنيف الذي وضعه علماء النبات والحيوان، ورأينا النحويين الشبان يريدون أن تكون القاعدة في التطور اللغوي كالقاعدة في العلوم الطبيعية قاعدة عامة تشمل جميع الأفراد ولا تعرف الاستثناء.

وهكذا بدا لنا أن البحث في اللغة قد عكس الأفكار السائدة في هذا العصر وقد استفاد منها وتأثر بها، وهكذا كان الأمر حين اطلع (دي سوسير) على أعمال (دوركايم) عالم الاجتماع الفرنسي، لقد اهتدى بها في وضع أسس الدراسة العلمية للغة في مطلع القرن العشرين.

كان علم الاجتماع قد بدأ يجد طريقه إلى الاستقلال عن العلوم الإنسانية فأعلن (دوركايم) في مستهل هذا القرن أن علم الاجتماع ليس تابعًا لعلم النفس، بل هو علم قائم بذاته؛ لأنه يدرس طائفة من الظواهر لا يشركه فيها علم آخر، يدرسها بمنهج يختلف عما ألفه الناس في معالجتهم الشئون الاجتماعية.

وقد وضع (دوركايم) الأسس النظرية لهذا العلم وحدد الخطوات والقواعد التي ينبغي اتخاذها لدراسة موضوعاته في كتابه "قواعد المنهج في علم الاجتماع" الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور محمود قاسم رحمه الله.

كان (دوركايم) يريد أن تكون دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية، ولكي تكون

كذلك لا بد من تحديد مجالها تحديدًا واضحًا، وكان طريقه إلى ذلك أن يُعرِّف الظاهرة الاجتماعية موضوع هذا العلم.

كانت أهم القضايا التي أعلنها (دور كايم) وأثارت اعتراضات معاصريه أنه قال بوجوب دراسة الظواهر على أنها أشياء، فقد اعتقد هؤلاء أنه يريد أن يشبه حقائق العالم الاجتماعي بحقائق العالم الخارجي.

وقد رد (دور كايم) على معارضيه وقرر أنه لا يقول بأن الظواهر الاجتماعية أشياء مادية، ولكنه يقول بأنها جديرة بأن توصف بأنها أشياء كالظواهر الطبيعية.

ثم يعرف (الشيء) بقوله: إن الشيء يقابل الفكرة، بمعنى أن معرفتنا له تأتي من الخارج على حين أن معرفتنا بالفكرة تأتي من الداخل، والشيء هو كل ما يصلح أن يكون مادة للمعرفة، ولكن بشرط ألا تسمح له طبيعته بأن يندمج في العقل الذي يدركه، وليس معنى أننا نعالج طائفة خاصة من الظواهر على أنها (أشياء) هو أننا ندخل هذه الظواهر في طائفة خاصة من الكائنات الطبيعية، بل معنى هذا أننا نملك حيالها مسلكًا عقليًا خاصًا، أي أننا نأخذ في دراستها ونحن متمسكون بأننا نجهل كل شيء عن حقيقتها وأننا لا نستطيع الكشف عن خواصها الذاتية، أو عن الأسباب المجهولة التي تخضع لها عن طريق الملاحظة الداخلية مهما بلغت هذه الطريقة مبلغًا كبيرًا من الدقة[1].

وبعد أن أوضح (دوركايم) ما يعنيه من أن الظواهر الاجتماعية أشياء يقدم لنا أمثلة لها، فالإنفاق على الأبناء وتربيتهم، وإنجاز الوعود وغيرها من الواجبات التي يحددها الدين أو العرف أو القانون ظواهر اجتماعية، وهي تحدد بمجموعة من الخصائص:

- فهي واجبات خارجية يحددها الدين أو العرف، أو القانون، على الرغم من أن القيام بها ربما لا يتعارض مع عواطف الفرد، وقد يشعر بها شعورًا داخليًا (وكأنه منطلق من ذاته)، إن الفرد في الحقيقة لم يُلْزم نفسه بها، وإنما ألزمته قوة خارجة عنه.

---

(١) دور كايم (إميل) قواعد المنهج في علم الاجتماع، ص ٢٣، ٢٤.

- وهذه الواجبات سابقة على وجود الفرد، أي أنها تامة التكوين قبل أن يصبح الفرد عضوًا في المجتمع الذي يلقنها إياه، فالمجتمع يباشر قهرًا على أفراده لكي يتمسكوا بها، ولو حاول الفرد الخروج عليها لوجد معارضة قوية تعمل على إعادته إلى حظيرته.

يقرر (دوركايم) أن الظواهر الاجتماعية ضروب من السلوك والشعور التي تمتاز بخاصة يمكن ملاحظتها بسهولة، وهي أنها توجد خارج شعور الأفراد، بل إنها تمتاز بقوة آمرة قاهرة هي السبب في أنها تستطيع أن تفرض نفسها على الفرد أراد أم لم يرد، حقًّا إنه لا يشعر به حين يستسلم له بمحض اختياره؛ وذلك لأن الشعور بالقهر في مثل هذه الحال ليس مجديًا... ويدل على ذلك أن هذا القهر يؤكد وجوده بقوة متى حاول مقابلته بالمقاومة... إن شعور الجماعة يحول دون تحقق أي فعل يتصدى لمهاجمة قواعده الخلقية؛ وذلك لأن هذا الشعور يعتمد على نوع من الرقابة التي يباشرها على سلوك المواطنين ويستعين على ذلك ببعض العقوبات، وقد يبدو أننا غير مكرهين مثلًا على استخدام اللغة القومية للتفاهم بها مع مواطنينا، ولكن الواقع أننا لا نستطيع إلا فعل ذلك، لو فعلنا لباءت محاولتنا بالفشل ولتعرضنا لنتائج لا تحمد عقباها[1].

ثم يقرر أن الغالبية العظمى من آرائنا وميولنا ليست من صنعنا، وإنما تأتينا من الخارج، ولذا فليس من الممكن أن تصبح هذه الأمور جزءًا من شعورنا الخارجي إلا إذا فرضت علينا فرضًا[2].

- ومن الواضح أيضًا أن الإنفاق على الأبناء أو غيره من الواجبات الاجتماعية ظاهرة عامة يشترك في التمسك بها معظم أفراد المجتمع على الأقل، بيد أن عموم الظاهرة الاجتماعية له معناه الخاص عند (دوركايم): فالظاهرة الاجتماعية عامة؛ لأنها اجتماعية، لا أنها اجتماعية لأنها عامة أي: أن الظاهرة موجودة لدى أفراد المجتمع؛ لأنها موجودة في الكل المركب الذي

---

(١) دور كايم (إميل) قواعد المنهج في علم الاجتماع، ص ٥١ - ٥٣.

(٢) قواعد المنهج، ص ٥٤.

هو مجموع هؤلاء الأفراد وهو المجتمع[1].

- والخاصة الأخيرة للظاهرة الاجتماعية هي أنها تختلف عن تجسداتها الفردية، فالإنفاق على الأبناء مثلًا ظاهرة من ظواهر المجتمع برمته، وإن اتخذت أشكالًا، أو صورًا، أو انعكاسات مختلفة عند كل فرد من أفراد المجتمع. وعالم الاجتماع إنما يدرس الظاهرة في شكلها العام لا في صورها أو تجسداتها الفردية[2].

وبعد أن استبانت لنا الخصائص التي تميز الظواهر الاجتماعية عن غيرها من الظواهر نضع التعريف الذي انتهى إليه (دور كايم) يقول: "إن الظاهرة الاجتماعية هي كل ضرب من السلوك ثابتًا كان أم غير ثابت يمكن أن يُباشِر نوعًا من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم المجتمع بأسره وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية"[3].

دي سوسير (١٨٥٧-١٩١٣):

لقد تبين لنا مما سبق أن الواجبات الاجتماعية (كالإنفاق على الأبناء وتربيتهم ورعاية الآباء... الخ) واجبات يحددها الدين، أو العرف، أو القانون، هذه الواجبات ظواهر اجتماعية؛ لأنها وقائع موضوعية ذات وجود خارج شعور الأفراد، فليست هذه الظواهر من صنع الفرد، بل يتلقاها من المجتمع الذي نشأ فيه، ولا يمكن أن يقال إنها وليدة تفكير ذاتي، بل يفرضها عليه المجتمع فرضًا، وإن كان الفرد في كثير من الأحيان لا يشعر بهذا الإلزام؛ لأنه يستجيب له بحكم العادة.

وإذا كانت هذه الظواهر موضوعية أي ذات وجود خارج عن شعور الأفراد فدراستها دراسة علمية، يمكن أن تتحقق تحققًا كاملًا مثلما يتحقق لعالم الطبيعة أن يدرس الظواهر

---

(١) قواعد المنهج، ص ٦٢.

(٢) قواعد المنهج في علم الاجتماع، ص ٥٨، ٥٩.

(٣) قواعد المنهج في علم الاجتماع، ص ٦٧، ٦٨.

الطبيعية دراسة علمية.

لقد كان (دي سوسير) يريد أن يجعل من دراسة اللغة عملًا علميًا، وقد رأى ضالته في تلك المبادئ التي أعلنها (دور كايم) وحدد بها موضوع علم الاجتماع وحدد بها القواعد التي ينبغي اتباعها في دراسة الظواهر الاجتماعية.

فاللغة - عند دي سوسير - ظاهرة اجتماعية يمكن النظر إليها على أنها شيء منفصل عن صور استخدام الأفراد لها، ونحن نكتسب اللغة من أفراد المجتمع المحيطين بنا، وهم يلقنوننا إياها، ونحن نتعلمها منهم، وليست - بهذا الاعتبار - من إنتاجنا.

واللغة ظاهرة عامة في مجتمع معين، وهذا المجتمع يفرضها على أعضائه فرضًا، فليس لديهم اختيار في اكتسابها ولا يملكون بديلًا عنها، والمجتمع يفرضها في مجالات مختلفة، حين يكتسبها الطفل في البيت، أو حين يتعلمها في المدرسة، وإن كان لا يتنبه إلى أنها مفروضة عليه من المجتمع الذي ينتسب إليه.

واللغة ظاهرة اجتماعية يمكن أن تدرس دراسة علمية، ويتحقق هذا عندما ندرسها مستقلة عن مظاهرها أو تحققاتها الفردية، وهذا ما فعله (دي سوسير) بفضل تفرقته المشهورة بين اللسان واللغة والكلام.

اللسان، واللغة، والكلام:

هذه هي الثلاثة المصطلحات التي تمثل الحدود التي ينبغي الوقوف عندها، حين نريد تعريف الظاهرة اللغوية التي هي موضوع علم اللغة.

فالكلام أو La parol: كل ما يلفظه أفراد المجتمع المعين أي ما يختارونه من مفردات أو تراكيب ناتجة عما تقوم به أعضاء النطق من حركات مطلوبة.

والكلام بهذا الاعتبار لا يمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية؛ لأنه إنتاج فردي شعوري تمامًا، بينما الظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تكون عامة في مجتمع يمارس إلزامًا على أفراده،

وليست الظاهرة الاجتماعية عملًا فرديًا حرًا(١).

أما اللغة La Langue فهي نظام ينتقل من جيل إلى جيل، نظام من رموز وصيغ وقواعد ليس لها تحقق فعلي.

أما اللسان La Language فظاهرة عامة تتمثل في العنصرين السابقين (اللغة والكلام) مجتمعين، ولهذا لا يعده (دي سوسير) ظاهرة اجتماعية خالصة، إذ هي تشمل الجانبين معًا: الجانب الفردي (الكلام): والجانب الاجتماعي (اللغة).

فإذا ما استبعدنا العناصر الفردية من (اللسان) بقيت لنا العناصر الاجتماعية أي (اللغة).

ومن تعريفات (دي سوسير) أن اللغة هي اللسان بعد أن نطرح منه الكلام.

ومن الواضح أن المجتمع حين يخضعنا لقواعد اللغة ييسر لنا عنصر التفاهم المشترك، فنحن نفهم ما يقوله أفراد مجتمعنا، وهم يفهمون ما نقوله لهم، وهذا هو الجانب الاجتماعي في اللغة، لقد تم هذا التفاهم حين تحقق الالتزام بالعرف اللغوي للجماعة، أو بعبارة أخرى حين التزمنا بالقواعد التي يفرضها العرف.

وربما لا ندرك في كثير من الأحيان تلك القيود المفروضة علينا، ولكننا في بعض المواقف نتنبه إليها، حين يُعْتَرَض علينا بعبارة أو جملة مخالفة للقواعد.

وربما كان الإلزام أكثر وضوحًا عند الأطفال، حين يتعلمون لغتهم، أو حين يترددون في استخدام كلمة أو عبارة أو جملة؛ لأنهم لا يعرفون وجه الصواب.

واللغة عند (دي سوسير) كالعقل الجمعي عند (دوركايم) ليست موجودة بشكل كامل وتام عند أي فرد، أي أن كل فرد من أفراد الجماعة اللغوية يحاول أن يأتي كلامه موافقًا لها، ولكنه لا يمكن أن يحققها تحققًا كاملًا، ومن ثم يتفاوت هؤلاء الأفراد في مراعاة قواعدها.

ومن الواضح أن اللغة - بهذه الاعتبارات - تجريد وهذا واضح فالكلمات ما هي إلا

---

(1) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.196

رموز تلخص الموجودات، وعملية التلخيص هذه عملية تعميم، أي أن الإنسان يجرد الشيء من مشخصاته ويخص بالاهتمام بعض صفاته ويغفل صفات أخرى؛ وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يحيط بالواقع كله، فالكلمة (قلم) رمز لشيء محدد على الرغم مما نلاحظه من فروق بين أفراد (القلم) في الواقع الخارجي.

ولعل هذا هو ما جعل (اللغة) لا (الكلام) هي موضوع علم اللغة؛ لأن الكلام يتحقق في صور لا حصر لها، وليس ثمة علم يمكن أن يدرس هذه الصور في الواقع، فالمفردات والعبارات والجمل (في أية لغة) لا حصر لها ولا سبيل إلى دراستها، أما الطرق التي تُبْنَى بها المفردات أو العبارات أو الجمل فتقع تحت الحصر ويمكن دراستها، ولهذا كان موضوع الدراسة العلمية للغة النماذج التي يأتي الكلام مطابقًا لها.

كان + اسم مرفوع + اسم منصوب

فالشكل السابق نموذج أما الشكل

كان المطر غزيرًا

فجملة تأتي مطابقة للنموذج السابق، وفي الإمكان أن نأتي بعدد لا حصر له من أمثالها، أي أن النموذج واحد، والجمل لا حصر لها، ونحن ينبغي أن ندرس النماذج لا الجمل.

أضف إلى ذلك أن الجمل السابقة حين ينطقها عدد من الأفراد يتحقق في الواقع عدد من المنطوقات المختلفة يماثل عدد الأفراد الذين ينطقونها، ولا سبيل إلى دراسة هذه الصور الفردية.

وقد لخص (دينين) أهم الفروق التي تميز الكلام عن اللغة على النحو الآتي:

١. الكلام نشاط فردي (أحداث فردية) متنوع مختلط مبتكر، ولا يمكن أن تتحقق وحدة للكلام، ومن ثم لا يصلح للدراسة العلمية.

٢. لكي ندرس شيئًا ما دراسة علمية ينبغي أن يتوفر لدينا موضوع محدد حتى نستطيع إجراء إحصاء بأجزائه وإجراء تحليل لها، وقد رأينا أن الكلام نشاط يقوم به الفرد، وهذا

معناه أنه نشاط غير محدود، ولا يمكن - والحال كذلك - وصفه إلا إذا كان هذا الوصف أيضًا بغير حدود.

٣. ليس الكلام وسيلة جمعية، فكل صوره وتجسداته فردية غير متجانسة، حالية (منسوبة إلى لحظة الكلام) إنه فحسب مجموع أحداث فردية يمكن أن يعبر عنها بالشكل البياني الآتي:

(١+١'+١''+١'''+...)

٤. أما اللغة فنموذج جمعي، إنها الأداة المشتركة بين كل المتكلمين، وعلى هذا يمكن أن يعبر عنها بالشكل البياني الآتي:

(١+١+١+١+..) =١

٥. اللغة موجودة في شكل يتألف من مجموعة من الصور اللفظية المختزنة في عقول جميع الأفراد، إنها أشبه بمجموعة متماثلة من المعاجم موزعة على كل فرد، ومع أنها موجودة لدى كل فرد فهي كذلك مشتركة بين جميع الأفراد، وليس لرغبات الأفراد أي تأثير فيها.

٦. اللغة نتاج جمعي لملكة اللغة، وهي كذلك مجموعة موحدة من العادات والأعراف، التي تتبناها هيئة اجتماعية (جماعة معينة) تسمح باستخدام تلك الملكة.

٧. اللغة علامة مختزنة يتلقاها كل فرد من الأفراد الآخرين الذين يستخدمون اللغة نفسها في المجتمع المعين، وعلى هذا فهي موجودة بالقوة (أي كامنة) على حين أن الكلام موجود بالفعل (أي حادث).

٨. اللغة مجموعة من العادات والتقاليد نتلقاها جاهزة من الجيل السابق لنا، ويبدو أن اللغة تتعرض لتغيرات طفيفة جدًّا حتى إننا عند الدراسة نتجاهلها، ونعدها، وكأنها غير موجودة، على حين يتعرض الكلام لتغيرات لا تنتهي ولا يمكن تجاهلها(١).

لقد كان (دي سوسير) يريد أن تدرس اللغة دراسة علمية، وقد أعانته التفرقة السابقة

---

(1) Dinneen, An Introduction to general linguistics, p.p. 198, 199

على أن يحدد ما يمكن دراسته وما لا يمكن.

فاللغة - لا الكلام - هي التي يمكن أن تُدْرس؛ لأنها طائفة من العلامات اللغوية المتفق عليها، وطائفة من القواعد تنتظم هذه العلامات، فنحن حين ندرس إذًا سوف ندرس نماذج وقواعد لا منطوقات، النموذج ثابت مع مرور الوقت ثابت في شعور الأفراد، وإن تغير تغير ببطء شديد بحيث يمكننا الزعم بأنه ثابت ونقوم بالدراسة على هذا الاعتبار، ولقد قدم (دي سوسير) مثالًا واضحًا لهذه الدراسة التي لا تقوم على أساس الصور المنطوقة هو الأعمال التي توفرت على دراسة اللغات الميتة.

الدراسات المتعاصرة والدراسات المتعاقبة للغة:

لقد كان النحويون الشبان يزعمون أن الدراسة العلمية للغة هي الدراسة التاريخية وحدها، وقد عارض (دي سوسير) هذا الزعم، ورأى أنهم بالغوا في الاعتماد على دراسة اللغة عبر الزمن حتى كادوا يهملون دراسة اللغات في أنظمتها المعاصرة.

ويلخص الدكتور عبد الرحمن أيوب مآخذ (دي سوسير) على النحو الآتي:

١. إهمال دراسة اللغة من واقع نشاط المتكلمين المعاصرين.

٢. إدخال العوامل التاريخية في أحكام تتصل باللغات المعاصرة، فالتسلسل التاريخي للحقائق اللغوية لا وجود له من وجهة نظر المتكلم الذي يواجه وضعًا لغويًّا ثابتًا، والباحث اللغوي يمكنه أن يدرس لغة متكلم ما مع تجاهل ماضيه اللغوي تمامًا.

٣. أن البحوث المقارنة لم تقدم لنا إلا مجموعة فروض لما كانت عليه اللغات المدروسة ومثل هذه البحوث - كانت لهذا السبب - عرضة للخلط والتشويش(١).

وفي هذا الإطار يمتدح (دي سوسير) النحاة التقليديين الذين وصفوا اللغة وصفًا خالصا ولم يخلطوا الحقائق اللغوية المعاصرة بحقائق أخرى ناشئة عن مرور الزمن، وليس

---

(١) أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور ص ٦٠. فضلنا هذا الالتزام بالمصطلحين اللذين اختارهما الدكتور أيوب المتعاصرة والمتعاقبة بدلًا من الوصفية والتاريخية.

معنى ما سبق أنه يقول بإغفال الدراسة التاريخية للغة، بل إنه يريد أن يحدد لكل منهج منهما المجال الذي يدرسه بوضوح ودقة.

فالدراسة المتعاقبة Diachronic للغة معينة معناها وصف تطورها التاريخي عبر الزمن، فدراسة اللغة العربية تاريخيًا ينبغي أن يعالج تطورها من أقدم مراحلها المعروفة المسجلة إلى الوقت الحاضر أو بدراستها عبر مراحل مختارة أكثر تحديدًا.

فدراسة اللغة العربية بداية من عربية النقوش إلى عربية العصر الجاهلي إلى عربية صدر الإسلام... إلى الوقت الحاضر دراسة تاريخية، وكذلك أيضًا دراستها بين مرحلتين من هذه المراحل الكثيرة.

أما الدراسة المتعاصرة (Synchronic) فمعناها وصف حالة خاصة لهذه اللغة في فترة محددة من الزمن.

فدراسة اللغة العربية في العصر الحاضر فحسب دراسة متعاصرة، ومن المهم أن نبين أن الدراسة المتعاصرة لا تعني فحسب دراسة اللغات الحية المعاصرة، فدراسة اللغة الآشورية مثلًا من خلال نصوص مسجلة في وقت محدد دراسة متعاصرة، وإن كانت مثل هذه الدراسة أقل دقة وكمالًا من الدراسة التي تعتمد على لغة معاصرة يتحدث بها جماعة حية من الناس يسهل على الباحث الرجوع إليهم واستخلاص قواعدها من على ألسنتهم.

وعلماء اللغة المعاصرون يرون أن الاعتبارات التاريخية لا علاقة لها بدراسة اللغة في شكلها الخاص في مرحلة معاصرة، فالكلمة (سيارة) مثلًا كانت تعني قديمًا عددًا من الناس يقصد إلى وجهه ما، وهي تعني الآن مركبة آلية تسير بالوقود وتنقل المسافرين والبضائع من مكان إلى مكان، وليس من الضروري حين أدرس معنى هذه الكلمة في الجملة: ركبت سيارتي أن أقول إنها تعني قديمًا كذا من المعنى.

الدراسة الوصفية والدراسة المعيارية:

من أهم ما يميز الدراسة اللغوية الحديثة تبني النظرة الوصفية حيث تقوم الدراسة على

وصف نظام اللغة المدروسة وصفًا خالصًا معتمدًا على الملاحظة المباشرة دون اللجوء إلى إصدار أحكام بالصواب أو الخطأ، بالجمال أو القبح على النصوص المدروسة.

أما الدراسة المعيارية فتهدف إلى وضع قواعد للغة، قواعد من شأنها أن تحدد الصواب الذي ينبغي الوصول إليه والخطأ الذي ينبغي الانتهاء عنه، وغالبًا ما يكون ذلك راجعًا إلى المكانة التي تحظى بها هذه اللغة عند الباحثين لسبب ديني أو سياسي، أو اجتماعي، ولكنه لا يكون أبدًا بسبب لغوي، فاللغة من حيث هي أصوات لا تتضمن شيئًا يجعلها صوابًا أو خطأ.

وقد ألح (دي سوسير) على عدم الخلط بين هذين النوعين من الدراسة، وهدف الدراسة الوصفية هو تحري الحقيقة، أما الدراسة المعيارية فهدفها وضع المعايير الضرورية لكي يكون الكلام صوابًا.

الدراسة الوصفية هي دراسة الوحدات والعلاقات التي توجد في أحداث لغوية واقعية سواء كانت هذه العلاقات تاريخية أو متعاصرة.

والدراسة المعيارية دراسة ذات هدف عملي هو تدريب الناس على التزام طرق تعبيرية تعتبر صوابًا وتجنب طرق أخرى تعد خطأ[1].

العلامة اللغوية:

نتبين مما سبق أن الدراسة العلمية للغة تدرس النماذج والقواعد التي ينبغي أن تأتي على وفاقها منطوقات الأفراد، وأن الجماعة اللغوية هي التي تفرض على أفرادها أن يلتزموا بها، وتبين لنا كذلك أن الدراسة التاريخية للغة ليست وحدها الدراسة العلمية، بل رأينا أنها لا تكون علمية إلا إذا اعتمدت على نتائج الدراسة المتعاصرة.

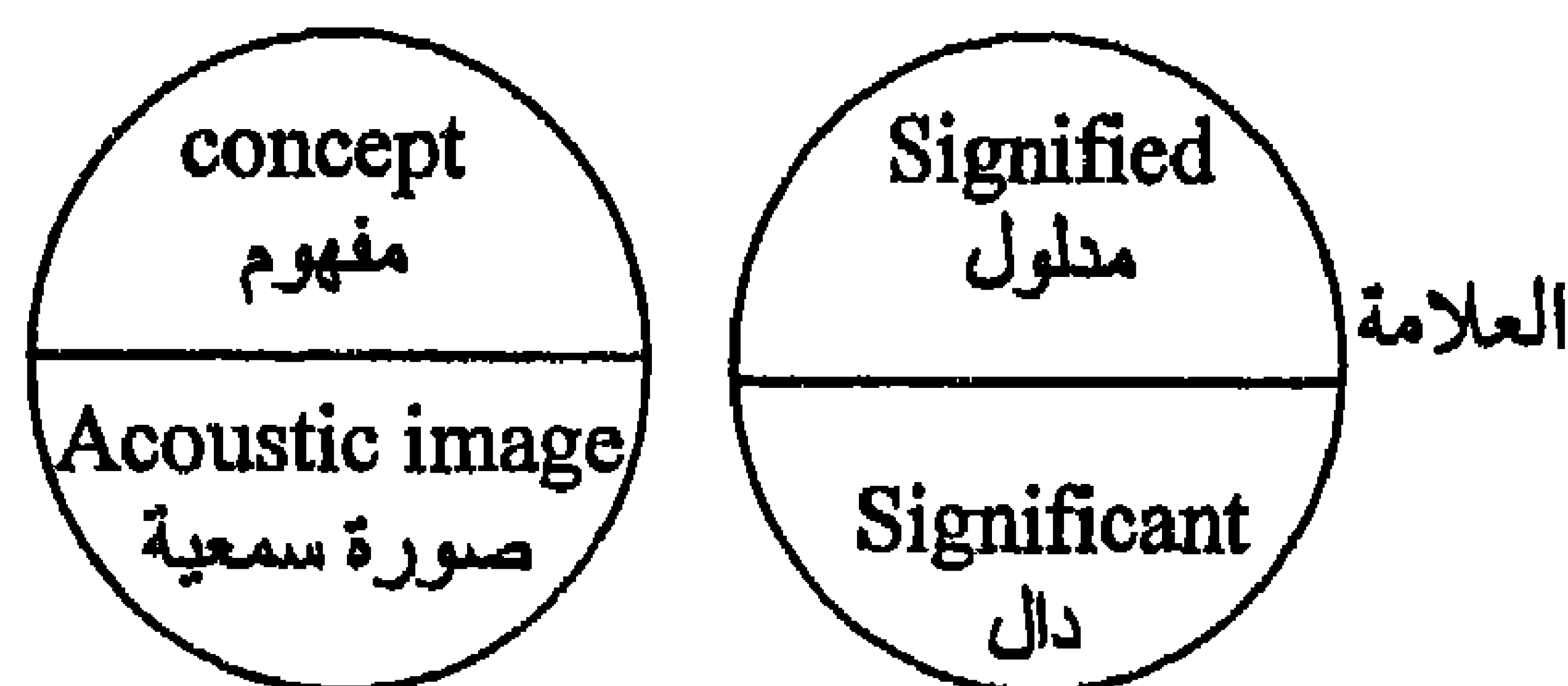
وقد أوضح (دي سوسير) أن اللغة هي هدف الدراسة اللغوية، وبما أن اللغة علامات مختزنة في الذهن فالهدف من الدراسة اللغوية يكون إذًا هو دراسة العلامة اللغوية.

---

(١) أيوب (د. عبد الرحمن) اللغة والتطور، ص ٧٠، ٧١.

وقد كان بعض اللغويين فهم من تعريف اللغة عند (دي سوسير) أنها قائمة من الألفاظ المعجمية، وهذا ليس صحيحًا؛ لأن (دي سوسير) ينظر إلى اللفظ نظرة ثنائية، إذ له وجود مادي (منطوق مسموع)، وله وجود عقلي (متخيل أو متصور) وهؤلاء يخلطون بين هذين الاعتبارين.

والعلامة عند (دي سوسير) لا توجد بين اسم وشيء وهي الفكرة السائدة قبله، بل توجد بين مفهوم وصورة سمعية (Acoustic image) إنها صورة ذهنية ذات جانبين يوضحهما الشكل البياني:



ولنأخذ المثال الآتي لتوضيح ما يعنيه (دي سوسير) بالعلامة اللغوية:

لنقل - بشكل عام إن الشكل (قلم) علامة لغوية تتألف من جانبين:

(أ) جانب مادي يتألف من شقين:

١. الموجود الخارجي أو الشيء، أي الأداة التي نكتب بها.

٢. اللفظ المنطوق بالفعل الذي يتألف من أصوات واقعية.

(ب) جانب ذهني يتألف من شقين:

١. مفهوم أو صورة ذهنية للموجود الذي يُشار إليه بلفظ قلم.

٢. صورة سمعية أي صورة اللفظ نفسه التي يمكن أن نتمثلها لو نظرنا إلى كلمة (قلم) مكتوبة دون أن ننطق بها.

والعلامة اللغوية عند (دي سوسير) تستبعد الجانب المادي بشقيه، فما هي إلا صورة ذهنية مركبة من مدلول ودال، وهاتان الصورتان الذهنيتان لا يمكن أن ينفصلا إنهما كصفحة

من الورق من المستحيل أن تقطع وجهًا منها دون أن تقطع الآخر(١).

ونسأل الآن لماذا آثر (دي سوسير) أن يستبعد من الدراسة اللغوية الجانب المادي للعلامة بشقيه، وأن يستبقي للدراسة فحسب الجانب الذهني بشقيه؟

لقد قلنا من قبل إن اللغة وهي موضوع الدراسة اللغوية العلمية، ما هي إلا رموز وأنظمة مختزنة في الذهن.

إن نظرة دي سوسير إلى (الدال) باعتباره صورة ذهنية تجعلنا ندرس وحدات محدودة متميزة، أما لو درسنا الشق المادي لهذه الصورة لتعرضنا لصور فردية غير محددة، خذ مثلًا: الوحدة التي يطلق عليها في العربية (النون) لها في أسماعنا صورة ذهنية واحدة، ولكن لها في الواقع المنطوق صورًا فعلية تختلف باختلاف موقعها مما قبلها أو بعدها من وحدات أو لاعتبارات أخرى ولتنطق معي النون في الكلمات الآتية: أنياب، أنفال، عنبر، أنساب... إلخ.

ومن الواضح أن الصورة الذهنية يمكن أن تكتب، وهذا ما فعلناه حين كتبنا الكلمات السابقة، ولكن الصور الفعلية لهذه النون الذهنية (إن صح التعبير) لا سبيل إلى كتابتها.

الصور الذهنية في لغة معينة ليست إلا عددًا محدودًا من الوحدات، أو الفونيمات يمكن استدعاؤها فحسب بعدد مماثل من الرموز المكتوبة(٢).

ومن الواضح أن (دي سوسير) بهذا الفهم لطبيعة العلامة قد حاول أن يوجد في المستوى اللغوي نظيرًا للظاهرة الاجتماعية في المستوى الاجتماعي.

فالظاهرة الاجتماعية ذات وجود مستقل عن تحققاتها الفردية التي لا يمكن إخضاعها للدراسة العلمية، وكذلك الصور الذهنية للدال significant اعتبرها ذات وجود مستقل عن صورها المادية ذات الطابع الفردي، ومن ثم فالأبجدية النموذجية هي التي تتألف من عدد الرموز المكتوبة مماثل لعدد الصور الذهنية أو الوحدات المميزة المحددة في اللغة

(1) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 202
(2) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 202

المعينة[1].

أما الشق الثاني الذهني من العلامة أي (المدلول concept) فهو صورة مجردة أكثر تجريدًا من صورة الدال، وهي اعتبارات ذهنية أو قيم خلافية، يُعتمد عليها في تعريف (الدال) تعريفًا واضحًا يعزله عما عداه، فصورة (القلم) مثلًا تعتمد على أسس عقلية معتبرة في الذهن كافية لتجعله مخالفًا لصورة (الورقة) مثلًا.

ولعله قد اتضح الآن أننا حين ندرس أحد جانبي العلامة اللغوية: الدال significant أو المدلول Signified ندرس صورًا مجردة للغة لا حقائق ذات وجود واقعي.

العلامة عرفية:

لقد رأى (دي سوسير) أنه لا توجد علاقة مباشرة بين اللفظ والشيء الذي يُشار إليه به، وهذا هو الرأي التقليدي الذي كان سائدًا آنذاك، ومع ذلك فقد أوضح أن الطبيعة العرفية للعلامة من نوع خاص، فالاتفاق على استخدام لفظ معين للإشارة إلى شيء معين ليس اتفاقًا صريحًا واضحًا، بل هو مجرد موقف يحظى بقبول الجماعة، وربما اعترض عليه ببعض الألفاظ التي بينها وبين مدلولها علاقة مباشرة وهي الألفاظ المعروفة Onomatopoeia، وقد تنبه (دي سوسير) إلى هذا وقرر أنها ألفاظ قليلة لا أهمية لها، ولا تمثل ظاهرة لغوية تفسد القاعدة العامة[2].

العلامة ردفية (سطرية Linear):

وتتبين هذه الصفة في (الدال significant) حين يمكن تقسيمه إلى أجزاء يجيء كل جزء منها في عقب جزء آخر في تتابع زمني منتظم.

فالكلمة (كتب) مثلًا يمكن تقسيمها إلى أجزاء متوالية على النحو الآتي:

ك + فتحة + ت + فتحة + ب + فتحة.

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 203
(2) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 203

٢. بلومفيلد (١٨٨٧-١٩٤٩)

لقد كان (بلومفيلد) من أكثر اللغويين اهتمامًا بجعل الدراسة اللغوية علمًا مستقلًا بالمفهوم الاصطلاحي للعلم الذي كان سائدًا في عام ١٩٣٠م، حيث كان مجاله: الأشياء المادية، وفي أثناء إعداد (بلومفيلد) الطبعة الثانية من كتابه "اللغة Language" كان المنهج المادي في علم النفس والذي يطلق عليه "السلوكية" قد تطور تطورًا عظيمًا بفضل "واطسون" وقد اطلع (بلومفيلد) على إنجازاته من خلال أعمال "فايز" وقد استفاد من خصائص هذا المنهج وعلى ضوئه وضع تعريفه للمعنى وحدد أسس دراسته، وقد كان (بلومفيلد) يهدف من الاستعانة بهذا المنهج أن يدرس موضوع المعنى دراسة علمية قائمة على أساس تجريبي، وإن كان (بلومفيلد) - كما يقول دينين - لم يكن لديه النية في أن يجعل علم اللغة معتمدًا على علم آخر، علم غير لغوي، لقد كان يريد له أن يكون علمًا مستقلًا، ولا يتعارض مع هذا أن يتجه إلى دراسة جانب من جوانب اللغة دراسة علمية(١).

وقرر (دينين) أن السلوكية بالصيغة الضيقة التي وضعها (واطسون) قد ماتت، لكن أعمال (بلومفيلد) ما تزال تسهم بنصيب في بناء كثير من الأعمال اللغوية، وما يزال كثير من اللغويين يستمدون منها أفكارًا ووسائل وبخاصة في الولايات المتحدة، وقد أعاد اللغويون النظر في بعضها وهجروا بعضها، ومع ذلك فقد بقي كتابه "اللغة" من بين أعماله مثلًا للنظرة العامة الشاملة في حقل علم اللغة، حتى لقد عرف بين اللغويين بإنجيل علم اللغة الأمريكي، لقد ظهرت أفكار كثيرة تعارضه ونظريات تحل محل نظرياته، ولكن لا نجد كتابًا واحدًا قد أخذ مكانه(٢).

النظرية السلوكية:

لقد كان الإطار العام للسلوكية عند (واطسون) هو التوكيد على الفلسفة المادية

---

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 204
(2) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 204

والاهتمام بموضوعية علم النفس، وفي هذا يقول الدكتور صالح: إن السلوكية علم طبيعي يتخذ ميدانًا له كل السلوك، والتكيف الإنساني الذي يدرسه بمناهج تجريبية، محاولًا التوفيق بين موضوع ضبط السلوك ومكتشفات هذا العلم .. إن نجاح السلوكية في دراسة المشكلات الإنسانية والظواهر النفسية سوف يؤدي بالفلسفة إلى أن تختفي وتصبح تاريخًا للعلم، وسوف يفتح الطريق إلى نوع من الأخلاق التجريبية، وسوف يتخلص تدريجيًا من التحليل النفسي، وينمّي بدلًا منه نوعًا من الضبط والسيطرة على نمو الطفل، حتى يحول دون ظهور الأمراض العصابية في مستقبل الأيام(١).

لقد كان (واطسون) يهدف إلى أن يكشف ما الذي يفعله شخص ما عندما يواجه شيئًا أو موقفًا من المواقف – أو بعبارة أخرى عندما نشاهد شخصًا يعمل عملًا ما – وأن نكون قادرين على التنبؤ بالموقف الذي استدعى هذه الاستجابة.

ونظرًا لأن (واطسون) كان يريد أن يخضع السلوك الإنساني للدراسة العلمية التجريبية، فقد عارض علماء التحليل النفساني في عصره مثل (ماكدوجال) الذين يستندون في تحليلاتهم على فكرة لا يمكن التحقق منها، أو الدفاع عنها هي فكرة (الروح)، لقد رأى أن هذه الفكرة ذات أصل ديني، ويرجعها إلى مرحلة بدائية من مراحل تطور المجتمع الإنساني. إن فكرة الروح وما ينبني عليها – كما يعتقد (واطسون) – فكرة غير علمية، ومرجع ذلك إلى أنها لا تخضع للملاحظة المباشرة والتجربة، فلا أحد يمكنه أبدًا أن يلمس الروح، أو يلاحظها في أنبوبة اختبار أو ينشئ علاقة معها، كما يفعل مع الأشياء الأخرى الخاضعة للتجربة(٢).

وقد عارض (واطسون) كذلك علماء النفس الذين يقولون بوجود "الشعور" من أمثال (وندت) وقد رأى أن هذا المصطلح ليس إلا صورة زائفة لكلمة "الروح" وقد كان هؤلاء العلماء يستخدمون في دراستهم "الاستبطان" للتعرف على المشاعر، وقد رفض (واطسون)

---

(١) صالح (د. أحمد زكي) التعليم أسسه ونظرياته، ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

(2) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 241

هذا المسلك، ورأى أنه عديم الفائدة من الناحية العلمية، إذ ليس لدينا عنصر خاضع للتجريب(١).

وقد اقترح (واطسون) أن يعالج العلماء أشياء يمكن ملاحظتها: ماذا تفعله الأعضاء، وماذا تقوله: فالكلام عنده ليس إلا شكلًا من أشكال السلوك. ويستوي - عند واطسون - في دراسة السلوك الإنساني أن ندرس السلوك الوراثي (ومثاله الاستجابة غير الشرطية) أو السلوك الذي نتلقاه من المجتمع (ومثاله الاستجابة الشرطية)، وبدراسة المثيرات وما ينبني عليها من استجابات يمكن أن نصل إلى نتائج تصلح أساسًا للتنبؤ بالسلوك الإنساني، إذ من المستحيل - عنده - أن نعتمد في الدراسة على الاستبطان، وبناء على هذا فموضوع الدراسة النفسانية هو المثيرات والاستجابات.

وقد عرف المثير Stimulus بأنه: أي شيء في البيئة العامة، أو أي تغير في الحالة النفسانية للحيوان، كالتغير الذي نشاهده عندما نحرم الحيوان من النشاط الجنسي أو من الغذاء أو من بناء بيت - هذا التغير الذي يقود إلى شكل من أشكال السلوك.

وعرف الاستجابة Respons بأنها نظام من النشاط العضوي، نراه مؤكدًا في أي نوع من النشاط، مثل بناء ناطحة سحاب، رسم خريطة، إنجاب أطفال، تأليف كتاب.. إلخ فهذه الأمور تكون نتيجة بعض المثيرات، وقد زعم (واطسن) أن مثيرًا محددًا ينبغي أن يستدعي كلا من هذه الاستجابات، فإذا ما كان (ا) نتيجة لـ (ب) وكان (ب) غالبًا ما يرتبط بـ (ا) فإن (ب) يمكن أن يستدعي (ا). وهذا هو بعينه الموقف النمطي المشروط عند (بافلوف) فالطعام يجعل لعاب الكلب يسيل (الطعام =ا) والجرس غالبًا ما يدق عندما يقدم الطعام (الجرس=ب) فإذا ما دق الجرس (ب) سال لعاب الكلب (ا). فبإمكان (ب) إذن أن يستدعي (ا).

وردود الأفعال كان يطلق عليها "التعليم" لكن (واطسن) فضل العبارة مثير -

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 242

استجابة؛ لأنها تخلصنا من الفرض القديم بوجود علاقة فطرية أو مقدسة بين شيء وشيء آخر.

وعند (واطسن) ترجع الاستجابات الاجتماعية - تمامًا ودون استثناء - إلى مثيرات خارجية شرطية، ولا مجال هنا للشعور أو العقل أو الروح؛ لأن (السلوكية) لم تجد دليلًا علميًا على وجود أي مذهب حيوي كالذي يزعمه ماكدوجال (أي مذهب يرى أن الحياة مستمدة من مبدأ حيوي وأنها لا تعتمد اعتمادًا كليًا على العمليات الطبيعية الكيميائية).

ويرى (واطسن) أننا لسنا في حاجة إلى الروح أو الشعور .. الخ، لكي نشرح السلوك وكل ما في الأمر هو حاجتنا إلى معرفة القواعد الطبيعية والكيميائية، ومن هذا نتبين - وفقًا لزعمه - أنه يدرس أشياء معروفة على حين يدرس هؤلاء أشياء غير معروفة"(١).

التفكير واللغة:

ما كان يطلق عليه - عند التقليديين - (التفكير) ما هو إلا شكل من أشكال السلوك فالتفكير - عند (واطسن) - ليس إلا الكلام، ولكنه الكلام بحركات عضلية خفية(٢)، وهنا يبرز سؤال: هل يمكن أن نفكر دون ألفاظ؟ يرى (واطسن) أن التفكير ما هو إلا عمل كل أجهزة الجسم تمامًا، أي عمل النظام الحركي، والنظام اللفظي المضمر، والنظام الحشوي الظاهر) أي التغيرات التي تطرأ على أجهزة الجسم الداخلية مثل تقلصات المعدة، وضربات القلب .. الخ) فإذا ما ساد النظام الأول والثالث قيل إننا نفكر دون ألفاظ، ويعني (واطسن) بالنظام الحشوي ما يطلق عليه التقليديون، "العاطفي" وبناء على ذلك يمكننا أن نفكر بطريقة ما حتى وإن لم يكن لدينا ألفاظ؛ لأن التفكير كلام دون نطق.

والكلمات - وفقًا لما سبق - مثيرات شرطية لعالم من الأشياء والأحداث، والتفكير أداة

---

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 242

(٢) يقرر السلوكيون أن الكلام الداخلي أو التفكير عبارة عن حركات خفيفة تسري في أعضاء النطق، وأن الإنسان يحس بهذا الكلام عن طريق حركات خفيفة تدب في الفم والذقن والحنجرة.. الخ.

لمعالجة عالم الأشياء عندما تكون هذه الأشياء غير ماثلة لحواسنا، وهذا مما يضاعف قدراتنا، إنه يتيح لنا أن نصطحب عالمنا اليومي إلى منامنا ونعالجه في الليل، أو عندما تكون الأشياء بعيدة عنا بآلاف من الأميال(1).

المنهج العلمي ودراسة المعنى:

كان بعض اللغويين يرى أن اللغة يمكن أن تُوصف دون لجوء إلى المعنى ألْبتَّة، ولم يكن (بلومفيلد) يرى هذا الرأي، فاللغوي ليس بإمكانه أن يحدد ما إذا كان الشكل المنطوق مماثلًا لشكل آخر أو مخالفًا له إلا بالرجوع إلى المعنى.

وقد كان بعض اللغويين يرى أيضًا أن المعنى هو أبعد جوانب اللغة عن الدراسة العلمية، فاللغوي لا يمكنه أن يتحقق من فروضه بإجراء التجارب أو نحوها حين يكون موضوعه متصلًا بالمعنى من قريب أو بعيد.

ولعل هذا وذاك من وراء اهتمامه بالمعنى وإيمانه بالمنهج السلوكي في دراسته، ونقطة البدء عنده لدراسة هذا الموضوع هي أصعب النقاط، وهي أن ننظر إلى اللغة باعتبارها شكلًا من أشكال السلوك البدني، ربما كان هذا مقررًا إذا نظرنا إلى جانب المنطوق، ولكن ما يحتاج إلى بيان حقًّا إذا نظرنا إليها في جانبها الدلالي.

يرى (بلومفيلد) أننا نتجنب كثيرًا من المنعطفات التي تميل بنا عن القصد، إذا نظرنا إلى الحدث الكلامي باعتباره سلوكًا يقع في موقف عادي.

وقد أوضح بلومفيلد ما يعنيه بالموقف بقصة: كان (جاك) و(جيل) يعبران الطريق، ثم ترى (جيل) تفاحة فتحدث أصواتًا بحنجرتها ولسانها وشفتيها، يتسلق (جاك) شجرة ويحصل على التفاحة ويقدمها إليها فتلتهمها، هذا الموقف يتألف من العناصر الآتية:

١. أحداث عملية سابقة للكلام.

٢. الكلام نفسه.

---

(1) Introduction to general Linguistics, p. 242

٣. أحداث عملية تالية للكلام.

وقد فسر (بلومفيلد) الأحداث المندرجة تحت رقم (١) تفسيرًا سلوكيًا على النحو الآتي:

كانت (جيل) جائعة أي: كانت عضلاتها تتقلص، وكانت بعض العصارات تسيل وبخاصة في معدتها، وما أثار (جيل) فسره على أن الموجات الضوئية المنبعثة من التفاحة كانت تصطدم بعيني (جيل).

أما الأحداث العملية التالية للكلام فيطلق عليها: استجابة السامع.

ولو كانت (جيل) وحدها لما أصبح الكلام عنصرًا من عناصر الموقف، ولكانت حصلت على التفاحة بنفسها.

ويطلق بلومفيلد على العوامل التي وجهت رغبة (جيل) إلى الحصول على التفاحة، مثيرات S، ويطلق على سعيها من أجل الحصول عليها لنفسه: استجابة عادية R.

والربط بين الأمرين يمكن تصويره بسهم على النحو الآتي:

S________R

أما وقد تصادف أن كان (جاك) موجودًا، وكان بمقدور (جيل) أن تستخدم الكلام بدلًا من قيامها بنفسها بالحصول على التفاحة R، فإن الكلام في هذه الحالة يصبح استجابة بديلة بالنسبة لها، ويمكن هنا أن نرمز له بـ r، على حين يصبح الكلام في الموقف السابق بالنسبة لجاك مثيرًا بديلًا، ويرمز له بـ s، ويمكن توضيح الموقف السابق برمته على النحو الآتي:

S______r______s______R

ومن الواضح أن الفجوة التي بين المتكلم والسامع: الفجوة التي تفصل بين جهازيهما العصبيين قد سدتها الموجات الصوتية أي الكلام، وبعبارة أخرى لقد كان الكلام هو الوسيلة لعقد اتصال بين المتكلم والسامع، وهذا النظام يجعل البشر قادرين على التفاهم فيما بينهم

بشكل أفضل مما هو موجود لدى الحيوان(١).

وقد كان (بلومفيلد) يرى أن عملية إنتاج الكلام والمشار إليها في الرسم البياني السابق بالنقاط عملية واضحة، أما العمليات السابقة أو التالية له، والتي يُشار إليها بالسهمين فقد رأى أنها عمليات رمزية غير واضحة وتحتاج إلى بيان.

وقد قدم بلومفيلد موجزًا نقديًا لنظريتين أساسيتين متعارضتين في تفسير هذه العمليات الرمزية هما: النظرية العقلانية Mentalism، والنظرية الميكانيكية أو الآلية Mechanism.

أما النظرية الأولى فيرى أنصارها أن تنوع السلوك الإنساني يرجع إلى تدخل عامل غير فيزيائي هو الروح، أو العقل، أو الرغبة.. هذا العامل موجود لدى كل مخلوق بشري، ويختلف هذا العامل تمامًا عن الأشياء المادية، ولا تخضع هذه الأشياء لقانون السبب والنتيجة.

ويقول أنصار هذه النظرية بحدوث عملية غير فيزيائية - قبل نطق أي شكل لغوي - في داخل المتكلم، قد تكون فكرة أو مفهومًا أو صورة ذهنية، أو شعورًا أو رغبة.. الخ.

ويقول أيضًا بحدوث عملية مماثلة عند السامع بعد استقباله الموجات الصوتية، وإذا ما صح هذا التفسير فيصبح في مقدور (العقلاني) أن يحدد معنى الشكل اللغوي على أنه حدث عقلي متميز يقع في داخل المتكلم حين ينطق شكلًا لغويًا، وفي داخل السامع عندما يسمع هذا الشكل.

فالمتكلم الذي ينطق كلمة (تفاحة) مثلًا لديه صورة عقلية لتفاحة، وحين ينطق بها يثير لدى السامع صورة مماثلة للتفاحة، ومن هذا المنطلق تكون اللغة - عند العقلانيين - تعبير عن أفكار أو مشاعر أو رغبات(٢).

أما النظرية الثانية فيرى أنصارها أن تنوع السلوك الإنساني - ومنه الكلام - راجع

---

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 246
(2) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.p. 246, 248

فحسب إلى أن الجسم الإنساني خاضع لنظام معقد جدًّا، وما يقوم به الإنسان من أفعال ما هو إلا جزء من قانون السبب والنتيجة، وهذا هو ما نلاحظه في الطبيعة والكيمياء، ومن هنا كان من المرغوب فيه عندهم أن يفسر السلوك الإنساني وفقًا لقواعد علمي الطبيعية والكيمياء، وهم يرون أن الجسم الإنساني ذو تركيب معقد جدًّا إلى درجة أن أي تغير واقع عليه (مثل اصطدام موجات ضوئية منبعثة من تفاحة حمراء على شبكة العين) يحدث سلسلة معقدة جدًّا من التغيرات (مثل تقلص العضلات وسيلان العصارات في المعدة ..) إن أي تغير في حالة الجسم يمكن أن يؤدي إلى تغيرات متنوعة في الاستجابة.

وما دام الجسم الإنساني خاضعًا للفعل ورد الفعل فمن الممكن أن نتنبأ بالسلوك الإنساني، وعلى سبيل المثال يمكن أن نتنبأ بما يمكن أن يدفع إنسانًا إلى الكلام، وإذا ما تكلم يمكن أن نعرف الكلمات التي سوف ينطقها، يتحقق ذلك إذا ما عرفنا الحالة الدقيقة لجسمه في التو واللحظة، أو الحالة التي كان عليها في الماضي، ومن ثم يكون لدينا سجل لكل تغير يحدث لأعضائه وللمثيرات التي لها تأثير عليه.

وأصحاب هذه النظرية لا يقبلون الحل الذي يقدمه العقلانيون والذي مضمونه أن المعنى حدث عقلي في ذهن المتكلم والسامع، وأن اللغة تعبير عن أفكار أو مشاعر أو رغبات، لا يرتضي هؤلاء هذه الحلول، ويرون أن العمليات العقلية السابقة ما هي إلا عمليات بدنية، وما يتعلق باللغة يمكن أن نضعه في أنماط ثلاثة:

١. عمليات واسعة النطاق ومتماثلة جدًّا عند مختلف الناس، ولها أهمية اجتماعية، وهذه العمليات تمثلها الأشكال اللغوية العرفية الآتية: أنا جائع، غاضب، خائف، سعيد، رأسي تؤلمني... الخ.

٢. عمليات غامضة ومتنوعة تنوعًا شديدًا: تقلص عضلي، وإفراز غدِّيّ تختلف من شخص إلى شخص، وليس لها أهمية اجتماعية مباشرة، ولا تمثلها أشكال كلامية عرفية.

٣. حركات غير صوتية لجهاز النطق تحل محل حركات النطق الفعلي، ولا يدركها

الآخرون حسيًا (التفكير في كلمات).

ويرى أنصار هذا المذهب أن العمليات الأولى أحداث للمتكلم يمكن أن يلاحظها أفضل من أي شخص آخر (فأنا مثلًا أخبرُ من غيري بشعوري بالجوع، حين أقول أنا جائع) ومن مشكلات الدلالة في هذا الجانب أن يقول طفل مثلا: أنا جائع، وليس جائعًا حقًّا، وإنما يريد الانصراف من المدرسة.

أما العمليات المشار إليها تحت رقم (٢) فهي عادات خاصة باقية كآثار ناتجة عن التعلم والخبرات والتجارب الخاصة بكل فرد، والمتكلم يتحدث عنها كتصورات أو مشاعر، وهي لا تختلف من متكلم إلى متكلم فحسب، بل تختلف كذلك من موقف كلامي إلى موقف كلامي آخر، فالمتكلم الذي يقول: لدي صورة عقلية لتفاحة يقول في الواقع: لقد كان مستجيبًا لمثير داخلي غامض من نوع كان مرتبطًا في وقت ما بمثيرات لتفاحة في تاريخي الماضي.

أما الكلام دون صوت المشار إليه برقم (٣) فليس إلا عادة ثانوية للنطق الكلامي الفعلي عندما نكون واثقين من أن المتكلم قد أدَّى بشكل غير مسموع الحركات النطقية لمنطوق محدد (أي فكر فيه بكلمات)، ونحن نواجه المشكلة نفسها تمامًا عندما ينطق بشكل مسموع الشكل الكلامي ذاته، ومحصلة ذلك كله أن العمليات العقلية تبدو لأنصار هذا المذهب على أنها مجرد مصطلحات تقليدية لعمليات بدنية(١).

علم اللغة بين الاستقلال والتبعية:

لقد كان بلومفيلد - كما قلنا سابقًا - حريصًا على أن يجعل الدراسة اللغوية علمية أي خاضعة للمنهج العلمي كما كان مفهومًا في عصره، وكان حريصًا كذلك أن يكون مستقلًا عن غيره من العلوم، ولكن معالجته لموضوع المعنى لا تكشف عن استقلال هذا العلم.

لقد عَرَّف (بلومفيلد) المعنى بأنه الموقف الذي ينطق فيه الكلام والاستجابة التي

---

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.p. 246, 248

يستدعيها عند السامع، وهذا يعني أن الأحداث العملية السابقة للكلام والتالية له داخلة في إطار دراسة المعنى؛ لأنها عنصر من عناصر الموقف، وحين نضع في الاعتبار ما يقصده (بلومفيلد) من الأحداث العملية السابقة والتالية للكلام نتبين أننا سوف ندرس وقائع ذات وجود خارجي ولا ندرس اللغة في ذاتها.

والمعروف أن (بلومفيلد) يعطي أهمية كبيرة للمعنى في الدراسة اللغوية، فالكلام المنطوق لا أهمية له في ذاته، وإنما يكتسب أهميته حين يكون له معنى، وهو يعد الدراسة التي تعالج أصوات الكلام دون اعتبار للمعاني التي تحملها دراسة تجريبية، ونحن لا نتبين أوجه التماثل أو الخلاف بين الأشكال اللغوية إلا إذا وضعنا المعنى في الاعتبار، ولا يمكننا كذلك أن نحدد الخصائص المميزة لأي منطوق إذا وضعنا في الاعتبار المستوى الصوتي المحض، ومن رأيه أننا لكي نتعرف على الخصائص المميزة للغة ينبغي أن ننحي جانبًا موضوع علم الأصوات المحض، ونتصرف كما لو كان العلم قد تقدم تقدمًا عظيمًا ليحدد لنا كل المواقف والاستجابات التي تؤلف معنى الأشكال الكلامية(١).

المعنى إذن هو الذي يتيح لنا دراسة الأشكال اللغوية – وهو مع ذلك – نقطة الضعف في الدراسة اللغوية، وسوف يظل – كما يقول – كذلك حتى تتقدم المعرفة الإنسانية وتتجاوز حالتها الحاضرة، وفي نهاية هذه الفقرة يقرر أننا في الواقع حين نحدد معنى شكل لغوي نحدده في ضوء علم آخر، وهذا مؤداه كما يقول (دينين) أن علم اللغة – كما فهمه بلومفيلد – لن يكون أبدًا مستقلًا تمامًا إذا ما تطلب هذا المفهوم أن تكون الأشكال والمعاني وما بينهما من روابط هي الحقل المطلوب للعمل اللغوي(٢).

---

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 247

(2) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 299

٣. فيرث (١٨٩٠-١٩٦٠)

مالينوفسكي:

لا جدال بين اللغويين في أن نظرية (فيرث) في المعنى من أهم ما ينسب إليه من إنجازات في مجال علم اللغة، وقد اعتمدت هذه النظرية على أسس اكتشفها العالم الأنثروبولوجي (مالينوفسكي) الذي جرت معظم أبحاثه في جنوب المحيط الهادي بين سكان جزر (تروبرياند) وهناك ظهر اهتمامه بالمشكلات اللغوية.

لقد تبين له أنه من المستحيل عليه أن يترجم عددًا كبيرًا من العبارات التي كان يستخدمها سكان هذه الجزر كلمة كلمة إلى اللغة الإنجليزية، وبخاصة العبارات التي لها علاقة بدينهم أو التي لها أهمية ثقافية خاصة، وعند محاولته حل هذه المشكلة وجد نفسه - دون قصد - يصوغ نظرية في اللغة والمعنى(١).

ومصطلح المقام Context of Situation، هو المصطلح الذي يعبر عن آرائه الأساسية فيما يتصل بالطريقة التي ينبغي أن تدرس بها معاني اللغة، وقد تبنى (فيرث) هذا الرأي وطوره، وهذا الرأي ليس بعيدًا عن (الصيغة السلوكية)؛ لأنه يدعي أن معنى أي منطوق هو ما يقع في موقف خاص، وهذا - بصراحة - يترجم إلى الحوادث العملية التي تعقب المنطوق اللغوي عند بلومفيلد(٢).

وثمة أفكار أخرى - عن طبيعة اللغة، وكيف ينبغي أن توصف - أعلنها (مالينوفسكي) لقد رأى أن الجملة هي المادة الأساسية في اللغة، أما الكلمة فليست إلا فكرة ثانوية مجردة، وعرف الجملة بأنها: منطوق ينتهي بصمت أو وقفة مسموعة، ومع أنه يعترف بأن تحديد معنى الكلمة المفردة مشكلة صعبة فإنه يقرر أنها ليست المشكلة الأولى، إن الحقيقة اللغوية الواقعية في اللغة هي المنطوق الكامل في إطار المقام، ولهذا كانت الجملة عنده أكثر

---

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 247
(2) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 299

أهمية باعتبارها أداة اجتماعية، وقد قرر - بناء على هذا - أننا ينبغي أن ندرس اللغة باعتبارها طريقة عمل لا صورة رمزية للتفكير، اللغة أداة للنشاط الاجتماعي والتعاون المشترك، ومعنى أي منطوق في عدد من المواقف الخاصة أن ندرس تأثيره في محيطه، ولهذا قرر غير مرة أن المعنى هو الاستعمال، ومزية هذا المنهج - في رأي فيرث - أنه يخلصنا من شراك المعنى الإشاري (الذي تكون الكلمات فيه بدائل عن الأشياء في العالم الخارجي).

ولأن المجتمعات لها خصائصها الفردية ولغاتها الخاصة، والمواقف التي يستخدمون فيها اللغة هي الأخرى لها خصائصها الفردية، فربما يبدو لنا أن الترجمة قد تكون مستحيلة، كان هذا هو موقف (مالينوفسكي) وبخاصة في المواقف اللصيقة بالمجتمع، لقد أحس أن الصعوبة ليست كبيرة بين الأوربيين الذين يعيشون - بشكل عام - في ظل ثقافة مشتركة، لكن الفجوة بينهم وبين سكان جزر (تروبرياند) تجعل المشكلة خطيرة، وقد سبقت الإشارة إلى أن اللغات المختلفة تعكس ثقافات أو عوالم مختلفة.

واللغة - عنده - عملية (براجماتية) ولهذا يمكن أن توصف بأنها مجموعة من رموز للأشياء (مفردات معجمية) منتظمة في طائفة من العلاقات (قواعد)، والمعنى إذًا هو أثر الكلمات على عقول الناس أو أجسامهم، ومن خلال ذلك - على الواقع البيئي كما هو مخلوق أو مدرك في ثقافة معينة(١).

فيرث:

تستحق أعمال (فيرث) ومدرسته المعروفة بمدرسة لندن اهتمامًا كبيرًا من اللغويين، لقد كانت هذه الأعمال من جهة معارضة لتقاليد الدراسة اللغوية في أمريكا وبخاصة أعمال بلومفيلد، ومن جهة أخرى كانت تشترك في المواقف - وبخاصة ما يتصل ببنية اللغة - مع المبادئ التي قررها دي سوسير.

حقًا لقد استعار (فيرث) فكرة دراسة اللغة في المواقف الفعلية من مالينوفسكي، ولكنه

---

(1) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.p. 201, 203

- مع ذلك - قد صقلها ونماها، ووضع المنهج الذي ينبغي أن يلتزم في دراسة اللغة وفق مستويات محددة تشمل كل العناصر اللغوية[1].

وكان من رأي (فيرث) أن اللغة ذاتها تستطيع أن ترشدنا إلى الطريق القويم في دراستها، وذلك بالاعتماد التام على حقائقها، كما تبدو في الصورة التي عليها دون الاستعانة بأية وسائل أو مبادئ ثانوية، ولهذا رأى أن الملاحظة المباشرة هي أساس العمل الذي يبدأ بوصف الظواهر اللغوية ومحاولة تقعيدها وفقًا لخصائصها، ووظائفها في التركيب[2].

وموضوع علم اللغة عنده هو اللغة في موقف كلامي فعلي؛ لأن استخدام اللغة ما هو إلا شكل من أشكال الحياة الإنسانية.

وهدف البحث في اللغة أن نحدد أو نوضح جوانب اللغة ذات الدلالة بطريقة تمكن اللغوي وغير اللغوي من الاتصال بها.

ومنهج الدراسة يقوم على أساس تحديد عناصر النشاط اللغوي، وبيان علاقاته في سلسلة من المستويات المتكاملة تكشف عن العلاقات المتبادلة فيمنا بينها[3].

وقد حد الدكتور بشر منهج (فيرث) ومدرسته بدقة وإيجاز بقوله: وإذا كان لنا أن ننعت مدرسة بنعت موجز يشير إلى أبرز خواصها جاز لنا أن نقول بأنها "المدرسة الشكلية التركيبية Formalistic-Structuralistic ومعناه أنها طريقة من البحث تعني في المقام الأول بتسجيل الحقائق اللغوية وفقًا للصور الشكلية، والأنماط الحقيقية للصيغ الكلامية في التركيب[4].

يقال هذا مع أن (فيرث) نفسه ينكر بشدة أنه (تركيبي) بمعنى الانحياز إلى مبادئ الفونيميين phonemicists، ولكنه في الحقيقة (تركيبي) بالمعنى الذي أرساه دي سوسير،

---

(1) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.303

(٢) بشر (د. كمال) دراسات في علم اللغة ص ١٧٢.

(3) See, Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p.33

(٤) بشر (د. كمال) دراسات في علم اللغة، ص ١٧٢.

هذا ومصطلح تركيب أو بنية structure وما اشتق منه يشير - عنده - إلى علاقات سياقية أو أفقية، أما مصطلح نظام System، وما اشتق منه فيشير إلى علاقات جدولية أو رأسية، ومن الجدير بالذكر هنا أن (دي سوسير) قد ناقش هذين النوعين من العلاقات مناقشة مستفيضة(١).

إن تحليل أو دراسة المقام يتطلب دراسة نوعين من العلاقات:

- علاقات داخلية بين عناصر الحدث اللغوي في ذاته وهي نوعان:

(أ) علاقات سياقية أو أفقية بين عناصر أو وحدات التركيب مدروسة وفق مستويات تحليلية متعددة.

(ب) علاقات جدولية أو رأسية للمفردات أو الوحدات التي يحل كل عنصر منها محل الآخر في إطار نظام محدد لتعطي قيمًا محددة لعناصر التركيب.

- علاقات داخلية في إطار الموقف الذي يتم فيه الحدث، وهي نوعان:

(أ) النص في اتصاله بالمكونات غير اللفظية مع تأثيره الكلي أو ثمرته المحددة.

(ب) علاقات تحليلية بين أجزاء النص (الكلمات أو العبارات أو أجزاء الكلمات) ومكونات خاصة في الموقف نفسه (أشياء أو أشخاص أو أحداث).

والمكونات الأساسية للمعنى الكامل أو المركب هي وظيفة الأصوات والعناصر المعجمية والصرفية والنحوية والموقف بتمامه(٢).

وهكذا نتبين أن المعنى هو هدف الدراسة اللغوية، وفي هذا يقول الدكتور بشر:

وغني عن البيان أن نقول إن المعنى اللغوي لا يعدو أن يكون مجموعة الخصائص والمميزات اللغوية للكلمة، أو العبارة أو للجملة، وهذا يعني بالطبع أن كل فروع علم اللغة،

---

(١) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 305 وانظر في ذلك كتابي (سوسير رائد علم اللغة الحديث) ص٣٤-٣٦.

(2) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 292, 293.

إنما تُوجَّه لدراسة المعنى، وتختص بالنظر فيه، فدراسة الصوت اللغوي كنوع من الضوضاء فرع من فروع علم الطبيعة، ولكن دراسة الاستعمال ذي النظم الخاصة للأصوات الإنسانية (كما يستعملها العربي بصورة تختلف عما يفعله الإنجليزي) معناها بيان المعنى اللغوي الذي عن طريقه يحافظ المتكلم على نمط مميز من الحياة، أو بعبارة أخرى، يجب أن تستعمل أصواتًا عربية إذا كانت حياتك لها معنى عربي، إن استعمال الأصوات اللغوية بالطريقة العربية جزء من معنى الرجل العربي، وكذلك الحال في المعنى الصرفي وغيره من المعاني[1].

والعناصر التي تحدد (المقام) هي ما يأتي:

(أ) ما يتصل بالمشتركين في الكلام من ظواهر: الأشخاص وسماتهم الشخصية ويندرج تحت هذا:

١. الكلام الفعلي للمشتركين.

٢. أعمال هؤلاء المشتركين.

(ب) الأشياء أو الموضوعات المتصلة بالكلام.

(جـ) آثار الكلام الفعلي[2].

ولنأخذ مثالًا لتوضيح أهمية المقام في بيان المعنى.

قد يستقبل صديق صديقه الذي طالت غيبته بالأحضان ومع ذلك ينهال عليه بسيل من الشتائم: يا جبان يا نذل... الخ، فإذ ما اقتصرنا على معاني هذه الألفاظ المعجمية فسوف نخطئ في فهم الموقف، أما إذا درسنا المقام بمن فيه وما فيه وكل ما يتصل به فسوف نفهم الموقف فهمًا صحيحًا، سوف نكتشف أن هذه الألفاظ أبعد ما تكون عن الشتيمة والذم وأقرب ما تكون إلى التودد والتلطف.

---

(١) دراسات في علم اللغة، ق ٢، ص ١٧٨.

(2) Dinneen, An Introduction to general Linguistics, p. 192, 195

مراحل أو خطوات التحليل اللغوي:

الكلام اللغوي عند (فيرث) مكون من أحداث، وهذه الأحداث معقدة مركبة ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة، بل يجب تشقيقها، والنظر إليها على مراحل، هذه المراحل أو الخطوات التي يجب اتباعها عند تحليل الأحداث اللغوية هي فروع علم اللغة، والنتائج التي تصل إليها هذه الفروع، يتصل بعضها ببعض اتصالًا وثيقًا، ولا يجوز الفصل بينها إلا بقدر وفي ظروف خاصة، والوظيفة الأساسية لعلم اللغة بفروعه هي: بيان المعنى اللغوي الكامل.

ويوضح الدكتور بشر هذه الخطوات على النحو الآتي:

أن كلمة (ولد) مثلًا لها معنى مركب هو مجموع عدة وظائف وخصائص يبينها التحليل الآتي:

١. (ولد) لها وظيفة صوتية، أو معنى صوتي، وهي كونها مركبة من هذه العناصر الصوتية الموجودة بها.. أي أن تكون هذه الكلمة بهذه الصورة الصوتية بالذات جعل لها معنى خاصًا يختلف عن كلمة (بلد) مثلًا.

٢. (ولد) لها معنى قاموسي، فهي مقابل استبدالي لكلمات معينة مثل: بلد، وجد، ولع، وهي لذلك تستعمل استعمالًا مخالفًا لها، وعلى سبيل المثال يمكننا أن نقول (ولد نحيل) ولكن لا نقول (بلد نحيل) في الاستعمال العادي.

٣. (ولد) لها معنى صرفي، وهذا لا يمكن الوقوف عليه إلا بعد القيام بعملية إحصائية للسياقات التي تستعمل فيها هذه الكلمات، ويمكن الإشارة إلى بعض هذه السياقات عن طريق وضعها فيما نسميه التوزيع الشكلي للكلمة.

(١)	(٢)
فعل	اسم
وَلَد	ولد

وَلَدَتْ	ولدان
وَلَدْن ... الخ	أولاد ... الخ

فجزء من معنى (ولد) أنها تكون فعلًا وتكون اسمًا، وفي الحالة الأولى قد تسند إلى المذكر أو المؤنث... الخ، وفي الحالة الثانية قد تكون مفردًا أو مثنى أو جمعًا... الخ.

٤. (ولد) لها معنى نحوي، ومعرفة هذا المعنى تكون عن طريق بيان خصائصها النحوية أي وظيفتها في الجملة، نقول مثلًا: ولدت المرأة، والمرأة ولدت، كما نقول: ولد كبير أو ذلك ولد... الخ.

٥. (ولد) لها معنى اجتماعي وهو مبحث علم الدلالة عند أصحاب هذه المدرسة، وبيان هذا المعنى يتم بطريق تتبع هذه الكلمة (اسمًا أو فعلًا) في الاستعمالات المختلفة في البيئة الاجتماعية الخاصة، وذلك يعتمد بصورة أساسية على الموقف، أو المقام اللغوي الذي أشير إليه سابقًا[١].

---

(١) ملخص بتصرف انظر: دراسات في علم اللغة، ص١٧٥ - ١٧٨.

٤. تشومسكي والنحو التوليدي التحويلي

يحتل ناعوم (تشومسكي) مكانة فريدة في علم اللغة المعاصر، بـل لعـل أحـدًا لم يتمتـع بتلك المكانة من قبل في تاريخ هذا العلم.

إن نظرية تشومسكي النحوية تعد - بلا شك - أكثر النظريات اللغوية حيويـة وتـأثيرًا، بحيث لا يستطيع أي عالم لغوي يريد أن يساير التطور المعاصر في علم اللغة أن يتجاهل هذه النظرية، بل لقد أصبحت كل مدرسـة لغويـة الآن تحـدد موقفهـا وموقعهـا بـالنظر إلى آراء تشومسكي في قضايا اللغة، ولعل من أهم إنجازاته اللغوية أن أفكاره قد تجاوزت مجال علـم اللغة إلى مجالات علمية أخرى، مثل علم الـنفس، والفلـسفة، دعـك مـن تـأثيره في منـاهج الأسلوبية والنقد الأدبي(١).

ولد نعوم تشومسكي في فلادلفيا بولايـة بنسلفانيا عـام ١٩٢٨، لأسرة يهوديـة، درس بجامعة بنسلفانيا علم اللغة والرياضيات والفلسفة، وحصل منها عـلى درجـة الـدكتوراه في عام ١٩٥٥م.

أصدر كتابه الأول syntactic structure عام ١٩٥٧م، وقد كـان - عـلى الـرغم ممـا وجه إليه من نقد - ثورة في الدراسـة العلميـة للغـة، ولم تتوقـف مراجعاتـه لآرائـه في هـذا الكتاب، ولم يتوقف كذلك تلامذته عن دعم نظريته وتنقيحها.

والحقيقة أن شهرة (تشومسكي) وشعبيته لا ترجع إلى ما أنجزه في حقل علم اللغـة، أو إلى أثره في بعض مناهج العلوم الأخرى فحسب، بل ترجع أيضًا إلى أنه كان من أكثر النـاس نقدًا للسياسة الأمريكية في فيتنام، وإلى أنه أدان في كتاباتـه الـسياسة الاستعمارية للولايـات المتحدة، كما أن له آراء هامة في قضية الصراع العربي الإسرائيلي، ويـرى أن مـن حـق العـرب والصهاينة العيش معًا في سلام داخل فلسطين.

---

(١) جون ليونز (نظرية تشومسكي اللغوية) ترجمة د. حلمي خليل، ص ٢٩، ٣٢، ٣٣.

ويرى بعض المؤرخين أنه في بداية حياته العلمية درس مبادئ علم اللغة التاريخي على يد أبيه، الذي كان عالمًا في اللغة العبرية، ثم حصل على درجة الماجستير فيها.

ولا يبعد أن يكون قد تأثر في نظريته بالتراث النحوي العربي والعبري(١).

ونقدم هنا أهم الأفكار التي تعرف بنظريته.

اللغة ظاهرة إنسانية:

إن أوضح ما يتميز به الإنسان عن غيره من الحيوانات هو قدرته على استخدام اللغة، فاللغة لها أهمية حيوية في كافة أنواع النشاط الإنساني.

واللغة ظاهرة معقدة تتطلب دراسة علمية عميقة، ومن ثم فإن علم اللغة لا بد أن يعطينا تفسيرًا علميًا للإجابة عن السؤال: ما اللغة؟

الفطرة:

يعتقد (تشومسكي) أن الطفل لديه قدرات فطرية تساعده على تقبل المعلومات اللغوية، وعلى تكوين أبنية اللغة من خلالها، وهذا يعني أنه مُتهيًا بطريقة أو بأخرى لأن يكوِّن قواعد لغته الأم، من خلال الكلام الذي يسمعه، وأن يمتلك بطريقة لا شعورية القواعد التي تكمن ضمن المعطيات اللغوية التي يتعرض لها، فهو يبني لغته بصورة إبداعية، وبالتوافق مع قدراته الفطرية، بقدر تقدمه في عملية الاكتساب(٢).

نقد المذهب السلوكي:

كان تشومسكي من ألد أعداء المذهب السلوكي behaviorism الذي يرى أن جميع معتقدات الإنسان ومعارفه، وطرق تفكيره وسلوكه وأفعاله... يمكن تفسيرها من حيث هي عادات تقوم على مبدأ الشرط، بحيث لا تختلف في كيفيتها أو نوعها عن الطريقة التي تتعلم بها الفئران في معامل علم النفس حينما تريد أن تصل إلى غذائها بدفع حاجز خاص في

(١) انظر مقدمة ترجمة د. حلمي خليل لكتاب جون ليونز (نظرية تشومسكي اللغوية) ص ١٣ - ١٥.

(٢) زكريا (د. ميشال) الألسنية ص ٢٦٢.

القفص الذي حُبست فيه.

وذهب في نقده لكتاب (سكينر) إلى عجز السلوكيين عن تفسير الحقيقة البسيطة التي تقول إن اللغة ليست نمطًا من العادات، وأنها تختلف جوهريًا عن طرق الاتصال عند الحيوان، بل إنها كذلك مختلفة عن الآلة، وهذا الاختلاف هو الذي جعل فلسفته إنسانية تؤمن بالإخاء الإنساني ونبل الحياة الإنسانية وكرامتها(١).

نقد النحو التقليدي:

قام النحو التقليدي وتطور على أساس من اللغتين اليونانية واللاتينية، وثمة لغات عديدة لم يضعها هذا النحو في اعتباره، ولهذا فإن أهداف علم اللغة الحديث هو بناء نظرية نحوية لها صفة العموم، أكثر من النظرية التقليدية، بحيث تكون ملائمة لدراسة ووصف جميع اللغات الإنسانية، وليست قائمة على أساس اللغات التي تتشابه في التركيب النحوي من اللغتين اليونانية واللاتينية.

نقد البنيوية:

لاحظ (تشومسكي) أن الألسنية البنيوية تدرس المستوى السطحي للكلام، ولا تغوص من ثم في المستوى العميق، ولا تراعي وجود التحويل، بل إنها تهمل بصورة أساسية التنظيم الكلامي الذي يدعوه بقواعد اللغة التوليدية.

فالألسنة البنيوية لا تحاول تفسير الكلام، بل لا تبحث في مسار عملية التكلم ولا في آلياتها الكامنة ضمن المظهر الإبداعي في استعمال اللغة، ويرفض (تشومسكي) اقتصار اللغوي على تسجيل المعطيات اللغوية وتنظيمها وتصنيفها.

فهذا المنهج التصنيفي لا يفي بالهدف العلمي للدراسة الألسنية، إن هذه الدراسة لا تنحصر في درس المعطيات لذاتها بل تدرس باعتبارها محتوية على مبادئ نظام القواعد الضمني الذي لا يتيسر اكتشافه عبر تصنيف المعطيات الظاهرة، ولهذا يطمح (تشومسكي)

---

(١) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية ص ٣٦، ٣٧.

إلى إلقاء أضواء جديدة في مجال اكتشاف المبادئ المتعلقة بالعقل البشري عبر دراسة اللغة الإنسانية[1].

ومع ذلك فإن (تشومسكي) يرى أن الألسنية البنيوية قد أمدت الدراسات اللغوية بمنهجية تحليلية ما تزال باقية يستخدمها اللغويون ما دامت في استعمالها الصحيح[2].

نقد مبدأ العينة (المدونة):

يعتمد علم اللغة البنيوي في استخراج القواعد على عينة أو مدونة يجمعها الباحث من نصوص اللغة التي يدرسها، ولم يرتض تشومسكي هذا المبدأ، ويؤكد أن كثيرًا من الجمل التي ينطق بها أبناء اللغة من حيث هي (عينات) لأدائهم اللغوي تعد - لأسباب عديدة - غير صحيحة نحويًا.. ومن تلك الأسباب أسباب غير لغوية مثل: الشرود الذهني، وعدم الانتباه، ووجود خلل فسيولوجي في حركة أعضاء النطق... الخ، ولذلك فإن عالم اللغة لا يستطيع معالجة المادة اللغوية التي تأكد من صحتها كما هي، واعتبارها جزءًا من اللغة التي تولدها القواعد، بل لا بد له من إعادة تصنيف هذه المادة تصنيفًا مثاليًا بقدر المستطاع بحيث يستعبد منها الجمل التي يحكم ابن اللغة بأنها غير صحيحة نحويًا[3].

معيار الحكم على القواعد:

حاول تشومسكي الوصول إلى معيار يمكن الحكم به على أن قواعد نحوية معينة هي أفضل القواعد لتحليل المادة اللغوية، وتبين له أن هذا الهدف طموح جدًا وأن غاية ما يمكن أن نطمح إليه هو نظرية لغوية تقدم لنا معيارًا أو إجراءات تقيمية.

بعبارة أخرى إننا لا نستطيع الحكم بأن وصفًا معينًا لمادة لغوية هو الوصف الصحيح بشكل مطلق، بل نستطيع القول بأن هذا الوصف أفضل أو أكثر صحة من أي وصف آخر

---

(١) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص ٤٧، ٤٨.

(٢) زكريا (ميشال) الألسنية، ص ٢٦٩، ٢٨٨.

(٣) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص ٧٨.

لنفس المادة اللغوية(١).

عمومية اللغة:

زعم (تشومسكي) أن الأصول التي تحكم بناء أي لغة هي عبارة عن قواعد محددة على درجة كبيرة من الاتساق والتنظيم، بحيث يمكن القول بأنها وثيقة الصلة بالناحية البيولوجية في الإنسان، أي أننا تشكل وتكون جزءًا مما نطلق عليه الطبيعة الإنسانية(٢).

وينبني على القول بعمومية اللغة القول بوجود كليات لغوية تنتظم كل اللغات، ومن ثم يشير إلى أن الطفل يتناول مادته اللغوية، في مرحلة اكتساب اللغة، من لغة كلية محددة، فيقتصر عمله على تحديد لغته من ضمن مجموعة اللغات المحتملة، أي من ضمن ما يمكن تسميته (القواعد الكلية) إلى تنظيم من الضوابط التي تخضع لها القواعد، تكون هذه القواعد الكلية الهيكلية العظمية لبنية القوانين التي تخضع لها قواعد اللغة عامة، كما أنها تحتوي بصفة أساسية على الشروط الواجب توافرها في صياغة قواعد اللغات، وعلى المبادئ التي تحدد كيفية تفسير قوانينها.

بعبارة أخرى تقوم القواعد الكلية على مجموعة من الضوابط المجردة والعامة التي تخضع لها بصورة مشتركة كل القواعد الخاصة.

وينبني كذلك على القول بعمومية اللغة، أن بناءها يتحدد ببناء العقل الإنساني وأن جهود الكليات اللغوية الجامعة لكل اللغات يتحقق بغض النظر عن الأعراق أو الطبقات الاجتماعية أو الفروق الشخصية أو الطبيعية.

الطاقة الإبداعية في اللغة الإنسانية:

هي القدرة التي تتيح لأبناء اللغة الواحدة إنتاج وفهم عدد كبير، بل عدد غير محدود من الجمل التي لم يسمعوها قط، ولم ينطق بها أحد من قبل، أو هكذا تبدو.

---

(١) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص ٨١.

(٢) زكريا (ميشال) الألسنية، ص ٢٦٤.

وهذه القدرة – في الظروف العادية – تتحقق بطريقة غير واعية وبلا إعمال فكر في تطبيق القواعد النحوية، وأبناء لغته أيضًا يقبلون ما ينطق به على أنه يتألف من جمل صحيحة، ومفهومه عندهم، ومع ذلك فنحن نضع في الاعتبار بعض الأخطاء التي يقع فيها بعض المتكلمين تحت ظروف خاصة.

وليس لأي كائن حي قدرة على امتلاك لغة شبيهة باللغة الإنسانية من حيث طاقة الإبداع[1].

النحو التوليدي رياضي:

إن منهج (تشومسكي) في النحو التوليدي قد تطور، بحيث أصبح يقدم وصفًا رياضيًا دقيقًا لبعض الملامح البارزة للغة، ومن ثم تبرز أهمية خاصة لقدرة الأطفال على بناء جمل نحوية صحيحة منظمة، واستنباطها من خلال ما يسمعونه من المحيطين بهم من الناس، بحيث يستغلون نفس القواعد المطردة التي يسمعونها في بناء جمل لم يسمعوا عنها قط من قبل[2].

ونتبين هذا بوضوح حين نلاحظ أن النحو التوليدي ينتج مجموعة هائلة من الجمل ربما لا تنحصر، وقد قلنا من قبل إن هذا يعكس الجانب الإبداعي للغة الإنسانية، وثمة دلالة أخرى لمصطلح توليد أنه يدل على التحديد الصارم للقواعد النحوية والشروط التي تعمل فيها، والمصطلح – كما هو معروف – مأخوذ من الرياضيات.

ولتوضيح ذلك ننظر في المعادلة الجبرية الآتية:

٢س + ٣ص – ز

حيث نجد أن المتغير س، ص، ز، يمكن تحديد قيمتها من خلال هذه المعادلة، وذلك طبقًا للعمليات الرياضية العادية، بحيث تولد مجموعة من النتائج ذات قيمة غير محدودة.

---

(١) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص ٥٨.

(٢) السابق، ص ٣١.

فمثلًا إذا افترضنا أن:

س = ٣، ص = ٢ ، ز = ٥

فإذ ما عوضنا بهذه القيم في المعادلة السابقة تكون المعادلة كما يلي:

٢ × ٣ + ٣ × ٢ – ٥

٦ + ٦ – ٥

١٢ – ٥

إذن النتيجة = ٧

ولكن إذا افترضنا أن:

س = ١ ، ص = ٣ ، ز = ٢١

وبالتعويض بهذه القيم في المعادلة السابقة ستكون صورتها كما يلي:

٢ × ١ + ٣ × ٣ – ٢١

٢ + ٩ – ٢١

١١ – ٢١

إذن النتيجة – ١٠

وهكذا تتغير النتيجة في كل مرة تختلف فيها قيم هذه المتغيرات، وبناء على ذلك نستطيع القول بأن النتيجة (٧) و (–١٠) ... إلخ هي جزء من مجموعة القيم التي يمكن أن تولدها هذه المعادلة، فإذا جاء شخص آخر، وطبق القواعد الرياضية تطبيقًا صحيحًا، وحصل على نتائج مختلفة نقول إنه لا بد قد ارتكب خطأً، ولكننا لا نقول إن القواعد الرياضية غامضة أو غير محددة.. ومفهوم تشومسكي للقواعد النحوية يشبه هذا تمامًا، من حيث إنها لا بد أن تكون محددة تحديدًا صارمًا مثل القواعد الرياضية، أي أن تكون منطقية[1].

---

(١) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص ٨٤، ٨٥، ٨٦.

الحدس:

ومع عقلانية التوليد القائم على استخراج قواعد صارمة، فإن تشومسكي يضع الحدس intuition، أو أحكام أبناء اللغة judgments في اعتباره ويعده من مميزات القواعد النحوية، كما اعتبر أيضًا الحدس عند أبناء اللغة من حيث قدرتهم على الحكم على جمل معينة، بأنها واضحة ومقبولة أو غامضة ومرفوضة.

وقدم حدس أبناء اللغة على أنه دليل مستقل، وأصلي في الحكم على الجمل، أما ما يقدمونه من شرح أو تفسير بين يدي هذا الحدس فقد عده دليلًا ثانويًا في عملية توليد الجمل، وفي أعماله الأخيرة اعتبر حدس أبناء اللغة جزءًا من المادة اللغوية التي ينبغي على قواعد اللغة أن تفسرها وتعللها[1].

الكفاية والأداء:

يميز (تشومسكي) بين الكفاية اللغوية competence، أي المعرفة الضمنية، لمتكلم اللغة المثالي بقواعد لغته التي تتيح له التواصل بواسطتها وبين الأداء الكلامي performance، أي طريقة استعماله للكفاية اللغوية بهدف التواصل في ظروف التكلم الآني.

وتهدف نظرية الكفاية اللغوية إلى تنظيم القواعد الضمنية الذي يمثل الأبنية اللغوية الكامنة ضمن الكلام العادي، في حين تتوخى نظرية الأداء الكلامي دراسة المبادئ التي يستعملها المتكلم في إنتاج الكلام وفهمه.

وتتصدى هذه النظرية لدراسة مختلف العوامل السيكولوجية، كالحد من الذاكرة، والإصابات المرضية في الدماغ، والأغلاط والسهو التي تتداخل مع العوامل اللغوية في عملية إنتاج الكلام.

(١) السابق، ص ٧٩.

البنية السطحية والبنية العميقة:

يعتمد (تشومسكي) مستويين لدراسة جمل اللغة فيميز بين البنية السطحية surface structure، أي البنية الظاهرة عبر تتابع الكلمات التي ينطق بها المتكلم، وبين البنية العميقة deep structure، أي القواعد التي أوجدت هذا التتابع، أو الأبنية الأساسية التي يمكن تحويلها لتكون مجمل اللغة، وهذه القواعد أو الأبنية الأساسية تبين تكوين الجمل في مستوى أعمق من المستوى الظاهر في عملية التكلم(١).

والبنية السطحية والعميقة مختلفتان، ولنأخذ المثال الآتي:

(١) خلق الله غير المنظور العالم المنظور.

في هذا المثال ثلاثة أبنية:

أ. خلق الله العالم.

ب. الله غير منظور.

جـ. العالم منظور.

والجملة (١) هي جملة سطحية، وتتكون من الجمل الثلاث أ، ب، ج، والتي هي عائدة إلى البنية العميقة، وفي رأيه أنها متحولة من الجمل أ، ب، ج، بواسطة أكثر من تحويل ويؤكد (تشومسكي) أن البنية العميقة وإن لم تكن ظاهرة في الكلام هي إلى حد كبير أساسية لتفهمه ولإعطائه التفسير الدلالي.

ومما لا شك فيه أن هذه البنية ضمنية تتمثل في ذهن المتكلم السامع، فهي في حقيقة الأمر عملية قائمة يعكسها التتابع الكلامي المنطوق الذي يكون البنية السطحية، ومن هنا ترتبط البنية العميقة بالدلالات اللغوية أي أنها تحدد التفسير الدلالي للجمل، في حين ترتبط البنية السطحية بالأصوات اللغوية المتتابعة، وتحدد التفسير الصوتي للجمل، ويلعب مفهوم التحويل دورًا أساسيًا في تحويل الجمل من البنية العميقة إلى البنية السطحية، فيربط بالتالي بين

---

(١) زكريا (ميشال) الألسنية، ص ٢٦١، ٢٦٢.

هاتين البنيتين، ويتكون التحويل من عملية أو سلسلة عمليات ذهنية تقرن بين الأبنية العميقة والأبنية السطحية للجمل[1].

النحو العربي والنحو التحويلي التوليدي:

يعبر الدكتور محمد حماسة عن مفهوم النظرية التحويلية التوليدية بأنه تحويل جملة إلى جملة أخرى أو تركيب إلى تركيب آخر، والجملة المحوّل عنها هي ما يعرف بالجملة الأصل – البنية العميقة – والقواعد التي "تتحكم في تحويل الأصل هي القواعد التحويلية، وهي قواعد تحذف بعض عناصر البنية العميقة، أو تنقلها من موقع إلى موقع آخر، أو تحولها إلى عناصر مختلفة، أو تضيف إليها عناصر جديدة. وإحدى وظائفها الأساسية تحويل البنية الافتراضية التي تحتوي على معنى الجملة الأساسي إلى البنية السطحية الملموسة التي تجسد بناء الجملة وصيغتها النهائية"[2].

وفي مواضع التحويل يقول: ومفهوم البنية العميقة وراء كثير من التفريق بين عناصر في الجملة قد تبدو متشابهة في سطحها، فهو وراء التفريق بين الحال والمفعول الثاني، والتفريق بين البدل وعطف البيان في المواضع التي لا يكون فيها عطف البيان بدلًا، والتفريق بين الإضافة اللفظية والمعنوية، ووراء كل ما يقال عن الجمل عن المعنى والتقديم والتأخير والحذف، وافتراض التركيب الذي يوازي أسلوب النداء، والتركيب الذي يوازي أسلوب الاختصاص والتركيب الذي يوازي التحذير والإغراء، والتركيب الذي يوازي التعجب بصيغتيه القياسيتين، والجمل التي لها محل من الإعراب"[3].

والتحويل في العربية – كما يراه الدكتور الحاج صالح تحويلان: التحويل الذي يُبحث به عن تكافؤ البنى (توافق البناء عند العرب) وهو الأهم، وتحويل تُفسر به الشواذ عن القياس

---

(١) زكريا (ميشال) الألسنية، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) من الأنماط التحويلية في اللغة العربية، ص ١٣.

(٣) السابق، ص ٢٣.

وهي السلسلة من التحويلات التي يتوصل بها من الأصل الذي كان ينبغي أن تكون عليه هذه الشواذ إلى الصورة المستعملة التي هي عليه، أي بين صيغة مقدرة وبين الصيغ الموجودة بالفعل في الاستعمال.

وفي كلا الحالين يوجد أصل وفرع أو فروع، أما الأصل الذي هو مقصد كل تحويل فيقول عنه العرب إنه ما يُبنى، عليه ولا يُبنَى على غيره، أو ما يفرع عليه الفروع، فالبناء والتفريع هو العملية التحويلية، ويمكن أن نقول على إثر ما قالوه: إن الأصل هو الشيء الثابت المستمر؛ لأنه يوجد في كل فروعه مع زيادة؛ ولذلك لا علامة له بالنسبة لفروعه، فهي تحتاج إلى علامة مثل: المذكر بالنسبة إلى المؤنث، والمفرد بالنسبة إلى المثنى والجمع، والمبتدأ والخبر بالنسبة إلى الجملة التي تحتوي على زوائد عليهما، والمضارع بالنسبة إلى الماضي وغير ذلك. وهكذا نلاحظ أن الوحدات اللغوية والبنى التي تدخل فيها "تولدها عن العرب" التحويلات نفسها بل المجموعات من التحويلات هي نفسها بنى بسبب ترتيبها"(١).

ومن البحوث الجيدة التي درست ما بين النحو العربي والنحو التحويلي من مشابه البحث الذي كتبه Y. Gruntfest بعنوان:

Medieval Arabic Grammarians–First Transfomationists

يقرر في مستهله أن اللغويين اكتشفوا أجزاء من النحو العربي التقليدي بنيت على أصول المنهج التحويلي" بيد أنه – مع ذلك – يؤكد أن المفهوم الصريح للتحويل لم يقنن بوضوح ودقة، وأن مصطلح تحويل الذي يطابق بطريقة ما المصطلح الإنجليزي transformation نادرًا ما استخدم، ولم يُعرض بوضوح، على حين أن فكرة استخراج بنية أو تركيب من بنية أخرى أو تركيب آخر عَبَّر عنها النحاةُ كثيرًا بوضوح بمصطلحات نحوية لبيان عناصر نحوية ملموسة.

ومن الأمثلة التي يوضح بها مفهوم التحويل في العربية: أن الجملة المتضمنة معنى البناء

---

(١) النحو العربي والبنيوية، مجلة المجتمع، عدد ٨٥، ص ٢١٨، ٢١٩.

(للمجهول أو للمفعول) passive verbal construction نحو: أُعطي الفقيرُ مـالًا، لهـا علاقـة وثيقـة بالجملـة المتـضمنة معنـى البنـاء (للمعلـوم أو للفاعـل) active verbal construction أعطي الغنيُّ الفقير مالًا، وهي محولة عنها بحذف (الفاعل: الغني) وإقامـة (المفعول به: الفقير) في موقعه، ومن ثم استحقاقه الرفع، مع أنه ليس فـاعلًا حقيقـة، ولهـذا أطلق عليه النحاة المتأخرون مصطلح نائب الفاعل.

ويقول عن مثال آخر للتحويل: يُعبر عن المعالجـة التحويليـة بوضـوح شـديد في ثلاثـة أنواع من التمييز: تمييز منقول عن فاعل، وعن مفعول وعن مبتدأ، وأمثلته "فاض الإناء ماءً، وهو محول عن فاض إناء الماء، وفجرنا الأرض عيونًا، وهو محول عن فجرنا عيون الأرض[١] وزيد أكثر منك مالا محول عن مال زيد أكثر منك.

التقدير والتحويل:

يرى (جرنتفست) أن المصطلح الخاص بالمعالجة التحويلية في النحو العربي هو (التقدير) وهو واحد من أهم وأدق مصطلحات النحو التقليدية، وحين النظر في أي كتاب مؤلف وفق المنهج التقليدي سوف يجد حالات أخرى عديدة للمعالجة التحويلية للأبنية والتراكيب.

ومن خلال الاستعمال الدقيق لمصطلح (تقدير) لا من حيث إنتاجه لأبنية وتراكيب من أبنية أخرى وتراكيب، ولا من حيث تفسيره لأبنية وتراكيب معقدة وتحولها إلى أبنيـة أبـسط وتراكيب أبسط فحسب، بل إن وظيفته الأولية هـي مـدى صـحة ودقـة الوصـف النحـوي (راجع ما ذكره الدكتور الحاج صالح عن التحويل).

فكل بنية أو تركيب - بغض النظر عن خصوصيتها - لا بد أن توصف وصفًا يجري على القواعد النحوية المقررة[٢].

---

(1) Medieval Arabic grammarians-p. 228.
(2) Ibid, p. 220

فالتغيرات الاصطلاحية مثلًا – والتي لا تجري على القواعد تمامًا – تفسر بتقدير تراكيب – حقيقية أو صناعية – يكون لها فرضًا نفس المعنى، وإن كان لها بنية مختلفة، فالعبارة: هل في الدار من رجل؟ تفسر بالعبارة: هل في الدار رجل؟ والعبارة الأولى قياسية، ولا تخالف القواعد (ومن رجل) في موضع مبتدأ، والعبارة الثانية لا تتضمن معنى موجودًا في العبارة الأولى أنه ليس في البيت أي رجل.

٥. التداولية Pragmatics

يعود مصطلح Pragmatics (التداولية) بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي (تشارلز مورس) الذي استخدمه سنة ١٩٣٨م، دالًا على أحد فروع علم العلامات semiotics وهو يهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها.

على أن التداولية لم تصبح مجالًا يُعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين بجهود ثلاثة من الفلاسفة المعنيين بدراسة اللغة الإنسانية الطبيعية، وهم: أوستين، وسيرل، وجرايس[١].

وقد لخص الدكتور محمود نحلة اتجاهات البحث التداولي فيما يأتي:

١. التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي، أو هي لسانيات الاستعمال اللغوي، وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يولد المعنى.

٢. ليس للتداولية وحدات تحليل units of analysis خاصة بها، ولا موضوعات مترابطة correlation topics.

٣. التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة، معرفية واجتماعية، وثقافية.

٤. تعد التداولية نقطة التقاء مجالات العلوم ذات الصلة بوصفها وُصلة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية.

ومن التعريفات الجيدة للتداولية: إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية من ثم "علم الاستعمال اللغوي".

وفي بيان مهامها الكبرى يقول د. مسعود صحراوي: تدرس التداولية اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها كلامًا محددًا، صادرًا من "متكلم محدد"

---

(١) نحلة (د. محمود) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ٩، ١٠.

وموجهًا إلى "مخاطب محدد"، "بلفظ محدد" في "مقام تواصلي محدد" لتحقيق "غرض تواصلي محدد"(١).

والتداولية لا تنتمي إلى أي مستوى من مستويات الدرس اللغوي صوتيًا، أو صرفيًا، أو نحويًا، أو دلاليًا.. وكذلك لا تنضوي تحت علم من العلوم التي لها علاقة باللغة على الرغم من أنها تتداخل معها في بعض الجوانب، ومن هذه العلوم:

- علم الدلالة، وهو يشارك التداولية في دراسة المعنى على خلاف في العناية ببعض مستوياته، ونتيجة لتنامي الاهتمام بين المعنى والاستعمال، ظهرت اتجاهات حديثة تحاول أن تؤلف بينهما.

- علم اللغة الاجتماعي، وهو يشارك التداولية في تبيين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث، والموضوع الذي يدور حوله، ومرتبة كل من المتكلم والسامع وجنسه وثقافته، وأثر السياق غير اللغوي في اختيار السمات اللغوية وتنوعاتها.

- علم اللغة النفسي، وهو يشترك مع التداولية في الاهتمام بقدرات المشاركين التي لها أثر كبير في أدائهم مثل: الانتباه والذاكرة والشخصية.

- تحليل الخطاب discourse analysis، وهو يشترك مع التداولية في الاهتمام أساسًا بتحليل الحوار، ويقتسمان عددًا من المفهومات الفلسفية واللغوية كالطريقة التي توزع بها المعلومات في جمل أو نصوص والعناصر الإشارية، والمبادئ الحوارية(٢).

جوانب الدراسة التداولية:

أولا: الإشارة deixis:

في كل اللغات كلمات وتعبيرات تعتمد اعتمادًا تامًا على السياق الذي تستخدم فيه، ولا يستطاع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه، فإذا قرأت الجملة الآتية مقتطعة من سياقها (سوف

---

(١) صحراوي (مسعود) التداولية عند العلماء العرب، ص ١٦، ٢٦.

(٢) نحلة (د. محمود) آفاق جديدة، ص ١٠، ١١.

يقومون بهذا العمل غدًا) وجدتها شديدة الغموض؛ لأنها تحتوي على عدد من العناصر الإشارية التي يعتمد تفسيرها اعتمادًا تامًا على السياق المادي الذي قيلت فيه، ومعرفة المرجع الذي تحيل إليه، ومن هذه العناصر: واو الجماعة، واسم الإشارة (هذا) وظرف الزمان (غدًا)، ولا يتضح معنى هذه الجملة إلا إذا عرفنا ما تشير إليه.

وأغلب الباحثين رأى أن الإشارية تنقسم إلى:

١. الإشاريات الشخصية: أوضح العناصر الإشارية الدالة على الشخص هي ضمائر المتكلم أنا ونحن، وضمائر الخطاب مفردًا أو مثنىً أو جمعًا، مذكرًا أو مؤنثًا، وضمائر الغيبة مفردًا أو مثنى أو جمعًا مذكرًا أو مؤنثًا.

على أنه قد ينشأ نوع من اللبس في استخدام الضمائر إذا تعددت مراجعها، أو تبادل كل من المتكلم والمخاطب أدوار الكلام فأصبح المتكلم مخاطبًا والمخاطب متكلمًا، أو نقل متكلم كلامًا لمتكلم آخر، كأن يقول رجل: قال زيد أنا قادم الليلة / هو قادم الليلة، فلا يدري من (أنا) أهو زيد أم غيره.

٢. الإشاريات الزمنية Temporal deictics: وهي كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان المتكلم، فزمان المتكلم هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام، فإذا لم يعرف زمان المتكلم أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر، فإذا قلت مثلًا "نلتقي الساعة العاشرة" نجد أن زمان التكلم وسياقه هما اللذان يحددان المقصود بالساعة العاشرة صباحًا أم مساءً اليوم أو غدًا.

٣. الإشاريات المكانية: وهي عناصر تشير إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربًا أو بُعدًا أو وجهة، ويستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفسروا كلمات مثل: هنا وهناك، وهذا وذاك ونحوها إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى الكلام، فهي تعتمد على السياق المادي

المباشر الذي قيلت فيه، ومثل هذه التعبيرات أمثلة واضحة على أن أجزاء من اللغة لا يمكن أن تفهم إلا في إطار المعنى الذي يقصده المتكلم.

فإذا قال شخص (أحب العمل هنا) فهل هو يعني: في هذا المكتب أم في هذه المؤسسة، أم في هذا البلد، أم في هذه الدولة أم في غير ذلك من الأماكن.

فكلمة (هنا) تعبير إشاري لا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذي يقصد المتكلم الإشارة إليه، وثمة ظروف للمكان تقوم بهذه الوظيفة الإشارية مثل: فوق وتحت وأمام وخلف، وهي عناصر يُشار بها إلى مكان لا يتحدد إلا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه.

٤ . **الإشاريات الاجتماعية**: وهي ألفاظ أو عبارات تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية، أو غير رسمية، أو علاقة حميمية أو غير ذلك من مستويات العلاقة.

والعلاقة الرسمية يدخل فيها صيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنًا ومقامًا من المتكلم كاستخدام vous، في الفرنسية للمفرد المخاطب تبجيلًا له، أو مراعاة للمسافة الاجتماعية بينهما، وكذلك الحال مع (أنتم) في العربية لمخاطبة المفرد، وتشمل أيضًا الألقاب مثل: فخامة الرئيس، الإمام الأكبر، جلالة الملك.

أما الاستعمالات غير الرسمية والحميمية فتتخلص من هذه القيود جميعًا.

وظاهر هذه الإشاريات أنها من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي.

ثانيًا: الافتراض السابق presupposition:

يوجه المتكلم حديثه إلى السامع على أساس مما يفترض سلفًا أنه معلوم له، فإذا قال رجل لآخر: أغلق النافذة، فالمفترض سلفًا أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مبررًا يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على إغلاقها، وأن المتكلم في منزلة الآمر، وكل ذلك موصول بسياق الحال وعلاقة المتكلم بالمخاطب، ومن أجل ذلك كانت دراسة الافتراض السابق مثار اهتمام الباحثين.

وقد ميز بعض الباحثين بين نوعين من الافتراض: المنطقي أو الدلالي والتداولي، فالأول مشروط بالصدق بين قضيتين، فإذا كانت (أ) صادقة كان من اللازم أن تكون (ب) صادقة، فإذا قلنا: المرأة التي تزوجها زيد كانت أرملة، وكان هذا القول صادقًا أي مطابقًا للواقع لزم أن يكون القول زيد تزوج، إذ إنه مفترض سلفًا.

أما الافتراض التداولي فلا دخل له بالصدق والكذب، فالقضية الأساسية يمكن أن تنفى دون أن يؤثر ذلك في الافتراض السابق، فإذا قلت مثلًا: سيارتي جديدة، ثم قلت سيارتي ليست جديدة، فعلى الرغم من التناقض في القولين فإن الافتراض السابق، وهو أن لك سيارة لا يزال قائمًا في الحالين.

ثالثًا: الاستلزام الحواري conversational implicature :

يعد الاستلزام الحواري من أهم جوانب الدرس التداولي، فهو ألصقها بطبيعة البحث فيه، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدرس الدلالي، ورائد هذا المجال هو الفيلسوف (جرايس)، كانت نقطة البدء عنده أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية الظاهرة، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه إلى السامع على نحو غير مباشر، اعتمادًا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال، ووسائل الاستدلال، فأراد أن يقيم معبرًا بين ما يحمله القول من معنى صريح explicit meaning، وما يحمله من معنى متضمن inexplicit meaning فنشأت فكرة الاستلزام implicature[1].

لقد كان ما يشغل جرايس هو: كيف يكون ممكنًا أن يقول المتكلم شيئًا ويعني شيئًا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنًا أن يسمع المخاطب شيئًا ويفهم شيئًا آخر؟

وقد وجد حلًا لهذا الإشكال فيما أسماه مبدأ التعاون co-operation بين المتكلم

---

(١) نحلة (د. محمود) آفاق جديدة، ص ٣٢، ٣٣.

والمخاطب، وهو مبدأ حواري عام يشتمل على أربعة مبادئ فرعية:

١. مبدأ الكم quantity، اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب دون أن تزيد عليه أو تنقص منه.

٢. مبدأ الكيف quality، لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

٣. مبدأ المناسبة relevance: اجعل كلامك ذا علاقة بالموضوع.

٤. مبدأ الطريقة manner: كن واضحًا ومحددًا، فتجنب الغموض، وتجنب اللبس، وأوجز، ورتب كلامك(١).

ويرى بعض الباحثين أن مبدأ التعاون لا يمت إلى الواقع بصلة، فليس الناس في كل أحوالهم متعاونين، هذا ولم يقصد جرايس أن الحوار بين البشر هو ما ذكره هؤلاء، بل يقصد أنه يجري على ضوابط محكومة يدركها المخاطب والمتكلم، ولنوضح ذلك بالحوار الآتي بين زوج (أ) وزوجته (ب):

أ. أين مفاتيح السيارة؟

ب. على المائدة.

فكل مبادئ الحوار متحققة في هذه المحاورة القصيرة، التي يتحقق فيها مبدأ التعاون، لقد أجابت الزوجة إجابة واضحة (الطريقة) وكانت (صادقة) (الكيف)، واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون تزيد (الكم) وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها (المناسبة).

وقد أوضح جرايس أن مبادئ الحوار قد تنتهك، وأن الإخلاص لمبدأ التعاون أمر هام جدًّا، بمعنى أن يكون المتكلم حريصًا على إبلاغ المخاطب معنى بعينه، وأن يبذل المخاطب الجهد الواجب للوصول إلى المعنى الذي يريده المتكلم، وألا يريد أحدهما خداع الآخر أو

---

(١) السابق، ص ٣٣، ٣٤.

تضليله.

ومن أمثلة الانتهاك:

١. في حوار بين أم (أ) وولدها (ب)

أ. هل اغتسلت ووضعت ثيابك في الغسالة؟

ب. اغتسلت.

في هذا الحوار خرق لمبدأ (الكم)؛ لأن الأم سألته عن أمرين: فأجاب عن واحد، وسكت عن الآخر، وهو وضع الثياب في الغسالة.

٢. في حوار بين تلميذ (أ) وأستاذ (ب) وكلاهما إنجليزي:

أ. طهران في تركيا، أليس هذا صحيحًا يا أستاذ؟

ب. طبعًا، ولندن في أمريكا.

في هذا الحوار انتهاك لمبدأ (الكيف) الذي يقضي ألا يقول إلا ما يعتقد صوابه، وقد انتهك الأستاذ عمدًا ليظهر للتلميذ أن إجابته غير صحيحة، ويؤنبه على جهله.

٣. في حوار بين رجلين:

أ. أين زيد؟

ب. ثمة سيارة صفراء أمام منزل عمرو.

ما قاله (أ) بمعناه الحرفي ليس إجابة عن السؤال، فهو ينتهك مبدأ (المناسبة).

٤. في حوار بين رجلين:

أ. ماذا تريد؟

ب. قم واتجه إلى الباب، وضع المفتاح في القفل، ثم أدره ناحية اليسار ثلاث مرات، ثم ادفع الباب برفق.

واضح أن فيما قاله (ب) انتهاك لمبدأ (الطريقة) وهو أَوْجِز.

٦-علم لغة النص Text Linguistics

النص جزء من الواقع اللغوي:

لم تكن النصوص عند القدماء تدرس لذاتها في علم مستقل من علوم اللغة، بل كانت تلك الدراسات موزعة بين عدة علوم، بين النقد والبلاغة وعلم القواعد. بل إن علم القواعد (النحو) كثيرا ما ادعى لنفسه حق احتواء النصوص واستيعابها، بدعوى أن النص ليس سوى جملة أو عدة جمل متوالية، وهي فكرة خاطئة يرفضها علم لغة النص الحديث الذي يرى في الجملة مجرد إطار لفهم جانب من جوانب الواقع اللغوي، في حين يؤلف النص جزءا فعليا من الواقع بلحمه ودمه(١).

دور النص في الاتصال:

إن العنصر الحاكم في تكوين النص هو الدور الذي يقوم به في الاتصال الإنساني، ولذا فإن علم لغة النص لا يتوقف عند كلمات النص وتحليلها في مستويات الدرس اللغوي من أصوات وصرف ونحو ودلالة فحسب، بل يحاول النفوذ إلى ما وراء النص الجاهز من عوامل معرفية ونفسية واجتماعية، ومن عمليات عقلية كان النص حصيلة لتفاعلها جميعا.

ومن ثم فإن علم لغة النص يشارك دائما في مكتسبات العلوم الأخرى التي تهتم بالاتصال الإنساني كعلم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والذكاء الاصطناعي(٢).

تعريف النص:

يعرف "ديبوغراند" النص بأنه تشكيلة لغوية ذات معنى تستهدف الاتصال وتصدر – ضرورةً– عن مشارك واحد ضمن حدود زمنية معينة. وليس من الضروري أن يتألف النص من الجمل وحدها، فقد يكون النص من جملة أو كلمات مفردة، أو مجموعة لغوية تحقق أهدافه

---

(١) أبو غزالة (د. إلهام) .. مدخل إلى علم لغة النص ص٧.

(٢) السابق، ص٧

من الاتصال.

وقد نجح علم لغة النص أن يكون له شأن بين علوم اللغة الحديثة وأن يتبنى لنفسه نظاما قائما على المعالجة العلمية للمعطيات من خلال معايير تأسيسية تميز النص عن غيره من المنطوقات، ومعايير تنظيمية تناقش جودة النص وفعاليته وملاءمته للمقام[١].

المعايير التأسيسية لدراسة النص:

المعايير الآتية لا غنى عنها لتوافر صفة النصية في أية تشكيلة لغوية:

١. التضام **cohesion** (السبك)

يشتمل التضام على الإجراءات المستعملة في توفير عناصر ظاهر النص كبناء العبارات والجمل واستعمال الضمائر وغيرها من الأشكال البديلة.

٢. التقارن **coherence** (الحبك)[٢]

يشتمل التقارن على الإجراءات المستعملة في إثارة عناصر المعرفة من مفاهيم وعلاقات، منها علاقات منطقية كالسببية، ومنها معرفة كيفية تنظيم الحوادث، ومنها أيضا محاولة توفير الاستمرارية في الخبرة البشرية.

٣. القصدية **intentionality**

أي قصد المنتج توفير التضام والتقارن في النص وأن يكون أداة لخطة موجهة إلى هدف.

٤. التقبلية **acceptability**

أي قبول المستقبل للنص باعتباره متضاما متقارنا ذا نفع للمستقبل أو ذا صلة به.

٥. الموقفية **situationality**

وهي تشتمل على العوامل التي تجعل النص ذا صلة بموقف حالي أو بموقف قابل للاسترجاع.

---

(١) السابق، ص٧ ، ٩.

(٢) آثرت أن أضم إلى مصطلحي التضام والتقارن مصطلحين آخرين أكثر انتشارا هما السبك والحبك.

٦. الإعلامية infomativity

وهي تشتمل على عامل الجِدَّة (الـلا يقـين النـسبي) لوقـائع الـنص بالمقارنـة بالوقـائع الأخرى المحتملة الحدوث.

٧. التناص intertextuality

وهي تتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى ذات صـلة تَـمَّ التعـرف إليهـا في خبرة سابقة[١].

المعايير التنظيمية:

من المعايير التنظيمية التي تستعمل لتعيين نوعية النص وتقييمه.

١. الجودة efficience

وتتحقق جودة النص عند استغلاله في الاتصال مع تحقيق أكبر مردود وأقل جهد بحيث تتوافر سهولة معالجة النص.

٢. الفاعلية effectivity

أي شدة وقع النص وتأثيره في المستقبل بحيث يتوافر عمق المعالجة والإسهام القـوي في تحقيق هدف المنتج.

٣. الملاءمة appropriatence

ويقصد بها تناسب مقتضيات الموقف مـع درجـة انطبـاق معـايير النـصية عـلى الـنص المدروس.

النص في مقابل الجملة:

نلخص في هذه الفقرة ما ذكره (دي بوجراند) عن النص والفرق بينه وبين الجملة فيما يأتي:

١. النص نظام فعال actual system بينما الجملة عناصر من نظام افتراضي virtual system.

(١) السابق، ص ١١، ١٢.

٢. الجملة كيان قواعدي grammatical خالص يتحدد على مستوى النحو فحسب، أما النص فحقه أن يعرف تبعًا للمعايير الكاملة للنصية textuality .

٣. قيود القواعد المفروضة على البنية التجريدية للجملة في النص يمكن التغلب عليها بواسطة الاهتمام بتحفيزات تعتمد على سياق الموقف context dependent motivation.

ولا يعني التغلبُ هنا الاستغناءَ عنها، وإنما الاستخدام الواعي لها من خلال الحاجة إليها في موقف فعلي بحيث تستخدم القواعد في ظل المتعارف عليه بين أفراد الجماعة اللغوية في مثل هذا الموقف، أي أن القواعد المستخدمة في صياغة النصوص موظفة في موقف حقيقي بعيدة عن التجريد.

٤. الحكم بأن تركيبًا ما يعدُّ جملة يتم بمقارنة هذا التركيب بالأنماط التي تسمح بها القواعد النحوية، أما التمييز بين ما يعدُّ نصًّا وما لا يعدُّ نصًّا فلا يتم بمثل هذه المقارنة الآلية، فكون النص مقبولًا أو غير مقبول يتم بحسب درجية معقدة لا بحسب تقابل ثنائي.

٥. ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه situation of occurrence، وتتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف، وهذه البيئة تسمى سياق الموقف، أما التركيب الداخلي للنص فهو سياق البنية co-text.

٦. لا يمكن النظر إلى النص بزعم أنه مجرد صورة من الوحدات الصرفية أو الرموز. إن النص تجلٍّ لعمل إنساني ينوي به شخص أن ينتج نصًّا ويوجه السامعين به إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة، أما الجملة فليست عملا ولهذا كانت ذات أثر محدود في المواقف الإنسانية، لأنها تستعمل لتعريف الناس كيفية بناء القواعد النحوية فحسب.

٧. يأتي إنتاج النص وفهمه في صورة توالٍ من الوقائع progression states، وفي كل نقطة من نقاط هذا التوالي تطبق الضوابط السائدة التي لا تدعو ضرورة ما إلى كونها من قبيل المبادئ التجريدية للصياغة، وفي المقابل يجري النظر إلى الجمل بوصفها عناصر من نظام ثابت

متزامن لتنطبق الضوابط انطباقا مطردا أو لا تنطبق.

والمقصود في هذه النقطة الأخيرة أنه بينما هناك قواعد ثابتة لبناء الجمل لا يمكن التعامل مع النصوص من نفس المنطلق لارتباط النص بالموقف الذي يقع فيه.

٨. الأعراف الاجتماعية social conventions تنطبق على النصوص أكثر مما تنطبق على الجمل، فالوعي الاجتماعي ينطبق على الوقائع لا على أنظمة القواعد النحوية.

٩. العوامل النفسية أوثق علاقة بالنصوص منها بالجمل.

١٠. من أجل استعمال النصوص فإن الناس بحاجة إلى معرفة عملية بالأحداث الجارية بخصوصها، أما الجمل فاستخدامها يتطلب معرفة القواعد من حيث هي نظام افتراضي[١].

وبما أن النص قد يكون مكونا من عدة جمل فإن معرفة قواعد النظام الافتراضي مهمة في بناء النص لكن ليست هي الكافية وحدها لاستعمال النصوص.

علم لغة النص واللغة العربية:

علم لغة النص علم حديث النشأة كعلم مستقل، ولكن كثيرا من أفكاره كان معروفا في علوم لغوية أخرى كعلم النحو والبلاغة بخاصة.

ومن أهم الإسهامات التي يُشار إليها في هذا الطريق ما عُرف بنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، فإن عبد القاهر قد أكثر من الحديث في (دلائل الإعجاز) عن التضام، وهو المبدأ الأول من المبادئ النصية التي أوجزنا الحديث عنها.

يعرف الجرجاني النظم بقوله: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض.. فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه أو تابعا له، صفة أو تأكيدا.."[٢].

ويقول أيضا: "ليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معاني

---

(١) انظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٩١-٩٤.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز ص٤.

الكلم"[1].

هذا ولم يكتف عبد القاهر ببيان وظيفة النظم وقواعده بل بَيَّن كذلك علاقة النظم بالمفاهيم أو بالمعاني المنعقدة بين عناصره، ولهذا فإنه يرى الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات بل تظهر بالضم بطريقة مخصوصة، ومن ثم فإن المعنى من الضم هو توخي معنى من معاني النحو فيما بينها، وفي كتابه أبواب كاملة عن الحذف والإضمار والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير والفصل والوصل، وغير ذلك مما له نصيب في الفصاحة.

ونضيف إلى اهتمام النحاة بمناهج الكلام أو معاني النحو كالتمييز والإضافة والحال والاستثناء والاستغاثة والنداء.. إلخ ما فصله البلاغيون وعلماء الأصول من حديث عن المعنى الحقيقي والمجازي ومن علاقات المجاز المرسل كالسببية والآلية والكلية والجزئية والتضاد والاشتراك.

ونجد إشارات قيمة إلى أهمية الإعلامية من حيث هي مقياس لعدم التوقع في كتب البلاغة عند حديث أصحابها عن (الغرابة). يقول حازم القرطاجني: "وكلما اقتربت الغرابة والتعجيب بالتخييل كان أبدع.. والتعجيب يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقل الهدي إلى مثلها"[2]. والمعروف أن مستقبل الكلام يتوقع أن يعلم من متحدثه شيئا لا يعرفه لا شيئا يعرفه.

ومن هذا القبيل أيضا حديثهم عن الإغماض في المعاني. يقول حازم: "وجوه الإغماض في المعاني منها ما يرجع إلى المعاني نفسها، ومنها ما يرجع إلى الألفاظ والعبارات المدلول بها على المعنى، ومنها ما يرجع إلى المعاني والألفاظ معا"[3].

---

(١) السابق، ص٨٠، ٤٥٤.

(٢) مناهج البلغاء، ص ١٧٢.

(٣) السابق، ص ١٧٢.

ويقول عبد القاهر: "إن في البيان إذا ورد بعد الإبهام، وبعد التحريك له أبدا لطفا ونبلا"(١).

ويتجلى الاهتمام بالموقفية لدى النحاة وعلى رأسهم شيخهم سيبويه.

ينظر سيبويه إلى الحدث اللغوي على أنه عملية اتصال من متكلم وسامع ورسالة وموقف يقع فيه. إن تحليل سيبويه للحدث يقوم على أنه سلوك اجتماعي يقع في سياق محدد، واهتمامه ببيان قصد المتكلم من كلامه مما اختص به منهجه في الكتاب على خلاف ما جرى عليه النحاة المتأخرون بالتغاضي عن هذا الجانب الاجتماعي(٢).

الكلام عند سيبويه عملية ديناميكية تتضمن تفاعلا بين متكلم وسامع تتأثر بالسياق أو الموقف الذي يقع فيه، ومن أمثلة ذلك:

- حين تطلب إلى شخص أن يحضر إليك تقول له: (يا فلان) ولكن يحدث أن هذا الشخص حاضر في الموقف تراه أو تسمعه، في هذه الحالة لست في حاجة إلى ندائه بل تخاطبه مباشرة وتقول له: (أنت تفعلُ) دون (يا فلان) ويفسر سيبويه ذلك بقوله: فعلت ذلك استغناء بإقباله عليك(٣).

- مما يضمر فيه الفعل استغناء بالسياق المرئي، يقول سيبويه: إذا رأيت رجلا متوجها وجهة الحاج قاصدا في هيئة الحاج، فقلت: (مكة وربِّ الكعبة) حيث زكنت أنه يريد مكة، كأنك قلت: (يريد مكة والله)(٤).

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز ص ١٢٦ طبعة رشيد رضا.

(٢) انظر في هذا الموضوع كتابي (كتاب سيبويه: مادته ومنهجه).

(٣) الكتاب ١/ ١٤٤.

(٤) الكتاب ١/ ٣٥٧.

- ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره أن ترى الرجل قد قدم من سفر فتقول: (خيرَ مقدم)، أو يقول الرجل: (رأيت فيما يرى النائم كذا وكذا) فتقول: (خيرا وما سرّ)[1] فلست في حاجة إلى إظهار الفعل، فإن قدوم الرجل أو سماعه أغنيا عن الإظهار.

وكذلك الحال في مؤلفات البلاغيين، فلا يكاد يخلو كتاب منها من حديث عن السياق أو الموقف، ومن أقوالهم الشائعة: (لكل مقام مقال) (البلاغة مراعاة مقتضى الحال). ويقول الجاحظ نقلا عن صحيفة بشر بن المعتمر: "ينبغي على المتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات"[2].

ويجد الباحث كذلك فيما يتصل بالقصدية والتقبيلة مادة وفيرة عند البلاغيين.

يعرف الراغب الأصفهاني البلاغة بقوله: "أن يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له وهو أن يقصد القائل أمرا فيورده على وجه حقيق أن يتقبله المقول له".

وقد استحوذ التناص على مجال واسع من الاهتمام في النقد الأدبي والبلاغة، ومن أهم هذه الدراسات: السرقات الشعرية والاقتباس والتضمين وحل المنظوم.

وقد أصبح موضوع السرقات من أهم مواضيع النقد وجزءا هاما في البلاغة.

والاقتباس من أبواب البلاغة عند العرب وموضوعه ما يستغله الكاتب من نصوص القرآن الكريم والحديث. ويقصدون بالتضمين الأخذ من نصوص الآخرين بوجه.

أما حل المنظوم الذي يقارب مفهوم إعادة الصياغة فهو مما اهتم به ابن الأثير واعتمده في التأليف[3].

---

(١) الكتاب ١/ ٢٧٠.

(٢) البيان والتبيين ص ١/ ١٣٨.

(٣) أبو غزالة (د. إلهام): مدخل إلى علم لغة النص ص ٩.

المراجع

(أ) المراجع العربية والمترجمة

- ابن بارون (إبراهيم إسحاق):

(الموازنة بين اللغة العبرانية واللغة العربية) تحقيق د.أحمد هريدي، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة ١٩٩٩.

- ابن جني (أبو الفتح عثمان):

(الخصائص) تحقيق الشيخ محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢.

- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد):

(الإحكام في أصول الأحكام) بعناية أحمد شاكر، مكتبة الخانجي.

- ابن خلدون (عبد الرحمن):

(المقدمة) طبعة دار الشعب.

- ابن سلام (أبو عبد الله محمد):

(طبقات فحول الشعراء) تحقيق الشيخ محمد محمود شاكر، مطبعة المدني.

- ابن فارس (أبو الحسن أحمد):

(الصاحبي) تحقيق السيد صقر، عيسى البابي الحلبي.

- ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن يعيش):

(شرح المفصل) المطبعة المنيرية.

- أبو غزالة (د.إلهام):

(مدخل إلى علم لغة النص) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩.

- أبو الفرج (د.محمد أحمد):

(مقدمة لدراسة فقه اللغة) دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٦٦.

- الأزهري (الشيخ خالد بن عبد الله):

(شرح التصريح على التوضيح) المطبعة الأزهرية، ط٣، ١٩٢٥.

- الأنباري (أبو البركات):

(نزهة الألباء في طبقات الأدباء) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر.

- أنيس (د.إبرهيم):

(الأصوات اللغوية) ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية.

(اللغة بين القومية والعالمية) دار المعارف بمصر، ١٩٧٠.

- أيوب (د.عبد الرحمن):

(اللغة والتطور) معهد الدراسات العربية ١٩٦٩.

(محاضرات في اللغة) مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٦.

(دراسات نقدية في النحو العربي) مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧.

(التفكير اللغوي عند العرب) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد ٢٤ يناير ١٩٦٩.

- باي (ماريو):

(أسس علم اللغة) ترجمة د.أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس ١٩٧٣.

(لغات البشر) ترجمة د.صلاح المغربي، قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٠.

- بشر (د.كمال):

(علم اللغة العام: الأصوات) دار المعارف، ط٣، ١٩٧٣.

(دراسات في علم اللغة) القسم الثاني، دار المعارف، ط٣، ١٩٧١.

- بن عيسى (د.حنفي):

(محاضرات في علم النفس اللغوي) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٢، ١٩٨٠.

- بيلز (رالف) و(هويجر) هاري:
(مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة) ترجمة د.محمد الجوهري، د.السيد محمد الحسيني، دار نهضة مصر ١٩٧٦.
- الثعالبي (أبو منصور):
(فقه اللغة وسر العربية) تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٢.
- الجرجاني (عبد القاهر):
(دلائل الإعجاز) تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي.
- حسان (د.تمام):
(الأصول) دار الثقافة، الدار البيضاء.
(اللغة بين المعيارية والوصفية) الأنجلو المصرية ١٩٥٥.
(اللغة العربية مبناها ومعناها) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣.
- خرما (د.نايف):
(أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة) عالم المعرفة (٩) الكويت ١٩٧٨.
- الخولي (د.محمد علي):
(أساليب تدريس اللغة العربية) الرياض ١٩٨٢.
(التراكيب الشائعة في اللغة العربية) دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ١٩٨٢.
(قواعد تحويلية للغة العربية) دار المريخ، الرياض ١٩٨١.
- دور كايم (إميل):
(قواعد المنهج في علم الاجتماع) ترجمة د.محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١.
- دي برجراند (روبرت):
(النص والخطاب والإجراء) ترجمة د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة ٢٠٠١.

- الراجحي (د.عبده):

(فقه اللغة في الكتب العربية) دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢.

- زكريا (د.ميشال):

(الألسنية: علم اللغة الحديث: المبادئ والأعلام) المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٣.

(الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية: النظرية الألسنية) المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٢.

(الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية: الجملة البسيطة) المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٦.

زكريا (د.فؤاد):

(التفكير العلمي) عالم المعرفة (٢) الكويت ١٩٧٨.

- الرضي (محمد بن حسين):

(شرح الكافية) مطبعة الشركة الصحافية العثمانية ١٣١٠هـ.

(شرح الشافية) تحقيق محمد نور الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥.

- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان):

(الكتاب) تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٦ - ١٩٧٧.

- السيوطي (جلال الدين):

(المزهر) تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار إحياء الكتب العربية، ط٣.

(همع الهوامع) صححه بدر الدين النعساني، ط١، مكتبة الخانجي ١٣٢٧هـ.

- شاهين (د.عبد الصبور):

(في علم اللغة العام) مطبعة المدني، ط٢، ١٩٧٧.

- شادة:

(علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) صحيفة الجامعة المصرية، السنة الثانية، العدد الخامس، مايو ١٩٣١.

- صالح (د.أحمد زكي):
(التعلم أسسه ونظرياته) مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩.
- صحراوي (د.مسعود):
(التداولية عند العلماء العرب) دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.
- عبد التواب (د.رمضان):
(فصول في فقه اللغة) دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٧٣.
- عبد العزيز (د.محمد حسن):
(مدخل إلى اللغة) دار الفكر العربي.
(علم اللغة الاجتماعي) مكتبة الآداب.
(سوسير رائد علم اللغة الحديث) دار الفكر العربي.
(التخطيط اللغوي بين مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدني) مؤتمر مجمع اللغة العربية، دورة ٧٧.
(الإعلان باللغة الإنجليزية والعامية المصرية) مؤتمر مجمع اللغة العربية، دورة ٧٦.
(المصطلحات اللغوية) مجلة كلية دار العلوم، عدد ٢٦.
(كتاب سيبويه: مادته ومنهجه) دار السلام ٢٠١١.
- عثمان (د.سيد) وأبو حطب (د.فؤاد):
(التفكير دراسات نفسية) مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٧٠.
- عساكر (د.خليل):
(الأطلس اللغوي) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء السابع.
- العقاد (عباس):
(أشتات مجتمعات في اللغة والأدب) دار المعارف، ط٤.
- غالي (د.محمد محمود):
(أئمة النحاة في التاريخ) دار الشروق ١٩٧٦.

- فان دايك (تون أ):

(علم النص) ترجمة د.سعيد حسن بحيري، دار القاهرة ٢٠٠١.

- فخري (ماجد):

(أرسطو) الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٧٧.

- فندريس:

(اللغة) ترجمة عبد الحميد الدواخلي ود.محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠.

- فهمي (د.مصطفى):

(أمراض الكلام) مكتبة النهضة المصرية.

- فيجوتسكي:

(التفكير واللغة) ترجمة د.طلعت منصور، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦.

- فيشر:

(المعجم اللغوي التاريخي) مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٦٧.

- القاسمي (د.علي محمد):

(اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى) جامعة الرياض ١٩٧٥.

(علم اللغة وصناعة المعاجم) مطبوعات جامعة الرياض ١٩٧٥.

- كريستال:

(التعريف بعلم اللغة) ترجمة د.حلمي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.

- كندراتوف (أ):

(الأصوات والإشارات) ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.

- لويس (م.م):

(اللغة في المجتمع) ترجمة د.تمام حسان، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩.

- لوينز (جون):

(نظرية تشومسكي اللغوية) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٥.

- المازني (أبو عثمان):
(التصريف) شرحه ابن جني في كتابه (المنصف) تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، ط١، ١٩٥٤.
- المبارك (محمد):
(فقه اللغة وخصائص العربية) دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٤.
- مختار عمر (د.أحمد):
(دراسة الصوت اللغوي) عالم الكتب ١٩٧٦.
(البحث اللغوي عند العرب) دار المعارف بمصر ١٩٧١.
- مصلوح (د.سعد):
(عن مناهج العمل في الأطالس اللغوية) حوليات دار العلوم، العدد الخامس، ١٩٧٤ - ١٩٧٥.
(الأسلوب) دار البحوث العلمية.
- مونين (جورج):
(تاريخ علم اللغة) ترجمة د.بدر الدين القاسم، دمشق ١٩٧٢.
- نحلة (د.محمود):
(آفاق جديدة في البحث اللغوي) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٦.
- النجار (محمد علي):
(الأخطاء اللغوية الشائعة) ج١، معهد الدراسات العربية بالقاهرة.
- وافي (د.علي عبد الرحمن):
(فقه اللغة) دار نهضة مصر، ط٨.
(علم اللغة) دار نهضة مصر، ط٧.

(ب) المراجع الأجنبية

- C.L. Barber, The story of Language, ELBS edition, 1975.
- L. Bloomfield, Language, Holt, Rinehart and Winston, 1961.
- D. Bolinger, Aspects of Language, Harcourt Brace Jovaovich Inco, 1975.
- Crystal, Linguistics, penguin Books, 1968.
- F.P. Dinneen, An Introduction to general Linguistics, Holt, Rinehar and Winston, New York, 1971.
- V. Fromkin and R.Rodman, An Introduction to Language, second edition, holt, Rinehar and Winston, 1961.
- H.A.Gleason, An Introduction to descriptive Linguistics, holt, Rinehar and Winston, 1961.
- Halliday, Mc Intoch and Strevens, The Linguistics sciences and Linguistics, London 1973.
- R.R.K. Hartmann and F.C. Stork, Dictionary of Language and Linguistics, London 1973.
- R.A. Hudson, Socio Linguistics, Cambridge press, London 1980.
- J.Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics, Cambridge press, London 1975.
- Mackey, Appliep Linguistics.
- R.H,Robins, General Linguistics, An Introductory Survey, Third Impression, London 1960.
- ,, ,, A Short history of language, London 1967.
- D.A.Wilkins, Linguistics in language Teaching ELBS edition, 19.

الفهرس

الفهرس

Inv:172

Date:27/4/2014

من إصدارات مكتبة الآداب

